دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى
بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط - المغرب



الثمن 100 فرنك

عدد ممتاز

العدد العاشر - السنة الثانية
[illegible] ١٩٥٩ - محرم ١٣٧٩

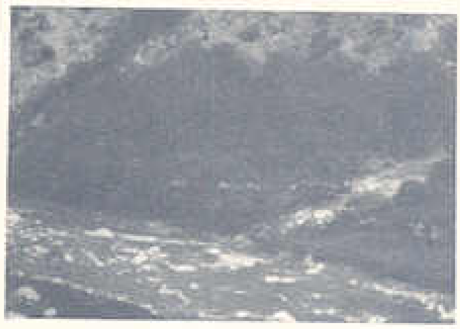
العدد العاشر
السنة الثانية
يوليوز 1959
محرم 1379

دعوة الحق

مدير المجلة
المكي بادو
رئيس التحرير
عبد القادر الصحراوي

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



منظر من قرية « أوريكــــة »
وهي عبارة عن مجموعة مداشــر وقرى على الضفة اليسرى لوادي اغمات في سفح الاطلس الكبير على ارتفاع 925 م ، تحيط بها الجنان والبساتين والعيون الدافقة ، وتعد من اهم مراكز الاصطياف بجنوب المغرب ، وعلى مقربة منها توجــد مدينة اغمات التاريخية .

عــن كتــاب
« المغرب » للاستاذ الصديق
ابن العربي   تصوير : دعوة الحق

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنــوان التالــي :
مجلة «دعوة الحق» ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغــرب .

الاشتراك العادي عن سنة 1.000 فرنك ، والشرفي 2.000 فرنك فــاكثــر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
« دعــوة الحــق » الحوالة البريدية رقم 55 ـ 485 ـ الربـاط ـ
DAOUAT AL HAK compte chèque postal 485-55 à RABAT
او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة : «دعــوة الحــق» ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغــرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنيــة والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خــاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر .

المجلة مستعدة لنشــر الاعلانات الثقافيــة .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الــى :
« دعوة الحق » قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ الرباط

كلمة العدد



عزيزي القارىء الكريم .

هذه سنة اخرى تطويها معا من عمر هذه المجلة الذي لا شك اطلاقا فى انك ترجو معنا من اعماق قلبك ان يكون عمرا مديدا وحافلا بالخيرات والبركات

اما من جهتنا نحن ؛ فنستطيع ان نؤكد لك اننا لم ندخر جهدا من اجل فائدتك ، ولم نبخل بوقت او سعي او سهر او عمل متواصل آناء الليل واطراف النهار .

واذا كنت لا تزال تلاحظ اننا لم نبلغ بعد الهدف الذي نسعى اليه معا ، فنحن لا ندعي الكمال ، ونحن نعلم اننا لم نقطع من الشوط الا قليلا ، وان الطريق امامنا لا يزال طويلا جدا . ومع ذلك فان التفاتة الى الوراء خليقة بان ترينا معا ـ نحن وانت ـ ان هذا المشروع الذي بدأ متواضعا ، قد اخذ منذ يومه الاول يشق طريقه فى ايمان وثبات وعزم ، وانه قد اخذ منذ يومه الاول ايضا يسعى فى مدارج التقدم والرقي .
وهذا العدد الذي بين يديك ؛ بمقارنته بالاعداد الاولى من هذه المجلة قد يستطيع ان يقوم دليلا لديك على صحة هذا الكلام .

وانت ايضا من طرفك لم تبخل علينا بالتشجيع؛ لا نقصد التشجيع المادي فقط ، وان كان مظهرا عمليا صحيحا لمقدار عنايتك بهذه المجلة واقبالك عليها ، وانما نقصد ـ فى الدرجة الاولى ـ تشجيعك المعنوي ؛ فقد داب البريد على ان يحمل الينا فى كل يوم رسائلك التي تنوه فيها بمجلتك ، وتعلن عن تحمسك لها ، وفرحتك لكل تقدم يطرأ عليها ، وملاحظاتك التي تبديها عليها .

ولعلك ترى اننا نعمل باستمرار على الاستفادة من ملاحظاتك هذه ، واننا نعمل دائما ـ فى حدود الامكان ـ على تنفيذ اقتراحاتك . ذلك لاننا لا نريد ان نعتبرك ـ كما لا تريد انت ان تعتبر نفسك ـ مجرد قارىء سلبي ، مجرد جهاز للالتقاط، وانما انت ـ عندنا وعندك ايضا ـ عضو عامل فى اسرة كبيرة ـ هي اسرة هذه المجلة ـ يوجد كثير من افرادها داخل حدود ارض الوطن، ويوجد بعضهم خارج هذه الحدود فى الوطن العربي والاسلامي الكبير ، وفى اوربا الغربية ، وامريكا ، والاتحاد السوفياتي ، وفى جنوب افريقيا ، وفى كل مكان يوجد فيه من يقرا العربية ، او يدين بالاسلام ، او يهتم بالدراسات الاسلامية والتيارات الفكرية المختلفة .

التحليق فى الجو ، واخترع السفينة ليعجز بها السمك فى الساحة ، واخترع آلات الحرب ليهزم بها الوحوش فى الضراوة والقتال واقتنى لنفسه انواعا متنوعة من اسباب الرغد والترف والتنعم ليقضي بها حياته بلذة لا قبل بها للحيوان ، ولكن قل لي بالله هل هو ترقى من درجة الحيوانية على كل هذه الرقيات التي احرزها؟ انه لا ياتي بتصرف فى العالم المادي بعقله وعلمه الا تحت قوانين الفطرة ، تلك القوانين نفسها التي ياتي الحيوان تحتها بمثل هذه التصرفات على نطاق محدود بدون ان يكون عنده العقل او العلم ، فكانه لم يترق على كل ما عنده من العقل والعلم من درجة العبودية الحيوانية التي عليها الحيوان ، وكل ما حدث من الفرق بينه وبين الحيوان هو ان الحيوان اذ كان ياتي بعبودية دنيا ، كان ينال رزقه من النوع الادنى ، اما هو فقد اتى بعقله وعلمه بعبودية عليا ، فنال رزقه من النوع الاعلى . كان الحيوان يعيش على العشب ، اما هو فقد نال الزبدة والكعك . كان الحيوان يستدفىء بما ينبت على بدنه من الصوف والوبر ، اما هو فقد جعل يستدفىء بالثياب الفاخرة الجميلة . كان الحيوان يعيش فى عشه ، اما هو فقد نال قصورا شاهقة ذات حدائق غناءة رنانة . الا ان الذي يجب التساؤل عنه هو : ما هو الرقي الذي احرزه هذا الانسان باستعانته ما كان اوتي من وسيلة الرقي ــ العقل والعلم ؟ كان معنى الرقي بالنسبة له ان يعبد باختياره وشعوره من يعبده بدون اختيار منه ولا شعور ، ويسجد باختياره وشعوره لمن يسجد له بدون اختيار منه ولا شعور ويطيع باختياره وشعوره قانون شريعة من يطيع قانون فطرته بدون اختيار منه ولا شعور . انه لو احرز الرقى من هذه الجهة ، لنال الشرف والفضيلة على سائر الحيوانات والموجودات فى العالم ونال بالفعل تلك الخلافة التي اودع لها الاستعداد والكفاءة فى نفسه وعبد خالقه واطاعه واستحق الاجر اكثر من كل شيء فى السماوات والارض ، ولكنه اذ لم يترق من هذه الجهة وتردى فى الهوة السحيقة من الانحطاط لاستعانته بآلة الرقي على وجه غير صحيح ، فقد ارتد اسفل سافلين واستحق العذاب بحماقة نفسه (1) . والى هذه الحقيقة قد اشير فى سورة التين حيث قيل : لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون » ــ اجمال يشير الى التفاصيل التي بيناها فى هذه الصفحات. والمراد باحسن تقويم القوة والكفاءة للرقي والازدهار ، التي اوتيها الانسان اكثر من اي موجود فى هذا الكون . الا ان ليس كون الانسان على احسن تقويم هو الرقي فى حد ذاته ، بل الذي عليه مدار رقيه هو ان يستعين بهذه القوة والكفاءة فيعرف ربه ــ وذلك هو المعبر عن مرتبته النهائية بالايمان ــ ولا يقضي حياته فى الدنيا الا حسب حكمه الشرعي ، وذلك هو المعبر عنه بالعمل الصالح .

اما من لم يحرز الرقي من هذه الجهة ، فقد نزل الى ادنى درجة من الانحطاط والتردى وأما من احرزه فله اجر غير ممنون اي اجر متصل يجري من هذه الدنيا الى الحياة الآخرة بدون انقطاع ولا نهاية .

اما الاجر الذي يناله الانسان مكافاة على عبوديته الاجبارية ، فهو اجر منقطع محدود الى الحياة الدنيا فقط ، لان هذه الحياة لا تمتد على كل حال الا الى اجل مسمى .

واما الاجر الذي يناله الانسان مكافاة على عبادته الاختيارية ، فهو نعمة لا خلل فيها ورزق لا خوف عليه للانقطاع والنفاد .

المفهوم الكامل للعبادة :

وهنا قد انتهى بنا البحث الى حيث يسهل علينا ان نعرف للعبادة مفهومها الكامل الصحيح :

قد عرفت مما بينا سابقا ان كلمة العبادة يكتمل مفهومها باتحاد جزئين معنويين : احدهما العبودية اي الطاعة لقانون الفطرة ، وثانيهما الخضوع والاذعان ، وهو ايضا يحتاج لاكتماله الى امرين :

1) ان يعرف الانسان معبوده الحقيقي معرفة خالصة لا تشوبها ادنى شائبة للشرك او الكفر او الانكار او الريب والشك ، ولا يخاف احدا غيره ولا يطمع فى انعامه ولا يتوكل على قوته ، ولا ينسب اليه الالوهية او الربوبية ولا يرجو فى نفعه او ضرره ، ولا يتعلق به علاقة العبد بمعبوده ــ فهذا هو « الايمان » .

---

1) هذه مسالة من المسائل المهمة قد عثرت فيها عقول كثير من الناس اذ جعلوا القانون الطبيعي او الحكم التكويني هي العبادة بكل ما للكلمة من معنى وظنوا ان كل من ــ فردا كان او طائفة ــ ادى حق هذه العبادة فهو العابد وهو الصالح المستحق لكل ما ورد فى القرآن الكريم من المواعيد بحق الصالحين . الا ان الحقيقة ــ كما قلنا فوق ــ ان ليست العبادة المطلوبة من الانسان هي طاعة الحكم التكويني فحسب ، بل هي طاعة الحكم الشرعي ايضا .

وان لك لاخوانا فى كل هذه البلاد التي ذكرنـا يشاركونك تحمسك لهذه المجلة واهتمامك بها وحرصك على استمرارها فى تأدية رسالتها الروحية والفكرية ، يشهد بذلك ما يحمله الينا البريد من كل هذه البلاد فى كل يوم ، من وسائل التنويه والتشجيع والمطالبة بالزيادة فى كمية النسخ المرسلة ، ولو اننا عمدنا الى نشر هذه الرسائل التي يصل الينـا بعضها مـن شخصيات يحسب لرايها حساب كبير ، لكان ذلـك خليقا بان يدخل السرور على نفسـك ، ولكننـا فى الحقيقة نفضـل ان نستفيد من هذه الرسائل علـى ان نتخذ منهـا فرصة للاعـلان .

لقد كنا معا نشكو مر الشكوى من تدهور الحركة الفكرية فى بلادنا ، ومن قلة الاقبال على الكتابة مـن القادرين على الكتابة ، وقلة الاقبال على القراءة مـن القادرين على القراءة ! ولسنا نستطيع الآن ان نزعم ان بواعث هذه الشكوى قد اختفت ، ولكننا نستطيع ان نلاحظ بارتياح اننا قد ساهمنا مساهمة عمليـة مفيدة ـ الى جانب الجرائد والمجلات الاخرى التـي تصدر بالمغرب ـ فى التخفيف ، ولو شيئا ما ، من حدة هذه البواعث وقسوتها وضراوتها .

ان عدد القـراء يـزداد باستمـرار ، وعـدد الكتاب ايضا يزداد باستمرار ، وان مما يحق لهـذه المجلة ان تفخر به انهـا استطاعت ان تكتشـف لـك كتابا جددا لم تعرفهم من قبل فى غيرها ، وان تحمل كتابا آخرين معروفين لديك على العودة الى الميدان مرة اخرى بعد ان كانوا قد غـادروه ، واغرقـوا فى الصمت ، وتخلوا عن واجبهم نحوك لسبب او لآخر ، وما اكثر ما هذه الاسباب ، وقد يكون من بينها احيانا الشكوى منك انت نفسك ، اما لانك لا تهتم كثيـرا بان تقرا ، واما لانك لا تعمل على ان تشعرهم بـان فى نفسك صدى لما يكتبون !!

وانت يا عزيزي القارىء تعلم جيد العلم ، انـه ليس اقتل للكاتب او الشاعر او الفنان ، من ان يشعر انه وحده ، وانه يصيح فى واد ، وان الناس فى شغل شاغل عن علمه او شعره او فنه .

وهكذا يبدو لك بوضوح ان دورك ـ كقارىء ـ فى بعث الحركة الفكرية والادبية والفنية فى بلادك ليس بالدور البسيط ، وانك مسؤول الى حـد كبير عـن مدى تخلف هذه الحركة او ازدهارها ، وعن مدى تقدمها او تاخرها ، وانك تستطيع اذا شئت ان تنفخ الروح فى الكتاب الذين داخلهم اليأس ، وان تستنزل المعتصمين منهم بابراجهم العاجية ، وان ترغمهم على النزول الى ارض الناس ليستمعوا منك ويتحدثوا اليك! وما عليك لكي تفعل كل ذلك الا ان تشعرهم انـك تقرا لهم وتتجاوب معهم ، وتقبل بعض ما يكتبـون اليك وترفض بعضه الآخر ، وترضى عـن بعـض انتاجهم ولا ترضى كل الرضى عن بعضه .

وتأكد ان هذه هي العصا السحرية التي تستطيع ان تحركها ليتضاعف انتاج الكتاب والشعراء والفنانين فى بلادك ، وليزداد عددهـم ، ولتمضي الحركـة فى طريقها نحو التقدم والازدهـار .

هذا هو دورك انت ، اما دور هؤلاء الكتـاب والشعراء والفنانين فليس من موضوع هذا الحديث وقد تناولناه بالكلام فى عدة احاديث اخرى سابقة فى هذا الركـن بالذات .

*

عزيزي القارىء الكريم .

لا نريد ان نطيل عليك فى هذه المرة ، فنحن لـم نقصد من هذا الحديث اكثر مـن ان نودعـك ، وان نتواعد معك على اللقاء مرة اخرى فى العدد الاول مـن سنتنا الثالثة فى فاتح اكتوبر المقبل ، وحتى هذا الموعد نرجو الا تقطع الصلة بيننا وبينك ، وان تكتب الينـا بكل آرائك وتوجيهاتك وملاحظاتك .

ونتركك الآن لهذا العدد الضخم الكبير ، داعين لك بالعون والتوفيق ، والسلام عليك .

دعوة الحق

تصور العبادة في الاسلام

للسيد أبي الأعلى المودودي
أمير الجماعة الاسلامية بباكستان
تعريب محمد عاصم الحداد

ان تصور العبادة اول واهم تصورات الانسان الدينية ، بل هو تصور الدين الاساسي ، ومن ثم لم يوجد فى النوع البشري دين – سواء أكان اوهاما للامم البدائية او عقائد للامم المتمدنة المتحضرة – بعد خاليا من تصور العبادة وفكرتها . وكل ما قد اكتشفه الانسان حتى الآن فى صدد علم الانسان والبحث عن الآثار القديمة من حالات الامم الحاملة لاقدم الحضارات ، يشهد شهادة ناطقة بأن هذه الامم ، مهما كانت واغلة فى القدم متردية فى احط منازل العقل والفكر والشعور ، بذلت ما وسعها من الجهد فى البحث لنفسها عن اله وانتهاج طريق ما لعبادته (1) . بل لا حاجة الى التعرض لحالات الامم الماضية ، اذ توجد اليوم فى كثير من انحاء الارض امم لا تزال على مستوى الامم القديمة باعتبار عقلها وفكرها ، اوقل بكلمة اخرى انها لا تزال تمثل فى حياتها العصر الابتدائي للنوع البشري . فقلما وجدت من بين هذه الامم امة تعد خالية كل الخلو من تصور العبادة والمعبود (2) ؛ مما يدل دلالة واضحة على ان كل ما اجتازه الانسان من الادوار والتطورات فى تاريخه مد اقدم الهمجية الى احدث المدنية ، ما زال تصور العبادة ملازما له فيه ولو على صور مختلفة ومظاهر متنوعة عديدة .

العبادة عاطفة فطرية :

لماذا كل هذا ؟ ولماذا بقي ولا يزال هذا التصور مطبقا لفكرة الانسان فى كل عصر من عصور تاريخه على تقلب الاحوال واختلاف الاماكن والازمان ؟ افترى الانسان تبناه على ارادة منه ؟ الجواب : كلا ، لانه لو كان الامر كذلك ، لما ساد هذا التصور ابناء البشر على مثل هذا الوجه ، اذ من المستحيل عقلا ان ينعقد الاتفاق بينهم على شيء ما اوجده الا الاختراع والارادة وتشترك فيه الجماعات الانسانية كلها على صفة واحدة فى كل دور من ادوار تاريخها ، كما انه لا يكاد يتصور البتة ان يكون الناس فى كل زمن عقدوا مؤتمرا عالميا ليتفقوا فيه على العبادة مهما كانت آلهتهم مختلفة وطرقهم لعبادتها متنوعة .

واذا تقرر هذا ، فلا بد من الاعتراف بأن العبادة عاطفة قد سيطت من دم ابن آدم من لدن فطرته (3) فكما ان الانسان يمسه الجوع بسائق فطرته فيتلمس

---

1) بل الذي تدل عليه احدث الاكتشافات بصدد علم الانسان ان الامم الحاملة لاقدم الحضارات الانسانية الاولى كانت على عقيدة التوحيد وكانت بريئة كل البراءة من آثار الشرك ومراسيمه (راجع كتاب « علم الانسان » للدكتور بيرن امررالف ايهرن فلس) وهذا مما يصدق القرآن اكمل تصديق فى دعواه ان التوحيد هو دين الانسان الاول ولم يظهر الشرك الا فى ما بعد ، وقد قلب هذا الاكتشاف نظرية فلسفة الدين فى القرن التاسع عشر .

2) راجع الكتاب المذكور .

3) ولقائل ان يقول فى هذا المقام معترضا ان الدنيا وجد فيها فى كل زمان عدد كبير من بني آدم افرادا وجماعات لا يتدينون بدين ولا يعبدون احدا باعتقادهم ولا اعمالهم . فالجواب على هذا انه كما لا يدل وجود عدد كبير من الخنالي فى الدنيا على كون تجاذب الرجل والمراة عاطفة فطرية ، وانه كما لا يدل على وجود الرهبان فى الدنيا على ان ليس الزواج بعاطفة فطرية ، فكذلك لا يدل وجود افراد وجماعات ميتة او منطفئة فيهم عاطفة العبادة لاسباب مخصوصة على صدق دعوى ان ليست العبادة بعاطفة فطرية فى الانسان .

لقتله الغذاء ، وكما انه يشعر بالبرد والحرارة على مطالبة من فطرته ، فيتلمس لاتقائهما الظل واللباس وكما انه ينشأ فيه الطموح الى اداء ما في الافكار والخيالات ، فياتي بالالفاظ والاشارات لقضائها ، فهكذا ان عاطفة العبادة تنشأ فيه من جهة الفطرة لقضائها الها ثم يعبده .

غير اننا كما نرى فى قضية الشعور بالجوع والبرد والحرارة وامنية اداء ذات النفس ، ان اثر الفطرة لا يعمل الا الى حد داعية (Motive) تدعو الانسان الى تلمس الغذاء واللباس والظل والالفاظ والاشارات وترغم من اعضاء جسده ما يتعلق بهذه الامور على الحركة وانه الى هذا الحد فقط يوجد الاشتراك فى بني آدم اذ يضعف وراء هذا الحد اثر الفطرة ويقوي مكانه اختيار الانسان نفسه وانه من هناك يبدأ كثير من الاختلافات التي توجد بين مختلف امم الارض فى كل زمان فى الغذاء واللباس والالفاظ من جهة صورها واشكالها ، فكذلك – تقريبا – فان عاطفة العبادة ترفع يدها عن الانسان وتخلي سبيله بعد ما تحمله الى العبادة وتنشيء فى نفسه رغبة فيها وحاجة اليها . اما من يختاره بعد ذلك الها لنفسه ويعبده... فهذا ما لا يقضي فيه الا برايه حسب ما تسعفه به قوة انتخابه واختياره ، ولا يبدأ الا عند هذا الحد للاختيار والانتخاب ، ذلك الاختلاف في تعدد الآلهة وطرق عبادتها ، الذي يتراءى فى كل شيء يختارة الانسان بقصده وارادته . صحيح ان هداية الفطرة لا تخلي سبيل الانسان بكل معنى الكلمة حتى ولا في هذه المرحلة ، كما انها لا تخلي سبيله كل التخلية فى سائر المطالب الفطرية كالغذاء واللباس مثلا ، ولكن لا تكون هذه الهداية الا خفيفة جدا حيث ان الانسان ليحتاج لادراكها الى شعور بالغ النهاية فى الدقة والارهاف ، وهو شيء لا يكون الا عند قليل من الناس

فتعال نتبين الآن : ما هي انطلاق هذه الداعية واين مركز الجاذبية التي تدفع الانسان الى العبادة دفعا وما هي القوى التي تحفزه على ان يلتمس لنفسه الها ثم يعبده ، وما هي الهداية التي يتلقاها من جهة الفطرة فى صدد هذا الالتماس ؟ والذي ارى اننا اذا اردنا ذلك ، فلابد ان نتفكر قبل كل شيء فى حقيقة كلمة « العبادة » لانه من المستحيل بدونه ان نجد جوابا مقنعا على هذه الاسئلة ؟

حقيقة العبادة :

ان تصور العبادة فى حقيقته تصور شامل يكتمل بامتزاج تصورين ضمنيين هما :

(1) العبودية و (2) الخضوع والتذلل .

اما العبودية فمعناها ان يعترف الانسان بكبرياء قوة عليا فوقه ثم يطيعها . واما الخضوع والتذلل فمعناهما ان يعتقد الانسان فى هذه القوة العليا قداسة وعظمة ثم يطاطيء لها راسه ويؤدي لها مراسيم التذلل والسجود والاذعان .

فالاول هو تصور العبادة البدائي الاساسي ، والثاني هو تصورها النهائي المكتمل ، فاذا كان الاول بمنزلة الاساس ، كان الثاني بمنزلة البناء فوقه .

وها نحن اولا نتناول التصورين بالبحث على حدة على حدة :

من الظاهر ان الانسان حين ياتي بالعبودية (او الطاعة) ، فانما ياتي بها لقوة يكون لها القهر والغلبة والاستيلاء على نفسه وهو لا يجد لنفسه من قبل بعصيانها والخروج عن سلطاتها . والصورة المحدودة المصغرة لهذه العبودية ما نراه بين السيد وخادمه ، الا ان اوضح مثال على هذه العبودية على نطاقها الواسع المتكامل ، تلك الطاعة التي ياتي بها المواطنون لحكومة بلادهم . ما الحكومة بشيء ياتي تحت الحس او المشاهدة ، وانما هي التقيد بنظام اجتماعي يسيطر بغلبته على ملايين من افراد البشر ولكن تراهم يتبعون قوانينها طائعين ومكرهين اين ما كانوا فى بيوتهم او اسواقهم او مزارعهم او مدنهم او قراهم او فى طرق بعيدة حيث لا شيء ينفذ فيهم ارادتها بالقوة ، بل اذا خالف احدهم قوانينها فى داخل حدود سلطتها ونفوذها ، لقي العقاب واذا خرج عليها وابى ان يعترف لها بالسيادة ، سلب كل ماله من الحقوق كفرد من افراد رعاياها . ومعنى هذا ان كل من يسكن فى حدود دولة من الدول فانه يطيع حكومة تلك الدولة ويتبع احكامها ، كان لنا ، اذا استعملنا الاصطلاح الديني مكان هذه الالفاظ ، ان نقول انه « يعبد » تلك الحكومة .

وسع هذا التصور وانظر فى الكون نظرة شاملة تر ان ليس فيه من شيء – من اصغر ذرة للرمل فى الارض الى اكبر سيارة فى السماء – الا وهو مسخر تحت نظام مهيمن لا قبل له بالحراك عنه ومستسلم لقانونه الشامل طوعا وكرها حيث اذا خالفه وابى له الانقياد ، فسد وفنى . فهذا القانون الذي ترى كل شيء فى السماوات والارض – من الانسان والحيوان والشجر والحجر والماء والهواء وما اليها من الاجسام

فى الارض والاجرام فى السماء ـ مسخرا له على صورة واحدة مطردة ، هو المعروف فى لغتنا الانسانية بقانون الفطرة او الطبيعة . انه لا يقوم شيء فى هذا النظام الا بما جعل اليه من الاعمال ، فلا تهب الرياح ولا ينزل المطر ولا يسيل الماء ولا تتحرك النجوم الا تحت قانون الفطرة او الطبيعة هذا ، وان ما نعرفه بالحياة او البقاء او الصلاح ، ان هو فى حقيقته الا نتيجة لطاعة هذا القانون ، وان ما نعرفه بالموت او الفناء او الفساد ، ان هو فى حقيقته الا نتيجة لمخالفة هذا القانون ، كان لنا ان نقول ـ بكلمات اخرى ـ ان كل ما هو حي او باق فى هذا الكون ، انما هو كذلك لانه يطيع هذا القانون .

ولكننا كما نرى فى مثال الحكومة ان ليست طاعة القانون فى حقيقتها الا طاعة الحكومة التي تقوم بتنفيذه بغلبتها واستيلائها ، وانه لابد لاقامة نظام الحكومة وادارة شؤونها من حاكم مقتدر مطاع مركزي ، فكذلك ليست طاعة قانون الفطرة فى حقيقتها الا طاعة الحكومة القاهرة التي وضعت هذا القانون وتقوم بتنفيذه بقوتها ، وهذه الحكومة بيد حاكم قوي مقتدر لا قبل للقانون ان يسير فى طريقه لطرفة عين الا حسب مشيئته واحكامه . فنحن اذا بدلنا كلمة « الطاعة » القانونية بمصطلح « العبادة » الفقهي ووضعنا كلمة « الله » مكان كلمة الحاكم « الحاكم القوي المقتدر فى هذا المقام ، يجوز ان نقول ان هذا الكون وكل ما فيه من شيء انما يعبد الله تعالى لان فى عبادته اياه ينحصر بقاؤه وحياته ، وانه اذا غفل عنها ولو للمح من البصر ، لا يستطيع البقاء والحياة .

فهذه الطاعة ـ او العبودية ـ هي التي عبر عنها فى القرآن الكريم بالعبادة تارة وبالصلاة والتسبيح والتقديس اخرى وبالسجود ثالثة والقنوت رابعة ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » وقوله : « وله من فى السماوات ومن فى الارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون » وقوله : « يسبح لله ما فى السماوات وما فى الارض الملك القدوس العزيز الحكيم » وقوله : « الم تر ان الله يسبح له من فى السماوات والارض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » وقوله : « تسبح له السماوات والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وقوله : « وله من فى السماوات والارض كل له قانتون» وقوله : « والشمس والقمربحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » وقوله : « اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » وقوله : « ولله يسجد من فى السماوات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال .

ان هذه العبادة والصلاة والحمد والسجود والتسبيح والقنوت مهيمن على كل شيء فى الكون حيا كان او غير حي ، شاعرا كان او غير شاعر ، والانسان نفسه مرغم عليه دون ان يختلف فيه عن ذرة الرمل او قطرة من الماء ، لانه ـ سواء اكان يعتقد بالله اولا يعتقد به ، اولا وسواء يسجد له او للحجر ، ويعبده او غيره ـ اذا كان يتبع قانون الفطرة ولا يحي ولا يموت الا بحكمه ، فانه يعبد الله طوعا او كرها ، على شعور منه او عن عدم شعور ، على قصد منه او على غير قصد . انه لا يسجد الا لله ولا يسبح الا بحمده وما من شيء من اعماله ـ من القيام والقعود والنوم واليقظة والاكل والشرب ـ الا هو عبارة عن عبادته لله ولو كان هو باختياره يسجد لغيره ويطيعه بقلبه ويده ولسانه ، لان كل جارحة من جوارح جسده لا تشتغل الا بعبادة الله الذي خلقها ولا يدور الدم فى عروق جسده الا لعبادة الله ولا يتحرك قلبه الا لعبادة الله ، حتى ان لسانه الذي يكرهه على انكار الله والثناء على غيره ، لا يتحرك فى الحقيقة الا لعبادة الله ليس غير .

جزاء العبودية :

فما جزاء هذه العبادة واجرها من عند الله تعالى ؟ انه نعمة الوجود والبقاء والحياة والرزق . فكل شيء يعبد الله باتباع قانون فطرته ، يحيى وينال وسيلة البقاء المعبر عنها « بالرزق » ، وكل شيء لا يعبده بالاعراض عن اتباع قانون فطرته يفسد وينقطع عنه الرزق ويحرم نعمة البقاء والحياة . لا شيء فى الكون الا وهو يعامل على هذا الوجه ولا فرق فى ذلك بين الشجر والحجر والانسان والحيوان والكافر والمؤمن . يقول عز من قائل : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها» ويقول: « يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الارض . لا اله الا هو فانى تؤفكون » ويقول : « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقال : « امن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من

السماء والارض األه مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . ويقول : او لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن . ما يمسكهن الا الرحمان ، انه بكل شيء بصير ، امن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ، ان الكافرون الا في غرور . امن هذا الذي يرزقكم ان امسك رزقه، بل لجوا في عتو ونفور».

واضح من هذا ان الانسان كما يساوي غيره من الموجودات في هذا الكون في عبادة الله يساويها في الاجر والجزاء ايضا . وكل ما هناك من الفرق بينه وبين هذه الموجودات في صور الجزاء ، فانما اساسه على الفرق بين حاجات الانسان وحاجات هذه الموجودات، بحيث اذا صرفنا النظر عن صور الجزاء ونظرنا الى الحقيقة مجردة ناصعة ، علمنا ان الله سبحانه وتعالى كما يحفظ كل شجرة او دابة او طائر او قطعة من العشب ويهيء لها الرزق واسباب البقاء على قدر حاجتها وصلاحها لقبول الجزاء ، كذلك يحفظ الانسان ويهيىء له الرزق واسباب البقاء على قدر حاجته وصلاحه لقبول الجزاء ، وان كل ما للانسان من الفضل على غيره ، انما هو على اعتبار صورة الجزاء لا على اعتبار حقيقة الجزاء وان صور الجزاء هذه موافقة كل الموافقة لطبيعة كل شيء وحاجته . فما انعم على الفار مثلا الا بما هو موافق لفطرته وحاجته ، حتى ان ليست كل صورة اخرى غير هذه الصورة قد تحسبها نعمة الله لهذا الفار ، الا مصيبة بحقه . وكل ما يشعر به انعم رجل من اللذة والراحة والفرح بافتراش الازهار ، يشعر به عينه كل طائر بافتراش التبن ، فمهما يفتخر به فرش الازهار على عش التبن ، فالحقيقة ان صاحب العش قد قضيت له حاجته حسب صلاحه للقبول ، كما قضيت لصاحب الفراش حاجته حسب صلاحه للقبول . فنحن اذا رأينا من هذه الوجهة فان الطائر في عشه والانسان في فراشه لا فرق بينهما من حيث نعمة الله عليهما : وهكذا لا فرق البتة في هذه القضية بين الكافر والشاكر والمؤمن والمشرك ، لان الله ينعم بنعمة الخلق والرزق على الذين ينكرونه ويابون السجود له او يشركون به غيره ويجعلون له اندادا من الاحياء والاموات ، كما ينعم بها على الذين يؤمنون به ويسجدون له ويوحدونه ولا يشركون به غيره ، بل الكافر اذا فاق المومن في طاعة قانون الفطرة ــ العبادة الفطرية بكلمات اخرى ــ ينال جزاء باحسن مما يناله المومن ولو كان جزاؤه لا يعدو في حقيقته ان يكون متاع الغرور .

لماذا تنشا عاطفة العبادة ؟

ومن هنا قد سهل علينا ان نحل هذا السؤال : لماذا تنشأ في الانسان عاطفة العبادة من لدن فطرته ولماذا يبحث لنفسه عن الاله ثم يعبده ؟ الجواب انه لما كان الكون وكل شيء فيه لا يعبد الا حاكما قاهرا وكانت كل جارحة من جوارح جسد الانسان متفرغة لعبادة هذا الحاكم القاهر وله وحده يسجد كل عنصر من العناصر المتركب منها جسد الانسان ولم تركب هذه العناصر في جسده الا باذنه ، بل لا يتوقف وجود الانسان وبقاؤه وحياته في كل لحظة من لحظاته الا على عبوديته ، لما كان الامر كذلك فقد دخلت العبودية في طبيعة الانسان وسيطت من دمه اراد ذلك او لم يرده . وهو وان كان لا يرى معبوده اي حاكمه المطاع، ولا يتمثل لديه عمال حكومته كما يتمثل للناس عمال حكوماتهم الدنيوية ، الا ان عاطفة عميقة الى التواضع والخضوع تنشأ فيه على غير قصد منه ، فيجد قلبه يبحث عن معبود لنفسه ليسبح بحمده ويقدم اليه قرابين العبودية والتذلل والخضوع ويستعينه في حاجاته ويتضرع اليه في ما يصيبه به الدهر من الالام والمصائب . ذلك لانه لم يولد الا على عبوديته وطاعته ولا ينفك فيهما في كل لحظات حياته وقد احاطت به وبكل ما حوله من شيء في هذا الكون حكومته .

فهذه هي الغريزة التي ما زالت تجبر الانسان منذ بدء الخليقة على ان يبحث لنفسه عن اله ويطاطىء له راسه ، وعلى مقتضى من هذه الغريزة من داخله قد اختار في كل زمان ومكان صورة لعبادته ، وهذا هو العنصر الذي ظهر منه الدين .

هداية الفطرة للانسان بصدد بحثه عن الاله لنفسه :

ولكن الواقع ــ كما قلنا قبل ــ ان الفطرة تنفض يدها عن الانسان وتخلي سبيله في كل شان من شؤونه بعد ما تنشيء فيه امنية بسيطة ونزوعا مجردا حتى يقوم بنفسه بالبحث عن مطلوبه ، او قل بكلمة اخرى ان الفطرة تداعب الانسان وتمتحن عقله : تشوقه الى شيء لا يعرفه وتحرضه على بلوغه ثم تتوارى عن نظره لتتركه يعمل حواسه ويضرب زند عقله فيتبين ما الذي تنجذب اليه نفسه وتتطلبه طبيعته وما هو الطريق لوصوله اليه ؟

ففي هذا المقام واجهت الانسان المشاكل، فاخترع لنفسه ـ حسب كفاءته العقلية وقوة فكره وتمييزه وصلاحية ذوق وجدانه ـ طرقا عديدة نشاهدها اليوم في اشكال تمدنه وحضارته . لاشك ان الفطرة لا تفارق الانسان ولا تخلي سبيله بكل معنى الكلمة في صدد هذا البحث والانتخاب والاختيار كما قلنا قبل ، الا ان الحقيقة في الوقت ذاته انها لا تاخذ بيده مثل ما تاخذ بيد الحيوان عند كل خطوة من خطواته ، وانما تهديه الى مطلوبه باشارات لطيفة وتنور له الطرق الموصل اليه بضوء خافت لا يدركه اصحاب العقل العادي والبصيرة غير النافذة ، ومن ثم قد فشل مرارا اختيار الانسان وقوة تمييزه في البحث عن الطريق المستقيم وتفرقت به عن سبيله الطرق المعوجة الخاطئة . ما كان مقصود الفطرة ، على سبيل المثال باشائها النزوع الى الغذاء في الانسان الا ان يطلب لنفسه مادة يقيم بها اوده ويستعين بها على بقائه وحياته ويستعيض بها عن اجزائه المتحللة ، الا ان كثيرا من الناس ما ادركوا مقصود الفطرة ـ الاكل للبقاء ـ وحسبوا ان اللذة التي قد اوجدتها الفطرة على لسانهم ، هي المقصود لذاتها ، فاتبعوا هواهم وارتطموا في اوحال الاغلوطة : « البقاء للاكل » . وكذلك ما كانت الفطرة انشات في الانسان الطلب للباس والبيت الا ليحفظ به جسده عن عاديات الفضاء وتغيرات الجو ، الا انه جاء يتبع هواه ويجعل هذا الطلب وسيلة الى الزينة والتفاخر واظهار الرعونة والتبختر ، فتجاوز عن مقصود الفطرة واولع بانواع من اللباس الفاخر والابنية الجميلة مما لا يعود وباله الا على نفسه ، وقل مثل هذا في سائر دواعي الفطرة ، اذ قد اخترع الانسان لقضاء مطالبها ـ على عدم فهم منه مقصود الفطرة وراءها او على فهمه اياه ولكن بصرفه النظر عنه ـ طرقا لا تتفق مع مقصود الفطرة بل تنافيه في اكثر الاحيان. ثم ورث الخلف عن السلف هذه الطرق على انها هي المدنية والحضارة والعادات والتقاليد والآداب الجديرة بالاتباع واشتدت وطأتها عليهم حتى ما بقيت لهم الحرية ان يزاولوا حقهم في الاختيار والتمييز فضلا عن ان يدركوا مقصود الفطرة بانفسهم ، فاتخذوا طرق اسلافهم قوانين مقدسة لا يجوز الانحراف عنها بحال وقلدوهم فيها تقليدا اعمى (قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) ، على حين لا تزال الفطرة تاخذ بايديهم باشاراتها اللطيفة كما كانت تفعل ذلك من قبل ، وليس من الصعب عليهم ادراك اشاراتها بالعقل السليم وبقليل او كثير من الجهد والاهتمام .

اشارات الفطرة للانسان الى الهه :

وقد حدث مثل هذا لامنية الانسان الفطرية اي بحثه عن الهه . فهو لما بدا البحث عن اله لنفسه ، على اضطرار من عاطفة العبادة من داخل نفسه ، بدات الفطرة تشير له اشارات لطيفة الى الهه الحقيقي حتى يعرف ان الهه هو من خلقه وهو غالب على امره يرزقه ويرزق كل حي في الكون ويستحق منه الحمد والثناء بناء على حسنه وجماله وعلوه وكبريائه ونعمته عليه ، وانه هو الذي تستمد منه الشمس والقمر والنجوم ضوءها ونورها ، وانه هو الذي ينعم جماله على الاجساد المتكونة من الماء والتراب ما هي عليه من البهاء والرواء والجمال السافر وانه هو الذي يظهر جلاله بمظهر الشوكة والباس في امواج الماء وطغيان الهواء وزلزلة الارض وارتفاع الجبل وضراوة الاسد ولدغ الحية ، وانه هو الذي تظهر ربوبيته بمظهر المحبة والحنو في صدر الام وبمظهر اللبن في ضروع البقرة وبمظهر الماء في كبد الحجر . فهذه هي الاشارات اللطيفة التي قد انعمتها الفطرة على الناس على اختلاف درجاتهم في الفهم والادراك وقد حاول كل منهم ، على حسب قدرته ، ان يحل العقدة بهذه الاشارات . فالانسان لما كان على حالته البدائية الفطرية ، كان يدرك هذه الاشارات فتراه لا يسجد الا لذلك الاله الواحد الاحد الذي كانت اليه هذه الاشارات ، ولكنه لما اجتاز هذه الحالة وبدا يسلك طريق الفكرة الاستدلالية ، بدات تحيط به الحيرة والضلالة .

تسكع الانسان في حيرة الضلالة :

في الناس من بحث عن الاله المتوفرة فيه هذه الصفات في الارض فاولع بالجبال والانهار والاشجار والحيوانات الضارة والنافعة وجعل يعبد الاعضاء التناسلية ويعكف على النار ويسجد للهواء وينظر الى الارض نظره الى امه ويقدم اليها القرابين والنذر ـ اي لم يتجاوز نظره عما كان حوله من المرئيات والموجودات حوله ولم يطمئن بالآلهة الارضية اذ رآها ـ على مثل شانه ـ تعبد غيرها وتحتاج اليه في وجودها وبقائها فقال ما لي ان امد اليها يد الاستعانة واطاطيء لها راس الطاعة والانقياد فتوجه الى السماء وجعل يبحث فيها عن الهه المنشود ، فلما راى فيها الشمس والقمر والنجوم اللامعة قال تلك هي الجديرة بالعبادة .

ومنهم من كان ادق منهما نظرا فلم يجد ما في السماء احسن حالا مما في الارض وقال مهما تكن هذه الشمس والقمر والنجوم بالغة في ارتفاعها وجسامة

حجمها ولمعانها ، فانها لا تقدر ان تفعل شيئا على ارادة من نفسها ، وانها انما تدور في فلكها تحت قانون معين ونظام مطرد مضبوط ؛ فالشمس على عظمتها وكبر جسدها ما استطاعت حتى اليوم ان تطلع من المغرب بدلا من المشرق او تحيد من مكانها ولو قيد شعر ، والقمر ما استطاع حتى اليوم ان يصبر بدرا يوم اهلاله، كما لم تستطع اي سيارة اخرى ان تنحرف ولو قيد انملة عما قد قدر لمسيرها من الطريق .

فهو لما راى الشمس والقمر والنجوم في السماء مكبلة باغلال العبودية على هذه الصورة ، اعرض عن السماء وقال ان لا شيء من الاجساد المادية يصلح للعبادة ، فتقدم ـ متابعا بحثه عن الاله الحقيقي ـ الى المعاني المجردة ، فاولع بالنور واسر فؤاده بحب اله الثروة وهام وجدا باله الحب والجمال وطاطا راسه لاله القوة فاخترع الهياكل المادية للقوى المدبرة للعالم وشغف بعبادتها وسجد للارواح والعقول والملائكة وقال: هي الصالحة للعبادة .

فهكذا نكس الناس رؤوسهم لكل شيء في السماء او الارض وجدوا فيه ـ على اختلاف مداركهم وكفاءاتهم وقواهم الفكرية والنظرية ـ بارقة من العلو والنعمة والقدرة والحسن والجمال والقهر والجلال والربوبية والخالقية ، ومشى كل واحد منهم حيث اضاء له مصباح الفطرة طريقه ثم وقف، غير ان الذين كان عندهم حظ وافر من الوجدان الصحيح والادراك المرهف والعقل السليم وكانوا يستهدون في سلوكهم معالم الفطرة بكل دقة ، فانهم لم يطمئنوا ولا بهذه الآلة الروحانية اللاهوتية بل ظلوا يتابعون بحثهم دون ان يعرجوا على ما عرض لهم في طريقهم من المراحل حتى بلغوا مرحلة وجدوا فيها كل قوة من قوى الكون المادية والروحانية والفكرية والعليا والسفلى مكبولة بقيود ذات غيرها مذعنة لامرها مشتغلة بحمدها وتسبيحها وتقديسها وهناك سمعوا بآذان قلوبهم صوتا يتردد بان : « لا اله الا انا فاعبدون » .

لمن كان هذا الصوت ؟ ... لذلك الاله الحقيقي الذي تابعوا خطا سيرهم للبحث عنه ، اي ان المطلوب لما وجد طالبيه الصادقين في طلبهم قد دنوا منه هتف بنفسه وهداهم الطريق الموصل اليه حتى انتهى سفرهم وبلغوا غايتهم واطمانوا بما احرزوا من الفوز في جهدهم (1) . فالحقيقة التي لا مجال فيها للريب انه لم يبق احد يضطرب للمزيد من البحث والتحقيق بعدما سعد بهذه الهداية النهائية وكل ما كان في نفسه من الحيرة والاضطراب والقلق ، انما كان في مراحله الضمنية حيث لما انتهى الى الغاية النهائية ، شهد بان هذه هي الغاية التي كان ينشدها ويضطرب للوصول اليها وان لا حاجة له الآن ، وقد بلغها ، الى المزيد من البحث (الا بذكر الله تطمئن القلوب) .

ما زال الانسان مضطربا حيران تلوعه عاطفة البحث والتتبع ولا يقر له قرار ما لم ينتهه الى الله الواحد الاحد ، ولكنه لما فاز في سعيه وانتهى الى غايته ـ الله سبحانه وتعالى ـ اطمأن قلبه وسرى عنه كل ما كان يجد في نفسه من الروع والقلق والاضطراب والحيرة ولم يعد يحس بشيء منها للبحث عن اله آخر.

ان الله الواحد هو الاله الحقيقي :

لماذا كل هذا ؟ ولماذا لم ينته سفر الانسان بوصوله الى احد غير الله وانتهى لمجرد وصوله الى الله حتى لم تعد نفسه تحدثه بالبحث عن اله غيره ؟

اذا تأملت هذا ، ما وجدت له الا سببا واحدا هو ان العاطفة الفطرية التي تهيب بالانسان الى العبادة لا غاية لها في حقيقة الامر الا عبادة الله سبحانه وتعالى فهي لا تسكن ـ ولا يمكن ان تسكن ـ الا بوصول

---

1) ان الكتاب عن الاديان في هذا الزمان كثيرا ما يميلون الى النظرية القائلة بالارتقاء التاريخي ويقولون ان الانسان كان بدأ سيره بادنى اشكال الشرك وانه ما زال معياره للالهة يعلو ويقل عنده عددها على قدر ما نضج فكره وشعوره حتى انتهى به استمراره في السير الى اعتقاده بالتوحيد ، الا ان التاريخ بنفسه يفند هذه النظرية ، اذ كان ابراهيم ـ وهو قبل المسيح بـ 2500 سنة ـ على عقيدة التوحيد الخالص واكبر دعاتها ، ولا يزال يوجد اليوم ، بعد 2000 سنة من المسيح ، عشرات الملايين من بني آدم على عقيدة الشرك . فهل هذا دليل على الارتقاء التاريخي ؟ الحقيقة انه ما زال يوجد في كل زمان ـ كما يوجد اليوم ـ كل نوع من انواع العبادة والعقيدة من ادنى ما يكون من الشرك الى ارفع ما يكون من التوحيد ، فاذن ليس التفاوت في التسلسل التاريخي وانما هو في مدارج مختلف الناس باعتبار العقل والشعور والفكر .

الانسان الى الله ، الهه الحقيقي . اما ان يحول بين بعض الافراد وشعورهم بهذا القلق والاضطراب شيء كقصور العقل او التعصب والتعنت او التقليد الاعمى للاباء ، فهذا شيء آخر .

ان الانسان ، كما قد قلنا سابقا ، لا تنشأ فيه عاطفة العبادة الفطرية الا لان كل ذرة حوله في السماوات والارض مشتغلة لعبادة الله ، فاذا كان ظلوما جهولا في مثل هذه الحال يجهل الله ويسجد لغيره ، فانه لا يوافقه على عقيدته وعمله هذا اي عنصر حوله حتى ولا اي جزء من اجزاء جسده . ان قدميه اللتين يمشي بهما الى الهه المزعوم ، لا تمشيان الا في عبادة الله ، وان يديه اللتين يقدم بهما القرابين والنذور اليه، لا تتحركان الا في عبادة الله ، وان رأسه الذي يسجد به له ، لا يكون ساجدا الا لله ، وان لسانه الذي يحمد به اياه ، لا تشتغل في كل حين من احيانه الا بتقديس الله وتمجيده وتكبيره وتسبيحه ، فاذن لا تكون عبادته لالهه المزعوم وخضوعه له وتزلفه اليه في مثل هذه الحال ، الا دجل وافتراء وبهتان صريح تشهد ببطلانه كل ذرة في الكون ، بل وتنبهه فطرته في نفسه ــ ولو بصوت لطيف لا يشعر به ــ على وقوعه في الباطل والخدعة وتؤنبه على عبوديته وخضوعه لمن لا يستحقها . (اف لكم ولما تعبدون)

اتحاد العبودية والعبادة :

ما العبودية ــ كما رأيت ــ الا فرع للعبادة ، فهي تود على عين مقتضى من فطرتها ان تبقى ملازمة لاصلها ، وان الانسان متى يفصل الفرع عن اصله ، على جهل منه ، لا يكون منه هذا الفصل الا معارضا للفطرة يبعث في نفسه القلق والاضطراب ولو على وجه خفي ، ولكنه عندما يرفع عن عينيه غشاوة الجهل والغباوة ويعرف على وجه الحقيقة انه لا اله الا الذي هو مالكه ورازقه وخالقه ، تجتمع فيه العبودية والعبادة الى ان يتحد الفرع مع اصله وتقفز البنت الى حضن امها ، وهناك يحصل له من الهدوء والسكينة وطمأنينة القلب ما لم يكن يجده في حالة الافتراق والانفصال .

الخلافة الالهية :

وهذا الاتحاد بين العبادة والعبودية هو الذي يمتاز به الانسان عن سائر مخلوقات الله في الارض وبه ينال عليها الفضل وينعم بالمرتبة التي قال الله عز وجل انها خلافته في الارض .

ان الانسان ــ كما قلنا سابقا ــ متذلل لله خاضع لقانون فطرته بدون قصد ولا معرفة منه وتلك هي عبوديته لله، التي هو لا يختلف فيها عن الحيوان الذي لا يعقل والشجر الذي لا يشعر والحجر الذي لا يتحرك ، فكذلك هو لا يمتاز عنها في جزاء هذه العبودية ــ الرزق ونعمة الوجود والبقاء . كل ما ينال ــ ويمكن ان ينال ــ به الامتياز والشرف والفضيلة عليها ، هو ان يعمل ما عنده من العقل والشعور والحرية في الارادة والاختيار والقدرة على العلم والتعلم فيعرف الهه الذي يعبده بدون قصد ولا معرفة منه ولا يعبد بقصده ومعرفته وشعوره الا اياه . اما اذا لم يفعل هذا وتولى في حدود اختياره وارادته عن الهه الحقيقي الذي يرزقه وينعم عليه بالوجود والحياة ومال الى عبادة غيره ، فلا امتياز له عن سائر المخلوقات ولا شرف له عليها، بل هو اردى منها في الضلالة « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون » (الاعراف : 22)

لا شرف ولا فضيلة للانسان لمجرد ان عنده العقل والقوة العلمية ، لان العقل والقوة العلمية ان هما في حد ذاتهما الا وسيلة لنيل الشرف والفضيلة وقد مكنتا الانسان من نفسهما حتى انه ليقدر اذا استعان بهما على الوجه الصحيح ان يترقى من درجة العبودية الالزامية الحيوانية الى درجة العبادة الاختيارية الانسانية ، فهو اذا لم يستعن بهما او انما استعان بهما على وجه غير صحيح وتولى عن الهه الحقيقي وجعل يعبد من دونه آلهة باطلة ، ارتد الى درجة ادنى من درجة الحيوانية ، لانه ضل على حين لم يكن الحيوان ضالا ، وانكر على حين لم يكن الحيوان منكرا واشرك على حين لم يكن الحيوان مشركا .

بقي الحيوان على الدرجة التي ولد عليها لم يترد عنها ان لم يرتفع عليها ، وعلى هذه الدرجة الحيوانية نفسها ذلك الانسان الذي يعبد من دون الله آلهة كاذبة من حيث هو حيوان ، لانه لم يترق الى الدرجة التي كان عليه ان يترقى اليها من حيث هو انسان ، بل نزل الى درجة ادنى منها . عمل وسيلة العقل والعلم ولكن لا ليترقي في انسانيته بل ليترقى في حيوانيته . انه اخترع النظارة ينظر بها الى اشياء بعيدة لا يستطيع الحيوان ان ينظر اليها ، واخترع المذياع ليسمع به اصواتا بعيدة لا يستطيع الحيوان ان يسمعها ، واخترع القطار والسيارة ليقطع بهما مسافة طويلة لا يستطيع ان يطويها الحيوان ، واخترع الطائرة ليسبق بها الطير في

التحليق فى الجو ، واخترع السفينة ليعجز بها السمك فى الساحة ، واخترع آلات الحرب ليهزم بها الوحوش فى الضراوة والقتال واقتنى لنفسه انواعا متنوعة من اسباب الرغد والترف والتنعم ليقضي بها حياته بلذة لا قبل بها للحيوان ، ولكن قل لي بالله هل هو ترقى من درجة الحيوانية على كل هذه الرقيات التي احرزها؟ انه لا ياتي بتصرف فى العالم المادي بعقله وعلمه الا تحت قوانين الفطرة ، تلك القوانين نفسها التي ياتي الحيوان تحتها بمثل هذه التصرفات على نطاق محدود بدون ان يكون عنده العقل او العلم ، فكانه لم يترق على كل ما عنده من العقل والعلم من درجة العبودية الحيوانية التي عليها الحيوان ، وكل ما حدث من الفرق بينه وبين الحيوان هو ان الحيوان اذ كان ياتي بعبودية دنيا ، كان ينال رزقه من النوع الادنى ؛ اما هو فقد اتى بعقله وعلمه بعبودية عليا ، فنال رزقه من النوع الاعلى . كان الحيوان يعيش على العشب ، اما هو فقد نال الزبدة والكعك . كان الحيوان يستدفىء بما ينبت على بدنه من الصوف والوبر ، اما هو فقد جعل يستدفىء بالثياب الفاخرة الجميلة . كان الحيوان يعيش فى عشه ، اما هو فقد نال قصورا شاهقة ذات حدائق غناءة رنانة . الا ان الذي يجب التساؤل عنه هو : ما هو الرقي الذي احرزه هذا الانسان باستعانته ما كان اوتي من وسيلة الرقي ـ العقل والعلم ؟ كان معنى الرقي بالنسبة له ان يعبد باختياره وشعوره من يعبده بدون اختيار منه ولا شعور ، ويسجد باختياره وشعوره لمن يسجد له بدون اختيار منه ولا شعور ويطيع باختياره وشعوره قانون شريعة من يطيع قانون فطرته بدون اختيار منه ولا شعور . انه لو احرز الرقى من هذه الجهة ، لنال الشرف والفضيلة على سائر الحيوانات والموجودات فى العالم ونال بالفعل تلك الخلافة التي اودع لها الاستعداد والكفاءة فى نفسه وعبد خالقه واطاعه واستحق الاجر اكثر من كل شيء فى السماوات والارض ، ولكنه اذ لم يترق من هذه الجهة وتردى فى الهوة السحيقة من الانحطاط لاستعانته بآلة الرقي على وجه غير صحيح ، فقد ارتد اسفل سافلين واستحق العذاب بحماقة نفسه (1) . والى هذه الحقيقة قد اشير فى سورة التين حيث قيل : لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون » ـ اجمال يشير الى التفاصيل التي بيناها فى هذه الصفحات. والمراد باحسن تقويم القوة والكفاءة للرقي والازدهار ، التي اوتيها الانسان اكثر من اي موجود فى هذا الكون . الا ان ليس كون الانسان على احسن تقويم هو الرقي فى حد ذاته ، بل الذي عليه مدار رقيه هو ان يستعين بهذه القوة والكفاءة فيعرف ربه ـ وذلك هو المعبر عن مرتبته النهائية بالايمان ـ ولا يقضي حياته فى الدنيا الا حسب حكمه الشرعي ، وذلك هو المعبر عنه بالعمل الصالح .

اما من لم يحرز الرقي من هذه الجهة ، فقد نزل الى ادنى درجة من الانحطاط والتردى وأما من احرزه فله اجر غير ممنون اي اجر متصل يجري من هذه الدنيا الى الحياة الآخرة بدون انقطاع ولا نهاية .

اما الاجر الذي يناله الانسان مكافاة على عبوديته الاجبارية ، فهو اجر منقطع محدود الى الحياة الدنيا فقط ، لان هذه الحياة لا تمتد على كل حال الا الى اجل مسمى .

واما الاجر الذي يناله الانسان مكافاة على عبادته الاختيارية ، فهو نعمة لا خلل فيها ورزق لا خوف عليه للانقطاع والنفاد .

المفهوم الكامل للعبادة :

وهنا قد انتهى بنا البحث الى حيث يسهل علينا ان نعرف للعبادة مفهومها الكامل الصحيح :

قد عرفت مما بينا سابقا ان كلمة العبادة يكتمل مفهومها باتحاد جزئين معنويين : احدهما العبودية اي الطاعة لقانون الفطرة ، وثانيهما الخضوع والاذعان ، وهو ايضا يحتاج لاكتماله الى امرين :

1) ان يعرف الانسان معبوده الحقيقي معرفة خالصة لا تشوبها ادنى شائبة للشرك او الكفر او الانكار او الريب والشك ، ولا يخاف احدا غيره ولا يطمع فى انعامه ولا يتوكل على قوته ، ولا ينسب اليه الالوهية او الربوبية ولا يرجو فى نفعه او ضرره ، ولا يتعلق به علاقة العبد بمعبوده ـ فهذا هو « الايمان » .

(1) هذه مسالة من المسائل المهمة قد عثرت فيها عقول كثير من الناس اذ جعلوا القانون الطبيعي او الحكم التكويني هي العبادة بكل ما للكلمة من معنى وظنوا ان كل من ـ فردا كان او طائفة ـ ادى حق هذه العبادة فهو العابد وهو الصالح المستحق لكل ما ورد فى القرآن الكريم من المواعيد بحق الصالحين . الا ان الحقيقة ـ كما قلنا فوق ـ ان ليست العبادة المطلوبة من الانسان هي طاعة الحكم التكويني فحسب ، بل هي طاعة الحكم الشرعي ايضا .

2) وان يطيع في القسم الاختياري من حياته حكم هذا المعبود الشرعي ، كما يطيع حكمه التكويني في القسم الاجباري من حياته ، حتى تصير حياته كلها غير تابعة الا لحاكم واحد وحكومته وقانونه ولا مصطبغة الا بصبغته ولا يبقى فيها شيء من التخالف والتناقض من اي جهة من الجهات ــ فهذا هو « العمل الصالح »

مخطىء من يقول ان العبادة انما هي منحصرة في السبحة والسجادة والمسجد و الصومعة . والحق ان المومن لا يكون عابدا لله بصلاته خمس مرات في الليل والنهار وصومه شهرا في السنة واذائه زكاة امواله مرة في السنة وحجه البيت الحرام مرة في حياته فحسب ، بل ليست حياته من اولها الى آخرها الا عبادة لله تعالى . افلا يعبد الله عند ما يجتنب مغانم الحرام ومنافعه ويتبلغ بالحلال القليل المشروع في مكسبه ؟ او عند ما يتجنب الظلم والكذب والخديعة والتدليس ويعمل بالصدق والامانة والعدل في معاملاته للناس ؟ اولا تكون كل حركة من حركاته عبادة لله عند ما يشمر عن ساق جده لخدمة خلق الله وايصال الحق الى اهله ؟ اولا يعد كل قول من اقواله وكل فعل من افعاله عبادة لله عندما يتبع قانون الله ويلتزم حدوده في جميع اقواله واعماله ؟ ؟ الحق ان كل عمل دنيويا كان او دينيا ــ ياتي به المؤمن في طاعته لقانون الله وشريعته هو عبادته لله من اوله الى آخره، حتى ان ليس بيعه وشراؤه في السوق ومعاشرته لاهل بيته وانهماكه في شؤونه الدنيوية البحتة الا عبادة منه لله سبحانه وتعالى .

غير ان هذه ادنى مراتب العبادة وما مثلها الا كمثل طاعة عامة افراد الرعية لقانون حكومة بلادهم واحكامها واوامرها . اما الدرجة العليا منها ، فهي ان يكون المؤمن خادما لمولاه مخلصا لا يطيع قوانينه بنفسه فحسب ، بل لا يالو جهدا في تطبيقها على غيره ايضا ، ولا يعمل باوامره واحكامه في حد ذاته فحسب بل يستنفد كل سعيه لتنفيذها في العالم كله ايضا ، ولا يعيش تحت حكومته بالامن والوفاء والولاء والتزام الطاعة ، بل يعمل كل ما عنده من قوى القلب والفكر واليد لاقامة الامن فيها واصلاح رعاياها الفاسدين وكبت الظالمين الخارجين عليها ايضا ويستعد للتضحية في سبيلها بكل غال او رخيص عنده . ففي ذلك يقول سبحانه وتعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ويقول « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله » ويقول « الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

هذه هي العبادة وهذه حقيقتها ، ومن دواعي الاسف انا لناس قد حسبوا انما هي عبارة عن الصلاة والصوم والتسبيح والتهليل ولا علاقة لها اصلا بامور الدنيا ، على حين ليست الصلاة والصوم والحج والزكاة والذكر والتسبيح والتهليل الا تمرينات تعد الانسان للعبادة الرئيسية التي ترتفع بحياته من ادنى ما يكون من درجات الحياة الحيوانية الى ارفع ما يكون من درجات الحياة الانسانية وتجعله في كلتا حالتيه الاجبارية والاختيارية خادما مطيعا وفيا لمولاه يخدمه في كل لحظة من لحظات حياته بكل قواه الجسمية والروحية . والانسان عند هذه الدرجة ينال ذلك الشرف الذي لا قبل لمخلوق في الكون ان ينازعه فيه ولا يكون حتى للملائكة ان يغالوه فيه ، فيكون خليفة الله في الارض بالمعنى الحقيقي التام ولا يذل ببسط يد الاستجداء امام احد سوى الله ولا يكون في عنقه الا نير عبوديته ولا في رجليه الا اغلاله ولا يتطاطا راسه الا له وحده . يكون عبدا لله وسيدا لكل من سواه في الكائنات ، محكوما لله وحاكما لكل من سواه فيكون من حقه ان يحكم ارض الله باذنه . لا يكون ظالما مستبدا كفرعون ونمرود ولكن نائبا عن الله سبحانه وتعالى في ارضه حسب اذنه لا يحكمها الا بالحق . وفي ذلك يقول عز من قائل : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا » . هذا جزاؤه في الدنيا ، اما جزاؤه في الآخرة ، فيبينه الله تعالى بقوله : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون » ويقول : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » .

المفهوم الخاطىء للعبادة :

ومما يدعو الى الاسف ان المسلمين قد تغافلوا عن هذا المفهوم للعبادة وجعلوا العبادة عبارة عن مجموعة مخصوصة من الشعائر والاعمال وكفى وحسبوا ان من اداها فقد ادى ما عليه من حق العبادة

لله سبحانه وتعالى ، وقد اغتر بذلك خاصتهم وعامتهم اما العامة فقد خصصوا للعبادة ساعات من اوقاتهم حيث اذا فرغوا منها وجدوا انفسهم لا شيء عليها لله تعالى . فعاكسوا كل مادة من مواد قانونه واعتدوا كل حد من حدوده وتخلقوا بالكذب والخيانة والغش والغيبة ونكثوا العهود واستحلوا الحرمات وغمطوا لاهل الحقوق حقوقهم ووقفوا قلوبهم وعيونهم وايديهم وارجلهم لخدمة الباطل وعبودية النفس الامارة بالسوء ، واذا جاءت نفوسهم تلومهم على هذه الاخلاق والاعمال ، عللوها بصلاتهم خمس مرات في الليل والنهار وتلاوتهم للكتاب وصيامهم شهرا فى كل سنة وادائهم زكاة بعض اموالهم وحجهم لبيت الله مرة في حياتهم ، ولم يشكوا ابدا انهم عباد الله العابدون المتدينون . فهل هذه هي العبادة ؟ ... ان تسجدوا لله ثم تخضعوا ، بعد ان ترفعوا رؤوسكم عن السجدة له ، لكل اله من الآلهة الباطلة وتجعلوا كل حي او ميت قاضيا لحاجاتكم ؟ ان تتخذوا الهكم كل انسان ترون فيه شيئا من القدرة على نفعكم او ضرركم ؟ ان تمدوا ايديكم بالاستجداء الى اعداء الله من الكفار والمشركين وتقبلوا احذيتهم وتسيروا في ركبهم وتحسبوا فيهم اولياء لرزقكم مانحين لكم العز والذل وتروا ان لا قانون الا قانونهم لان عندهم القوة وتخالفوا قانون الله بكل جراة ووقاحة لان الله ليست عنده — حسب زعمكم الباطل — قوة لتنفيذه ؟ هل هذا هو اسلامكم ؟ وهل هذا ما يقتضيه ايمانكم ؟ وهل على هذا تحسبون انكم تعبدون الله مخلصين له الدين ؟ ان كان هذا هو الاسلام والايمان ، وكانت هذه هي عبادة الله ، فقولوا لي بالله ما الذي اذلكم في الدنيا ونكس رؤوسكم امام اعدائكم وجعلكم تتسكعون تحت نير استعبادهم المادي والفكري ؟

واما الخاصة ، فقد سلكوا ، على العكس من ذلك طريقا آخر هو انهم اخذوا سبحاتهم وسجاداتهم فاعتكفوا في حجراتهم معرضين عن الدنيا وما قد عمها من ظلمات الضلال والفساد . قد احاط الضلال بخلق الله من كل جانب وانتشر فيه الفسق والفجور والفساد وطمست فيه ظلمة الباطل نور الحق ، ولا يزال اعداء الله تتسع دائرة نفوذهم واستيلائهم على ارض الله وهم يرغمون الناس على اتباع قوانينهم الشيطانية بدلا من القانون الالهي امامهم ، هؤلاء الاتقياء الصالحون المقدسون ، فلا يقض لهم مضجع على شيء من كل هذا وهم منقطعون — بكل دعة وسكينة — لاورادهم وصلواتهم النافلة المتتابعة وتحريك حبات سبحاتهم الطويلة واعلاء اصواتهم بهتافات « الحق .. الحق » يتلون كتاب الله ولكن لكسب ثواب التلاوة ، ويقراون الحديث ولكن للتبرك ويعظون الناس ويذكرونهم بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم ولكن لا لشيء الا التلذذ ببيان القصص والحكايات . انهم لا يجدون فى القرآن ولا في السنة ولا في سيرة السلف الصالح شيئا يحثهم على القيام بالدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله . فهل هذه هي العبادة يا اولياء الله الكرام ؟ ان تغمضوا عيونكم وتظلوا مشتغلين باورادكم ومراقبتكم هادئين وادعين على حين يرفع الشر راسه ويستفحل امره ويطغى سيله المتجرف فى المدن والقرى على مراى منكم ومسمع ؟ ان تصلوا النوافل تلو النوافل مغلقين عليكم ابواب حجراتكم غير آبهين ان كانت تناطح جدرانها موجات كالجبال من الفسق والفجور والضلال ؟ ان تجدوا الكفار يعلنون افراحهم بما قد نالوا ولا يزالون ينالون من الانتصارات الشيطانية فى شرق الارض وغربها وفى جنوبها وشمالها ، ولا ينتشر فى ارجائها الا علومهم ومعارفهم ولا يسودها الا سياستهم وحكمتهم ولا يجري فيها الا قانونهم ولا ينقاد اهلها الا لسيفهم ؟ ان تولوا ظهوركم عن ارض الله وخلقه تاركين امرهما الى هؤلاء الكفار بحجة انكم قد فرغتم انفسكم للصلاة والصوم والذكر والاوراد ؟ اذا لم تكن العبادة الا هذه ولا يتادى حقها الا على هذا الوجه ، فقولوا لي بالله لماذا ينال السيادة فى ارض الله غيركم على حين انتم الذين تعبدون الله ؟ افان الله — كاذب — ومعاذ الله — في قوله في محكم آياته : **« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا »** . والله تعالى اذا كان صادقا في وعده هذا، وكان من الواقع ان لا نصيب لكم — على رغم عبادتكم هذه — من سيادة الارض وقيادتها ولا يتمتع فيها دينكم بالتمكن والاستقرار وليس بمتيسر لكم فيها بعد خوفكم ، فاعلموا وعوا ان لستم انتم ولا سائر امتكم عابدين لله بل انتم تاركون لعبادته وان وبال ترككم لعبادته هو الذي قد اذل اعناقكم امام اعدائكم في الدنيا .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

نكسة ومسخ

للأستاذ عبد الله كنون

لم تصب الدعوة الاسلامية في عصر من العصور بمثل النكسة التي اصيبت بها في هذا العصر ، ولم تمسخ قيمها ومثلها كما مسخها العصريون من دعاة الاصلاح والتجديد ؛ ولعل قول البوصيري رحمه الله : « ومن شدة الظهور الخفاء » لا ينطبق على حالة مثلما ينطبق على الحالة السواى التي يتخبط فيها الاسلام اليوم ، واهله يظنون انه في حالة انبعاث وتجدد .

ذلك انه منذ الانطلاقة الاسلامية الاولى ، او ان الهجرة النبوية وما صحبها من انتصارات ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين، وعهد بني امية، ثم في العصر العباسي وقد استبحرت الحضارة الاسلامية ورسخ كعب المسلمين في العلوم والفنون ، اصطدمت هذه الدعوة بمعارضات شديدة ، وتعرضت قيمها ومثلها لمناقضات عديدة ، من طرف اليهود والمنافقين والخوارج والمعتزلة والفلاسفة والباطنية والزنادقة والملاحدة عموما ، فلم تنهزم ولم تستسلم ، بل ثبتت ثبات الجبال ، وتصدت لكل معارضة بالنقض ، ولكل مناقضة بالابطال ، وسيطرت على المواقف كلها واملت كلمتها التي كان الانفصال عليها دائما ، ولم تحور ولم تغير الا من الوسائل والاساليب التي كان مقتضى الحال وعامل التطور يقضيان بتحويرها وتغييرها ؛ اما الاصول والدعائم التي تنبني عليها وترتكز اليها فلم يدخلها تبديل ولا تحويل ، وبقيت هي هي ، تصاول الزمان والاحداث وتتحدى من يعمل لتقويضها وتحطيمها ، مصداقا لقوله عز وجل : **((يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون))**.

اما في العهد النبوي فلا نحتاج ان نضرب الامثال للازمات التي مرت بها هذه الدعوة الكريمة ، وما قام به الرسول (ص) والوحي يشد ازره ، من جهاد مثالي في سبيل اعلاء كلمتها والادالة لها من الكلم ، حتى انتصر الحق وزهق الباطل ولم يبق في الجزيرة العربية من يرفع راسا بمحادة او نفاق ؛ ان ذلك كان هو واجب صاحب الرسالة ومهمته العظمى ، وفي القرآن العظيم حديث مسهب عن هذه الفترة من تاريخ الدعوة وعمل النبي عليه السلام واغيائه في التضحية لنصرة **الدين** وظهوره وبلوغه الى اطراف البلاد ، فليتمل من شاء بتلاوة بعض الآيات البينات من ذلك الحديث المعجب المعجز .

واما على عهد الخلفاء الراشدين ، فان حادث امتناع العرب من اداء الزكاة واعتبارهم اياها اتاوة تتنافى مع ما الفوه من حياة حرة متحللة من كل الالتزامات والقيود ، كان هو الامتحان الاول الذي محصت به الدعوة الاسلامية في هذا العهد ؛ ولكنها بفضل الموقف الحازم الذي وقفه الخليفة الاول من ذلك الحادث ، خرجت من الامتحان قوية منتصرة كاشد ما تكون القوة واعظم ما يكون الانتصار ؛ فقد قرر ابو بكر الصديق قتال القوم ، وخالفه الصحابة كلهم حتى عمر بن الخطاب المعروف بشدة البأس وقوة الشكيمة ، وقال له اتقاتلهم على الشاة والبعير ؟ فقال : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله (ص) لقاتلتهم عليه .. ولو لم يقف ابو بكر رضي الله عنه هذا الموقف لدخل امر الزكاة في خبر كان ولتبعها بعد ذلك سائر قواعد الاسلام ، ولما كان يوجد الآن من هذا الدين اسم ولا رسم .

ان الامر لم يكن يتعلق بتعطيل شعيرة من شعائر الدين فقط ، ولكنه يتعلق ايضا بحرمان الفقراء والمحتاجين مما فرض الله لهم في اموال الاغنياء من هذه الزكاة ، فهي حرب ضد الراسمالية المتعنتة التي حسبت انلها وحدها الحق في ان تعيش وتستمتع ونسيت ان هناك طبقة من الناس محرومة من ضروريات العيش ، فيجب رفدها ومواساتها حتى تنتعش وترتاش .

ومن المفارقات الغريبة ان الحادث الثاني الذي كان حريا ان يحدث ثورة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ضد المفاهيم الاسلامية ، والذي تعرضت فيه دعوة الاسلام لامتحان جديد ، كان قد طلع قرنه بين الاوساط الفقيرة ، ووجد فيها ميدانا خصبا لبذر هذه المباديء الاشتراكية المتطرفة التي تنازع المتمولين اموالهم والملاك املاكهم ، وتهدر جميع الفوارق بين طبقات المجتمع التي اقرتها السنة والاعراف المتوارثة، وكان زعيم هذا المبدأ هو الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري الذي كان يقف في ميادين دمشق وسبلها العامة فيقول : ابشر الكانزين بنار يحمى عليها ما كنزوا فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم) وكان يمشي هو وعبده وعليهما ملتان متماثلتان ، واذا اكلا اكلا معا طعاما واحدا . فكان يلتف حوله لسماع اقواله جماهير غفيرة من الطبقات الشعبية الفقيرة ، وخاصة من مسلمة الامصار التي لم تكن قد تمكنت منها الدعوة الاسلامية تمكنا كاملا ؛ وكانت تضاف اليه اقوال ويزاد في مذهبه ما ليس منه ، فتضايق منه معاوية — وكان وليا على الشام — وخاف من هذه الدعوة ان تنقلب الى تجربة يقوم بها الموالي والعامة والموتورون من اهل الاقطار المفتوحة . فشكاه الى عثمان الذي دعاه الى المدينة ، ولما تبين له خطر الدعوة التي يقوم بها نفاه الى قرية منعزلة يقال لها الربذة حيث امن خطره .

وهذا الموقف الصارم من الخليفة الثالث ، لم يكن لينتقد نظام الحكم في الاسلام وشريعته المطهرة غيره. فان من مسلمات هذه الشريعة الاعتراف بحق الملكية الشخصية ، وعدم مشاعية الاموال بل وجوب حمايتها حماية الارواح ، الا ما كان من مال الدولة فانه الذي يحق ان ينال منه الجميع ، كل على حسب مقامه ، يضاف اليه مال الزكاة الذي يختص به الفقراء والمحتاجون دون سواهم ؛ وفيما عدا ذلك فان الناس جميعا مدعوون الى تنمية ثرواتهم بالوسائل المشروعة ؛ ولهم ان يتوسعوا في طرق العيش ما شاءوا اذا ادوا ما عليهم من الواجبات ، ولذلك استنكر الصحابة مذهب ابي ذر هذا وكان ابن عمر (ض) يقول « كل مال اديت زكاته فليس بكنز ولو كان تحت سبع ارضين » ؛ نعم في ميدان البر والاحسان لا حد للتنافس ولا غاية للبذل ، والمسلمون مدعوون الى ضرب الارقام القياسية في هذا الصدد ، ولكن على طريق الترغيب لا على طريق الالزام .

وما ورد في الكتاب والسنة من الحض على الانفاق في سبيل الله ومواساة الضعفاء والتنفير من البخل والامساك ، هو مما لا يجهله احد ، وهو الذي حمله ابو ذر (ض) محمل العزيمة في حين ان غيره من الصحابة وعلى راسهم الخلفاء الراشدون وبقية العشرة المبشرين بالجنة ؛ لم يكونوا يرون رايه وكان فيهم المتمولون جدا كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، على انهم حين الدعوة الى البذل والعطاء كانوا يتسابقون الى ارضاء الله ورسوله ؛ فابو بكر الصديق احضر مرة كل ماله ، وقال له النبي (ص) ما تركت لاولادك ؟ قال تركت لهم الله ورسوله ، وعمر بن الخطاب احضر نصف ماله ؛ وعثمان بن عفان الذي وقف بجانب الراسماليين لا يكاد يحصر ما دفع من مال في سبيل نصرة الدعوة الاسلامية حتى انه جهز جيش العسرة كله من ماله ، وقال فيه النبي (ص) « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » .

اريد ان اقول ان الاسلام الذي اعطى لكل ذي حق حقه ، وفرق بين الراسمالية المتعنتة والاشتراكية المتطرفة ، وجد في خليفتيه الراشدين خير مدافع عن شريعته وقيمه ومثله ، فما هددت الطبقة الغنية بحرمان الفقراء من حقهم حتى وقف خليفته الاول بجنب الفقراء مناصرا لهم على الاغنياء وما ان نجم خطر تهديد الطبقة الفقيرة للاغنياء وطمعها في احتياز اموالهم بدون حق ، حتى وقف خليفته الثالث بجنب الاغنياء يحميهم من ثورة الفقراء ويضع حدا لمذهب لو كان انتصر لقلب الاوضاع في المجتمع الاسلامي راسا على عقب ونشر الفوضى ورد الحكم الى ايدي جماعة من المشردين والدخلاء .

ويتعرض الاسلام في ايام الخليفة المظلوم علي ابي طالب كرم الله وجهه لخطر اشد واعنف من كل ما تقدم ، وهو خطر الخوارج الذي لم يكن يتهدد النظام المالي للدولة فحسب ، ولكنه كان يتهدد الكيان السياسي والاجتماعي والعقدي للمسلمين ؛ فلم يتردد علي بن ابي طالب في شن الغارة عليهم وقتالهم مدة ايام خلافته ، حتى قضى شهيد الدفاع عن حوزة الدين وجمع كلمة المسلمين ، والعجب ممن يوافق على قتال مانعي الزكاة ولا يوافق على قتال مفرقي كلمة المسلمين، والنبي (ص) يقول : (اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما) ومن احدثوا في الدين مذاهب وآراء لم يات بها كتاب ولا سنة والنبي (ص) يقول : من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد . .

ولئن مات علي ولم يتمكن من القضاء على هذه الجرائم الفتاكة عملا ، فقد قضى عليها نظرا ، اذ ما فتىء المسلمون بعده يشنون عليها الحروب ويقصونها عن صعيد العمل الاسلامي ، فما ارتفعت لها مع اهل السنة والجماعة راية ، ولا تم لها في دول الخلافة الاسلامية امر قط .

وقد نشا عن خلاف الخوارج هذا مذاهب وفرق ضالة كالقدرية والجبرية والمرجئة ، ثم تبلورت هذه المذاهب فيما سمي بالمعتزلة ؛ ولكن هذه الفرق لم تلجا في نشر مذاهبها الى القتال بالسلاح ، فقام علماء الملة وائمة السنة بالرد عليها وحماية بيضة الاسلام مما كانوا يوجهونه اليها من السهام المسمومة فكانوا يكبتونها ويردون كيدها في نحورها مما جعلها مغمورة دائما الا في فترات قليلة كانت تحتمي فيها ببعض اولي الامر والسلطان ، فتظهر ظهورا كاسفا ثم تنطمس .. والمهم هو انه قضي عليها قضاء مبرما فلم يعد لها ذكر الا في كتب التاريخ والملل والنحل، ولم يبق لاصحابها وجود منذ عدة قرون مع ما كانت بلغته من الانتشار وما استهوت من رجال السلطة والنفوذ الذين اخذوا بضبعها وشدوا ازرها زمنا ، ولكنها الغيرة التي حملت قادة الفكر الاسلامي على خوض المعارك ضدها ، وشنها حربا كلامية كثيرا ما الحقت بهم ضررا بليغا واذى كبيرا ، فتحملوه بصبر وثبات حتى حقت الحقائق وزالت الشكوك والريب ، ان هذه الغيرة على الدين التي كانت لاسلافنا المقدسين هي التي طاحت بتلك البدع والآراء الفاسدة وطوحت بها الى غير رجعة ، فبقيت الدعوة الاسلامية بقيمها ومثلها هي السائدة في العالم الاسلامي والمتحكمة في مصيره ومقدراته .

وسيطول بنا الكلام اذا اردنا تتبع ما جرى في هذه المعارك من جدال عنيف ، وما كانت تنطوي عليه آراء تلك الفرق من خطر على العقيدة الاسلامية ومن انحراف وزيغ عما جاء به الرسول (ص) وما كان عليه سلف الامة الصالح من هدى حسن في امور الدنيا والدين، فليرجع من يريد التوسع في ذلك الى مظانه ، وكفانا هنا اننا خلصنا بالنتيجة المطلوبة ، وهي تسجيل الموقف الذي وقفه علماؤنا من دعاة الضلال والالحاد ، والنصر الحاسم الذي كتب لهم في هذا الموقف العظيم ، ولا حاجة بي الى الالمام بفتنة القرامطة والحروب الصليبية وهجوم التتار ، فان هذه حوادث ذات صبغة سياسية وعسكرية اكثر منها دينية ، وان كانت قد هزت العالم الاسلامي هزة عنيفة قضت على كثير من معالم حضارته، واوقفت تطوره زمنا طويلا .. على انها تشبه ما تعرضت له بلاد الاسلام في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن ، من حملات الغزو والاكتساح الاروبية ، مع فارق واحد هو من الاهمية بمكان ، وهو موضوع هذا المقال .

ذلك ان العالم الاسلامي بعد غفوته الطويلة ، لما فتح عينيه على جيوش الاحتلال الاجنبي تجوس خلال دياره ، وراى رايات العدو ترفرف في سماء بلاده ، والحكم النافذ في ارضه هو حكم المستعمر الدخيل الذي تسند وجوده الحراب فعلا والحماية او الوصاية او ما اشبههما اسما ، لم يطق صبرا على هذا الوضع الزري الذي اصبح فيه ولم يستطع ان يطاطىء راسه امام الفاتح الجديد ، وهو الذي دحر من قبله كل من سولت له نفسه السيطرة عليه او المساس بسيادته وسلطانه ، فثار ثورة عارمة على السلطات الاستعمارية، مهما اختلفت اسماؤها وتعددت الدول الاجنبية التي تنتمي اليها ، وحطم قواتها الغاشمة وعطل اجهزتها واعتدتها الهائلة ، ولم يهدا له بال ولا قر له قرار حتى رمى بالغزاة الجدد الى البحر ، وسجله انتصارا باهرا على حماته المزعومين واوصيائه المفروضين وجميع دول الاستعمار التي اصفقت كلمتها عليه من اروبيين واميركان . وكان هذا الانتصار دليلا على قوة ايمانه وصدق يقينه اذ لا مجال هناك للمقارنة بين معدات العدو الحربية وآلاته الجهنمية وما كان عليه المسلمون من ضعف مادي وتجرد من كل سلاح وعتاد، فهم انما انتصروا بفضل حماستهم الدينية وروحهم الاسلامية التي لا تعرف الا العز ولا ترضى بالذل ابدا **(ولله العزة ولرسوله وللمومنين)** .

وكل هذا معروف ومما لا يتنازع فيه احد ، والعالم الاسلامي انما جرى فيه على المعهود منه في اباء الضيم وعدم الخضوع لغير حكم خالقه وباريه ، ولكن تصفية العهد الاستعماري ونبذ السيطرة الاجنبية لم يكونا تامين ، وقد غزا المجتمع الاسلامي مع جيوش الاحتلال علل وامراض في صور ومذاهب وافكار تمكنت من نفوس شبابه وباضت وفرخت في عقول مثقفيه ، فلم يمكنهم التخلص منها وان تخلصت بلادهم من حكم الاجنبي وسلطته النافذة ؛ انها مخلفات الاستعمار ورواسبه في كل ركن وحقل ومجال ، في نظام الحكم ، في التعليم ، في الاقتصاد ، في مظاهر الحياة البيتية والاجتماعية والدولية ، في

النشاط العام الذي يقوم به الفرد والجماعة والدولة كل يوم ، تغلغلت جذورها وبسقت فروعها ، فصار من الصعب اقتلاعها ولو تضافرت الجهود على ذلك ، الا ان ينقرض هذا الجيل المؤمن تقليدا بالغرب وحضارته ، والكافر تقليدا بكل ما عدا ذلك .

لقد سد الاعجاب بالثقافة الغربية منافذ التفكير على هذا الجيل ، وقاده ذلك الى التقليد الاعمى لجميع مظاهر الحياة عند الغربيين ، وليس للاعجاب غير المحدود والتقليد الاعمى نتيجة الا العجز وتسليم الارادة للجهة التي هي محل الاعجاب ومناط التقليد . وكان فيلسوفنا الاجتماعي عبد الرحمن ابن خلدون قد تحدث في مقدمته عن ولع المغلوب بتقليد الغالب ، واعطى امثلة على ذلك مما صار اليه حال المسلمين في الاندلس بعد القلة والذلة ، ولم يحضر رحمه الله نهاية الاندلس المسلمة ولكنه تنبأ بمصيرها بسبب ما ذكر .. فهل يمكن القول ان العالم الاسلامي اليوم يمر بالتجربة التي مرت بها الاندلس وان نهايتها ستكون هي نهايته ؟ !

انه ما من شك في ان حالة الاسلام اليوم هي اقبح مما كانت عليه في الاندلس ، ولكن المسلمين سوف لا يطردون من بلادهم — وان كانت بادرة فلسطين لا تحمل على الاطمئنان كثيرا — كما طردوا من الاندلس ، وانما الذي يقع ، وهو جار بالفعل ، ان يطرد المسلمون من حظيرة دينهم ، وان يجردوا من كل ما يميزهم عن غيرهم من شعارات ومظاهر ، وان ينسلخوا من ربقة الاسلام ورابطته شيئا فشيئا حتى لا يبقى بيدهم الا هذه القوميات الضيقة التي هي الى التقاطع ادعى منها الى التواصل ، وبذلك يحارب بعضهم بعضا مع الاجانب وبدونهم ، وبذلك لا تقوم لهم قائمة بعد ولا يزالون يسبحون في فلك المستعمر وان جلا عن ارضهم .

ان فكرة القومية والوطنية كانت هي اول ما غزا عقول الجيل الراهن من المسلمين ، ولما تخلصت البلاد الاسلامية من الاستعمار السياسي بفضل الشعور الديني لا بفضل القومية والوطنية والانقلاب التركي نفسه لا يستطيع نكران هذه الحقيقة جاءت خدعة نظام الحكم عند الغربيين ، فاستولت على افكار هذا الجيل ، فهذا مغرم بالديموقراطية ، وهذا بالاشتراكية منها خاصة ، وهذا بالشيوعية ، وهذا بغير ذلك ، اما نظام الحكم الاسلامي فلم يعد يشغل حيزا من فكر الزعماء والقادة ، والمتمسلم منهم من يلطخ دعوة الاسلام ودستور القرءان فيصمها بهذه الاسماء المدخولة ، ويتحدث عن ديموقراطية الاسلام والاشتراكية الاسلامية ، وربما في يوم قريب نسمع حديثا عن الاسلام الشيوعي .

لو شبهت هذه الديموقراطية ومذاهبها المختلفة بالاسلام لكان ذلك طعنا في حقه ، فكيف يشبه ما اتى به من قيم عليا ومثل سامية بالديموقراطية او الاشتراكية وما اليهما ... ان هذا النظام الذي لا ضمير له الا الرشوة ولا قانون الا الميز ، حرام ان يقاس به النظام الذي جعل صهيبا وبلالا وسلمان في مستوى واحد مع ابي بكر وعمر وعلي .

وبعد الاصفاق على نظام الحكم الاسلامي في العالم الاسلامي كله ، واجه اصحابنا القوانين والاحكام والعقود ، فلم يترددوا في اقتباس القوانين الغربية ومجلات احكامها ، بل انتساخها وترجمتها بالحرف ، انه العجز الذي تحدثنا عنه ءانفا لا يساعدهم حتى على الاقتباس ، وهكذا بعد ان كان الحاكم يحكم باسم الله صار يحكم باسم غيره ، لان الغربي اسقط الدين والاعتقاد والشرع الالهي من حسابه ، فمقلده الذي هو اهون منه لا يمكن ان يكون الا كذلك ، ولم يحكم باسم الله وهو لا يحكم بشرعه ، اللهم الا هذه العقدة التي واجهت اصحابنا في كل بلد اسلامي ، وهي عقدة الاحوال الشخصية ، فمن حيث ان الاجنبي لم يهتم بها حتى يقننها فيوفر عليهم تعبا كبيرا ، كانوا مضطرين لتبويبها وتفصيلها والتبجح بعد ذلك بانهم قاموا باعظم اصلاح للقانون الاسلامي ، وانصاف المراة المسلمة المهضومة الحقوق المستباحة الحرمة ...

نعم لقد هضمت حقوقها واستبيحت حرمتها حقا ، ولكن بعد انصافهم لها ، فبينما لم تكن توجد في البلاد الاسلامية ارملة ولا عانس ، صارت هذه البلاد اسوة ببلاد الحضارة الزائفة تعج بالنساء المحرومات من دفء الزوجية ، وبعد ان كانت الفتاة مطلوبة صارت طالبة ، وبعد ان كان الطهر والعفاف شعار المجتمع الاسلامي صار الفسق والفجور وخيانة الزوجية الطابع الغالب على هذا المجتمع .

ان الفتاة المسلمة التي كانت كالزهرة الناضرة ، والتي كانت لا تمتد اليها عين فاحرى يد بسوء ، صارت الآن تغشى المحافل والمجتمعات الراقصة ، وتبرز وهي كاشفة اطرافها ومبدية زينتها بل عارضة لمفاتنها ، مخالفة المخالفة الصريحة العلنية لتعاليم القرءان وسنة

الاسلام بحجة الحرية الشخصية والتقدم والنهوض ونبذ الحجاب ، وما كان الحجاب الا عادة اتخذتها نساء الحاضرة وقاية لانفسهن من الاذى ، وما كان الحجاب الا نوعا من التنكر تختاره السيدات حين اضطرارهن لقضاء بعض اغراضهن من غير تعرض لفضول المتطفلين .. اما التهتك والاستهتار والمخاصرة والرقص فلم تكن قبل ولا بعد من شرع الاسلام ولا من قانون الاخلاق .

وماذا في التعليم ؟ لقد اخذت اللادينية في طريقها ، وصرنا احرص الناس على ادماج التعليم الديني في التعليم المدني بعد بخس حظ هذا الثاني من اصول التربية الدينية النظرية بل العملية ، وبقدر ما كانت مراكز التعليم الديني حصونا للفكرة السياسية التي تدعو الى التحرر من النير الاجنبي وحصونا كذلك للغة العربية وآدابها يوم كان الاستعمار يطاردها من كل مكان ، بقدر ما صارت اليوم عند هؤلاء المقصرة اوكارا للخيانة ومباءات للرجعية يتربص بها الدوائر ويسخر منها ومن رجالها في كل فرصة ومناسبة .

اما الاقتصاد والنظم المالية فقد تبع العالم الاسلامي فيها النظريات الغربية ، وخاصة في البلدان الراسمالية القائمة على الاحتكار والاستغلال والاثراء الفظيع على حساب الطبقات الكادحة والمستهلكين من الشعب مع التعامل بالربا الحرام والتسامح في فتح اندية الميسر والقمار واماكن اللهو « البرىء ؟ » وغير البرىء » مع انا نجد التعامل بالربا ممنوعا في بلاد اروبا الشرقية ، والقمار غير مسموح به في كثير من البلدان الراقية ، والخمر كان ممنوعا في امريكا مدة رياسة « هوفر » وما رفع عنه المنع بعد الا لاسباب لا تتعلق بمبدا المنع .

اما في بلادنا فاذا تجرا المشرع وقرر بعض ما اتى به الشرع الاسلامي في هذا الصدد من منع تعاطي الخمر فانه لم يستطع ان يمنع بيعه على المسلمين ، والشارع المعصوم صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله اذا حرم شيئا حرم ثمنه . وليس هذا فقط فانه قلما تقام حفلة خارج البلاد او داخلها الا وكان الخمر عنصرا مهما من عناصر اقامتها ارغاما لانف الاسلام وارضاء لمن كفروا به من قبل ، استغفر الله بل اشباعا لنهمة جشعة وارواء لغلة هيمى . ولكل جديد لذة كما يقولون .

ولقد حدثني صديقي م ، كوبي المسلم الهولاندي ان المسلمين في عاصمة هولاندة لاحظوا على بعض السفارات الاسلامية مثل هذا الصنيع ، فقيل لهم انها مجاملة لمن يحضر الحفلات من غير المسلمين ، فقالوا ولم لا تقدم سفارة اسرائيل لحم الخنزير في مآدبها ؟ الانها لا تعرف المجاملة وما يجاملها القوم اكثر مما يجاملونكم ؟! .

حقا انها مهازل ، انها المضحكات المبكيات .

فهذه هي النكسة التي اصابت الاسلام في هذا العصر ، وما يرجى له منها افاقة ما دامت مقاليد الامور في بلاده ، بيد هذا الجيل « الاجنبي » على الاسلام والمسلمين ، هذا الذيل المتن الذي رصده اعداء الاسلام ليذودوا به عن انفسهم كل من يشوش عليهم من حشرات وطفيليات ؛ والمسخ هو ذلك الفهم الخاطىء لمبادىء الاسلام وذلك التطبيق الاعوج لبعض احكامه الذي يحاول به بعض المتمسلمين التغرير بالجماعات المؤمنة موهمينها انهم من المصلحين الاسلاميين والمجددين الدينيين .

ان المسلمين فيما مضى كانوا يعرفون الخطر الذي يتهددهم فيواجهونه جميعا فينتصرون ، واليوم يلبس عليهم الشيطان ويسمي لهم الاشياء بغير اسمائها الحقيقية ويدس فيهم من يدعوهم الى التحلل واللامبالاة ، فيفسدون اخلاقهم ويثبطون عزائمهم وقد اصبح اكثرهم عبدا لشهوته فهو لا يقبل الا ما يوافق هواه ، ومن هذه الثغرة اخذوا ، ولو كانوا اقوياء النفوس لما انقادوا في حبل الشيطان ودعاية المارقين . ان الامر جد ، فيجب ان تتخذ له اهبته ، وعلى الدعاة والمرشدين ان يجندوا انفسهم لتعريف المسلمين بما يحيط بهم من الاخطار وليصارحوهم بان اكثر ما هم عليه ليس من الاسلام في شيء ، فان عزموا امرهم على التمسك بدينهم فليراجعوا سيرة سلفهم الصالح وليحاربوا اهواءهم استعدادا لتحمل الامانة من جديد، مهاجرين ما نهى الله عنه ، مجاهدين بنية لاحياء مجد الاسلام واعزاز كلمته ، ويومئذ يحق لهم ان يفخروا بتحرير اوطانهم واحراز كيانهم، **(ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله)** .

الاسلام بين الماضي والحاضر

للأستاذ
أبي العباس احمد التجاني

المرحلة التي يجتازها المغرب في فجر العهد الجديد سيجعل منها التاريخ حدا فاصلا بين عهدين :

ماض يرى الحياة هي في الاستمساك بالقديم والمحافظة على ما اورثه الاجداد للاحفاد بعجره وبجره من غير مناقشة ولا تمحيص ، حتى كان هذا التراث القديم حبس على الامة يحترم بحرمته **((فمن بدل او غير فالله حسيبه وولي الانتقام منه))** .

وحاضر كشفت له مدرسة الحياة اليومية بما فيها من علم ينشر واذاعات ومجلات ومحاضرات على ان الماضي على ما فيه من مقدسات يحمل بين طياته اوزارا ومخدرات كانت السبب في الفتور العام الذي خيم على المسلمين افرادا وجماعات واسما اينما كانوا وكيفما كان نظامهم السياسي ، فتور اورثه طول الامد وتصاريف الاحداث السياسية والاجتماعية كما هو الشان في البشر حسبما اخبر به الكتاب : **((الم يان للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم))** . والنبي عليه السلام من جهته يقول في نفس الموضوع : **((لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه))** الامر الذي استيقن معه شباب اليوم انه يستحيل عليه والحالة هذه ان يحيى الحياة التي تستحق ان يحياها الانسان اعني حياة العز والكرامة.

فما هو السبيل للتوفيق بين ماض ارتضى فلسفة لحياته الاجتماعية عدم الحركة ((لا تدبر لك امرا نحن اولى بك منك)) وحاضر وجد نفسه في معترك حياة تنبعث منها عوامل تشتد وطاتها دواما واستمرارا تدعوه بمزيد الالحاح الى الانسجام مع ركب الحضارة ، فاما انسجام واما انعدام بلا هوادة ولا شفقة .

اذا كانت الوضعيتان ، وضعية الماضي ووضعية الحاضر بلغتا من التعارض الحد الذي وصفت فهل من سبيل الى ايجاد حل يرضي الطرفين ؟

لو كان الامر بين غير المسلمين ما توقفت ساعة في القول بان الكلمة تكون للثورة كما يجري بمسمع منا من حين لآخر في جمهوريات امريكا الجنوبية ، اما والامر بين مسلمين ابناء وطن واحد تجرعوا مرارة فقدان الاستقلال ، وتحملوا ما تحملوا من عجرفة الاستعمار ، وهم مع ذلك يعيشون تحت ظل كتاب واحد ، لا تزال حرارة انفاس جبريل تتصعد منه جدة وطراوة ، كتاب لاحت سطوره في رمال الصحراء فغدا من حراسه الليل والنهار الى ان يغمض هذا الوجود الجفن في دار القرار ؛ اقول امة كهذه من الهين عليها ان تجتمع اتجاهاتها على نظرية واحدة في ميدان الاصلاح ان تجنب الفريقان الاصرار على الراي والتعصب للتقاليد القديمة بما فيها من غث وسمين ، مع الفات الاهتمام الى ملاحظتين لا يتم تصور المسالة الا بالعمل بمقتضاهما :الملاحظة الاولى ان الكلام في الاسلام بوجه عام وعلى القرآن بوجه خاص يوجب على من يخوض فيهما ان يجعل دائما نصب عينيه ان رسالته عليه الصلاة والسلام عامة : **((وما ارسلناك الا كافة للناس)) ((قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا)) ((واوحى الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ))** .
وحيث كانت بهذه المثابة فهي صالحة لان تعرض على الاحمر والاسود ، على الصيني وعلى الامريكي بلا احجام ولا احتشام ، وفي هذا الصدد كم وكم من اساطير وخرافات في الكتب المتداولة يستحي من ذكرها لابناء المدارس فضلا عن الشباب المثقف ، فما الظن بالاجانب بمن فيهم من مستعمرين وعلماء يشفي غليل صدورهم اكتشاف ما يعينهم على الطعن في الاسلام والكيد لاهله . لذلك يتعين على الشعوب الاسلامية اليوم وقد اخذت تتحقق تباشير الاتحاد فيما بينها ان يبادروا

الى ما اسميه (تطهير قناة الاسلام) وذلك بتمحيص ما بين ايدينا من الكتب المعتمدة واستخراج ما كان منها صالحا لبناء مجتمع جديد يتماشى مع العصر، وفي هذا السبيل تجب البداية بتفسير القرآن ، فان الكتاب العزيز جاء نظمه في صورة دائرة معارف تكلم على العقائد وما هو من حسابها من العلوم الروحانية ، وعلى الاحكام مدنية وجنائية ، وعلى التاريخ والفلك ، واهتم بامور الطب والجغرافية ، وعلم النباتات ، وهلم جرا . وحيث كان بهذه المثابة كان اعظم من ان يتولى تفسيره مفسر واحد ، فقد دل العيان وقاطع البرهان على ان الواجب ان يعهد امر تفسيره الى لجنة من علماء مبرزين في علوم القرآن ، مستظهرين له ليسهل عليهم استحضار سوابق ولواحق الآيات ، وما لبعضها من اشباه ونظائر مبثوثة في مختلف السور ، والتمييز بين المحكم والمتشابه ، فيردوا المتشابه الى المحكم الذي هو الام ، وحاشا ثم حاشا علماء الاسلام ان يضيقوا ذرعا بمشروع حيوي كهذا . وبعبارة اخرى ان هذه ثلمة في عالم العروبة تجب المبادرة الى تلافيها لا سيما في هذا العصر الذي نعيش فيه . عصر المنظمات العالمية والمؤتمرات العلمية والمعاهد وما يلقى في رحابها من محاضرات ومسامرات ، فمن المحتمل ان تقترح جمعية من الجمعيات في يوم من الايام : عقد مؤتمر للبحث في الديانات ، والمقابلة فيما بينها ، افلا يحق للامم الاسلامية ان يعدوا للامر عدته حتى لا تفاجئهم هذه المناظرة المحتملة الوقوع ؟ ان الحكيم من لا تفاجئه الحوادث .

الملاحظة الثانية ان اولادنا اصبحوا يتخرجون من الكليات والجامعات ومختلف المعاهد المفتحة ابوابها امامهم في الشرق الادنى : القاهرة ودمشق . وفي اوربا ، يتلقون فيها العلوم العالية من فلسفة اجتماعية وحقوق ومنطق ، سلام مقرون بوداع لذلك العهد الذي كان يشب فيه الابناء على ما عاش عليه الآباء وان كان لا يعتمد على اصل او مستند كيفما كان ، فحذار ثم حذار ! ان الابناء اصبحوا اليوم يعرضون ما يسمعونه من الآباء ومن غيرهم على محك النظر والمقتضيات الاجتماعية ، يناقشون ويعارضون في الكليات والجزئيات سواء في الامور الدينية والامور الدنيوية ، فان هم لم يجدوا ما تطمئن اليه قلوبهم وتنشرح له صدورهم ، ساورتهم الشكوك ، والشكوك مدرجة الى الزهد في الدين بل قد ظهرت بوادره في بعض الشبان الذين اصبح الاسلام في اعينهم جنسية وطنية لا دينا سماويا .

قلت واكرر القول بان ما عرا المسلمين من فتور من الناحية الخلقية والثقافية لا تجتث عروقه الا بالصراحة العمرية ، ومن الصراحة العمرية ان اقول بان جيل اليوم لا يستسيغ من الآثار ما كان من جنس ما هو شائع وذائع : «خلقت هؤلاء للجنة ولا ابالي ، وهؤلاء للنار ولا ابالي» كل ما هو من هذا القبيل من الآثار والاسانيد لا يتفق مع ما جاء من الآيات في وصف العدل الالهي والسنن التي سنها فيما بينه وبين عباده ، اقتصر منها على ما يأتي : ((**ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ـ يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ـ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امد بعيدا ـ وانما توفون اجوركم يوم القيامة ـ والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فاولائك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولائك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ـ فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين ـ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين ـ ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون ـ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ـ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين ـ يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ...**)) .

يستخلص من هذه الآيات البينات ان كل ما جاء من الآثار والاخبار على اختلاف مصادرها مما مؤداه التثبيط عن العمل ، والاستسلام لتصاريف الايام من امثال ما يجري على الالسنة بين سائر الطبقات : ماترك من الحمق شيئا ، من اراد ان يظهر في الوجود غير ما اظهره الله . لا تدبر لك امرا نحن اولى بك منك ـ الحركة والسكون باذن الله ـ كله لا يتفق مع روح القرآن الذي جاء على طوله بالحث على العمل ، واناطة السعادة بالعمل يشهد لهذا ان لفظ العمل على اختلاف صيغه : من اسم ، وفعل امر ، او خطاب ، او غيبة ، تكرر ذكره في القرآن ما لا يقل عن 269 مرة ، وبطبيعة الحال ان ما لا يتفق مع تعاليم القرآن ، لا يتفق كذلك مع تعاليم الصادق الامين ، صلوات الله عليه وسلامه ، بحكم انه كان خلقه القرآن ، جاء عنه عليه السلام انه قال : ((**والذي نفسي بيده ما تركت شيئا يقربكم من الجنة الا امرتكم به ، وما تركت شيئا يقربكم من النار**

وباعدكم من الجنة الا نهيتكم عنه » وقال : « **خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » مثلي معكم كمثل رجل استوقد نارا فلما اضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الحشرات تتساقط فيها وجعل يحجزهن فيغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم من النار وانتم تقتحمون فيها .**

« الايمان والعمل اخوان شريكان في قرن لا يقبل الله احدهما الا مع صاحبه » الطاعم النائم في الجهاد خير من الصائم القائم في سواه ـ المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل شيء احرص على ينفعك ولا تعجز ، واستعن بالله ، فان غلبك امر فقل قدر الله ـ رحم الله رجلا ممسكا بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها » .

امام هذه الغرر والدرر اين نحن من تلك الاقوال المجهولة المصادرة في الغالب مما مؤداه : ارسال الحبل على الغارب والاحالة على المقادير في كل مناسبة وبدون مناسبة .

هذا وان طبيعة الكلام قضت بان اطـــرق الآن مسألة هي احر من جمر الغضى بان افتح باب حوار لتمحيص ما يجري على الالسنة من امثال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . اعملوا ولا تتكلوا ، يحملهما الناس على معنى يرمي الى اخماد روح المقاومة في الانسان ، واقناعه بالاستسلام لما يأتي به الليل والنهار . والذي يقال في هذا الباب ان السنة القولية ، الاحـــوط والاسلم فيها ان تفسر بالسنة العملية ، فلننظر اذن في السنة العملية ولنعرض عليها ما نحن فيه فاقـــول : هذان الخبران : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ـ اعملوا ولا تتكلوا ـ ان صح انهما حديثان ، لا يمكن الجمـــع بينهما وبين ما جلبته اعلاه ، وان سلك المتأولون ما سلكوا من مضائق التأويل ، ولو الى الحد الذي يقول فيه القائل :

لي صاحب افديه من صاحـــب
حلو التأني حسن الاحتيـــال

لو شاء مـــن رقـــة ألفاظـــه
الف ما بين الهدى والضـــلال

واما ما يرجع للسنة العملية ، وسامي درجتها في التاريخ العالمي ، فاليكم ما قاله المؤرخ الشهير لامرتين في كتابه تاريخ تركيا : « جميع الرجال النوابغ الذين عرفهم التاريخ برزوا في ناحية واحدة من نواحي النشاط البشري ، بعضهم اشتهر في الميدان العسكري، وبعضهم في النظام الاجتماعي ، وبعضهم في النظام السياسي ، وهكذا الا نبي الاسلام ، فانه احرز على شهرة عالمية في جميع ميادين الحياة الرئيسية ، انها لخصوصية تدل على أن صاحبها تمده عناية خارجة عن الطوق البشري»

وعليه فاذا كانت السنة القولية تفسر بالسنة العملية ، امكن تخريج خبر : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » بان يكون معناه اعملوا فانكم ميسرون لما طوقتموه بما اودع الله فيكم من قوى ظاهرة وباطنة تمكنكم من صدق ما انعم به سبحانه عليكم فيما خلق لاجله، فالميدان امامكم فسيح والمحجة امامكم واضحة ، فاستبقوا الخيرات ، بهذا المعنى ، لا بالمعنى الذي يجري علـــى الالسنة ينسجم الخبر مع ما جاء من الآيات الحاثة على العمل ، وهو المعنى الذي يتفق مع روح القرآن ومع الآيات التي جلبت طائفة منها .

انتقل الآن الى الخبر الثاني وهو : اعملـــوا ولا تتكلوا . فأقول ان معناه لا يخالف معنى الخبر الذي قبله وهو كسابقه يرغب في العمل وينهى عن الاستنامة لمجرد الاتكال ، انما الاتكال ما كان في دائرة قوله عليه السلام : « **المؤمن القوي احب واقرب الى الله مـــن المؤمن الضعيف وفي كل شيء احرص على ما ينفعـــك واستعن بالله ، فان غلبك امر فقل قدر الله ـ خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس .** نهى عليه السلام عن الاتكال الذي كان خلقا سائدا في بني اسرائيل معتبرين انفسهم شعب الله المختار ، ذلك الاتكال الذي حدا بهم الى قول ما قالوا : « **لن تمسنا النار الا اياما معدودة »** وفي معناه قوله تعالى : **ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني ،** متمنيات واحلام بنوا عليها اتكالهم .

واما المسلمون فان الله اختار لهم اساسا لتربيتهم قوله تعالى : « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ـ ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ـ وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ـ ربنـــا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ـ قل اذلك خير ام جنة الخلد التي وعد المتقون ، كانت لهم جزاء ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربك وعدا مسؤولا » .**

وبالاختصار ان من جملة اسباب الحشر والنشر والحساب ان يشاهد اهل العلم والشعور تطبيق ما اخبر به القرآن ، ويتجلى لهم انه بمثابة تصميم تجري على مقتضاه امور الآخرة نجد هذا في قوله جل ذكره : **« وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة قل بلى وربي لتاتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط اولائك لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولائك لهم عذاب من رجز اليم، ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد .**

وختام الكلام فيما يتعلق بخبر « اعملوا ولا تتكلوا » ان العبد المطيع لربه ، اذا اتكل على عمله ، انما هو في الحقيقة متكل على كلام ربه الذي وضع فيما وضع من السنن ان العمل يترتب عليه جزاؤه **« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »** . وترتب الجزاء على العمل هو الذي يسوغ لاصحابه ان يقولوا : **« وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين » « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ »** .

هذه هي تعاليم الكتاب الذي نسأل عنه يوم يقوم الناس لرب العالمين **« فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون »** ومهما كان الامر اذا كان العمل لا يترتب عليه اثره من خير او شر فما معنى قوله تعالى : **« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »** ، لماذا قسم الناس قسمين ؟ قسم لم يبعث لهم رسول ، وقسم انذروا على لسان رسول ، ما ذاك الا لان المنذرين انيطت بهم مسؤولية اعمالهم بخلاف غيرهم اهل الفترة وفي معناه : **« ... فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين »** ، فالمسؤولون عن اعمالهم انما هم الذين جاءتهم الرسل وهم الذين يحيق بهم ما استوجبوه من العقاب : **« وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم »** .

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، فانت اولى من رحم وخير مدعو دعي .



قرية آيت بن عدو بالاطلس الكبير

بمناسبة حلول السنة الهجرة الجديدة

من معاني الهجرة النبوية

للأستاذ: محمد الطنجي

ليس اثر الاسلام بالشيء الهين فى الوجود حتى يغفل وينسى تاريخ ظهوره ، سواء بالنسبة لاتباعه او الخارجين عنه ؛ لانه من احداث العالم الكبرى التي احدثت انقلابا عظيما فى المعتقدات والافكار والمعاملات والعبادات وسائر المرافق والاحوال الاجتماعية ، وان الباحث المنصف اذا وضع خرائط العالم امامه وتأمل النقطة التي كانت مبدا انطلاق الاسلام وكيف انتشر ، وتأمل كذلك قصر المدة التي انتشر فيها لياخذه العجب ، واذا درس احوال الامم الاجتماعية سواء فى الامم التي اعتنقت الاسلام او التي تأثرت به ليندهش من عموم هدايته وسيطرة اخلاقه وآدابه على كثير من بقاع المعمور ، ولا يقل اعجاب المفكرين فى آثار الاسلام كذلك اذا بحثوا عن تلقيحه للافكار والعقول ، حيث تكونت بهذه الحركات الفكرية والعملية حضارة مزدهرة صهرت الحضارات التي سبقتها فى بوتقة واحدة وطبعتها بطابع جديد واخرجتها للعالم تزهو فى حلل الجمال والكمال .

فاي حدث عظيم فى التاريخ يوازي هذه العظمة؟ واي دين فى الوجود استوعب كل مقوم من مقومات الامم فى ارقى صوره وابدع اشكاله واقربه للعقول السليمة والفطر القويمة ، فجعله من عناصر التكوين للامم الاسلامية والعربية الخالدة ؟

وهذا ما دفع الصحابة للاتفاق على جعل هجرة الرسول من مكة المكرمة الى المدينة المنورة مبدءا لتاريخ الامة الاسلامية لانهم اول المعتقدين به واول المتاثرين باصلاحه العام الشامل ، واول المصدقين بوعوده التي تحققت على اكمل الوجوه ، ومن اهمها الانتصار على دولتي الروم والفرس وانفاق كنوز كسرى وهرقل فى سبيل الله .

والعرب هم اصل الاسلام ومادته وهم عماد نصرته ، واعظم دعاته الممتحنين فى سبيله بانواع المحن والمجاهدين لاعلاء كلمته الباذلين لاموالهم ونفوسهم بكل كرم وسخاء .

ومن اعظم هذه المحن والتضحية بالنفوس والاموال ، الهجرة التي قام بها الرسول الاكرم وفريق كبير من اصحابه ، والتي كانت نقطة تحول فى تاريخ الاسلام ومبدء انتصافه من خصومه الاولين ، والصفحة الاولى من صفحات العزة والمجد التي اخذ الاسلام يسجلها لاول مرة فى شبه الجزيرة العربية قبل نشر دعوته فى اقطار المعمور ، وقد ذكر السهيلي فى الروض الانف ان ابتداء التاريخ الهجري يوخذ من قوله تعالى عند ذكر اول عمل قام به النبي بعد الهجرة وهو بناء مسجده ، حيث قال تعالى : لمسجد اسس على التقوى من اول يوم احق ان تقوم فيه » قال السهيلي : وفى قوله سبحانه من اول يوم — وقد علم انه ليس اول الايام كلها ولا اضافه الى شيء فى اللفظ الظاهر — فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم فى التاريخ ، فاتفق رايهم ان يكون التاريخ من عام الهجرة لانه الوقت الذي عز فيه الاسلام ، والذي امر فيه النبي صلى الله عليه وسلم واسس المساجد وعبد الله آمنا كما يحب فوافق رايهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم ان قوله تعالى من اول يوم ان ذلك اليوم هو اول ايام التاريخ الذي يؤرخ به الآن ، فان كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذوا هذا من الآية فهو الظن بافهامهم ، فهم اعلم الناس بكتاب الله وتاويله ، وافهمهم بما فى القرآن من اشارة وافصاح ، وان كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد ، فقد

علم ذا لكمنهم قبل ان يكونوا ، واشار الى صحته قبل ان يفعل ، اذ لا يعقل قول القائل فعلتـه اول يوم الا باضافة الى عام معلوم او شهر معلوم او تاريخ معلوم ، وليس ههنا اضافة فى المعنى الا الـى هـذا التاريـخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفـظ او قرينة حال ، فتدبره فقيه معتبر لمن اذكر ، وعلم لمن راى بعيـن فؤاده واستبصـر .

ولهجرة النبي واصحابه معنى خاص قد يغاير كثيرا معنى الهجرة اللغوي الظاهر من هذا اللفـظ الذي هو انتقال من مكان استقرار الى مثوى استقرار آخر ، اعتبارا للظروف التي احاطت بهذه الهجرة ، والمبادىء التي حملت المومنين الصادقيـن عليهـا ، والعصبية التي دفعت المشركين الى شـدة اذايـة المسلمين حتى اخرجوهم من ديارهم واموالهم بغيـر حق الا ان يقولوا ربنـا الله .

فهجرة الناس كثيرا ما تكون الى المصالح الدنيوية مثل التجارة او الزواج او الحرث وانتجاع المراعـي وما يدخل فى هذه الابواب ، اما الهجرة الى اللـه ورساله لتقوية جانب المومنين المدافعيـن عن ديـن الله ، ولنصرة الرسول الاكرم ، ولتلقـي مبـادىء الاسلام وشرائعه من النبي او من يقوم مقامه فى تبيين دعوة الحق ، وللرغبة فى اقامة الشعائـر الدينيـة فى موطن آمن بكل حرية – ولو كلفت تلك الهجرة ترك الديار والاموال ومفارقة العشيرة فى اصعب الاحوال – فلها مغزى خاص واعتبار فى حقيقة صـدق الايمان ، وقد اشار النبي عليه السلام الى هذا المعنى الجليل ، والقصد النبيل ، ففـرق بين الهجرة لطلب المصالح الدنيوية ، والهجرة لنصرة المبادىء والزهد فى المصالح المادية ، حيث قـال الرسول (ص) فى الحـديث الصحيح : من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله (اي من كانت هجرتـه الى اللـه ورسوله نية وقصدا ، فهجرته الى الله ورسولـه مثوبة واجـرا) : ثم قال : ومن كانت هجرته الـى دنيا يصيبها او امـراة ينكحها فهجرتـه الى ما هجـر اليـه .

وقد نوه القرآن بالسـابقين الاولين من المهاجرين والانصار اعتبارا ببيع انفسهم لله والرغبة الصادقـة فى نصرة مبادىء دينه وطاعة اوامره واجتناب نواهيه مع الزهد فى كل ما يملك مـن اثـاث ومـال صامت وناطق ، فهذه الروح التي رفعت قـدر المهاجريـن الى عليين ، وسجلت اعمالهم المثاليـة فى سجـل الابطال الخالدين يجب ان تبقى حية فى قلب كـل مومن تحدوه الى هجر كل قبيح مثلما يدعوه الاسلام الى عدم تلويح لسـانه ويده بمس عـرض اي مسلم ، او بدنه بسـوء ، صيانة للاخوة الاسلامية من خدش كرامتها او تسخيم ديباجتها بمكروه من قول او عمل، فالكف عن جميع المكروهات مما توحي به الهجـرة والاسلام معـا ، ولهذا الجانب الخاص راعى الرسول العظيم عليه السـلام حيث قرن بين المسلم والمهاجر توجيها لهما للمعنى الاليق بهما فقال : المسلـم مـن سلم المسلمون من لسـانه ويده ، والمهاجر من هجـر ما نهى اللـه عنـه .

وللهجرة احكام خاصـة ، حيث كانت واجبة فى حالة القدرة عليها او عدم التمكن من اقامة الديـن بسبب فتنة المشركين للمسلمين عن اقامة دينهم بحرية تامة ، ولكن حين فتحت مكة وعـز الاسلام بدخول الناس فى دين الله افواجا قال الرسول الاكرم عليه السـلام : ذلك الحديث المشهور : لا هجرة بعـد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتكم فانفروا ، قال الحافظ بن حجر معلقا على هذا الحديث الصحيح لا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون ، اما قبل فتح البلد ، فمن به من المسلمين احد ثلاثـة : الاول قادر على الهجرة منه لا يمكنه اظهار دينه به ولا اداء واجباته ، فالهجرة منه واجبة . الثاني : قادر لكـن يمكنه اظهار دينه واداء واجباته ، فمستحبة لتكثير المسلمين ومعونتهم وجهاد الكفار والامن من غدرهـم والراحة من رؤية المنكر بينهم . والثالث عاجز بعـذر من اسر او مرض او غيره فتجوز له الاقامة ، فان حمل على نفسـه وتكلف الخروج منه اجـر .

وجعل الشيخ رشيد رضى فى تفسيـره السـبب الثاني المتعلق بهجرة الفرد هو مشروعية الهجـرة للتفقه فى الدين ، فلا يجوز لمن اسلم فى مكان ليـس فيه علماء يعرفون احكام الدين او يقيم فيه بل يجب ان يهاجر الى حيث يتلقى الدين والعلم .

ثم قال واما السـبب الثالث المتعلق بجماعةالمسلمين فهو انه يجب على مجموع المسلمين ان تكون لهـم جماعة او دولة قوية تنشر دعوة الاسلام ، وتقيـم احكامه وحدوده وتحفظ بيضته وتحمي دعاته واهله من بغي الباغين وعدوان العادين ، وظلـم الظالميـن ، فاذا كانت هذه الجماعة او الدولة او الحكومة ضعيفة

يخشى عليها من اغارة الاعداء ، وجب على المسلمين اينما كانوا وحيثما حلوا ان يشدوا ازرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، فاذا توقف ذلك على هجرة البعيد عنها اليها وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لا هوادة فيه » .

فأين هي الدولة النموذجية التي يتحدث عنها الشيخ رشيد في رضى تفسيره حتى نرى حدود شريعة الاسلام مطبقة ومنفذة تنفيذا تاما كاملا .

واين هو هذا التعاون المثمر لتقوية جانب الدول الاسلامية حتى تفرض وجودها وتحمي حماها ، وتكون مرهوبة الجانب يخطب ودها ويخشى بأسها ؟ ان من اول الوسائل لذلك الاتحاد والاعتصام بحبل الله . واين يوجد الاتحاد بين احزاب وجماعات الامة الواحدة ؟ فاحرى ان يوجد بين الدول العربية جمعاء والاسلامية كذلك ؟ ولكن التوفيق بيد الله (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا) .



ماء ونخيل بتافيلالت

من دمشق الى قرطبة

للدكتور حسين مؤنس

مدير المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد



عزيزي . . . . .

تحية واحتراما وبعد :

الف شكر لكم على ما ابديتم نحوي من عواطف كريمة ، لم يسعني معها الا ان ابادر بالاستجابة الى طلبكم . ومن ذا الذي يستطيع الا يستجيب الى « دعوة الحق » .

المقال الذي ابعث به اليوم اليكم رحلة في الزمان بين قرطبة ودمشق ، فقد اتيح لي ان ازور عاصمة الامويين في الصيف الماضي ، فأثار الانتقال من اندلس الغرب الى اندلس الشرق خواطر في نفسي ... سجلتها في هذه الصفحات ، وانا ابعث بها اليكم لعلها تحوز القبول .

شكرا على هديتكم ، لقد تقبلها المعهد شاكرا وأودعناها المكتبة ، واتيح لي ان اقرا الكثير من مقالاتها وابحاثها ، وازددت ايمانا بأنها بالفعل من احسن المجلات التي تصدر الآن في العالم العربي .

انني اتابع مجلتكم الموفقة عددا بعد عدد ، واسعد بما فيها من مادة ادبية فكرية ممتازة ، وتعجبني الانباء الثقافية التي تنشرونها في كل عدد، فان مجلتكم من هذه الناحية اغنى مجلة ادبية عربية .

الا حيا الله العروبة وبارك في الاسلام ، واعانكم على حمل الرسالة المباركة .

والسلام عليكم وعلى المغرب العربي الاسلامي الكريم .

حسين مؤنس

تعودنا ان ننظر الى الاندلس من خلال الدموع ، فما يكاد لفظ الاندلس يصافح السمع حتى تغيض القلوب بالحسرات وتجري الالسن بعبارات الاسف على الفردوس الذي ضاع والمجد الذي ولى والعز الذي مضى مع امس الدابر .

ذلك اننا معاشر العرب لم نتعود منذ خرج اجدادنا بدعوة الاسلام الا الظفر ، ولا نتصور ان ترتد راياتنا عن بلد رفرفت عليه مدة . ومنذ ان أنشا محمد صلوات الله عليه امته في المدينة ، وامرها في زيادة وظلها في امتداد ، ولقد غالبتنا الايام وغلبناها قرنا بعد قرن ، وتقلبت بنا صروف الدهر بين نصر وهزيمة ، ولكننا لم نخسر بلدا ضممناه الى جمعنا ، ولم تطو لنا راية في بلد رفعناها عليه الا في حالة الاندلس ؛ فقد قطعنا اليه الارضين والفلوات وادخلناه في دعوتنا وتكلم بلساننا واتجه وجهتنا ، وتألقت حضارتنا فيه وترددد اذاننا على مآذنه من مخارم جبال (البرت) المعروفة بالبرانس الى سفوح جبل الفتح المعروف بجبل طارق ، فلما استوى عوده واثمرت رياضه ، اصيب بما لم يصب به بلد اسلامي قبله او بعده : تفرق امره وانتشر نظامه ولم تنجح حيلة في ضم صفوفه ، وطمع فيه العدى

واقبلوا يستغلبون بلاده واحدة بعد اخرى ، واستصرخ اهله جيرانهم فاستجابوا ، ومضوا يدفعون عنه البلاء ، واستشهد منهم في ميادين الاندلس آلاف بعد آلاف ، والخطر مع ذلك محيط به لا يريم ، كانما هو قضاء قد حم ولا حيلة ، وما زالت حواضر الاندلس تتهاوى كأنها اوراق خريف حتى سقطت (غرناطة) اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وغرق الاندلس في ليل الزمان الطويل ، ولم تعد لدينا منه الا ذكريات تبعث الحسرات، وحرص العدو على ان يزيل آثارنا من ذلك البلد الذي كان لنا حتى لم يبق على مئذنة يتردد منها آذان ، او نفس يتردد بلغة العرب ، او قلب ينبض بدعوة الاسلام ، ولم يبق باديا للعين منه غير حطام يطفو على الامواج .

ولقد حل القضاء بهذا القطر وهو في ريعان شبابه: ففي السنتين الاوليين من القرن الحادي عشر الميلادي كانت جيوش المنصور ابن ابي عامر قد جمعت شبه الجزيرة كله الى لواء العروبة والاسلام ، ووصلت الى (شنت ياقب) في الطرف الشمالي الغربي واستعادت برشلونة ، وفي السنة الثالثة من ذلك القرن توفي المنصور ، وما هي الا سنوات ست حتى انهار البناء وتفرق الاندلس وزلزلت خلافته زلزالا شديدا ، وحلت باهل البلد لعنة الانقسام ، وبدات تصفية ذلك التراث العظيم . وهذا اشد ما يبعث الحسرة ، فقد ضيعنا بلدنا بايدينا ، وتهاونا بامره حتى ضاع ، فهي حسرة وندم ، وهي مأساة خلقية يستشعر كل منا نصيبه من مسؤوليتها .

ولقد كان الاندلس من بين افراد الاسرة العربية الاسلامية اصغر الابناء سنا ، فقد فتح بعد الشام ومصر بنحو ثمانين سنة ، وبعد بدء فتح المغرب بنحو سبعين سنة ، وكان مع هذا من انجب ابناء الاسرة واسرعهم نضوجا ، فقد تم فتحه اوائل سنة 95 للهجرة ، وما وافى عام 138 للهجرة حتى استقامت فيه دولة عربية مروانية قوية العدد ، مكتملة الادوات ، يرعاها عبقري من عباقرة قريش ، هو عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، وخلفه ابناء فحول عرفوا كيف يؤثلون الملك ، ويشدون السلطان ، ويقيمون راية العروبة والاسلام . فما قارب القرن الهجري الثاني على النهاية حتى كانت دولة الاسلام في الاندلس تضاهي دولة بني العباس في المشرق ، واشرقت قلوب اهل البلد بنور الاسلام وجرت السنتهم بفصاحة العربية على صورة لا تكاد نجد لها مثالا في قلب بلاد العروبة .

ففي ذلك الحين : (اواخر القرن الهجري الثاني واوائل الثالث) نبغ في الاندلس من اهل الدين والفقه ورجال الادب والفصاحة جمهرة لا تظفر بما يضاهيها في مصر مثلا ، الا في القرن الرابع الهجري على ايام الفاطميين ، ففي ذلك الحين كان يحكم الاندلس الحكم ابن هشام : امير ذكي قادر حازم يذكرنا بجده عبد الملك ابن مروان ، وتلاه عبد الرحمن الاوسط الذي جمع بين تقى عمر بن عبد العزيز وتدبير هشام بن عبد الملك وشاعرية الوليد بن يزيد ، وازهر بلاطه برجال يعدون من مفاخر العروبة والاسلام ، فيه الفقهاء من طبقة يحيى بن يحيى وعيسى بن مسكين وعبد الملك بن حبيب وزياد بن عبد الرحمن ، وشعراء لازلنا نردد اشعارهم كيحيى بن حكم المعروف بالغزالي ، وعباس بن فرناس واحمد بن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ، وفيهم قادة خفقت فوق هاماتهم الوية النصر ، وساسة عرفوا كيف يديرون الامر باحكم مما استطاعه وزراء بني العباس دون عسف للناس او جور في الجباية او مصادرة لذي مال ، ويكفي ان نذكر بني عبدة وبني شهيد وبني فطيس وبني رستم وبني الزجالي ومن اليهم ممن امتازوا بالاخلاص للدولة والحرص على صالح الرعية والتفاني في نصرة الاسلام ، وفي ذلك العصر بالذات كانت فارس ترتد من العروبة الى الايرانية ، وبعد ان جرت الالسن اهلها بلغة العرب خلال الفترة الاخيرة من عصر بني امية اخذت العربية تنحسر حتى تلاشى امرها فيما يلي العراق شرقا ، وكانت الشام تجتهد في الحفاظ على كيانها وحدودها بعد ان صرف بنو العباس نظرهم عنها واشتد وزراؤهم من الفرس على عربها ، وكانت عروبة مصر في دور التكون ، لم تجر السنة عامة اهلها بعد بالعربية ، ولم يفق اهلها بعد من دهشة الفتح الاسلامي وكان المغرب يستعرب رويدا رويدا تفرق اهله نزعات العصبية وخلافات المذهبية ، ما بين سنية مالكية تؤسس نفسها في القيروان ، وشيعية حيرى لا تستقر على حال في تاهرت ، وتشيع ضعيف غير واضح عند ادارسة فاس ، واباضية وصفرية وخارجية تتنازع قبائل البربر وتتقاسمهم ؛ في ذلك الحين كان الاندلس وهو اقصى بلاد الاسلام غربا واحدثها مولدا قد اصبح بلدا عربيا اسلاميا صرفا ، له شخصيته العربية وكيانه المستقل القوي وشعبه الذكي الدءوب وازهرت قرطبة حتى فاقت الفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة وما اليها من عواصم الاسلام الاولى ، وربما كان ذلك النضج المبكر والتصعيد السريع من اسباب الافول المبكر ايضا ، فان ذكاء المرء محسوب عليه ، والشهاب المتوهج يخبو باسرع مما يتلاشى في ظلام الافق تسود النجم الصغير الذي يتالق على بعد في هدوء ...

ولقد ذهب الناس مذاهب شتى فى تعليل هذا النضج الباكر الذي يبعث على العجب ، والاندلسيون انفسهم كانوا يردونه الى امتيازهم على غيرهم بالذكاء وحسن الاستعداد ، وكان لهم بانفسهم زهو واعتداد يبغضانهم فى بعض الاحيان الى معاصريهم ، وكانوا هم حريصين على ان يظهروا للناس امتيازهم ، فكـــان شعراؤهم يزرون بشعراء المشرق ويابون الا ان يضاهوا اعلامهم ، وكان فقهاؤهم لا يرضون عن فقه المشارقة حتى انهم لم ياذنوا لحنفي او شافعي بالاستقرار فى بلدهم ، فاذا ذهب طلابهم الى المشرق وجلسوا فى قاعات الدرس لم يكن لهم هم الا احراج الشيوخ والسخر مما يقولون ، فاذا وفد عليهم اديب او عالم مشرقي تجمعوا حوله واخذوا يتتبعون سقطاته واخطاءه حتى تضيق به الحياة فى بلدهم . واما اهل الجغرافية فيشيرون ذلك الى ان الاندلس جمعت بين الاقليمين الرابـــع والخامس ، فاذا كانت قرطبة وما وازاها فى الرابع فان سرقسطة فى الخامس ، وكان الناس يرون ان خيــر البشر هم اهل هذين الاقليمين ، وقد جمعوا للاندلس خيراتهما جميعا ، بل اضافوا اليه فضائل اقاليم اخرى: قال ابو عبيد البكري : « الاندلس شامية فى طيبهـــا وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هنديـــة فى عطرها وذكائها ، اهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى جواهر معادنها مدنية فى منافع سواحلها .

وربما تعرضنا لكثير من الخطأ اذا ذهبنا نطلب اسباب ذلك النضوج المبكر ، لان مراجع تاريخ الاندلس الاصيلة قد ضاع معظمها ، فلم يبق لنا مما كتب آل الرازي وابن حيان وغيرهم الا قطع صغيرة متفرقـــة تتعلق بعصور دون عصور ، ونواح دون نواح ،

وليس لدينا عن الاندلس فى عصره الاول شيء مفصل يشبه ما كتبه ابن عبد الحكم والكندي والمقريزي عـن مصر ، وما كتبه الحافظ بن عساكر عن الشام ، او ما كتبه الخطيب البغدادي عن بغداد . وذلك العصر الاول هو الذي يهمنا فى هذه الدراسة ، ولو عثرنا على ما كتبه احمد بن محمد الرازي وابنه عيسى وراويتهما ابــو مروان بن حيان عن الاندلس فى عصر الولاة وعن قيام دولة عبد الرحمن الداخل ، لاستطعنا ان نتحـدث فى شيء من الاطمئنان ، اما والحال كما نرى فليس امامنا الا فروض وآراء ، نجمع لها الادلة مما بين ايدينا من احاديث متفرقة وروايات متناثرة .

ولقد رأينا ابا عبيد البكري ، يقول : ان الاندلس شامية فى طيبها وهوائها ، ويردد ذلك القول معه معظم من كتب عن الاندلس ، بل ذهب بعضهم الى المطابقة بين الشام والاندلس ، فقالوا ان قرطبة هي دمشق ، او ان غرناطة هي دمشق ، واشبيلية حمص ، وباجة هـــي قنسرين ، وما الى ذلك ، ولم يكن قولهم هذا مجـرد تشبيه شعري بل هو يستند الى واقعية تاريخيـــة يعرفها الملمون بتاريخ الاندلس، خلاصتها ان ابا الخطاب الحسام بن ضرار الكلبي احد ولاة الاندلس قبل دخول عبد الرحمن ، ضاق بما كان بين اليمنية والشامية من حروب فى الاندلس ، فراى ان يفرق جند الشامية فى النواحي ليبعدهم عن العاصمة ، فاختار لكل طائفة منهم ناحية تشبه موطنهم الاصلي فى الشام ، نفرقهـــم فى خمس كور هي اشبيلية وجيان وباجة وريه والبيرة ، فنزلوا بلادا مثل بلادهم واستقروا فيها وكثـــروا وتمولوا ، واطلق كل منهم اسم موطنه القديم مـــن الشام على موطنه الجديد فى الاندلس .

وربما رد الاندلسيون امتياز انفسهم على غيرهم الى تاثير النجوم او الى انتشار العرب فى اقطارهـــا واختلاطهم باهلها ، فابن غالب مثلا يقول فى كتابـــه « فرحة الانفس » : ان بطليموس جعل لهم من اجل ولاية (الزهرة) لبلادهم حسن الهمة فى الملبس والمطعم والنظافة والطهارة والحب للهو والغناء وتوليد اللحون، ومن اجل ولاية (عطارد) حسن التدبير والحرص على طلب العلم وحب الحكمة والفلسفة والعدل والانصاف » ثم يقول بعد ذلك : واهل الاندلس عرب فى الانساب والعزة والانفة وعلو الهمم وفصاحة الالسن وطيب النفوس واباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما فى ايديهم والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنيـــة ؛ هنديون فى افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيهـــا وضبطهم لها ورواياتهم ؛ بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم ونباهتهم وذكائهم ... الى آخر كلامه الذي لم يغادر فيه فضيلة من فضائل البشر الا نسبها الى اهل بلده .

والقارىء لمثل هذه الاقوال يرى ان الاندلسيين كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بان الله خصهم بما لم يخص به غيرهم ، وكانوا لا يرون حرجا فى التحدث عن انفسهم فى فخر المعجب بنفسه ، المدل على غيره ، فقد كانوا يرون ان ذلك امرٌ مسلم به لا يحق لاحد ان يماري فيه ، وانما هم كانوا يبحثون عن اسباب هـــذا الامتياز .

ولو مضينا نقرا ما كتبوه عن انفسهم فى ذلك المعنى لعجبنا من ذلك الشعور العام الذي كان يمــلا نفوسهم بانهم ممتازون ، بل لوجدناهم يتسابقون فى ذلك ، فما قال قائل منهم شيئا الا استقله غيره وزاد

عليه ، فعلي بن سعيد مثلا يورد كلام ابن غالب الذي ذكرناه ثم يقول : « يعلم الله تعالى اني ما اقصد الا انصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصب ولا يجمح بهم الهوى ، ولكن الحق احق ان يتبع ، فلعل مطلعا يقف على ما ذكره ابن غالب ، فيقول : هذا الرجل تعصب لاهل بلده ، ثم يغمس المتابع له والراضي بنقل قوله ، ويحمله على ذلك بعده عن الارضين :

ولو ابصروا ليلى اقروا بحسنها
وقالوا بأني في الثناء مقصر

ويذهب ابن حزم الى ابعد مما ذهب اليه ابن سعيد في الاعتزاز باهل بلده وفضائلهم واذا كان ابن سعيد داعية كثير الكلام والتاليف دون علم كثير ، فان ابن حزم في الذروة من علماء الاسلام سعة اطلاع ودقة فهم وقوة حافظة وقدرة على الجمع والتاليف والتدوين ، وهو لهذا يسلك في التدليل على امتياز الاندلسيين مسلك العلماء ، فينشيء رسالة في فضل الاندلس لايدع فيها عالما من علماء المشرق الا وضع بازائه رجلا من رجال الاندلس وقال انه اعلم منه واعظم ، ثم يأتي بالاحاديث النبوية الشريفة ويستخرج منها ما يدل على شهادة الرسول صلوات الله عليه بفضل الاندلسيين على غيرهم ، ثم يقول : واما في قسم الاقاليم فان (قرطبة) مسقط رؤوسنا ومعلق تمائمنا مع (سر من رأى) في اقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا ، وان كانت الانوار لا تاتينا الا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للاحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق اكثر البلاد بارتفاع احد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من ادلة التمكن في العلوم والتفاني فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر واباتته التجربة » .

ويؤيد ذلك ابن بسام في فاتحة الذخيرة ، ويعلل الامتياز بان اشراف عرب المشرق افتتحوها وسادات اجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيها بكل اقليم على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر وشاعر قاهر .. ثم يقول : انه الف كتابه مضاهاة ليتيمة الدهر للثعالبي في فضائل المشارقة ، لكي يثبت ان اهل الاندلس اذكى وافهم واقدر ، وقد اورد المقري في النفح رسالة ابن حزم ، وعقب عليها برسالة الشقندي في فضل الاندلس وامتيازها على المغرب .

وواضح جدا ان هذه الامثلة التي ذكرناها انما تدل على شعور قومي صحيح كان يعمر قلوب اولئك الاندلسيين ، واذا كان اهل الاقطار الاسلامية الاخرى يعتزون بأمة العرب عامة ، ولا يرون الا انهم مواطنون في الدولة العربية الكبرى ، فلا يعتز اهل بلد منهم على اهل بلد ، فان الاندلسيين كانوا يشاركون غيرهم في ذلك ثم يميزون انفسهم من دون الناس ، ولم يكن شعورهم هذا مجرد حماس ادباء ، بل كان حقيقة يؤيدها سلوكهم العام ، فتجدهم خارج بلادهم متضامنين متكاتفين ، ما نزلوا بلدا الا كانت لهم فيه جالية متماسكة يعين بعضها بعضا ثم يعينون القادم الغريب منهم على الحياة ، ففي مدائن المغرب كلها من فاس الى القيروان كانت الجاليات الاندلسية قوية متماسكة حريصة على ان يكون لافرادها السبق والامتياز ، وكانت لهم في مصر جالية غنية ترعى شؤونهم ، اما في الشام والحجاز فكان هناك من الاندلسيين من وقف ماله على رعاية شئون اهل بلده ، وذلك واضح في رحلة ابن جبير .

وربما بدا لنا ان هذا الشعور القومي الاندلسي يتنافى مع ما اصاب الاندلس من تفرق وضياع ، واذا كان هذا مبلغ حبهم لوطنهم فكيف استغلب النصارى بلادهم واحدة بعد اخرى دون ان ينهض الجميع للدفاع ؟ والحقيقة الا تعارض بين الامرين ، والسبب فيما وقع يرجع الى طبيعة شبه الجزيرة الايبيرية ، فان الظروف الجغرافية تنحو الى تفريق اهل البلاد وقصر اهتمام اهل كل ناحية على ناحيتهم ، فان سلاسل الجبال تشقها من شرق الى غرب ، وتقسمها الى نواح يعسر الاتصال بين بعضها البعض وخاصة في العصور الوسطى ، فان اهل قرطبة مثلا لم يكونوا يستطيعون الوصول الى طليطلة الا اذا داروا حول جبل الشارات ، فساروا مع الوادي الكبير حتى منابعه تقريبا ، ثم ساروا بحذاء مجرى نهر (شقر) ليتجنبوا جبال طليطلة ، ثم دخلوا اقليمها من ناحيته الشرقية ، ولم يكن اهل طليطلة ليصلوا الى اقليم سرقسطة الا اذا داروا شمالا حول جبال بلنسية ووصلوا الى دروقة وقلعة ايوب ، وكذلك الحال مع اشبيلية وما يليها غربا ، ومن ثم فقد كان الاتصال بين نواحي الاندلس عسيرا يتكلف الناس فيه مشقة كبرى ، وكان هذا من اكبر المصاعب التي صادفت امراء بني امية وخلفائهم في حكم الاندلس ، وقد كان كثير من النواحي معظم الوقت مستقلا بنفسه خارجا عن سلطانهم المباشر ، كما نرى في تاريخ اقليمي طليطلة وسرقسطة ، وقد نمى ذلك فيهم شعورا قويا بالمحلية ، ولم يكن يجمع هذه النواحي كلها الى لواء واحد الا امراء بني امية ، فقد قضوا اعمارهم كلها

يضمون النواحي ويقضون على نزعات الاستقلال وقد تكلفوا في ذلك عناء عظيما ، لان شعورهم بوحدة الاندلس كان عظيما ، وهم اول من وحد شبه الجزيرة الايبرية الى لواء واحد ، ولاشك في ان شبه الجزيرة لم يتحد في يوم من الايام ، في الماضي او الحاضر كما اتحد ايام عبد الرحمن الناصر ، والمنصور محمد ابن ابي عامر ، فلما ذهب امر بني امية ذهب امر الوحدة، فقد كانوا رموزها والعاملين عليها ، وتفرقت الاندلس ايدي سبا واستحال توحيدها بعد ذلك ، فكان ذلك سبب ضياعها فرادى ثم جملة .. ولقد دافع اهل كل ناحية في الاندلس عن ناحيتهم ما امكنهم الدفاع ، واستشهد منهم في الصراع آلاف بعد آلاف ، ولكنهم كانوا مفرقين والعدو متحد ، كانوا في طريق الضعف والعدو في سبيل القوة ، ولم يتبينوا ذلك الا بعد فوات الاوان واستحكام الداء ووقوع المحذور ، ولقد ذكر اهل الاندلس لبني امية هذا الفضل ، وتحسروا على ايامهم بعد ان مضت مع امس الداير ، واضحت المروانية عند الاندلسيين اسطورة عاطفية ، لا يكتب واحد منهم الا ترحم على المروانيين ؛ فابن حيان يبكيهم في كل صفحة من صفحات تاريخه ، وابن حزم يتعصب لهم ولا يخلي كتابا من كتبه من مدائحهم ، حتى سلائلهم الذين عاشوا في ظلال الخمول بعد زوال امرهم يخصص لهم المقري في نفح الطيب صفحات بعد صفحات ، ويتتبع آثار من عرفه منهم في حنان ورقة عظيمين . بل ان ابا بكر العربي يتصدى للدفاع عن الامويين عامة في كتابه (العواصم من القواصم) ، ويذهب الى حد الدفاع عن يزيد بن معاوية وتنقص من انكروا خلافته وخرجوا عليه ..

وفي عصر الولاة كان النزاع بين الشاميين واليمنيين عنيفا متصلا حتى كاد يودي بالاندلس جملة ، كما اودى نزاع عرب صقلية ببلدهم ، ولكن الغلبة في معظم الامر للشامية على اليمنية ، بحيث نستطيع القول بان الاندلس في عصر الولاة كان طعمة لعرب الشام ، وخاصة بعد مجيء طالعة بلج بن بشر من الشاميين ، فلما اقبل عبد الرحمن كان اليمنيون اول من نهض لنصرته وتأييده ، فلما استقر له السلطان جعلوا يدلون عليه بفضلهم ، وحسبوا انه صنيعة ايديهم ، ولكنه كان من الحصافة وبعد النظر والقدرة بحيث رد مطامحهم وقضى على محاولاتهم ، واستعان في ذلك بالشاميين ومن وفد عليه من المروانيين ، ثم ساوى بين الجميع ، فلم يفضل شاما على يمن ولا يمنا على شام ، ونهج في سياسته منهجا عربيا خالصا استوى فيه الجميع ما بين بلديين وشاميين ، بل ساوى بين العرب والمتعربين ومن آثر الاستمساك بدينه من اهل البلاد ، فقامت الوحدة على يديه ومضى الاندلس في طريقه صعدا .

غير انه وهو المرواني الاصيل ، لم يستطع ان يقيم دولته الا على الاسس التي قام عليها عز بني مروان في المشرق ، وقد كان عبد الرحمن على بعد بلاده عن المشرق والشام وعلى قصر المدة التي قضاها في الشام — اذ انه غادرها فارا من العباسيين وهو في حدود العشرين من عمره — شامي الروح اموي الاتجاه ، مرواني السياسة ، وبينما كان معاصره ابو جعفر المنصور يلتمس اسس دولته العباسية في سوابق الفرس وقواعدهم في السياسة والحكم ، اتجه عبد الرحمن اتجاها عربيا خالصا مستوحيا اصول الحكم من سياسات اسلافه من اقطاب بيت بني امية ؛ فهو يميل نحو معاوية بن ابي سفيان حينا ، ونحو مروان ابن الحكم حينا ، ونحو عبد الملك بن مروان ثالثا ، وكان معاصروه ومن ارخوا له يرون ذلك بوضوح ، حتى لقد زعم القصاصون انه منذ كان صبيا كانت نفسه تحدثه بملك الاندلس ، وانه كان متفتح الذهن والقلب ، فينظر وهو صبي الى ما يفعله خلفاء المروانيين ويعيه ليقيم امره عليه فيما بعد ، فلما اقام دولته انشاها على غرار ما فعل اسلافه، قال ابن حيان : « ولما القى الاندلس ثغرا قاصيا ، غفلا من حلية الملك عاطلا ، ارهف اهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية ، واخذهم بالآداب ، واقامهم على الطريقة ، وبدا فدون الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية ، وعقد الالوية وجند الاجناد ورفع العماد واوثق الاوتاد فاقام للملك آلته واخذ للسلطان عدته»

ولم تكن هذه الطريقة التي اقام عليها عبد الرحمن دولته الا طريقة بني امية المشرقيين ، وهي طريقة عربية بسيطة لا تعرف تعقيد اساليب الفرس ومناهجهم في الحكم ، وتقوم في اساسها على الابتعاد عن مظاهر الابهة وتبسيط اداة الدولة ، والاتصال المباشر بين الحاكم والمحكوم والاخذ بالشورى في حدود ضيقة ، اي الاعتماد في الراي على نفر من المخلصين من انصار البيت الحاكم ومواليه ووجوه اهل البلد ، ثم الاعتماد في الناحية العسكرية على الجند العربي وما ينضاف اليه من الموالي والاتباع ، وفي هذه الحدود وضع عبد الرحمن نظام دولته على طريقة محكمة عرفت في التاريخ الاندلسي بالتقليد الشامي ، وقد سار عليه امراء بني امية وخلفاؤهم في الاندلس باحسن مما سار عليه اسلافهم المشرقيون وكان السياج الذي حمى دولتهم وشد اركان ملكهم

فاستقام به امرهم قرنين ونصفا ، ولم يضطرب الامر الا عند ما تخلوا عن ذلك التقليد ، واتجهوا الى اساليب العباسيين فى عصر الطوائف ، وقد بدا عبد الرحمن كما قلنا بالتسوية بين رعيته جميعا ، وازال الحدود فى المعاملة بين طوائف العرب وبينهم وبين موالي البيت الاموي والمولدين والمستعربين من اهل البلاد ، ثم اختار نفرا من انصاره وموالي بني امية ففرق فيهم الاعمال والوظائف والقيادات ، وجعل التقدم فيهم للشاميين من العرب والموالي خاصة ، لانهم اعرف بالطريقة والصق بالبيت واقدر على شؤون الحكم ، فظهرت بيوت بني عبدة وبني شهيد وبني حدير وبني فطيس ومن اليهم ، ونجم من افرادها رجال حملوا عبء الدولة واخلصوا لها جيلا بعد جيل ، حتى لتستطيع ان تؤرخ لهذه البيوت بيتا بيتا فى خطوط متوازية مع البيت الاموي نفسه ، لان السلطان كان موزعا بينها وبين الامير او الخليفة على نحو ضمن توزيع المسؤوليات والسلطات وتركيزها فى آن واحد ، فلم يكن هناك وزير مستاثر بالامر جامع للسلطات والمسئوليات فى يده ، كما كان الامر مع العباسيين فى المشرق ، بل كان هناك نفر من الرجال يتولى كل منهم شأنا من شئون الامارة : هذا لشئون المال ، وذاك للكتابة ، وآخر للقيادة وما الى ذلك ، ولم يكن الاختصاص ثابتا ، بل كان الامير ينقلهم من عمل لعمل كما يريد ، وشمل ذلك القيادة ايضا ، فلم يكن هناك رجال مختصون بقيادة العسكر ، بل يعهد الامير الى من يشاء فى قيادة البعوث ، ومن ثم فلم يستاثر بشئون المال نفر من الجهابذة يسيئون الى الدولة والى الناس ، ولم يختص بشئون الجند نفر من القادة يخشى وثوبهم بالسلطان وانقلابهم عليه ، وبهذا بقي الود متصلا بين هذه البيوت وبيت الامارة من البداية الى النهاية ، وظهر من اولئك الرجال افذاذ يعدون بين عظماء الاسلام كتمام بن علقمة وعبد الكريم بن مغيث وابي العباس احمد بن ابي عبدة وابي عامر بن شهيد وعبد الرحمن ابن رستم ومن اليهم ، وقد يبدو غريبا ان نقول ان بني امية الاندلسيين على طول تاريخهم لم ينكبوا وزيرا ولم يصادروا عاملا ، وكان قصارى ما يفعلون اذا لم يرضوا عن احد ان يصرفوه عما بيده من امر ويتركوه فى نعمته مجردا من السلطان ، وهذا هو اساس نظام الوزارة الاندلسية القريب من نظام الوزراء فى العصر الحديث ، وقد ميز بنو امية واحدا من وزرائهم وجعلوه اشبه برئيس الوزراء وسموه الحاجب ، ولكنه لم يكن كحجاب المشرق غليظا على الناس مستبدا بامرهم ، لان مهمته الحقيقية لم تكن حجب الامير عن الناس بقدر ما كانت مهمة تنسيق وتيسير لامور الوزراء .

وكانت قصور امراء بني امية الاندلسيين شديدة الشبه بقصور اسلافهم المشرقيين من ناحية البساطة والبعد عن التكلف والابهة ، بل ربما كان من التجوز ان يطلق عليها اسم القصور ، فقد كانت فى الحقيقة بيوتا كبيرة بسيطة البناء ، هي اقرب الى قصور البوادي التي اغرم خلفاء بني امية المشرقيين بسكناها بل كان الاغلب على امراء المراونيين الاندلسيين ان يقيموا فى قصور ريفية يتخذونها وسط الرباض او فى الريف ، وكانت الحياة فى الاندلس الى نهاية القرن الرابع الهجري بسيطة ساذجة بل اقرب الى البداوة، فلم يعرف الامراء او آل بيتهم او وزراؤهم ذلك التعقيد المشرقي الذي جعل حياة اندادهم فى المشرق بعيدة عن الطريق الطبيعي البسيط السليم ، بل كانت قرطبة على اتساعها وغناها وتوفر اسباب الحياة فيها بلدا بسيطا ساذجا لا تكلف فى ابنيته او تأنق فى قصوره ومساجده ومبانيه ، وكانت الحياة فيها اقرب الى بساطة الحياة فى دمشق ايام الامويين ، ولقد اجمع المؤرخون على ان الاندلس انتقل من سذاجة البداوة الى فخامة الحضارة على ايام عبد الرحمن الاوسط ، ونسبوا معظم الفضل فى ذلك الى علي بن نافع الموسيقي المعروف بزرياب ، فقالوا انه هو الذي علم الناس لبس القطن فى الصيف والصوف فى الشتاء وبصرهم باساليب تصفيف الشعر وازياء الثياب وآداب المجتمع وعلمهم التأنق فى الطعام والشراب وما الى ذلك ، وهذا كله اشبه بالاسطورة صاغها خيال القصاص حول ذلك الموسيقي الخبير بشؤون الدعاية لنفسه ، والثابت لدينا على اي حال ان احوال المعاش ايام الحكم المستنصر مثلا لم تكن تختلف عما كانت عليه ايام عبد الرحمن الاوسط ، فظلت السذاجة هي الطابع المميز للحياة الاندلسية ، ولم يتسرب اليها الفساد الذي يصاحب الاسراف فى الحضارة الا بعد زوال البيت الاموي وضياع تقاليده العربية الشامية واتجاه الاندلسيين الى تقليد العباسيين على ايام الطوائف .

ومن ثم فان تشبيه قرطبة بدمشق تشبيه صحيح ، فكما كانت دمشق الاموية مدينة بسيطة يقع معظمها على الشاطيء الايسر لنهر بردي ، مركزها الجامع الاموي يقوم قصر الخليفة على مقربة منه ، وتحيط بها الارباض ، فكذلك كانت قرطبة الاموية بلدا بسيطا ساذجا يقع معظمه على الضفة اليسرى

للوادي الكبير تحيط بها الارباض والمنى -جمع منية- والبلاطات ، جمع بلاط ، وهو القصر او البيت الريفي تحيط به الحدائق ، وكما كان الجامع الاموي في دمشق بناء عظيما متسع الارجاء بسيط الهندسة يأخذ القلب بجلاله قبل ان يأخذ العين بجماله ، فكذلك كان مسجد قرطبة الجامع بناء عظيما متسع الارجاء لا يمتاز بالحلية بقدر ما يمتاز بالجلال والرواء ، وقد بدأ في بنائه عبد الرحمن الداخل على مثال الجامع الاموي في دمشق ، وقد استعمل العرب فيه العقد المخموس، وجعلوا العقود طبقتين حتى يكون ارتفاع السطح متناسبا لاتساع المساحة ، وكانت المرة الثانية التي استعملوا فيها العقد المخموس والعقود المزدوجة في جامع قرطبة ، فكان ذلك رمزا على الصلات الكثيرة التي تربط بين دمشق الشام وقرطبة الاندلس ، صلات بشرية حضارية ثقافية ، فاما البشرية فقد كانت قرطبة قاعدة شامية شط مزارها في اقصى الغرب ، وكان اميرها ورجالها امويين شاميين الى جانب من كان فيها من القوط والايبيريين ، واذا صحت الرواية التي تقول ان موسى بن نصير ارسل ثلاثين الفا من اسرى القوط الى الخليفة الوليد في دمشق ، فغرقهم في اهلها ، فقد كانت في عروق الدمشقيين اذ ذاك دماء قوطية تزيد التشابه بين اهل البلدين ؛ واما الحضارية فقد سارت قرطبة على نهج دمشق من حيث هندستها وطرز بيوتها واسلوب الحياة فيها ، وكما يطل جبل قاسيون على دمشق المشرق ، فكذلك كان جبل الشارات المعروف بسيرا مورينا يشرف على دمشق الاندلس ، وكما كان نهر بردي يمر شمالي دمشق القديمة تقوم عليه القناطر والحنايا ، فكذلك كان الوادي الكبير يمر جنوبي قرطبة الاموية تقوم عليه قنطرة الوادي ذات الصيت البعيد في الادب والتاريخ الاندلسيين ، وكما ازدانت دمشق برصافتها فقد ازدهرت قرطبة برصافتها ، وما من قصر شاده الامويون في دمشق الا شاد خلفاؤهم في قرطبة مثله ؛ بحيث يخيل للانسان وهو يقرا اوصاف البلدين ان هناك دمشقين او قرطبتين ؛ او ان هناك مدينة واحدة يفصل بين شطريها ذلك البحر الواسع الذي يسمى بحر الروم وهو احق ان يسمى بحر العرب ، وما هذا التشابه بين البلدين بوليد المصادفة وانما هو رمز على ما كان وما ينبغي ان يكون للعرب من سلطان على ذلك البحر ، وما خلفوه للدنيا من تراث حضاري يضم قارات العالم القديم على بساط واحد ، ويربط بين دمشق وقرطبة بسلسلة من العواصم ومهاد الحضارات : الفسطاط والقاهرة فالقيروان فالجزائر فتاهرت فتلمسان ففاس فطنجة فغرناطة ثم قرطبة ؛ ثم تتصل السلسلة صاعدة الى وادي الحجارة فسرقسطة ثم تطيلة ودمشقة ولاردة وبنبلونة على سفح جبال البرت ، ثم تعبر البرت ولا تقف الا عند اربونة جنوبي فرنسا ؛ فقد ظلت حاضرة اسلامية مدى ثلاثين سنة ، وقد اتخذها عامل الاندلس عقبة ابن الحجاج مركزا ومقاما ، يحكم منها الاندلس ويوالي غزواته في الارض الكبيرة حتى يصل الى سانس على اميال قليلة جنوبي باريس ؛ فالرحلة من دمشق الى قرطبة انما هي رحلة خلال تاريخ الاسلام وحضارته ، وهي اطول الرحلات الحضارية في التاريخ الانساني كله ، وادخرها بالخير واحفلها بالعبرة لمن يعتبر وان الانسان ليشعر اذا ما انتقل اليوم من دمشق الى قرطبة ، وافضى الى صحن الجامع الاموي الخالد ، بانه قطع في الواقع ثلاثة عشر قرنا من تاريخ الاسلام بين صعود وهبوط ، وما وقفنا مرة بين مئات الاعمدة الساحقة في ذلك الجامع القرطبي العزيز الا خيل الينا ان الصمت المحيط بنا يتكلم ، وان كلامه يحوي من العبرة ما لا تضمه المجلدات ، بل ما وقفت في رحبة هذا الجامع الا خيل الي انني اسمع صوت ابي البقاء صالح بن شريف الرندي يردد من نونيته المشهورة :

دهى الجزيرة امر لا عزاء له — هوى له احد وانهد ثهلان
اصابها العين في الاسلام فارتزأت — حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية — واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم — من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه — ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما — عسى البقاء اذا لم تبق اركان

ومن غريب الامر ان قرطبة لم تجد من يرثيها حق رثائها عندما استغلها العدو سنة 1236/633 لقد اطال شعراؤها في رثاء طليطلة ومرسية وبلنسية وغيرها مما ضاع قبلها ، فلما حان حينها لم تجد من يودعها الوداع الحقيق بمقامها من تاريخ الاندلس ، وبعد ثلاثة عشر عاما ، اي عام 1248/646 ضاعت اشبيلية وعظم الخطب عن المقال .. ولكن قرطبة رثت

نفسها بنفسها ، فهي من ذلك التاريخ بلد حزين صامت يلبس غالب اهله السواد ، واذا انت تمشيت في شوارعها اليوم ما وجدت الا بلدا حزينا صامتا يخيم عليه الوجوم حتى ليسمونها بالسلطانة الحزينة ، وللاسبان المحدثين في هذه السلطانة الحزينة اشعار واغان تهز النفس هزا ، وان من قرا شيئا للشاعر فديركو جارتيا لوركا ليشعر بان معظم شعر هذا الشاعر سواء اكان في مقطعاته او مسرحياته ، ان هو الا رثاء طويل لسلطانة بلاد الغرب الاسلامي العزيز .. حتى الموسيقيون اذا اشاروا الى قرطبة في انغامهم اخرجوا لحنا حزينا يعبر عما اصاب هذه الملكة العزيزة على يد الدهر الغادر ، وامامنا قطعة « اندالوسيا » لمانويل دي فاليا ، فالفقرة الخاصة بقرطبة منها ما هي الا صيب دموع وآلام .

وربما وجدنا تناقضا بين هذا وما تحفل به كتب الادب من احاديث اللهو والمتعة التي تفيض بها كتابات من ذكروا مجالس قرطبة من اهل الادب والتاريخ : اين ملاعب الشباب ومجالس الاحباب التي يحدثنا بها ابن حزم في ذكرياته التي ضمنها كتابه طوق الحمامة ؟ اين مجالس الانس التي تحفل بها كتابات ابن خاقان في المطمح والقلائد ؟ اين ليالي السرور التي يروي المقري في نعتها صفحات بعد صفحات من نفح الطيب؟ الحقيقة ان قرطبة لم تعرف ذلك اللهو الا من ايام المنصور بن ابي عامر ، وقد عرفته مرغمة لا طائعة فقد شاءت ارادة هذا الرجل القوي ان يخلي الميدان من كل منافس له في السلطان ، فجرد اهل بيوت الحكم والسلطان التي ذكرناها من سلطانهم واعمالهم ، واغدق عليهم الاموال وتركهم في فراغ كامل ، فلم يجدوا ما ينفقون فيه ايامهم الا الاجتماع في مجالس الانس والطرب والشعر والالحان ، وكان الكثيرون منهم من اهل الادب والشعر والالهام الصادق ، فاتجه اليهم الشعراء وذوو المواهب يقاسمونهم هذا المتاع وكان الشعراء يفضلون الالمام باولئك السراة الخليين على الاتصال بالمنصور ومدحه ونيل جوائزه ، فقد كان المنصور شكاكا قاسيا ياخذ بالظنة ، ولقد اصاب بالاذى نفرا ممن اتصلوا به كابي يوسف الرمادي وابي مروان الطليق فآثر الباقون السلامة ، وغدوا يتنقلون بين مجالس بني شهيد وبني القيطون ومن اليهم ، ومضوا يقطعون الليالي في ابتكار هذه المقطعات اللطيفة التي تحفل بها كتب الادب ، ثم ذهبت ايام المنصور وكانت الفتنة ، وذهب امر الخلافة واصاب قرطبة من البلاء ما جعلها في النصف الثاني من عصر الطوائف في المرتبة الثانية او الثالثة من حواضر الاندلس ، وظهرت عليها اشبيلية وسرقسطة وبلنسية وما اليها ، ولم يجد اهل الشعر من الاندلسيين ما يقطعون به ايامهم غير مجالس الادب والمنادمة ، وقد كانت قرطبة اقل من غيرها ايغالا فيما غرق فيه اهل عصر الطوائف من اسباب المسرة ، ومعظم اخبار هذه المجالس انما يدور حول اشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبلنسية ، اما قرطبة فكان الاغلب عليها الرزانة والوقار ، وحرص اهلها على ان يكون بلدهم موطن العلم والفقه تاركين الشعر والطرب والليالي الملاح لجيرانهم الاشبيليين .

ولقد اجمع مؤرخو الاندلس على ما كان لقرطبة على طول تاريخها من سمت وجلال جديرين بما لها من الصيت البعيد في التاريخ ، وما بقي لدينا من آثارها يدل على ذوق سليم يجمع بين الفخامة والجلال ، واذا نحن قارنا بين جامع قرطبة وقصور الحمراء تجلى لنا جلال قرطبة ووقارها ، فان الجامع على اتساعه وفخامته وبديع هندسته بعيد عن الزخرف : جدرانه عالية صافية لا زينة فيها ولا نقش ، واعمدته طويلة منسرحة بسيطة التيجان تحمل فوقها هذه الاقواس المزدوجة التي تعد من روائع العمارة الاسلامية ، ومحرابه رغم عبث الزمان به سامق بديع يتحدث بجلال الاسلام بابلغ مما يتحدث غيره من الجوامع ، وابوابه عالية مشرفة تدل على الهمة العالية والطماح البعيد ، في حين ان قصور الحمراء قطع من الفن الزخرفي الذي لا يخلو من تكلف ؛ فكل جزء من الجدران مثقل بالزخارف والزينة وكل عمود آية في الرقة والخفة يزينه تاج بديع يعلم الله وحده ما تكلفه الفنان من الجهد في صياغته ، ورخام الارضيات مرمر صاف شفاف ، والنوافير وسط الابهاء زخرف خالص كانما صنعها جوهريون لا بناؤون ، والشبابيك اشكال هندسة غاية في الظرف وخفة الظل ، وهي بهذا التانق كله تمثل دور الباروك في تاريخ العمارة الاسلامية ، وهي دليل على انحدار الفن الاندلسي واتجاهه الى الزخرف مثلها في ذلك مثل المقدمات وادب السجع والتكلف وشعر التشبيهات البعيدة في تاريخ الادب العربي ، فاذا كان جامع قرطبة يحمل ما يحمله اسلوب الجاحظ مثلا من رصانة وبلاغة وفحولة ، فان قصور الحمراء تشبه مقامات البديع والحريري ورسائل الصاحب بن عباد ، واذا كان الجامع رمزا على مجد الامارة القرطبية وجلالها فان قصور الحمراء تتحدث عن ضياع الهيبة والاتجاه نحو القوالب والصور والاشكال والالوان ،

واذا كان جامع قرطبة يعلن بدء السير في طريق المجد فان قصور الحمراء على روعتها تعني آخر الطريق . وكانما احس الفنان الاندلسي ان النهاية قريبة ، فجمع فنه كله وبراعته كلها واودعها تلك القصور الاميرية الرائعة كانها امضاؤه في آخر سجل تاريخ الحضارة الاندلسية المجيد .

وبعد ، فان الحديث عن قرطبة لا ينتهي ، والرحلة من قرطبة الشرق الى قرطبة الغرب رحلة بعيدة في حساب المكان وعبرة الزمان ، فلقد انشأ المسلمون في صدر الاسلام وايام بني امية من المدن ما لم ينشئه غيرهم من سابقين او لاحقين في مثل هذه الفترة من الزمان : من البصرة والكوفة وواسط والانبار والفسطاط والقيروان الى قرطبة ، فلم يبق منها على الزمان الا قرطبة هذه ، رغم ما مر بها من صروف واحداث لم يتعرض لمثلها غيرها ، ولقد ذهب الكوفة والانبار وواسط والفسطاط ، وهبط شان البصرة والقيروان وهي كلها في قلب بلاد العروبة والاسلام ، اما قرطبة فقد غالبت العصور وظلت مكانها في منفاها في اقصى الغرب تناجي اختها دمشق وتردد معها ما كان لبني امية من مجد عجز الزمان عن ان يأتي عليه ، فمن دمشق زويت للاسلام ارض المغرب والاندلس ، ومن دمشق تحول البحر الابيض الى بحيرة عربية ، ومنها صدرت الغزوات نحو القسطنطينية وفتحت جزائر البحر وتحولت دولة الاسلام الى دولة بحرية متوسطية لها اساطيل تجري في البحر كالاعلام ؛ ومن قرطبة صدرت الغزوات الى قلب اوربا حاملة راية العروبة والاسلام ، ومنها فتحت جزائر شرقي البحر الابيض المعروفة بالبليار ، ومن سواحل الاندلس كانت الغزوات البحرية الى جنوبي فرنسا وغربي ايطاليا ، ولقد كان انتقال عاصمة الخلافة الشرقية من دمشق الى بغداد ايذانا بتخلي المسلمين عن السيادة على حوض البحر الابيض ، لان العباسيين كانوا ينظرون الى الشرق في حين ان الامويين كانوا ينظرون الى الغرب ، ولقد عرف الامويون كيف يصلون بجيوشهم الى بحر الخزر وقلب آسيا من عاصمتهم دمشق ، في حين ترك العباسيون امر الجناح الغربي من دولة الاسلام كانه لا يعنيهم في قليل ، فنهض المراونيون من قرطبة يحملون الراية ويحفظون للاسلام سلطانه على امواه البحر ويؤمنونه من ثبات ذلك الغرب الاوربي الذي لم يفتر الصراع بيننا وبينه من اواخر العصر الاموي الى اليوم ، ولقد وقف الاندلس وحيدا امام الضغط المتزايد يحمي جناح العروبة والاسلام ويرد العدى عنه ثلاثة قرون متوالية كان له خلالها العز والنصر والظفر ، ولم يعتمد الاندلس في ذلك الا على سواعد اهله وايمان قادته ، وصمد الاندلس وثبت مكانه ورد الغزوات واحدة بعد اخرى ، غير ان الاعداء كاثروه واحاطوا به ، وقامت الدولة الفاطمية تعاديه وتناوئه وتضعف قواه ، وظل مع ذلك صامدا ثابتا حتى بلغ الذروة من القوة والسلطان اواخر القرن الرابع الهجري ، وكان حريا ان يظل مكانه كالطود الراسخ لو دامت له وحدة امره ، ولكنه اتى من مأمنه ، ونسي اهله فضل الوحدة ، وتفرق امرهم فاستغلبهم العدو واحدا بعد واحد ، ولم يكفه استغلابهم بل نشط للقضاء عليهم حتى لم يبق منهم حي يطرف او صوت يتردد ، **وتلك عبرة لا ينبغي ان ينساها منا احد ، فليس لنا من عدو الا التفرق ، ولا يضيع امرنا الا اذا زين الشيطان لكل منا ان يقف وحده ويستمتع بما يسميه استقلاله عن اخوانه ، ولقد كان الاندلسيون في عصر الطوائف احرص ما يكونون على التعالي بعضهم على بعض ، والابتعاد بعضهم عن بعض ، حتى لقد سعى في الوحدة بينهم ابو الوليد الباجي فاستبردوه واستثقلوه ، ومضوا يستمتعون بهذه الحرية التي طمعوا فيها ، فكان من امرهم ما كان ، ولقد نهض يوسف بن تاشفين لجمع امرهم ، فناوءوه وتخوفوه واستعدوا عليه الخصوم ، ثم شعروا بعد ذلك بعظيم جنايتهم على انفسهم ودينهم وحضارتهم ، ووقف الباقون منهم يبكون ويستصرخون ولسان التاريخ يردد : اليوم وقد كفرت بالامس ؟**

ان الله لا يعظ الناس باكثر مما يجري عليهم من الاحداث ، ولكل قوم من تاريخهم عبرة ، ولكل تاريخ امة مغزى لو وعاه اهلها لاغناها عن بلاء كثير ، والمغزى الاكبر لتاريخنا هو الاتحاد والوحدة ، ما اجتمع امرنا الا اعتززنا ، وما تفرق امرنا الا اصابنا الاعداء ، وحري بنا ان نذكر ان بعضنا اولى ببعض مهما كانت الظروف ، واننا نعز انفسنا وابناءنا بقدر ما نتنازل عنه لاخواننا من انانيتنا ، فان خصومنا يعرفون اننا لا نغلب الا من داخل ، ولا ندرك الا عن تفرق ، فهم ساعون دهرهم الى هذا جاهدون فيه ، ولسنا نردهم عنا بالسلاح والمال بقدر ما نردهم بالاتحاد والاتفاق ، وامامكم عبرة الاندلس تحدثكم عما يصيبنا اذا ركبنا شيطان التفرق ، وامامكم ايضا عبرة الوحدة وما بلغت بنا اليه تحت راية الناصر صلاح الدين .

تأثير الشعر العربي في الأندلس في الآداب الغربية

للأستاذ محمد الفاسي
عميد الجامعة المغربية

ان من مسائل الادب المقارن التي شغلت افكار المستعربين والعلماء الاختصاصيين في تاريخ الآداب الرومانية (وهي آداب اللغات المتولدة عن اللاتينية) قضية ظهور الشعر البروفنصالي في القرون الوسطى بشكله الذي لا يشبه الشعر اللاتيني لا في عروضه ولا في المواضيع التي يصرفها .

ومن المعلوم ان الادب في اوربا في القرون الوسطى كان منحصرا في الاديرة والمدارس الدينية وكانت اللغة التي يؤلف فيها الرهبان اذكارهم وادعيتهم هي اللغة اللاتينية وان كانت قد فقدت ـ اذاك صفاءها ومميزاتها الاصلية حتى صارت تدعى «لاتينية الكنيسة» ومنهم من ينبزها بهذا التعبير «لاتينية المطبخ» وكانت الشعوب اللاتينية المختلفة التي تكونت من قدماء الرومانيين الفاتحين ومن اهل البلاد الاصليين تتكلم لغات اصلها لاتيني ولاكنها ابتعدت بعدا كبيرا عن اللغة الام بتأثيرات اللغات القديمة من سلتية وايبرية وغيرهما وتولدت عن هذا المزيج لغات جديدة تدعى رومانية لتميزها عن اللغة اللاتينية الفصحى ، واخذ رجال الشعب ينظمون الشعر باللغة التي يتكلمونها على غرار ما كان يفعله الشعراء الزجالون بالاندلس وشعراء الملحون عندنا بالمغرب .

وكان هؤلاء الشعراء الشعبيون في جنوبي فرنسا يدعون تروبادور TROUBADOURS اي « الواجدون » بمعنى الذين يحسون ويشعرون (من الوجدان) وكانوا ينظمون شعرهم باللغة البروفنصالية وهي احدى اللغات الرومانية المتولدة عن اللاتينية ، وكانوا في نفس الوقت مغنين وموسيقيين يؤلفون اجواقا تقصد قصور الامراء وبيوت الاكابر لتسليتهم ومدحهم ، ووقع اقبال كبير على هذا النوع من الادب الجديد واخذ الادباء حتى من طبقات الامراء ينظمون الشعر في هذه اللغة الشعبية وعلى طريقة « الواجدين » .

ولاكن الشيء الجديد الذي يلاحظ هو ان شكل هذا الشعر البروفنصالي وموضوعه لم يتقدم لهما نظير من قبل . فمن حيث الموضوع نرى ان الغرام الذي يصفه التروبادور هو عاطفة سامية عذرية رقيقة اشبه شيء بشعر العذريين او الصوفيين المسلمين ، ومن حيث الشكل ظهرت في عروض الشعر البروفنصالي القافية وترتيبها على نحو ازجال الاندلس فمن هنا اخذ المشتغلون بهذه الدراسات يبحثون عن وجوه الشبه بين هذا الشعر والشعر العربي بالاندلس .

وقد كان للمستعرب الاسباني الكبير خوليان ريبيرا الفضل في اظهار وجوه الشبه هذه مما اداه الى قولته الشهيرة وهي « ان الزجل يعتبر المفتاح السحري الذي يشرح لنا اساليب الاشكال الشعرية في مختلف الطرائق الغنائية عند الشعوب المتحضرة في القرون الوسطى » .

وقد ارتكز ريبرا في حكمه هذا الذي اخذ به كثير من المستعربين والمختصين في الرومانيات على دراسته للشعراء الواجدين امثال جوفر رودبل JAUFRE RUDEL وسيركامون CERCAMON والكونت دي بواتيي وغيرهم ، وقد لاحظ ريبرا والعلماء الذين درسوا هذه المسالة ان قصائد التروبادور تتركب من قطع (او اقسام كما يعبر عنها شعراء الملحون عندنا) لكل قطعة تحتوي على اربعة ابيات يكون للثلاثة الاولى منها قافية واحدة تختلف من قسم للقسم الآخر وقافية البيت الرابع تتكرر في كل اقسام القصيدة على هذا النحو ااا ب ؛ وهذا النظام لا نجده في الشعر اللاتيني وهو نفسه الذي نراه في الازجال الاندلسية كما سنمثل له من بعد .

ثم ان لكل قصيدة لازمة (اي الحربة كما عند شعراء الملحون) تدعى عند الشعراء التروبادور TORNADA وهي كذلك في ازجال اهل الاندلس .

والقصيدة تتركب من خمسة اقسام الى تسعة كما هو الشان ايضا في الازجال الاندلسية .

(كل هذه المشابهات ترجع الى الشكل الجديد الذي ظهر في شعر التروبادور من حيث العروض وتركيب القصائد ولاكن هناك مشابهات اخرى ترجع لصلب المواضيع الشعرية التي يطرقها الشعراء « الواجدون » وهي في اغلبها ترجع للحب ولمدح الامراء ومن خصائص هذه العواطف انها مثل ما نراه عند الشعراء العرب وبالتالي عند اهل الاندلس تتولد احيانا عن مجرد نظرة ساحرة ويتفنن التروبادور في وصف هذه النظرات ويصفون المحبوب بالقسوة والتيه والدلال مما يسبب للعاشق الولهان آلاما تتجلى في البكاء والسهر والنحول والذهول وربما ادت به الى الموت . هذه الصفات شيء عادي في الادب العربي ولم يكن له مقابل في الشعر اللاتيني الذي كان هو الادب الوحيد الذي يمكن ان يقتبس منه التروبادور .

ومن وجوه الشبه ايضا ان العاشق في شعر التروبادور يستعمل الرسل بينه وبين معشوقه ونراه يتكلم على الرقيب وعلى الواشي مثلما نراه في الشعر العربي عموما وفي الازجال والملحون بوجه خاص . والرقيب المسمى الحراز في الملحون يلعب دورا مهما حتى ان شعراء الملحون عندنا ينظمون قصائد خاصة في وصف هذا الرقيب العنيد ؛ ومن الملاحظ كذلك ان الجو الذي يحيط بالشعر البروفنصالي هو جو الطبيعة الضاحكة المزدهية باهزارها المتفتحة الذكية واطيارها المغنية الشادية وجداولها المترقرقة المنسابة تحت الاشجار الباسقة كان الحياة كلها ربيع لا ينقطع ، وهذا الجو الشعري نعرفه كذلك عند شعراء الاندلس في توشيحهم وازجالهم .

كل هذه المشابهات جعلت ريبرا ونيكل التشيكي وبيدال الاسباني وابيل المختص في الدراسات الرومانية يومنون بان التاثير العربي الاندلسي في شعر التروبادور هو تاثير عميق مباشر ؛ وقد عارضهم بعض النقاد من الاختصاصيين في الرومانيات (1) وجرت مناقشات في المجلات المختصة بين الفريقين ولاكن قوة حجج مدرسة ريبرا كان لها التفوق .

(وكانت اهم الانتقادات الموجهة لتاثير الشعر العربي في الشعر البروفنصالي هي ان التروبادور لم يكونوا يحسنون العربية فكيف امكنهم ان يتاثروا بالانتاجات الشعرية العربية ، والجواب عن هذا الاعتراض هو ان الحالة الاجتماعية في الاندلس من انتشار الثقافة العربية بين المسيحيين وتقليدهم للعرب في كل شؤونهم حتى تكونت طبقة منهم تدعى MOZARABES اي المستعربين تعيش في كل شيء حياة عربية حتى انهم كانوا يستعملون العربية في صلواتهم وينظمون الشعر بالعربية وهم في نفس الوقت يعرفون اللغة الايبرية الرومانية اخت البروفنصالية وهم كانوا الواسطة بينهم وبين ابناء جلدتهم ممن لا يحسنون العربية وكانوا يترجمون الآثار الشعرية خصوصا الشعبية منها الى لغتهم ، وكان التروبادور من جيرانهم من وراء جبال البرتات (البرينتي) يقصدون قلاع الامراء المسيحيين ويغنون لهم اشعارهم ويسمعون كذلك ما عند زملائهم وهناك اطلعوا على الاساليب العربية عند سماعهم لطرب الزجالين ، ولا ننسى ان الزجل هو في نفس الوقت شعر وموسيقى كما هو الشان في الملحون وكما كان الامر عند التروبادور .

ومن الانتقادات الموجهة كذلك لنظرية تاثير الشعر العربي في الشعر البروفنصالي ان اهم شاعر زجال من اهل الاندلس يرتكز عليه اصحاب هذه النظرية لتعضيدها هو ابن قزمان ، ومواضيع شعره بعيدة عن الروح العذرية وعن الحب السامي الذي نراه عند التروبادور .

والجواب عن هذا الاعتراض الوجيه هو ان اهتمام نيكل وغيرهم من المشتغلين بهذا الموضوع بديوان بن قزمان يرجع قبل كل شيء للناحية العروضية من جهة ثم لوجوه الشبه الاخرى التي اشرنا اليها من جهة اخرى على ان هذا الديوان لا يخلو احيانا من بعض القصائد والمقطعات التي تسودها تلك الروح الطاهرة التي يمتاز بها شعر العذريين . ثم ان احدا لم يقل بوقف التاثير العربي في الشعر الغربي على ابن قزمان ، ولا يلزم ان يكون المستعربون MOZARABES من الاسبانيين ولا التروبادور اطلعوا

---

1) قد كنت نشرت بحثا بالفرنسية في هذا الموضوع في عدد خاص لمجلة CAHIERS DU SUD سنة 1943 تحت عنوان LA POÉSIE ARABE ANDALOUSE ET SON INFLUENCE SUR LES TROUBADOURS FRANÇAIS

بالخصوص على ديوان ابن قزمان وكـان بالاندلـــس زجالون كثيرون دون ابن قزمان وانما الشاعر ساعده الحظ بان حوفظ لنا على نسخة فريدة من ديوانــه باحدى خزانات روسيا قام بنشر صورة فوتوغرافية لها احد المستشرقين ببرلين سنة 1896 . وكان هذا الديوان اول ما عرفه المستعربون من الانتاجات الزجلية الاندلسية وهو الذي اوحى بهذه المتشابهات التي لا يمكن ان تكون نتيجة صدفة ، وللتمثيل لذلك من ناحية العروض اليك هذه القطعة من قصيدة للكونت دي بوانيـي

PUS DE CHANTAR M'ES PRES TALENS
FARAI UN VERS DUN SUI DOLENS
NON SERAI MAIS OBEDIENS
DE PEYTAN NI DE LEMAZI

والشاهد فيها ان القوافي الثلاث الاولى كلهـا هكذا ENS والقافية الرابعة ZI تتكرر في كـل القصيدة على نحو هذه القطعة من قصيدة لابن قزمان:

وكـن لمرسولي قريب الحجـاب
وان كان وترضى وترسـل كتـاب
بدمي تسطـر اليـك الجـواب
ونبـري عظامـي مكـان القلـم

وكذلك هذه القطعـة من قصيدة اخـرى له

لم يعطي الله احـد ما عطى لك
لس في النسـا زينة بحالـك
ثلاثة في الخلقـة من خصالـك
بيضـا ونقيـة ووفيـة

اما العواطف السامية التي اضحت من مميزات الشعر البروفنصالي فلا شك ان التواشيح الاندلسية وكتب الادب من امثال طوق الحمامة لابن حزم وغيره، كانت معروفة في اوساط المسيحيين المستعربين الذين كانوا يقلدون كل شيء ياتي من عند العرب حتى انهم جعلوا مآذن لكنائسهم على عادة المغلوبين الذين ينظرون دائما بعين الاكبار والاجلال لكل ما يتصف به الغالب ، ومن ثم صار من الظرف عند المتادبين ان ينسجوا على منوال الشعر العربي في المواضيع التي يطرقونها وفي اوضاعه وعنهم اخذ التروبادور .

وكما اشرنا اليه فاننـا نشاهد هذا التاثير في الفن المعماري يقع بواسطة المستعربين MOZARABES فقد كانوا يبنون كنائسهم على غرار الاساليب الاسلامية في بناء المساجد ايام الخلافة الاموية ولم يقتصر هذا التاثير على الكنائس المبنية في البلاد الخاضعة للنفوذ الاسلامي وانما نراه كذلك في نواحي شمال الجزيرة الاندلسية المستقلة بل نراه ايضا في الفـن المعمـاري الفرنسي المسمى الروماني بنفـس الكلمة المستعملـة للتعبير عن اللغات المتولدة عـن اللاتينية كما قدمنا ، حتى ان هذا التاثير وصل الى بلاد اوفرنيا في وسط فرنسا ، وهذا التاثير امر اتفق عليه كل الباحثين لان آثاره بقيت قائمة للعيان وقد بين العلماء المختصون في هذه الدراسـات ان تاثير الفن المعماري العربـي خارج اسبانيا لم يكـن اقل عمقـا مما كان عليـه في الاندلس نفسها وانه كان كلما ظهر تجديد في الفـن المعماري بقرطبة في القرنين الرابع والخامس الا ونجد اثره في الفـن المعماري الروماني (2) .

وعليه فلا غرابة ان يتاثر الشعراء البروفنصاليون بالشعر العربي بدون ان يكون لهم ضرورة المام باللغة العربية مادامت الثقافة العربية كانت بلغت من الانتشار في اوساط المسيحيين تلك الدرجة التي جعلت الرهبان والوطنيين المنادين بجلاء المسلمين عن الجزيرة يندوون بابناء جلدتهم الذين يقلدون العـرب حتـى ان احـد اساقفتهم وهو الباره القرطبي ترك صفحة بديعـة في التفجع على شباب وقته الذين ابتعدوا عن ثقافتهم ودينهم واخذوا يلهجون بالادب والشعر العربي قال ما ترجمته عن الاسبانية : انهم يتلذذون بقراءة القصائد والقصص العربية ويدرسـون مذاهـب المتكلميـن والفلاسفـة المسلميـن لا ليدحضوهـا ولاكـن ليكتسبـوا اسلوبـا عـربيـا جميـلا صحيحـا ، اين يوجد اليوم من غير الرهبان مـن يقرا الشروح اللاتينية للكتاب المقدس ، آه ان الشبان المسيحييـن الذين يمتازون بالتفوق في المعرفة لا يعرفون الا اللغـة العربية والآداب العربية ، انهم يقراون ويدرسـون الكتب العربية .. واذا تكلمت لهم عن الكتب المسيحية اجابوك باحتقار : ان هذه الكتب لا تستحق ان يلتفت اليها ، وا اماه ! ! ان المسيحيين قد نسوا حتى لغتهم ومن بين الف لا تكاد تجد اكثر من واحد يستطيع ان

(2) انظر مقالا بالفرنسية للاستاذ لامبير في مجلة هيسبريس الجزء 17 (سنة 1933) ص 29 وما يليها

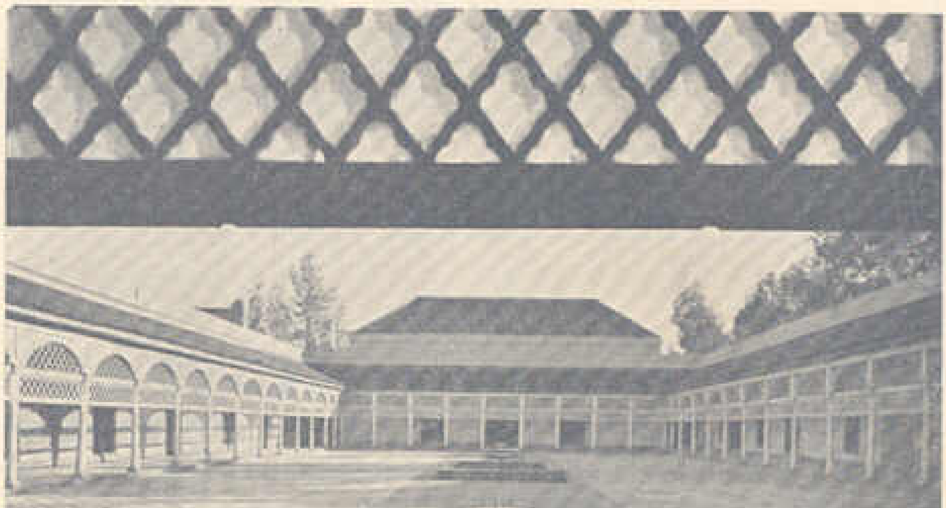
يكتب بلغة لاتينية سليمة رسالة لصديق وبالعكس اذا كان المقصود الكتابة العربية وجدت عددا كبيرا من الناس يعبرون عن افكارهم بلغة جميلة وينظمون القصائد التي تفوق من الناحية الفنية قصائد العرب انفسهم (3) » .

وما دام الغزو الثقافي العربي بلغ هذه الدرجة التي ندد بها الاسقف الباره بهذا الحماس فهل يستبعد هذا التاثير الذي ذكرناه والذي يقول به اليوم اكثر العلماء الاختصاصيين في هذا الموضوع ؟

ان تاثير الحضارة العربية في الغرب من حيث العلوم النظرية والعقلية من منطق وفلسفة ولاهوت ومن حيث العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك وتعديل ، ومن حيث العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وحيوان ونبات كل هذا معروف مدروس قد وضعت فيه المجلدات في مختلف اللغات الحية واما تاثير الادب العربي في الآداب الغربية فهو امر لم يتعد بعد اوساط بعض الاختصاصيين ، لذلك اردت ان الفت اليه انظار الباحثين والمثقفين وهو باب مهم من تاريخ الحضارة العربية واشعاعها في العالم المتمدن ومساهمتها في النهضة الادبية باوربا .

---

3) عن كتاب بلانسيا : تاريخ الآداب العربية الاسبانية (باللغة الاسبانية) برشلونة سنة 1928 ص 271 - 272 .



ساحة قصر الباهية بمدينة مراكش

بمقدمة كتاب

تاريخ تطوان المطول

الباب

للأستاذ
محمد داود

تفضل الاستاذ السيد محمد داوود فبعث لنا بهذه المقدمة التي وضعها لكتابه : **«تاريخ تطوان المطول»** الذي لا يزال تحت الطبع، وينتظر قريبا صدور الجزء الاول منه ، وسيكون هذا الكتاب في ثمان مجلدات ضخام .

وقد اصدر الاستاذ محمد داوود من قبل كتابه **« مختصر تاريخ تطوان »** في جزئين .

ولعل الذين وجدوا في الكتاب السابق مرجعا مهما في تاريخ المغرب وتاريخ مدينة تطوان على الخصوص ، سيجدون في هذا الكتاب المطول ما يشفي ويكفي من المعلومات والحقائق والاخبار .

ونحن اذ نشكر الاستاذ محمد داوود ونهنئه بالنجاح الكبير الذي لاقاه كتابه الاول ، نتمنى لكتابه الجديد المطول في تاريخ تطوان ما هو جدير به من التقدير والاعتبار .

دعوة الحق

الحمد لله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله الطيبين الطاهرين ، واصحابه الهادين المهتدين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فهذا ما استطعت جمعه من اخبار «تطوان» وتاريخها ، وما تطوان الا مدينة متوسطة من مدن المغرب « وطني العزيز » ، هي مدينة عادية متواضعة ليس لها تاريخ عظيم ككبريات المدن المغربية ، وليست بها آثار عظيمة ممتازة ، وسكانها اقرب الى التواضع منهم الى التعاظم والتفاخر ، الا ان لتطوان طابعا خاصا ومميزات اكتسبتها بموقعها الطبيعي ، وبالعناصر التي يتكون منها سكانها ، وبالشخصية القوية التي بها تستهوي كل من يستقر فيها ، وبها تسيطر على ما عداها .

والذي يريد معرفة حقائق الامور ، ودرس تاريخ الامم والشعوب ، ينبغي ان لا يقتصر على الاطلاع على عظائم الاشياء وجلائل الاعمال ، وينبغي ان ينظر في الجليل والحقير ، ويتصل بالغني والفقير ، ويجالس العلماء والجهال ، ويبحث في مختلف الشؤون والاحوال .

والتاريخ المغربي – كتاريخ بقية الاقطار والشعوب – ينبغي أن يسجل الحوادث الماضية كما وقعت ، ويصور الحياة الحاضرة كما هي ، ليعرف المجدون المخلصون ان جهودهم لم تضع ، وان اعمالهم الصالحة ، ومشاريعهم النافعة، ستدر لهم الاعجاب بهم، والرحمات عليهم ، وليعلم الجبابرة والظالمون ، والمقصرون والمهملون ان اعمالهم الضارة ، وآثارهم السيئة ، ستخلد في صفحات سوداء تجعل اسماءهم مقرونة بالاشمئزاز والاحتقار .

والتاريخ على العموم ، فيه نواح مختلفة ، وكل ناحية لها محبذون يبتهجون بها ويتحمسون لها ، كما ان لها اناسا يشمئزون منها ويستثقلون الكلام عنها ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

لقد قضى وطننا المغربي العزيز حياته منذ وصول الاسلام والعروبة اليه الى قرننا هذا الذي نعيش فيه ، وطنا حرا عزيزا فى نفسه ، مستقلا فى ادارة شؤونه وسياسته . وحينما امتدت سيطرة الاتراك على العالم العربي ومنه الشمال الافريقي ، كانت الحدود الشرقية للمغرب هي الحجرة التي وقفت عندها تلك السيطرة الاجنبية ، بالرغم من كونها كانت سيطرة اسلامية لم يكن هناك مانع من الترحيب بها لولا الشعور الوطني والغيرة القومية على استقلال البلاد وحريتها .

وفى الوقت الذي كانت بلاد شرقية كثيرة ترزح تحت اثقال الاستعمار الاجنبي . كان « المغرب » يتمتع بكامل حريته واستقلاله ، محفوظ الكرامة مهيب الجانب فى الشرق والغرب ، الا ان دوام الحال محال ، فالعظمة ما دامت لدولة ولن تدوم ، والتاخر والانحطاط ما دام ايضا ولن يدوم ، ولقد تسلط على المغرب فى اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن عاملان قويان قد استطاعا ان يهدا اركانه وينخرا عظامه ، ذانك العاملان هما الدسائس الاجنبية من الخارج ، والجهل العام المخجل من الداخل ، لا فرق فى ذلك بين رجال الدولة وسواد الامة ، وامام هذين العاملين الفتاكين ، انهدت قوى المغرب الذي كان عظيما فاصبح هيكلا بلا روح ، ثم آل به الامر الى ان صار فى عداد البلاد الفاقدة لحريتها واستقلالها المجندلة امام القوات الاجنبية ، والسيطرة الافرنجية وما كان للمغرب ان يتجندل لو كانت حكومته جارت الدول مجاراة فى ميادين العلم والمعرفة ، والتقدم والحضارة ، ولكن قومنا كانوا فى واد غير وادي الناس ، وفى عصر غير عصر اولئك الناس ، والوقت الذي كانت الشعوب الغربية ودولها تسير فيه السير الحثيث نحو حياة جديدة مبنية على العلم والنظام والقوة والعدل ، كان رجال دولتنا وولاة امرنا وقادة شعبنا يعيشون فيه بعقلية رجال القرون الوسطى جاهلين ما يجري فى العالم من تقدم مادي وادبي ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، وما كان لغيرها ان يكون ، اهل العلم والجد والاجتهاد يتقدمون ، واهل الغفلة والجهل والكسل يتقهقرون، ووجد الاستعمار فكان المتاخرون هم ضحاياه ، وكان المغرب فى آخر تلك الضحايا .

ثم كانت حياة لها حسناتها وسيئاتها ، وكانت احداث منها ما انتهى امره وصار فى ذمة التاريخ ، ومنها ما لا يزال هو او مفعوله ماثلا امام اعيننا ، الا ان الذي يسر ويفتح أمامنا ابواب الامل على مصراعيها، هو ان امتنا قد اصبحت الآن شاعرة بالواجب عليها لوطنها ، عارفة لحقوقها وواجباتها ، واخذت تعمل بالوسائل العلمية والعملية لاسترجاع ماضيها المجيد، اخذ الله بيدها حتى تبلغ مبتغاها من الحياة السعيدة، والمؤمل بحول الله ان تتغلب عناصر الخير على عناصر الشر وان يزول النزاع ويمحى الخلاف وتتوحد الجهود فيعيش المغرب مع اصدقائه المخلصين فى امن وامان .

وانني — وامتنا المغربية العزيزة المجيدة بعد ان استرجعت حريتها واستقلالها ، وقد اصبحت اليوم على ابواب حياة جديدة ينتظر ان تتغير فيها مظاهرها واتجاهاتها ، وان ينقلب معها الكثير من اوضاعها ، خصوصا مع وجود بعض لغات وثقافات اجنبية حاول اصحابها من قبل ان يحلوها محل ثقافتنا العربية ، وحضارتنا الاسلامية ، وعواطفنا الشرقية، — ارى اننا معشر المشتغلين بالعلم والادب والتاريخ فى بلاد المغرب العربي، يجب علينا الآن اكثر من اي وقت آخر ان نتقدم الى الميدان مصلحين وان نكتب من جديد تاريخ امتنا بما فيه من نواحي القوة والكمال والضعف والانحلال ، وما يدفع للتحمس والافتخار ، او يدعو للاختفاء والانزواء ، لتعرف امتنا سبل النفع والنجاح والعظمة فتسلكها ، وتعرف طرق الضرر والخذلان والبلاء فتتنكبها ، اذ ان فى هذا التاريخ لدروسا وعبرا وارشادا ووعظا ، وفى ذلك كله فائدة واية فائدة لمن يريد ان يجعل الحياة الجديدة لامته مبنية على اساس قوي متين .

اقول هذا وانا اعلم ان قيام شخص واحد بكتابة تاريخ امة كاملة فى مختلف عصورها ومن جميع نواحيها ، ان لم يكن مستحيلا عادة فانه على الاقل من الصعوبة بمكان ، خصوصا اذا كان تاريخ امة لعبت بايدي الاهمال بالكثير من وثائقها ومستنداتها، فلهذا ارى من الواجب الوطني الآن ان يكتب كل من يستطيع الكتابة ، عن الناحية التي يعرفها ، وفى

الموضوع الذي يحسنه ، وبالاسلوب الذي يتقنه او يستحسنه ، ومن مختلف تلك الكتابات والاساليب التي قد تجمع بين الغث والسمين ، تجتمع المعلومات الكافية لكتابة التاريخ الوطني الجامع للنواحي السياسية والحربية ، والعلمية والادبية ، والاقتصادية والاجتماعية .

على هذا الاساس تقدمت لتاليف هذا الكتاب ، كتاب « تاريخ تطوان » الذي ارى انه لا يحتوى الا على معلومات متناثرة تتصل حلقاتها تارة وتنفصل تارة اخرى . وتتقارب موضوعاتها حينا وتتباعد احيانا ، هي اخبار ومعلومات جديرة بان تعتبر من المواد الاولية لكتابة التاريخ المغربي الكامل فى المستقبل، بعد ان يلم شعثها ويكمل نقصها . فلهذا انبه قارىء كتابي هذا الى انه لا ينتظر ان يجد فيه تاريخا كاملا شاملا مبنيا على الاسس العلمية الخالصة ، تام التناسق متصل الحلقات ، رابطا للاسباب بالمسببات ، لان المجهودات ، انما استطاعت ان تحطب المعلومات ، وتذيلها بالملاحظات والتعليقات . ولعل الجيل المقبل يستطيع ان يضم ما نجمعه نحن الى ما حفظه اسلافنا، وما يبعثه خلفنا ، وينقح الجميع تنقيحا ، وينظمه تنظيما ، فيجمع الاشباه والنظائر ، ويفرق بين مختلف الموضوعات ، ويربط بين الحلقات ، ثم يقدم للامة نتائج ابحاثه وثمرات جهوده ناضجة طيبة لذيذة بحول الله .

لقد كتبت ما كتبت ، وجمعت ما جمعت ، وعلقت بما رايت ، بناء على مذهبي ، فى كتابة التاريخ العام ، ذلك المذهب الذي يرى ان يثبت المؤرخ المعلومات ويصور الحوادث كما هي او كما يراها دون تزوير او تضليل ، ثم لكل قارىء ان يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده . واذا كان للمؤرخ الحق فى ان يعلق بما يشاء كما يشاء، فان للقارىء ايضا ان يقبل ويرفض على حسب ذوقه ومذهبه ايضا ، والحق حق دائما ، حب من حب وكره من كره ، والباطل لا يخفى ولو موهه صاحبه تمويها . ان الامة تختلف طبقاتها كما تختلف صور افرادها ، واذا كان المصور الماهر هو الذي يرسم الصورة رسما مطابقا للاصل ، فان المؤرخ الحقيقي « الذي لا يكتب للدعاية ولا يتاثر برغبة او رهبة » هو الذي يسجل ما يقف عليه من المعلومات غثها وسمينها ، كلياتها وجزئياتها ، فيثبت من اقوال الناس واعمالهم ما يدل على الذكاء وسعة الصدر وحسن التدبير ، وما يدل على الغباوة والجهل وفساد الراي وسوء التقدير . ويسجل من الاخبار ما يعرف منه الجهال من العلماء ، والضعفاء من الاقوياء والابطال من الجبناء، والاجواد من البخلاء ، والكسالى من النشيطين ، والمتقلبون من الثابتين ، والخونة من المخلصين . ثم ان من الطبيعي ان تختلف الاذواق والمشارب ، وان تكون فى الامة مسالك ومذاهب ، فقد يكون هناك خبر او موضوع يلفت نظري وارى انه من الاهمية بمكان ، فى حين ان غيري لا يعطيه اية اهمية ويمر به مر الكرام ، وقد تكون هناك ناحية اخرى لا ارى انا فيها فائدة كبيرة وتكون فى نظرك انت من مهمات الامور، وهكذا تختلف الانظار والافكار باختلاف الثقافات والعوائد والاوساط ، فلا يطمع احد فى ارضاء جميع الطبقات ولو بلغ من المعرفة والذكاء ما بلغ . وعليه فان كنت كاتبا او مؤلفا فابذل جهدك ، وابد رايك ، وقل كلمتك ، وارض ضميرك ، وخل الناس يقولون ، ولسوف يقولون كثيرا او قليلا ، ولسوف تجد من يحبذ ويقرظ ، ومن يغتاظ وينتقد ، ومن يعجب ويطرب ، ومن يستاء ويصخب ، الا ان الميدان ميدان الكتابة والتاليف والنشر ، ميدان فسيح ، لا احتكار فيه ولا ازدحام عليه ، ومن التنافس والتسابق وتبادل الافكار ، تظهر الحقائق وتستفيد الامة ، وتلك غاية المخلصين.

لقد رايت بالرغم من اعترافي بقصر الباع ، وقلة الاطلاع ، وشغل البال ، واضطراب الاحوال ان اسد ثغرة صغيرة فى ناحية من نواحي تاريخنا المغربي ، بجمع هذه المعلومات عن مدينة « تطوان » مسقط راسي وموطن آبائي واجدادي منذ الهجرة الاندلسية الاسلامية الى المغرب . والمعلومات عن مدينة « تطوان » المتواضعة ، معلومات عن مدينة مغربية وعن سكان مغربيين ، وتطوان وناحيتها ليست سوى قطعة من البلاد المغربية الناهضة الآن وما البلاد المغربية وسكانها ، اعني بلاد المغرب العربي باقطاره الثلاثة « تونس والجزائر والمغرب » الا الشق الايسر من جسم بلاد العروبة المجيدة ، موطن النبل والشهامة ، والنجدة والمروءة . وما بلاد العروبة الا جزء من العالم الاسلامي العظيم ، هذا العالم النبيل الناهض النشيط الذي نفض عنه غبار الخمول ، وكسر القيود ، وحطم السلاسل والاغلال ، واخذ يسعى للتوحيد والتقدم نحو الرقي والمجد ، لحمل راية العظمة والسؤدد ، فحياه الله وسدد خطاه وايده ونصره .

منهاج هذا الكتاب

ولعل من المناسب ان آتي هنا بفذلكة عن المنهاج الذي سلكته في ترتيب هذا الكتاب ليكون قارئه على بينة من امره ، ويعدل عن قراءته من كانت موضوعاته لا تهمه ، او طريقته لا ترضيه ، لقد سلكت فيه طريقة خاصة لا ادعي انها افضل من غيرها وانما هي طريقة ارتضيتها فسلكتها ، ذلك انني جعلت القرن الواحد « اعني مائة سنة » وحدة مستقلة متماسكة، فجمعت اخبار كل قرن في باب واحد تحته عدة فصول بحيث اذا قرا الشخص ذلك الباب بمختلف فصوله، عرف تاريخ هذه المدينة من جميع نواحيه في ذلك القرن ، فمثلا القرن العاشر الهجري ، قد عقدت له بابا فيه خمسة فصول .

الاول في ولاة هذه المدينة وحوادثها العامة في ذلك القرن

الثاني في قضاتها وعدولها كذلك

الثالث في تراجم رجالها كذلك

الرابع في مشاهير الزائرين لها

الخامس ملخص عن حياتها في ذلك القرن من النواحي السياسية والعلمية والادبية والاجتماعية .

ثم عقدت بابا آخر للقرن الحادي عشر وفيه ستة فصول ثم بابا آخر للقرن الثاني عشر وفيه خمسة فصول الخ .

وبهذه الطريقة يسهل الامر حتى على من يريد مثلا ان يقتصر على معرفة ولاتها وحوادثها العامة في مختلف العصور ، اذ يجد مراده في الفصول المعقودة لذلك من كل باب ، والذي تهمه معرفة قضاتها فقط يجد اسماءهم وتواريخهم واخبارهم في الفصول المعقودة لذلك من كل باب ايضا . وهكذا شان من لا تهمه الا معرفة تراجم رجالها فقط الخ .

وقد جمعت ما وقفت عليه من المعلومات عن هذه المدينة وسكانها في حياتها الاولى — اي ما قبل القرن العاشر الهجري — وهي معلومات قليلة مختصرة جدا ؛ ثم تكلمت باسهاب على بنائها الحديث، وعلى عمارتها من جديد ثم على حياتها الثانية من اواخر القرن التاسع الهجري الى قرننا هذا .

وقد كان اشتغالي بتاليف هذا الكتاب — كله من اوله الى آخره — في بضع عشرة سنة مضت ، اي في عهد كان وطني المغربي فيه مقسما بين دولتين اجنبيتين كانت احداهما تحمي جنوبه الذي هو القسم الاكبر الاهم ، وكانت الاخرى تحمي شماله الذي به تقع مدينة تطوان .

وكانت الصفة الدولية الرسمية لتينك الدولتين ببلادنا هي الحماية « المفروضة » الا ان الواقع انهما كانتا تسيطران على البلاد وجميع ما فيها وكل من بها ؛ سيطرة تامة لم يبق معها لدولة المغرب والشعب المغربي شيء من التصرف او النفوذ — لقد كان الحكم بالمغرب — في الحقيقة حكما استعماريا تراعى فيه مصالح الاجانب قبل كل شيء .

وقد مرت على البلاد اوقات كانت عسيرة غير يسيرة ، ظلت الحرب قائمة بها سنين عديدة ، لم استتب الامن ولكن الحريات كانت مفقودة ، واتسعت المعلومات ، ولكن الالسن اصبحت معقودة ، ثم تلا ذلك عهد صارت فيه السجون والمنافي مملوءة والاوساط والاجواء موبوءة ، وايدي الظلمة واذنابهم قوية ، ومواهب اصحاب العلم والحق والعدل منزوية، وفي ذلك العهد وصلت في الكلام عن تاريخ تطوان ، الى تاريخ دخول الاسبانيين لها ، وبسط حمايتهم عليها — اي عام 1331 هـ 1913 م. فاوقفت الكلام هناك اي عند احتجاب عهد الوحدة والاستقلال ، وانزواء الحكم الوطني في غفوة ؛ الا انها غفوة عملنا باعانة الله القوي القادر لانتهاء مدتها ؛ واسترجاع السيادة الوطنية كاملة لتعيش امتنا الكريمة من جديد في ظل لواء العروبة تحت راية الاسلام ، فحقق الله آمالنا ، واعاد لنا حريتنا واستقلالنا ، ووحدة ترابنا ، وجمع شملنا ، واصبحت تطوان — كما كانت مثل بقية الشمال المغربي — جزءا من المغرب المستقل الموحد ، لا فرق بين شرقه وغربه ، شماله وجنوبه .

واني ارجو الله تعالى ان يهيىء لي الاسباب ويحفظني من الموانع لاستانف عملي واتابع كتابتي حتى اصل في تاريخ هذه المدينة الى عهدنا هذا بحول الله .

وكنت قد قررت ان اجعل لهذا الكتاب «ذيلا» حددت له موضوعات خاصة اعرف انها لدى بعض الناس ، اهم من موضوعات الاصل التي هي تواريخ الولاة والحوادث وتراجم الرجال الخ .

وجعلت ذلك الذيل محتويا على ثلاثة اقسام :

الاول فى خطط هذه المدينة وبيان اقسامها وأبوابها ومساجدها وزواياها واسواقها وآثارها وبساتينها ومنتزهاتها وقبائلها الخ. مع تاريخ كل شيء من ذلك مصحوبا بالصور والرسوم والخرائط والبيانات .

الثاني فى سكانها وبيان عناصرهم واسماء الاشخاص والعائلات وتاريخ من كان فيها من رجال العلوم والفنون والتاليف والتدريس والشعر ، واصحاب الخطط المختلفة من محتسبين ونظار وخطباء وائمة الخ .. وفيه فصول عن الاجانب وعن اليهود وعن الرقيق الخ ..

الثالث فى الحياة الاجتماعية بها وفيه الكلام على ما فيها من الاديان والمذاهب ، والاخلاق والعوائد، والحرف والصنائع والاعياد والمواسم ، والفصول والمنازل واللغات واللهجات ، والحكم والامثال ، (الف مثل ومثل) والغناء والموسيقى والنظام المنزلي والمراة ومركزها ، وهندسة المباني والملابس والمآكل والمشارب (المطبخ التطواني) والزراعة والزهور والفواكه والحيوانات والعملة « السكة » الخ ..

وقررت ان يكون هذا الذيل بابوابه الثلاثة محتويا على مائة فصل وفصل ، منها ما يحتوي على صفحة او بضع صفحات ، ومنها ما فيه عشرات الصفحات وفعلا شرعت فى كتابة هذا الذيل وحررت منه عدة فصول منها المطول ومنها المختصر ، وقد كتبت منه حتى الآن بضع مئات من الصفحات ، الا اني لما رايت ان امره قد يطول ، قررت فصله عن اصل الكتاب واعتبار كتاب « تاريخ تطوان » منتهيا يمكن تقديمه للطبع بمجرد مراجعته وتنقيحه ، ورايت ان اجعل الموضوعات المذكورة كتابا مستقلا اسمه « تكملة تاريخ تطوان » وهذه التكملة اشتغل فيها من حين لآخر كلما سمح لي الوقت بذلك كما اشتغل فى الكتاب الثالث الذي مرت علي عدة سنوات فى جمع مواده وتحريره وهو كتاب « عائلات تطوان » واني ارجو من الله تعالى الاعانة والتوفيق لاكمال هذين الكتابين وتقديمهما للطبع ايضا فى زمن قريب غير بعيد بحوله سبحانه .

ويجمل بي هنا ان ابين ان كتاب «تاريخ تطوان» ليس كتاب دعاية ، او مديح واطراء ، واني لم يدعني لتاليفه الا القيام ببعض الواجب علي لوطني المغربي العزيز ولابنائه المحترمين .. فهو كتاب لم يؤلف لبيان خصوص المحاسن او المساوي ، ولم يكتب بالاسلوب الانشائي او المدرسي الذي تنمق عباراته تنميقا لينسج على منواله التلاميذ ، ولم اقيد فيه نفسي باي اسلوب من اساليب المؤرخين ، لا المتقدمين منهم ولا المتاخرين . فلم اتقيد فيه لا بالتطويل والاطناب ولا بالاختصار والايجاز ، بل ضمنته من المعلومات ما عثرت عليه وعلقت على الحوادث والاخبار ، بما خطر ببالي عند جمعها وتاليفها ، وكتبته بالاسلوب الذي حضر ، فلا التزام لما لا يلزم ، ولا تقيد ولا تقييد ، ولا تكلف ولا تكليف .

على انني بالرغم من كوني انجزته فى عدة مجلدات ، تحتوي على آلاف من الصفحات ، ما زلت اشعر بنقص فيه كبير ، اذ هناك امور ربما كانت مهمة ولكنني اجهلها تماما ، وهنا اشياء لا اعرف من حقائقها الا القليل ، لان فى الدنيا كراما نبلاء ، وفيها ايضا كسالى وبخلاء ، يضنون لا بالمال فحسب ، بل حتى بالمعلومات ، وبالاطلاع على الوثائق والمستندات، ولله فى خلقه شؤون .

نعم اني قد بحثت واجتهدت ، وسالت وارتحلت، وشرقت وغربت ، وتعلمت وتتلمذت ، وتذاكرت واستفدت ، ونقلت وحطبت ، وجمعت من ذلك كل ما استطعت ، وربما كان ما جهلت اكثر مما علمت ولكن هذا هو جهدي فان وجد فيه احد ما يهمه او يفيده فالحمد والمنة لله الموفق ، ومن راى فيه نقصا فليكمله او ليرشد لاكماله . وله مني جزيل الشكر ومن الله حسن الجزاء ، ومن وجد فيه خطا فليصلحه وليعتقد ان الكمال انما هو لله ، ومن لم يرضه فيه شيء فليعلم انه لم يؤلف لمثله ، وان استطاع فليتفضل وليتحفنا بما هو احسن منه وارقى واشمل واوفى .

كيف ينبغي ان يكتب التاريخ ؟

ثم كيف ينبغي ان يكتب التاريخ ؟

هذا سؤال تختلف آراء الناس فى الجواب عنه نظريا وعمليا ، فهذا مؤرخ حر نزيه لا يخشى شيئا ولا يطمع فى شيء ، يقول الحق ويسير فى طريقه ، يرى ان من احسن يجب ان يعلم ان احسانه لم يضع، ومن اساء يعرف ان وراءه اعينا ساهرة تحصي عليه

اعماله ومواقفه ، واقلاما حادة تسجل ذلك وتخلده في بطون التاريخ ليقراها الاولاد والاحفاد وتسير بها الركبان في مختلف الاقطار . وذاك كاتب مداح او هجاء يخدم مصالح شخصية له او لغيره لا يبالي بالحقيقة ولا يهمه انصاف ، وانما يمدح او يذم بالحق وبالباطل وبالواقع وبالمختلق (1) .

وكم من كاتب او شاعر او مؤرخ باع ضميره وقلمه وخان الامانة ، وضل في نفسه واضل معه الناس لاجل دراهم معدودة قبضها ، او وظيفة زائلة قلدها . او لرغبة او رهبة تزول بزوال اسبابها وتنتهي عوارضها طال الزمن ام قصر .

والكتاب والمؤرخون الذين من هذا القبيل وذاك قد وجدوا في العهد القديم وهم موجودون الآن وسيبقون في الوجود ، ما دام الانسان واخلاق الانسان .

الشرف ، والنزاهة ، وعلو الهمة ، والعلم الغزير، والعقل الراجح ، والاتزان المعقول ، ونبذ الخوف والطمع ، هذه صفات لا تسمح لصاحبها بغير الحق والعدل والانصاف .

اما الامل والطمع ، والخوف والهلع ، والطغيان والجبروت ، وصفاقة الوجه وخراب الذمة ، فانها اوصاف تدعو بعض الناس لقلب الحقائق واختلاق الحوادث والاغضاء عن الزلات ، ومداراة الذين يخاف منهم او يخشى انصارهم ، ثم انكار حسنات الاضداد وفضائل المعارضين ، فهذا فلان بيده السلطة او له جاه ، يخشى من غضبه او اعراضه اذا قيل كذا ، او كتب كذا ، وذاك فلان عدو فلان او كان عدوا لآبائه او اجداده ويسوءه ان يسمع كلمة حق او انصاف في خصمه او خصم اهله او مواطنيه ، وهذا صديقنا فلان لا يناسب ان نقول في سلفه كذا ، او هؤلاء قومنا لا ينبغي ان نذكر شيئا من نقائصهم او هذه بلادنا لا يليق ان نصفها هي او اهلها بكذا وكذا لئلا يستغل ذلك خصومنا الخ . هكذا تضيع الحقائق وتنقلب الامور في كثير من الاحوال ومن كثير من الناس .

عن بعض مؤرخي المغرب في عصرنا

لقد سمعت مرارا عديدة من بعض اصدقائي ، وهم من ذوي المقامات المحترمة ، ان العلامة المؤرخ المرحوم مولاي عبد الرحمن ابن زيدان ، قد اساء الى المغرب والى بعض الناس في تاريخه « الاتحاف » وانه كشف الاسرار وفضح العورات ، وليته حذف ، وليته اثبت وليته وليته . . .

اما انا فكنت وما زلت ارى ان ابن زيدان رحمه الله لم يسيء لا الى المغرب ولا الى التاريخ وانما قام بواجب يستحق ان يشكر عليه ، وكنت استغرب صدور مثل ذلك القول ممن كنت اعرف فيهم العقل والعلم ، والذكاء والفهم ، ولكنني حينما افكر في الموضوع ، وفي سبب مثل ذلك القول ، اصل في النهاية الى ان الشخص اذا كان ينظر بعين الرضى لبعض الجهات ، فانه لا يقدر على ان يسمع عنها غير الثناء ، واذا كان متصلا بالطبقة التي لا تهمها الحقائق بقدر ما يهمها المديح والاطراء ، فان اثقل شيء على سمعه هو ذكر الحقائق المجردة ، واذا قلت لهذا الصنف من الناس ، واين الحق والانصاف والامانة ، قال لك ، ذلك شأن البسطاء والاغبياء .

ولقد سمعت ايضا غير ما مرة بعض رفقائي الذين اعتقد انهم بعيدون عن الاغراض والشهوات ، ينتقدون على استاذنا الرهوني رحمه الله ، اثباته في تاريخه الكبير لاشياء يعدونها من الخرافات التي لا تناسب العصر ، فكنت اقول لهم ، اليس في الدنيا اناس يعتقدون ان ما تسميه انت خرافات ، هو عين الحقائق وطريق الهدى وسبيل السلامة والنجاة ؟ ان هذه الطبقة من الناس موجودة حقا ، وان من الامانة للتاريخ والحقيقة ، ان تسجل اقوالها واعتقاداتها بما لها وما عليها ثم ما على قارىء التاريخ الا ان يقبل ما يراه حقا وصوابا ، ويرفض ما يرى انه خطا او باطل .

---

1) لو تحرى المؤرخ غاية التحري فانه لابد ان يتاثر بمؤثرات قد لا يشعر بها ، لكن الكلام انما هو على خطة منافقة تشم منها رائحة الاغراض السخيفة ، اما التاريخ المحصن فانه يوخذ الحق فيه او ما اشبه ان يكون حقا من دراسة الميولات المتنوعة ، فمن بينها كلها تتمحض فكرة يكونها الدارس المستقل الفكر ، لا تبعد كثيرا عن الواقع ، واذا وجد الشجاعة على التعبير بكل ما يحسه ويعتقده فقد ادى الامانة كاملة ولا يضره نواحي النقصان فليس بمطلوب منه ان لا يخطىء وانما المطلوب منه ان لا يتعمد الخطا . ت. و.

ومن كان جاهلا فليسئل اهل الذكر والعالمين .

وكنت اسمع اشخاصا ينتقدون على كتاب « الاستقصا » لابي العباس الناصري ، اقتصاره على نواح دون اخرى ويقولون في مؤلفه الكبير انه حاطب ليل . وربما بالغ بعضهم تقلد بعض الاجانب المغرضين في قوله ، انه لوردت كل فقرة فيه الى الكتاب الاصلي الذي نقلت منه لما بقي لمؤلفه شيء يذكر. فكنت استغرب كيف يسوغ لمواطن مغربي ان ينكر فضل اعظم واحسن واجمع كتاب الف في تاريخ وطنه ، ذلك الكتاب الذي لم يعرف جل علماء هذا القرن في العالم تاريخ المغرب الا منه . فهل كان في الامكان ان يجمع المؤلف الواحد كل شيء ؟ وهل العالم او الاديب الذي لم يحط بكل شيء علما يجب عليه ان لا يكتب ولا يؤلف لئلا يقال ، ان انتاجه ناقص ، وهل ينتظر الكمال الا من الله سبحانه ؟

اما صديقنا العلامة العباس بن ابراهيم قاضي مراكش حفظه الله فانه لم يعدم من ينتقد عليه اقتصاره في كتابه « الاعلام » على تراجم الرجال ، ولكن اليست تلك التراجم مشحونة بالعلم والادب والتاريخ والسير والمواعظ والعبر ؟ وهل الف في المغرب العربي كله احد غير ابن زيدان وابن ابراهيم كتابا يحتوي على نحو عشر مجلدات ضخام في تراجم رجال مدينة واحدة ؟

الحق ان الناصري السلوي مؤلف « الاستقصا » (2) والرهوني التطواني مؤلف « عمدة الراوين » (3) وابن زيدان المكناسي مؤلف « الاتحاف » (4) وابن ابراهيم المراكشي مؤلف « الاعلام » (5) كلهم من افذاذ علماء الامة المغربية الذين يستحقون كل اجلال واعظام ، ان بقي في الدنيا فضل وانصاف .

على ان اسماء هؤلاء النبغاء ومؤلفاتهم خالدة وان وجه لها من الانتقادات ما وجه ، وان اختلاف اساليبها انما هو صورة لاختلاف صور الافراد والثقافات والانظار والاتجاهات .

والراي والله اعلم ، ان كتابة التاريخ ينبغي ان تختلف باختلاف الاحوال فالمؤرخ لاجل الاغراض الخاصة وللدعاية ، له ان يراعى المبدا الذي الف لاجله فيرفع ما يشاء ويضع ما يريد ، ويذكر ما يرضاه او يرضيه ، ويغفل ما لا يوافق مبداه ومراده ، ويشيد بذكر ما يؤيد رايه ومذهبه ، ويحط من قيمة كل ما يخالف ذلك . . .

فالتاريخ الموجه الذي يؤلف مثلا لتلاميذ المدارس الوطنية او لبث الروح القومية في الامة ، او لنحو ذلك من الاغراض الشريفة النبيلة ، يجب ان لا يثبت فيه

---

2) كتاب « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » للعلامة المطلع ابي العباس احمد بن خالد الناصري السلاوي « من مدينة سلا » وقد طبع بمصر عام 1312 في اربعة اجزاء متوسطة الحجم في حياة مؤلفه المتوفى عام 1315 ومولده عام 1250 ثم طبع بمدينة الدار البيضاء في تسعة اجزاء سنة 1954 — 1956 وهو اوسع ما عرفناه حتى الآن من الكتب المؤلفة في تاريخ دول المغرب .

3) كتاب « عمدة الراوين في تاريخ تطاوين » لابي العباس احمد الرهوني التطواني « من مدينة تطوان يقع في عشرة اجزاء متوسطة الحجم . وقد وصف وصفادقيقا في الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب. وهو مخطوط الى الآن لم يطبع منه شيء ، ويا حبذا لو طبع فيستفيد منه كثير من الناس .

4) هو كتاب « اتحاف اعلام الناس ، بجمال اخبار حاضرة مكناس » لابي زيد عبد الرحمن ابن زيدان العلوي المكناسي « من مدينة مكناس » طبعت منه في حياة مؤلفه خمس مجلدات كبار بمدينة الرباط، فيما بين سنتي 1347 هـ 1929 م . و 1352 هـ 1933 م . واخبرت ان الباقي منه بدون طبع ما يقرب من ذلك . وهو مؤلف جليل في تراجم رجال مكناس ، ولكن به من المعلومات التاريخية والادبية عن المغرب وتاريخه ورجاله وملوكه ما لا يوجد في غيره .

5) كتاب « الاعلام ، بمن حل مراكش واغمات من الاعلام » للقاضي العباس بن ابراهيم المراكشي « من مدينة مراكش » يقع في نحو عشر مجلدات كبار ، طبع منه مؤلفه خمس مجلدات بمدينة فاس فيما بين سنتي 1355 هـ 1936 م . 1358 هـ 1939 م والقسم الباقي منه مخطوطا ، وربما كان اكثر من القسم المطبوع ، وقد وقفت عليه وتصفحته لدى مؤلفه بمراكش . وهو كتاب جليل في تراجم رجال مراكش وغيرهم من اعلام المغرب . وقد جمع فيه مؤلفه من الفوائد والاخبار ما تفرق في غيره .

من الحوادث والاخبار والمواقف ، الا ما يناسب المقام من مفاخر وامجاد

والكتاب الذي يؤلف لمقاومة الدول الغاشمة ، او لبيان فضائح الولاة المعتدين والطغاة المتجبرين ، والظلمة المتعصبين ، او لمقاومة المبادىء الهدامة والمذاهب والانظمة الضارة ، او لمحاربة الظلم الاستعماري الغاشم او الاستغلال الاقطاعي المقوت ، من شانه ان يحتوي على تشويه اعمال الظالمين والمعتدين وهدمها بالحق بل وحتى بغيره — ان اضطر لذلك — وان كان الحق غنيا بنفسه .

اما التاريخ الحقيقي الذي يكتب للاعتبار ، ويسجل مختلف الحوادث والاخبار ، فينبغي ان يكون كالمرآة او كالآلة المصورة التي تثبت الاشياء كما هي ، والمؤرخ الصادق ، والكاتب الحر ، هو الذي يثبت الحوادث كما وقعت ويصف الاشخاص والاشياء باوصافها الحقيقية بدون مبالغة ولا بخس ، فبذلك يعرف مقام المصلحين وفضل المحسنين وكفاح العاملين وجهود المخلصين ، كما يعرف ايضا جبروت الظالمين وطغيان المتعدين ، وضلال المفترين ، واهمال المقصرين

ومعرفة الحقائق والنتائج هي التي تقف في وجه من تحدثه نفسه بالغرور ، وهي التي تعظ من يريد الاتعاظ ، وهي التي تدعو لشكر الذين احسنوا وقاموا بواجباتهم ، كما تدفع لنقد الذين اساءوا ولم يهتموا الا بمصالحهم وشهواتهم، واعلان الحقائق ونتائجها هو الذي يدعو عددا من الناس للقيام باعمال البر ، والابتعاد عن طريق الشر وموجبات النقد ، وفي ذلك صلاح الامة واكثار للخير واقلال للشرور والآفات

لقد كان بعض الخيرة من اصدقائي يمدحون بعض الناس بما لم يفعلوا لعلهم يعملون ، ويصفونهم باوصاف لاحظ لهم فيها لعلهم يهتدون « ومن الناس من يسرهم ان يحمدوا بما يفعلون وما لا يفعلون » فكنت اقول لاولئك الاصدقاء ان عملهم جناية على مصالح الامة التي اعتقد انهم يعملون لها باخلاص ، لان مدح الشخص بعمل صالح لم يقم به قد يكون سببا في عدم قيامه بذلك العمل في المستقبل فهو يقول — والاخلاص في الدنيا غير كثير — اي فائدة للتعب والتضحية ما دامت الاعمال الصالحة تنسب الي وان لم اعملها ، والسن الناس لاهجة بالثناء على باوصاف ولو لم اتصف بها ، وهكذا تضيع الحقائق ايضا ، وهكذا تهمل المصالح العامة اما بالتملق والطمع ، واما بالخوف وبالاغراض المختلفة ، وفي ذلك كله جناية على الامة وتضييع لحقوقها .

ان الاشخاص يذهبون ، اما الاعمال فتبقى ، وان الاعراض والاغراض تفنى ، اما الحقيقة فهي باقية خالدة ، ولكن هل بلغ الناس درجة قبول الحقائق المجردة ؟ وهل في الامكان ان يسير كتاب التاريخ على وتيرة واحدة ؟ لعل الذي يحاول ان يرغم الناس اجمعين على طريقة خاصة ، او يسيرهم في اتجاه واحد ، انما يتيه في صحراء الخيال اذ رضا جميع الناس غاية لا تنال .

وقديما حاول المؤرخ الكبير العلامة ابن خلدون ، وضع قواعد واصول لكتابة التاريخ ولكن هل وقف هو نفسه مع تلك القواعد والاصول حينما اخذ في كتابة تاريخه «العبر» انه ان كان قد ذكرها حينا فانه نسيها او تناساها احيانا — والحال هو الحال فيمن اتى بعد ابن خلدون ، ولعل الحال هو نفس الحال في مؤرخي عصرنا هذا وفيما ياتي بعده من عصور الى ما شاء الله .

ولعل من النادر بل من الصعب ان يستطيع المؤرخ او الكاتب ان يتجرد عن جميع الميول والاعتبارات، ويكتب الحقائق مجردة غير متاثر بما يشعر به من حب وحنان ، واعتبار واعجاب ، او بغض واشمئزاز ، واحتقار واهمال .

ولعل حياة الامم والشعوب انما هي كالروايات السينمائية تتنوع موضوعاتها ومغازيها ، ولعل التواريخ كالافلام تختلف مناظرها وتاثيراتها ، ولعل المؤرخ كالمخرج لابد ان يتاثر بنفسيته وبثقافته وبالوسط الذي عاش او يعيش فيه ، ولعل قراء التاريخ كرواد السينما منهم من يتاثر ويتعظ ، ومنهم من يضحك او يسخر او يلهو ، ومنهم المفكر المعتبر المستفيد ، ومنهم العبث الذي لا هو في العير ولا في النفير ، واذا كان بقر الله في ارض الله كثيرا وكانت لكل ساقطة لاقطة ، فان في الدنيا حكمة وعقلا ، وذكاء ونبلا ، وجواهر تستحق نحور الحور ، في اعالي القصور ، والله فضل بعضكم على بعض ، وانما الاعمال في النيات ... وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم . والله سبحانه هو المستعان

في زمرة الفقه والتاريخ مؤلف كتاب :

الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام
السيد عباس بن ابراهيم المراكشي

للأستاذ :
عبد الكبير الفهري الفاسي
سفير المغرب في تركيا وايران

فجع عالم الفكر المغربي بوفاة عالم من علمائه وهو العلامة السيد (عباس بن ابراهيم المراكشي) عن سن ناهزت الثمانين سنة .

ولقد كان الفقيه من خيرة علماء المغرب على الطراز القديم الذي نرى الان البقية الباقية من ممثليه يذهب افرادها القلائل الواحد تلو الآخر . وكان لهذا النوع من العلماء مشاركة في جميع العلوم التي وصلت اليهم او وصلوا الى ادراكها . فكانوا فقهاء ، محدثين مفسرين ، نحاة لغويين ، منطقيين ، حيسوبيين ، منجمين موقتين ، ادباء ، مؤرخين ، وحتى سحرة ومتطببين . حذقوا اكثر الكتب المؤلفة في هذه العلوم واصبحوا قادرين على تدريسها تدريسا يعتمد على الحفظ والتحصيل والشرح والتعليق والمناقشة والجدال في الفاظ المؤلفين والتعقيب على من شرحوهم وعلقوا عليهم . فكان ذلك التدريس يمكن ذوي الهمم من طلبتهم ـ ان يصبحوا مثلهم « نسخا مطابقة للاصل » .

وهذا النوع من المشاركة العلمية الممتازة بالاحاطة والشمول كاد ان ينقرض الآن بحكم مقتضيات العهد الذي نعيش فيه ، وبحكم اساليب التعليم فيه وهي غير اساليبه بالامس ، والغاية من العلم بالامس هي غير الغاية منه الآن . فهل في ذلك خير للامة ام لا ؟ مسالة نترك النظر فيها لمن يهمهم الامر من الاختصاصيين او من يعتقدون في انفسهم ذلك ، على ان لنا نظرا فيها نرجيء الكلام عنه الى فرصة اخرى .

ولقد ظهرت نجابة الفقيد في التحصيل والحفظ وهو لا زال صغير السن حتى انه لما ورد الى فاس في ركاب المولى عبد الحفيظ رحمه الله في زمرة من جاؤوا معه من مراكش ، كالفقيه ابن كبور والسيد احمد الازموري ـ ادهش علماء فاس واعتبروه اعجوبة هو ورفيقه الاول في العلم والادب والشعر ، والثاني في صناعة الترسل .

فالسيد (عباس بن ابراهيم) من العلماء الذين لن نجد لهم غدا مثيلا من حيث المشاركة ، غير انه غلبت عليه الشهرة بالفقه وان عرف كذلك بالتاريخ . وهذا ما يهمنا الآن من امره .

وقد عرف بتوسعه في علم النوازل والقضاء ، وتقلب في عدة مناصب قضائية زاد فيها تجربة ومعرفة ، وتصرف فيها بعلمه الرحب الجوانب وان كان ضيق الصدر عند التطبيق ، شان كثير من فقهائنا الذين يعتقدون ان ادنى خروج عن انظار المالكية يبعدهم عن حظيرة السنة والجماعة .

ولا نعرف له من المؤلفات في الفقه الا كتابا في الاقطاع لم ينشر الى حد الآن . ولكنه عرف بتآليفه في التاريخ حيث ان له معجما كبيرا اسماه **« الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام »** وقد كتبنا عنه هذه مدة من ربع قرن عندما نشر اول جزء منه ونأسف كل الاسف لكونه لم يتم نشره اذ لم يطبع منه الا خمسة اجزاء وبقيت الخمسة الاجزاء الاخيرة مخطوطة .

وهذا الكتاب معجم تراجم اكثر منه كتاب تاريخ ، غير انه يضطر للالمام بما يعرض له من الحوادث التاريخية في غضون كلامه عن المترجمين ، وهم من جميع الطبقات ما بين مغاربة المولد واندلسيين او غيرهم من الافارقة الواردين على المغرب : فهم علماء وكتاب وشعراء وملوك ووزراء وقواد وقضاة ورجال تصوف وصلاح . وبلغت تراجمه على ما تظن نحوا من الف وخمسمائة ترجمة آخرها ترجمة الباشا والوزير الاسبق المدني الكلاوي .

والفضل الاول لهذا الكتاب هو في جمع تلك التراجم وحشد جميع ما قيل عن اصحابها في كل كتاب مطبوع او مخطوط وقف عليه المؤلف ، وهو شيء كثير ، ولو تضاربت تلك الاقوال والنقول وتعارضت

من غير تمحيص لما هو ممكن مما هو غير ممكن الوقوع ، شأن كثير من المؤلفات التي وضعت على هذا المنوال « كسلوة الانفاس » مثلا . وهذه طريقة فى التاليف تمتاز بالامانة فى النقل ، والامانة اول صفة يتعين على المؤلف ان يتصف بها قبل غيرها ليكون ثقة عند الاجيال الذين يتلونه فى التاريخ . ومسلكه فى هذا التاليف يقضي بأن يقدم لك تراجم بما فيها من غث وسمين وبما فيها من احداث هامة او تافهة بحيث لا يمكن ان تستعملها حسب طرق التاليف العلمية الا كالمواد الخام ، تاخذ منها وترد ، وتعتبرها كنصب تستنير بها فى طريق البحث والتصنيف العلمي .

وليس لنا ان نعتبر هذا النوع من التاليف قصورا او تقصيرا من المؤلفين فى تلك البيئات والاجيال ، واذا فعلنا ذلك نكون من الظالمين لان اولائك المؤلفين صنفوا كتبهم حسب ما كان معمولا به من الاوضاع فى التاليف فى وسطهم ، ولا يسوغ لنا ان نحاسبهم بقوانين واوضاع لا علم لهم بها ؛ بل لربما كانوا يعتبرونها خالية من كل ضمانة علمية وتاريخية ؛ اذ الضمانة التاريخية فى نظرهم هي النقل مباشرة على منقول عنه هو ناقل من غيره ، الى آخر النقلة حتى تصل سلسلة الناقلين الى الحادث او الى الشخص المترجم له او المحدث عنه . وحين يعملون ذلك انما يطبقون على التاريخ طرائق اهل الحديث الصحيحة والتي وضعت فى عهود كان البحث التاريخي كما نفهمه اليوم لا زال لم يخلق لان ابن خلدون ــ وهو اول من فكر فيه ــ كان نفسه لم يخلق .

ولقد عرف العلماء الاجانب من المستشرقين قيمه هذا الكتاب التاريخية حين اطلعوا على الاجزاء الاولى منه ، حين طبعها حوالي سنة 1934 او فيما بعدها فاستدعت جامعة ليدن المؤلف للحضور الى هولاندا بقصد تكريمه وفعلا قام برحلة ــ وهو رحالة كبير ــ الى تلك البلاد وكرموه ، ومكث بين ظهرانيهم ضيفا مدة اسبوعين على تلك الجامعة قوبل فيها بكل حفاوة لم يسبق لمؤلف مغربي ان كرم على هذا الشكل.

والآن وقد صار مؤلف هذا الكتاب الى رحمة ربه، لم يبق لنا الا ان نعمل على اتمام طبعه وان كنا نواجه فى ذلك عقبات كؤود . لان المؤلفات مثله كثيرة وقد وقع لها مثل ما وقع لكتاب السيد (عباس بن ابراهيم) وبقيت مشلولة لعجز ورثة المؤلفين عن القيام بواجبهم نحو تراثهم الفكري .

فلم يبق الا التوجه والتوسل الى الهيئات التي تشرف على شؤون الثقافة والعلم فى هذه البلاد وعلى راسها وزارة التهذيب الوطني ، اذ لها من الوسائل ما يمكنها من القيام بهذا العمل العلمي المفيد على احسن ما يرام . فما عليها الا ان تواصل السير فيما كان يسير عليه معهد الدراسات العليا سابقا من نشر المؤلفات القديمة والحديثة ، الغث منها والسمين ؛ لان المشرفين على ذلك اذ ذاك لم يكونوا مغاربة ، فكيف يعقل ان تقف وزارة المعارف الآن عن العمل وهي مغربية الرئاسة والاتجاه فى طريق سلكه من لم يكونوا مغاربة فى شيء ؟

جولات قصيرة في تاريخ المغرب

جوانب من شخصية: يوسف بن تاشفين

بقلم: عبد القادر الصحراوي

عندما يذكر يوسف بن تاشفين ينصرف الذهن حالا الى الفتوحات العظيمة التي حققها في شمال افريقيا والاندلس ، والى وقعة الزلاقة بالذات ضد (الفونسو السادس) وحلفائه من الامراء النصارى ، والى قصة المعتمد بن عباد ، ولا اقول ماساته ؛ لانها ليست في الحقيقة ماساة ، وانما هي قصة ذات نظائر واشباه كثيرة في التاريخ ، بل انها بين هذه الاشباه والنظائر اقلها عنفا وقسوة . وقد نعود الى هذه النقطة بشيء من التفصيل لاتصالها بموضوعنا الذي نريد ان نتحدث فيه اليوم في وهو الكشف عن بعض جوانب شخصية يوسف بن تاشفين .

نحن لا نريد في هذا الحديث ان نعرف شيئا عن يوسف بن تاشفين ، فنحن نعرف عنه الكثير ، ولكننا نريد ان نعرفه هو نفسه ، نريد ان نتعرف عليه ، نريد ان نتلمس في بطون كتب التاريخ التي تعج باخبار الحروب والفتوحات والمنازعات ما عسى ان يساعدنا على معرفة حقيقة هذا الرجل الصحراوي البسيط الذي استطاع في مدة قصيرة ان يكون امبراطورية واسعة الاطراف ، وان يضبط امورها ويحكمها بالعدل ، وان يكتسب لنفسه وللمغرب الذي انجبه سمعة طيبة عريضة واسعة ، واحتراما كبيرا ، ومركزا دوليا مرموقا ، ثم بعد كل ذلك ، تاريخا مجيدا لا يزال المؤرخون في الشرق والغرب حتى اليوم يتحدثون به في اعجاب كبير ، وذلك بالرغم من الدعايات المغرضة التي تسللت عنه الى التاريخ ، والتي كانت اداتها الاولى هي السنة الشعراء الاندلسيين الذين فقدوا بفقد ملوك الطوائف على يد يوسف بن تاشفين ، مصدر ما كانوا ينعمون به من عيش رغد وحياة مرفهة على حساب الشعب الاندلسي المسكين ، الذي كان يدفع الضرائب، لتشاد بها القصور ، وتشترى الآنية ، وتعتق الخمر ، وتتكون اجواق الموسيقى وفرق الرقص ، ويصطنع الشعراء والندمان .

نعم لقد استطاع هؤلاء الشعراء الذين امتد تاثيرهم الى التاريخ نفسه ، ان يصوروا لنا يوسف ابن تاشفين في صورة رجل فدم قاس غليظ ، رجل جاهل متاخر مجرد من الاحساس والانسانية والعواطف الكريمة النبيلة ، بل ان بعض هؤلاء الشعراء الاندلسيين لم يتورع عن ان يشبهه بالبغل ! وذلك في الوقت الذي لم يتورع فيه عن ان يشبه الذين يؤمرونه عليهم بالحمير !!

يقول هذا الشاعر الوقح :

ولا تنكرن اما رايت مقدما ❋ على حمر بغلا فثم تناسب!!

يقول ذلك ! مع ان يوسف بن تاشفين والذين قدموه عليهم ، هم الذين انقذوه وانقذوا قومه من عسف (الفونسو السادس) واستهتاره وقسوته وتكالبه واحتقاره لهم بشكل لا يمكن لاي انسان حر كريم ان يصبر عليه او يقدر على احتماله !!

ونحن لا نريد ان نهتم اكثر من اللازم بهذا الشاعر او بغيره من الشعراء المرتزقة ، وانما الذي يهمنا ان هؤلاء الشعراء قداستطاعوا ــ كاداة دعايةمغرضة ــ ان يؤثروا في التاريخ وبوجوه ، بل وان يحملوا بعض المؤرخين المغاربة انفسهم على ان يكتبوا تاريخهم تحت تاثير محفوظاتهم ومقروءاتهم من شعر هؤلاء الشعراء .

فهل كان يوسف بن تاشفين في حقيقته ذلك الرجل الفدم القاسي الغليظ ، ذلك البغل الذي يتحدث عنه الشاعر الاندلسي وغيره من الشعراء ؟؟

سنرى ، وسنترك للتاريخ نفسه ان يقدم لنا شخصية يوسف بن تاشفين ، وان كان التاريخ مع الاسف الشديد لم يعن بان يقدم لنا صورا كاملة عن الرجال الذين تحدث عنهم ، وانما عني في الدرجة الاولى بان يتحدث عن اعمالهم العسكرية والحربية بالذات، ولكننا ــ مع الحاجة الى التذرع بالصبر الكبير ــ قد نستطيع ان ننفذ من خلال هذه الاحاديث الطويلة عن الاعمال العسكرية والحربية الى بعض النصوص التي تساعدنا على الوصول الى ما نقصد اليه .

*

ولنبدا من ذلك بالصفات الشكلية ليوسف بن تاشفين وان كانت لا تعنينا في الدرجة الاولى ، ولكنها تعنينا من حيث ان الصفات الشكلية جزء من الشخصية ، تكون مع الصفات المعنوية كلا واحدا هو الذي يعرف باسم الشخصية .

لقد سجل (ابن خلكان في وفياته) ترجمة ضافية ليوسف بن تاشفين ، وهو يذكر في اول هذه الترجمة انه اعتمد فيها على كتاب « المعرب عن سيرة ملوك المغرب » لمؤلف مجهول لدى ابن خلكان ، ولكنه يذكر ان تاريخ تاليف الكتاب سنة 599 هـ، اي قبل مضي قرن على وفاة يوسف بن تاشفين الذي توفي في سنة 500 . فماذا يقول (ابن خلكان) او ماذا يقول صاحب (المعرب) في صفة يوسف بن تاشفين .

يقول عنه : ((**وكان يوسف معتدل القامة ، اسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الصوت**)) .

ويتعاقب المؤرخون بعد صاحب كتاب «المعرب» على اختلاف مصادرهم ومراجعهم ليذكروا في وصف يوسف بن تاشفين من حيث الشكل صفات من هذا القبيل ، وقد يزيد عليها بعضهم مالا يخرج عن معناها .

يقول ابن ابي زرع) في كتابه (الانيس المطرب) في وصف يوسف بن تاشفين : ((**اسمر اللون ، نقيه، معتدل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الصوت ، اكحل العينين ، اقنى الانف ، له وفرة تبلغ شحمة اذنيه ، مقرون الحاجبين ، جعد الشعر**))

ولعل هذا النص على قصره كاف لاعطاء صورة عن خلقة يوسف بن تاشفين .

وقد اختصر هذا النص وامثاله من النصوص التاريخية الواردة في موضوعه المؤرخ الالماني (يوسف اشباخ) في كتابه (تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين) الذي نقله الى العربية (الاستاذ عبد الله عنان) وذلك حيث يقول في وصفه : ((**وكان هذا الرجل الذي خلق للزعامة يجمع بين جمال الطلعة والجسم ، وبين ابدع المواهب العقلية**)) .

اذن ، فلم يكن يوسف بن تاشفين ــ من حيث الشكل على الاقل ــ ذلك الغول المخيف الذي تصوره لنا اشعار الشعراء المرتزقة من اهل الاندلس ومن تاثر بهم من الادباء والمؤرخين .

لقد كان كما يقدمه لنا التاريخ وسيما نحيفا معتدلا ، ترتاح النفس لمرآه .

ولعل هذه الصفات الشكلية تنسجم انسجاما كاملا مع بعض صفاته المعنوية التي احتفظ لنا بها التاريخ ، يقول (ابن خلكان) : ((.. **وكان حسن الاخلاق متواضعا كثير الحياء جامعا لخصال الفضل**)) وتتكرر هذه العبارة بنصها ، او بتحوير بسيط ، في كتب كثير من المؤرخين .

ومن استعراض حياة يوسف بن تاشفين نستطيع ان نعثر على بعض الامثلة التي تؤيد ما وصفه المؤرخون والحافظون لسيرته من **حسن الاخلاق والتواضع وكثرة الحياء** .

فنحن نعلم انه قبل ان يصبح اميرا ، او اميرا للمسلمين ، كان قائدا عسكريا لجيش ابن عمه الامير ابي بكر بن عمر ، وان هذا الاخير اضطر الى العودة الى الصحراء لاسباب ليست من موضوعنا ، فاستخلف على مملكته بنواحي مدينة مراكش التي لم تكن قد بنيت بعد ، ابن عمه يوسف بن تاشفين . وعاد الامير ابو بكر بن عمر بعد سنين من رحلته

الطويلة ليجد ان الامر قد خرج نهائيا من بين يديه ، وان يوسف بن تاشفين قد امر امره واستفحل سلطانه وعظم جيشه وكثرت امواله وفتوحه وتمكن حبه من قلب رعيته تمكنا لا مزيد عليه . ولم يدر يوسف ايتشبث بمركزه ام يتنازل عن الامر بمنتهى البساطة والسهولة لابن عمه ابي بكر بن عمر ؟ واستشار في ذلك اقرباءه والمحيطين به على عادته في كل ما كان يعرض له من الامور ، وكان ممن استشارهم زوجه زينب بنت اسحاق النفزاوية .

فبماذا اجابته زينب ؟

نورد هنا جوابها بالنص الذي اورده به صاحب (الاستقصا) وهو لا يخرج في معناه عن مختلف الصيغ التي ورد عليها هذا الجواب في كتب غيره من المؤرخين . قالت زينب :

« ان ابن عمك متورع عن سفك الدماء ، فاذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الادب والتواضع معه ، واظهر اثر الترفع والاستبداد حتى كانك مساوله ، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا » .

والشيء الذي لا ينبغي ان ننساه ان هذه النصيحة ليوسف بان يترك ما كان يعهده فيه ابن عمه من **الادب والتواضع** ، ليست موجهة لغلام مراهق او شاب في اول سن الشباب ، وانما هي موجهة لرجل مكتمل الرجولة في نحو الخمسين من عمره ، ثم هي موجهة اليه من امراة من النساء الدواهي اللاتي ساهمن بحظ كبير في صنع التاريخ .

وشيء آخر ، هو ان هذه المراة كانت عليمة احسن العلم بطباع الرجلين معا : ابي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، فقد كانت زوجة للاول قبل ان يطلقها لتستكمل عدتها ويتزوجها الثاني ، ولذلك قصة قد نعود اليها .

فهي عندما تذكر عن ابي بكر بن عمر ــ زوجها السابق ــ **انه متورع عن سفك الدماء وانه يحسن اظهار القوة له وملاطفته بالهدايا** ، انما تتحدث عن دراية وخبرة وتجربة ، يؤيدها التاريخ ، فقد قال التاريخ مما قاله بالحرف في وصف ابي بكر بن عمر ، انه : **كان رجلا ساذجا خير الطباع .**

كما انها عندما تنصح ليوسف ــ زوجها الاخير ــ بأن يترك ما كان يعهده فيه ابن عمه من **الادب والتواضع** ، انما تنصح اليه في الواقع بأن يتغلب على صفات اصيلة فيه ، هي ادرى بها .

ولا تكتفي زينب بذلك ، وانما تزيد عليه فترتب ليوسف الطريقة التي يجب عليه ان يلقى بها ابن عمه ، فهي تنصح له **ان يلقاه راكبا ، والا يترجل له عن فرسه ، وان يقابله في موكب كبير يحشد فيه جيوشه كلها .**

وقدتم كل ذلك وفقما اشارت به زينب ، ونجحت الخطة نجاحا كاملا ، وعاد ابو بكر بن عمر الى الصحراء ليموت بعد اربع سنين في بعض حروبه في السودان . وتمت الصفة القانونية لامارة يوسف ابن تاشفين بتنازل ابن عمه له ، ليصبح بعد حين امبراطورا عظيما يحمل لقب « امير المسلمين » ويتمنى رجل كالامام الغزالي ان لو كان ببلاده مثله ، بل يزمع امره على الرحلة اليه فيما تروي بعض كتب التاريخ لولا ان المنية تحول بينه وبين تنفيذ ما كان يقصد اليه .

※

وينسجم ايضا مع هذه الصفات التي ذكرنا ليوسف بن تاشفين ما يصفه به المؤرخون من انه ــ كما يقول (ابن الاثير) في وصفه ــ : **« كان حسن السيرة خيرا عادلا ، يميل الى اهل العلم والدين .. وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام » .**

ولا ينبغي ان نمر سراعا على هذه العبارة الاخيرة التي تقول عن يوسف بن تاشفين انه **« كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام »** فان التاريخ ليؤكد لنا ان يوسف بن تاشفين قد وصل فيما يتعلق بالجريمة والعقاب الى نتيجة لا زالت اكثر الدول حضارة في هذا العصر تسعى للوصول اليها ، **تلك هي الغاء عقوبة الاعدام** . فقد كان يوسف كما ذكر صاحب (الحلل الموشية) : **« اكبر عقابه الاعتقال الطويل » .**

اي ان اقصى عقوبة كان يمكن ان يعاقب بها مجرما ، هي السجن المؤبد ، ولعلنا نستطيع ان نعثر لذلك على بعض الامثلة في الجرائم السياسية بالذات ، اما غيرها من الجرائم الاخرى فقد كانت متروكة للقضاء ، وقد كان القضاء يتمتع في عهد يوسف ابن تاشفين باستقلال واحترام كبيرين . كان يوسف يدبر شؤون الدولة العليا وشؤون الحرب ، وذلك بعد ان **«رد احكام البلاد الى القضاة واسقط ما دون الاحكام الشرعية »** على حد تعبير صاحب (الانيس المطرب) .

وقصة سجن المعتمد بن عباد نفسها التي اقامت الدنيا واقعدتها ، قد لا تعدو ان تكون مثالا لهذه الصفة التي احتفظ بها التاريخ ليوسف بن تاشفين ، وهي انه ابطل عقوبة الاعدام او كاد ، وان **((اكبر عقابه الاعتقال الطويل))** .

واكاد اكون موقنا ان المعتمد بن عباد ــ ذلك الشاعر الرقيق ــ لو كان هو الذي وضعته الظروف مكان يوسف بن تاشفين لما استطاع ان يتصرف تصرفا اكرم ، ان لم يعمد الى القتل في قسوة وفي غير تردد او تفكير . وليس هذا الكلام يلقى جزافا ولكن المعتمد بن عباد ــ الشاعر الرقيق ــ قد قدم لنا ما يبرر هذا الاستنتاج باقدامه على قتل صديق طفولته وشبابه ، ووزيره وصفيه ، الشاعر ابن عمار ، لم يقتله شنقا ولا ضربا بالسيف ، ولم يكلف به من ينفذ فيه حكم الاعدام الذي اصدره عليه ، وانما قتله بيديه ــ بيديه الشاعرتين ــ قتله ضربا **(بالطبرزين)** على حد تعبير (المراكشي) في كتابه (المعجب) وهو سلاح حديدي يقرب في شكله من الفاس، وذلك لاسباب مهما يكن من قوتها فانها اقل قيمة بكثير من الاسباب التي اقتضت يوسف بن تاشفين ان يدين حليفه السابق المعتمد بن عباد وان ينزله عن عرشه، ويامر به ليساق الى اغمات حيث يقضي بقية حياته بها في السجن .

ذلك ان هذه الاسباب تتعلق بسلامة الاندلس كلها ، وانه يدخل فيها عامل الخيانة ، والاستعانة ضد يوسف بن تاشفين (بالفونسو السادس) نفس العدو الذي كان المعتمد بن عباد وغيره من امراء الطوائف يستنجدون ضده بالامس بيوسف بن تاشفين

وهذه حقائق تاريخية لا يسع اي واحد مهما بذل من جهد ان ينكرها او يتجاهلها .

بل ان المؤرخ الذي بسط قصة ابن عمار مع المعتمد بن عباد هو (عبد الواحد المراكشي) نفسه صاحب (المعجب) ؛ ذلك المؤرخ المغربي الذي بلغ من عطفه على المعتمد وتاثره لمصابه وايمانه بشاعريته، انه كلما افاض في ذكر شان من شؤونه ــ حتى البعيدة كل البعد عن ميدان الشعر وعالمه ــ تطغى عليه موجة من الفنية والشاعرية والاحساس ، تبدو واضحة في الاسلوب الرشيق المنمق الذي يصطنعه للحديث عن المعتمد بن عباد ، مع انه في سائر كتابه يكتب باسلوب سهل بسيط لا صناعة فيه .

واذا كانت الاشعار التي انشدها المعتمد بن عباد في وصف حاله في السجن باغمات ، قد اثرت تاثيرا كبيرا في الاسلوب الذي كتب به تاريخه ودونت به قصته ؛ واذا كنا جميعا نلاحظ ان يوسف ابن تاشفين لم يتاثر بهذه القصائد اما لانها لم تصل اليه ، واما لانه لم يفهمها ، واما لاي سبب آخر ؛ فيجب الا ننسى ان الشاعر البئيس ابا بكر بن عمار ، وزير المعتمد وقتيله ، قد نظم هو الآخر ، وهو في سجن المعتمد بن عباد ، قصائد يقول في وصفها صاحب (المعجب) : **((لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره ، او الى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع))** .

هذا مع العلم اليقين بأن هذه القصائد وصلت الى المعتمد بن عباد وقراها وفهمها وتذوقها ، بل رد على من حاول ان يعيب بعض ابياتها ، وشرح له سر العبقرية والشاعرية في الكلام الذي يحاول ان يعيبه وينتقص من قدره ، اما نكاية بالشاعر السجين ، او تملقا للشاعر الذي امر بسجنه ، قبل ان يقتله في النهاية بيديه شر قتلة واقساها وافظعها .

انا لا نقل عن اي واحد من الذين كتبوا قصة المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين ، تذوقا لشعر المعتمد ، او تالما لنهايته ، ولكننا نريد فقط ان يعطي ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ؛ فشاعرية المعتمد رقيقة قوية عظيمة من غير شك ، وقصته مؤثرة ، ولكن ذلك لا ينبغي ان يغطي على ان تصرف يوسف بن تاشفين معه كان تصرفا سليما لا مطعن فيه اذا نظرنا اليه بمنطق الاحداث التاريخية ، وفي حدود اشباهه ونظائره من هذه الاحداث .

بل انني اذهب الى ابعد ذلك فاقول : انه كان تصرفا كريما ، خصوصا اذا قارناه بتصرف المعتمد نفسه مع وزيره ابن عمار ، وتصرف هارون الرشيد ــ مثلا ــ مع البرامكة ، وبغير ذلك من المواقف والاحداث والتصرفات وهي كثيرة في التاريخ لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحاته .

انني لا اتردد في ان اذكر قصة سجن المعتمد ابن عباد كمثال لما يصف به المؤرخون يوسف بن تاشفين من انه **((كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام))** وان **((اكبر عقابه الاعتقال الطويل))** .

فقد كان ذنب المعتمد بن عباد الذي سيق من اجله الى السجن ، من الفداحة ، بحيث يعتبر السجن المؤبد كعقاب عنه ، نوعا من **العفو والصفح** اللذين يذكرهما المؤرخون كصفتين من صفات يوسف بن تاشفين .

واذا كنا لا نتمثل ذلك او نراه في وضوح ، فلاننا الفنا من المؤرخين ان يسوقوا لنا الاخبار التاريخية منفصلة عن بعضها ، لا تجمعها وحدة ــ بالضبط كما يعاب على القصيدة العربية ــ ومن ثم فنحن نقرا اخبار المعتمد مثلا ، فنتاثر لكل خبر منها على حدة نوع التاثير الذي يحسه المؤرخ ويعمل على ان ينقله الينا .

ولو جمعنا اخبار المعتمد كلها منذ بداية قصة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين الى دخول السجن باغمات ، ونظرنا اليها كوحدة ، لتبين لنا ان الحماس الذي ابداه المعتمد في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين، لم يكن من اجل استنقاذ الاندلس ، ولا من اجل الاحتفاظ بها للعروبة والاسلام ، وانما كان من اجل الرغبة في الاحتفاظ بعرشه ومملكته ، بل ومحاولة توسيع اطراف هذه المملكة على حساب بعض ملوك الطوائف الآخرين ، بعد التخلص ــ طبعا ــ من ضغط (الفونسو السادس) وحلفائه من الامراء النصارى ، وذلك بالاستعانة بنفوذ يوسف بن تاشفين وقوته .

ويذكر بعض المؤرخين ان بداية الجفوة بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ــ او من اسبابها على الاقل ــ ان يوسف في جوازه الثالث الى الاندلس انتزع « غرناطة » من اميرها عبد الله بن حبوس احد ملوك الطوائف ، وذلك لما ثبت لديه من خيانته وتعامله مع الفونسو السادس ، وان المعتمد بن عباد كان يطمع في ضم (غرناطة) الى مملكته ، وانه عرض بذكر ذلك امام يوسف بن تاشفين فلم يجبه الى طلبه ، يقول صاحب (الاستقصا) : **«ويقال ان ابن عباد طمع في غرناطة ، وان امير المسلمين يعطيه اياها ، فعرض له بذلك ، فاعرض عنه امير المسلمين ، فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه »** .

واذا كانت هذه القضية كما يعرضها صاحب (الاستقصا) تبدو فاقدة لبعض الحلقات لكي تتم منطقيتها ، كما يلقي عليها سحابة من الشك ان المؤرخ بداها بقوله : **«ويقال»** فان الذي لا يتطرق اليه الشك، ويجمع عليه كل الذين كتبوا تاريخ هذه الحقبة ، ان المعتمد بن عباد عندما احس بالخطر على مملكته ، وعندما راى امارات ملوك الطوائف الآخرين تصفى الواحدة بعد الاخرى ، لم يتورع عن ان يراسل (الفونسو السادس) نفس العدو القديم ، وان يستعين به على دفع خطر المرابطين ، خصوصا عندما عمد هؤلاء الى حصار اشبيلية قاعدة مملكته ، يقول (ابن خلدون) عن المعتمد : **« واستنجد الطاغية فمد الى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئا »** .

ويقول (ابن ابي زرع) في (الانيس المطرب) في نفس الموضوع : **(فبعث المعتمد الى « الفونسو السادس » اخزاه الله ، يستغيث به ويستصرخه على لمتونة ، وبعده باعطاء البلاد ، وبذل الطارف والتلاد ، ان كشف عنه ما هو فيه من الحصار ، فبعث اليه الفنش قائده القومس في جيش .... فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين .**

وهكذا يبدو ان المقالة المشهورة عن المعتمد بن عباد عندما كان يفكر في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، وان بعض اقربائه ومساعديه نصحوا اليه بالعدول عن هذه الفكرة خوفا من طمع يوسف بن تاشفين في الاستيلاء على الاندلس ، وانه اجاب هؤلاء الناصحين بانه يفضل ان يرعى الجمال للملك المغرب على ان يرعى الخنازير لملوك النصارى في الاندلس ، اقول : يبدو ان هذه المقالة لا تعدو واحدة من اثنتين: اما ان تكون كذبة جميلة منمقة من وضع بعض المؤرخين الذين كتبوا تاريخ المعتمد تحت تاثير شاعريته ، وان تكون جوابا شعريا جميلا خاليا من كل معنى او قصد ، اخرس به المعتمد معارضيه في فكرة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، والا فان المعتمد قد برهن في النهاية باستعانته بالفونسو السادس على دفع حصار المرابطين ، ووعده له **«باعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد»** على انه لا يفضل رعي الجمال ولا رعي الخنازير ، وانما يفضل عليهما معها الاحتفاظ بمملكته باي ثمن ، ولو بالاستعانة بالفونسو السادس او بيوسف بن تاشفين ، فانهما عنده معا ــ في حدود منطق تصرفاته ــ على حد سواء .

وهكذا يبدو ايضا من جهة اخرى ، ان يوسف بن تاشفين لم يكن قاسيا ولا فظا غليظا في سجنه المعتمد او نفيه صحبة عائلته الى اغمات .

نعم كان من الممكن ان يكون يوسف اكثر كرما، فينزل المعتمد وعائلته منزلا حسنا ويوسع عليهم في الرزق ، ولكننا في الحقيقة لا نعرف عن ذلك شيئا لان كل ما نعرفه عن حالة المعتمد بن عباد وعائلته في السجن ، انما مصدره قصائده الشعرية التي انشدها في الشكوى من حاله وفقره وحاجته ، وهي شكوى شاعر ملك ، مرهف الاحساس من جهة ، ومتعود على الرفاهية ورغد العيش من جهة اخرى .

ومهما يكن من مستوى الحياة التي كان يحياها المعتمد في اغمات ، فلعل الحياة المتقشفة التي كان يحياها يوسف بن تاشفين بالرغم من اتساع مملكته وازدهارها وغناها، ولم تكن تختلف عنها اختلافا كبيرا، بل ان المؤرخ الالماني (يوسف اشباخ) يرجع الى هذه الحياة المعتدلة المتقشفة سر الصحة التي كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين ، وانه استطاع ان يعمر مائة سنة .

يقول المؤرخ المذكور (يوسف اشباخ) في ذكر يوسف بن تاشفين : » **وقد بلغ من اعتداله وتقشفه انه لم يكن ياكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ، ولا يشرب سوى لبن الابل ، والى هذا الاعتدال والتقشف يرجع الفضل فيما كان يتمتع به من صحة بديعة وفي كونه قد عاش مائة عام ، وهو عمر نادر البلوغ » .**

وانه لمن المضحك الطريف ان نتصور انه في الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين ياكل خبز الشعير ويشرب لبن الابل بعاصمة امبراطوريته مراكش ، كان المعتمد يبكي في سجنه او منفاه باغمات ، لان اقدام زوجه وبناته لم تعد ـ كما كان العهد بها ـ تطأ المسك والكافور .

*

على ان المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين لم ينكبوا المعتمد وحده ، وانما نكبوا معه وقبله معظم ملوك الطوائف الذين كانوا يقتسمون الاندلس ويعيثون فيها فسادا ، ويقضون حياتهم بين لهو وتلذذ بالحياة من جهة ، وبين كيد لبعضهم وتطاحن ونزاع فيما بينهم من جهة اخرى ، والعدو ينزل بهم الضربات تلو الضربات ويحتقرهم ويغزوهم وياخذ منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، والشعب ، الشعب الاندلسي المسكين ، يدفع الضرائب في غير رحمة ولا شفقة ، ويتالم ، ويندب حظه التعس ، وينتظر بعد ان يئس من صلاح احواله على يد ملوكه وامرائه ان ياتيه الله بمعجزة ، وقد اتته المعجزة فعلا في ركاب خيل المرابطين لتؤمنه بعد خوف ، وتعيد اليه كرامته بعد ذلة ، وتحفظ عليه امواله وحقوقه بعد ان عبث بهما ملوك الطوائف .

ولسنا ننكر ان قواد يوسف بن تاشفين العسكريين الذي خلفهم على راس جيوشه بالاندلس ـ بعد ان غادرها هو الى المغرب ـ وعلى راسهم قريبه سيري بن ابي بكر ، قد استعملوا شيئا من القوة في نكبة بعض ملوك الطوائف ، وانهم قتلوا بعضهم واستصفوا اموالهم ؛ لسنا ننكر ذلك ، ولكن لا ينبغي ان ننسى اسبابه ، وتتلخص هذه الاسباب في ان ملوك الطوائف جميعا ـ كما اسلفنا في حق المعتمد بن عباد ـ قد تبين من بعد ، انهم لم يكونوا جادين فيما اظهروه من الغيرة على العروبة والدين عندما استنجدوا بيوسف بن تاشفين ، وانه ما كاد ضغط العدو يتزاح عن صدورهم ، ويعود ابن تاشفين الى المغرب ، حتى عادوا سيرتهم الاولى التي كانت السبب فيما حل بهم وببلادهم .

وعند ما كان الجيش اللمتوني المرابط في الاندلس يتتبع العدو ـ بعد عودة يوسف الى المغرب ـ ويتحمل من انواع البلاء والكفاح وخشونة العيش ما لا يطاق ؛ في ذلك الوقت بالذات ، كان ملوك الطوائف جميعا قد عادوا الى قواعدهم سالمين ، قد عادوا الى مجالس لهوهم وسمرهم ورفاهيتهم ، يتذوقون الوان الخمور المعتقة ، ويستمعون الى الغناء ، ويتمايلون مع القدود الهيفاء ، قدود الراقصات الجميلات .

وقد استرعت هذه الحالة المؤلمة انتباه القائد العسكري لجيش المرابطين « سيري بن ابي بكر » فكتب الى ملكه بالمغرب يوسف بن تاشفين يصف له هذه الحالة ويقول له : « **انه لا يستقيم لهذه الجيوش ان تقيم بالثغور في ضنك من العيش ، تصابح العدو وتماسيه ، وتحظى ملوك الاندلس من الارزاق برغد العيش »** كما ورد بالنص في (وفيات الاعيان لابن خلكان) وكما ورد بهذا المعنى ، وبتحوير بسيط في اللفظ ، عند غيره من المؤرخين .

بل ان ملوك الطوائف عادوا الى حروبهم الباردة والساخنة معا ضد بعضهم ، كما ان بعضهم الآخر ـ وقد بدا يحس باقتراب الخطر من المرابطين او

يتوهمه ـ لم يتورع عن محالفة (الفونسو السادس) الذي ((**استطاع ـ كما يقول (يوسف اشباخ) ـ بسرعة مدهشة أن يحشد جيشا آخر ، ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنورمانيين، وكانت روح الفروسية المعاصرة التي اضطرمت بعدئذ في الحروب الصليبية ، قد دفعت الى اسبانيا بآلاف من فرنسا ومن جهات الالب لتشد أزر النصرانية في معركتها ضد الاسلام**)) .

وكمثال لخيانة ملوك الطوائف ـ وقد ذكرنا مثالا لها في الحديث عن المعتمد بن عباد ـ نذكر هنا مثالا آخر نقلا بالنص عن (ابن خلدون) وذلك عندمايقول عن حصار جيش المرابطين لغرناطة : ((**واستنزل صاحبيها بعد ان كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف ابن تاشفين**)) .

فماذا ينتظر من يوسف ابن تاشفين ان يعمل ازاء هذه الحالة ؟ أيرسل الاوامر الى جيوشه بالانسحاب من الاندلس وتركها لملوك الطوائف يفعلون فيها ما يريدون ؟ فيم اذا كان الجواز الى الاندلس ؟ وفيم اذن كانت هذه الحرب العاتية الضروس ؟ وبماذا يجيب الوفود التي لا زالت تتوارد عليه من الاندلس تحت رئاسة العلماء والفقهاء تطلب اليه ان يريح الاندلس من ملوك الطوائف اللاهين المتنازعين؟ وماذا ستفعل الاقدار مرة اخرى بالشعب الاندلسي البئيس المسكين الذي علق عليه آماله ونظر اليه كمنقذ ، لا من (الفونسو السادس) وحلفائه فقط ، ولكن من واقعه الاليم ، ومن حياته الشقية ، ومن ملوكه القساة الذين لا يرحمون ، والذين تبتلع سهراتهم الصاخبة الماجنة كل اموال الشعب وعرقه وكفاحه ؟ .

ومع ذلك فيبدو ان يوسف بن تاشفين لم يتصرف بسرعة ، وانه كعادته قد استشار كل من راى ان استشارته تنفع في الموضوع ، وكرجل متشبع بروح الدين لا يقدم على امر من اموره الا بعد ان يعرف حكم الله فيه ، فانه قد استشار علماء الدين ؛ استشار الفقهاء في المغرب والاندلس ، بل وفي المشرق العربي ايضا ، فافتوه جميعا بوجوب خلع ملوك الطوائف وبسط سلطانه المباشر على الاندلس ، يقول (ابن خلدون) : ((**وافتاه الفقهاء واهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم ، وصارت اليه بذلك فتاوي اهل الشرق الاعلام مثل الغزالي والطرطوشي**)) .

ولنقف قليلا عند ذكر **الغزالي والطرطوشي** ، أما الامام ابو حامد الغزالي فهو معروف على نطاق واسع جدا ، وفتواه في قضية كهذه لا يمكن ان يتطرق الشك الى قيمتها ، واما ابوبكر محمد بن الوليد الطرطوشي ، فهو عالم جليل من اصل اندلسي ، وقد رحل الى المشرق حيث طلب العلم على خيرة علماء عصره ، واشتغل بالتدريس ، والف عدة كتب ذكر منها ابن خلكان كتاب « سراج الهدى » و « سراج الملوك » و « الفتن »وظل مقيما بالشرق الى ان توفي بالاسكندرية ، وكان من تلامذته ومريديه بها (المهدي بن تومرت) مؤسس دولة الموحدين فيما بعد هذه الحقبة من التاريخ .

ويبدو ان فتوى الامام الغزالي لم تكن ، فقط ، بجواز خلع ملوك الطوائف ، وانما كانت صريحة بوجوب ذلك على يوسف بن تاشفين بالذات ، يقول في ذلك الدكاترة (فليب حتى ، وادوارد جرجي ، وجبرائل جبور) في كتابهم « تاريخ العرب » : ((**الا ان الغزالي كان قد تقدم اعلام المشرق الذين افتوا بالموافقة على راي فقهاء الاندلس في ان يوسف بن تاشفين له الحق في خلع ملوك الطوائف ، والتخلي عنهم وعن العهود التي قطعها لهم ، وان انتزاع الامر من ايديهم ، ليس حقا ، بل واجبا يترتب عليه**)) .

ويقول (كارل بروكلمان) في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، يقول بعد ان ذكراستفتاء يوسف لفقهاء المغرب والاندلس : ((**ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى استطلاع راي اشهر فقهاء المشارقة في هذا الحكم ، زيادة في الاطمئنان ، فايدوه جميعا ، وفي جملتهم الفقيه الكبير الغزالي**)) .

ثم ماذا فعل يوسف بن تاشفين بعد ذلك كله ؟ انه لم يزد ـ وقد اصبح لديه اليقين الكامل بمشروعية الاقدام على العمل ـ على ان كتب لقائد جيوشه بالاندلس ، قريبه سيري بن ابي بكر ، يامره بان يتقدم الى ملوك الطوائف واحدا واحدا ، ليطلب منهم النزول عن عروشهم ومغادرة الاندلس الى المغرب ، فمن امتنع من ذلك نفذ فيه الامر بالقوة .

ويجمع كثير من المؤرخين الذين رووا قصة هذا الجواب ، على النص بانه لم يامره بشيء فيما يتعلق بالمعتمد بن عباد ، كما يذكر بعضهم الآخر انه امره الا يتعرض للمعتمد بشيء الا بعد الفراغ من الملوك الآخرين .

وقد نفذ سيري الاوامر التي القيت اليـــه ، واستعمل احيانا من القـــوة في تنفيذها ما كان يمكن له بحق ان يتجنبه ، ولكن هذه القسوة ليست غريبة من نوعها في التاريخ ، فان نظائرها واشباهها كثيرة فيه، وان كنا لا نرى في ذلك تبريرا لها .

والغريب في الامر ، ان ملوك الطوائف الآخرين الذين عوملوا بأقسى مما عومل به المعتمد بن عباد ، بل وقتلوا ، لم تثر قضاياهم من العطف ، ولا من الانكار على المرابطين ، مثل ما اثارته قضية المعتمد بالذات ، وهكذا يبدو ان القضية لم تعد تاريخية محضا ، وانما دخلها عامل العطف على هذا الملك الشاعر ، وذلـــك بالرغم من ان غيره من ملوك الطوائف ، كان فيهـــم شعراء ، وكان يعيش في كنفهم شعراء بكوهم وانشدوا في رثاء دولهم قصائد خالدة على مر الزمان .

*

المهم في الامر ان ملوك الطوائف ذهبوا وبقيت الاندلس ، وان بساط العيش اللين الناعم الذي كـــان يفترشه هؤلاء الملوك قد طوي طيا ، ولم يحزن لذلـك الا الندمان والشعراء الذين كانوا يشاركونهم مجونهم وصخبهم وسهراتهم ، او كانوا يجدون في كنفهم على الاقل حياة سهلة سعيدة مترفة .

اما الشعب الاندلسي الذي لم يوله المؤرخون الا قليلا جدا من اهتمامهم كعادتهم مع سائر الشعوب ، فقد تنفس الصعداء ، واستبشر خيرا ، ورحـــب ترحيبا كاملا بحكامه الجدد من المرابطين .

نعم ان هؤلاء الحكام الجدد اقل من سابقيهـــم تذوقا للشعر والموسيقى ، واقل احتفالا بجمال المظهر والتأنق في الحديث والحركات ، ولكنهم مع ذلـــك ــ وهذا هو المهم ــ حكام اقوياء يرهبهم العدو ويحسب لهم الف حساب ، وهم الى جانب ذلك حكام عادلون اغنياء عما في ايدي الشعب ، لا يرهقونه بالضرائب ، ولا يفرضون عليه ان يمول الحفلات والسهرات . والشعوب عادة لا تحتفل بمدى مقدرة حكامها على تذوق الشعر والموسيقى ، وانما تطلب فيهم أن يسهروا على حمايتها من الاخطار الخارجية والداخلية ، وان يسوسوهـــا بالعدل . وكل ذلك كان متوفرا للشعب الاندلسي في ظل يوسف بن تاشفين ، كأحسن ما يمكن ان يكون .

ولم يكن الشعب الاندلسي وحده هو الذي فرح بذلك ، وانما شاركه في هذه الفرحة كثير من الشعوب الاسلامية الاخرى .

ذلك « **ان يوسف بن تاشفين ـ كما يقول يوسف اشباخ ـ كان يخص الامراء وحدهم بقسوته ، وقـــد استطاع ان يجد الوسيلة لكي يفرق بين الشعب وبيـــن حكامه بسرعة ، ذلك ان التناقض بين مصلحة الشعب والامراء كان واضحا ، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد وكان الامراء يؤثرون التفرق والخلاف** » .

كذلك كان الشعب الاندلسي يشكو من ارهاق الضرائب له ، وقد آن له ان يستريح من هذا الارهاق على يد يوسف بن تاشفين الذي « **لم يوجد ـ على حد تعبير (ابن ابي زرع) ـ في بلد من بلاده ولا في عمل من اعماله على طول ايامه ، رسم مكس ، ولا معونة ، ولا خراج ، لا في حاضره ولا في باديه ، الا ما امر الله تعالى به واوجبه حكم الكتاب والسنة** » .

واية حاجة بيوسف بن تاشفين الى ان يرهق الشعب بالضرائب وهو الذي كان معتدلا متقشفا في حياته الخاصة ، كما كان يحكم دولته بجهاز معتـــدل متقشف بسيط لا تعقيد فيه ، يضاف الى ذلك انه كان من جهة اخرى غنيا جدا بما كانت تدره عليه من اموال انتصاراته المتوالية في الحروب .

على ان هنالك نصا تاريخيا مهما في الموضـــوع سجله لنا صاحب (وفيات الاعيان) لا يدل ، فقط ، على ان يوسف بن تاشفيـــن لم يكن يرهق الشعب بالضرائب ، بل يدل اكثر من ذلك على انه كان يدرك ادراكا كاملا ان ظلم الشعب وابتزاز امواله لانفاقها في مظاهر الترف واللهو مضيعة للدولة وســـبب في خرابها .

فقد روى صاحب (وفيات الاعيان) ان يوسف ابن تاشفين لما حل ضيفا على المعتمد بقصوره باشبيلية وعاين هو واصحابه ما عاينوا من مظاهر التـــرف والزخرف والزينة ، جعل بعض اصحابه يزينون له ان يتخذ لنفسه مثل هذه المظاهر التي يبدو فيها المعتمد بن عباد ، فاجابهم : « **الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل انه مضيع لما في يديه من الملك ، لان هذه الاموال التي تعينه على هذه الاحوال لابد ان يكون لها ارباب لا يمكن اخذ هذا القدر منهم على وجه العدل ابدا ، فاخـــذه بالظلم ، واخرجه في هذه الترهات ، وهذا من افحش الاستهتار** » .

فاية غرابة اذن في ان يرحب الشعب الاندلسي بحكم يوسف بن تاشفين وان يرى فيه منقذه ، وان يكثر من الثناء عليه والدعاء له كما سجل ذلك غير واحد من المؤرخين .

وقد اتاح هذا الانسجام بين الشعب الاندلسي وحكامه الجدد ، للدولة المرابطية ، ان تؤثر تأثيرا ملحوظا في معنوية الشعب الاندلسي الى الحد الذي يقول معه (يوسف اشباخ) : ((**على ان سيادة المرابطين كان لها من جهة اخرى اثر حسن في تكييف روح الشعب الاندلسي ، فقد حلت في ظلها ، مكان الفروسة الهائمة والملاهي الناعمة والدعابة المصطنعة والفتور السنوي ، روح حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة متينة**)) .

كذلك فان الشعوب الاسلامية الاخرى غير الشعب الاندلسي : ((**لم تر في يوسف ـ كما يقول نفس المؤرخ ـ فاتحا متغلبا ، بل رات فيه منقذا ، واعتبرته يد القدر في معاقبة الامراء الباغين**)) .

*

لقد اطلنا القول شيئا ما في الحديث عن قصة يوسف بن تاشفين مع ملوك الطوائف على اختلافهم ، وعلى راسهم المعتمد بن عباد ، وذلك لان هذه القصة هي المسؤولة وحدها عن الصورة الشوهاء التي تسللت الى التاريخ عن يوسف بن تاشفين .

*

ولنعود الآن الى تلمس بعض صفات هذا الرجل العظيم ، فنلقي هذا السؤال :

ـ ماذا كان حظ يوسف بن تاشفين من المعرفة ؟

ـ الذي يبدو ان يوسف بن تاشفين كان رجلاميا لا يعرف القراءة والكتابة ، بل انه لم يكن يحسن النطق او الاسترسال في الحديث بلغة من اللغات التي تقرا وتكتب ، حتى اللغة العربية ـ لغة الامبراطورية الواسعة التي كان يحكمها ـ لم يكن يعرفها ، او على احسن الفروض لم يكن يتقنها . فقد خرج من الصحراء رجلا مكتمل الرجولة ، وأول ما نلتقي معه على مسرح الاحداث التاريخية نلتقي معه في حوالي الخمسين من عمره عندما استخلفه ابن عمه ابو بكر بن عمر على جيشه ومملكته في نواحي مراكش ، ليعود الى الصحراء بقصد فض بعض المنازعات والحروب التي قامت بين قبائلها .

وقد ولد يوسف بالصحراء ، وبها ترعرع وكبر ، في ظروف جهالة قاتمة وتاخر اجتماعي كبير . وعندما قدم الى الصحراء (عبد الله بن ياسين) الذي يعتبر بحق مؤسس دولة المرابطين ، كان يوسف بن تاشفين في سن الشباب ، في حوالي الثلاثين من عمره ، ولاشك انه استفاد مع الذين استفادوا ، من المرابطين ، من (عبد الله بن ياسين) تفقها في الدين ومعرفة بحدوده وواجباته ، وتشبعا بروحه ، ولكن الظروف لم تكن ظروف انقطاع في الكتاب او غيره لتعلم القراءة والكتابة، و (عبد الله بن ياسين) لم يات الى الصحراء مدرسا يعلم الصغار او الكبار مبادىء القراءة والكتابة وقواعد النحو والحساب ، وانما جاءها داعية للدين الاسلامي الحنيف ، وعاملا على تفقيه الناس فيه ، واشعارهم بوجوب التزام قوانينه في جميع الشؤون الدينية والدنيوية ، وما كاد يتوفر له بعد مدة غير طويلة العدد الكافي من الرجال المتشبعين بدعوته ، حتى ندبهم الى جهاد غيرهم ممن استعصوا على التشبع بهذه الدعوة او قبول هذه التعاليم .

وظل المرابطون ـ وقد اطلق عليهم هذا اللقب عبد اللهبن ياسين نفسه ـ يتنقلون من يومئذ من حرب الى حرب .

واذا كان التاريخ لا يذكر لنا في هذه الفترة شيئا عن يوسف بن تاشفين ، فلعل من المنطقي ومن السهل جدا ، ان نتصور انه كان احد الذين انقطعوا الى عبد الله بن ياسين ، واحد الذين بادروا الى نصر دعوته بالسيف .

وقبل ان يودع (عبد الله بن ياسين) هذه الدنيا منتقلا الى آخرته ، نلتقي بيوسف بن تاشفين على راس جيش ابن عمه ابي بكر بن عمر ، وبعد وفاة (عبد الله ابن ياسين) بنحو سنتين فقط ، نلتقي مرة اخرى بيوسف بن تاشفين وقد استخلفه ابن عمه ابو بكر بن عمر قبل عودته الى الصحراء ((**واتفق على تقديمه اشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رايه ويمن نقيبته**)) كما يقول الناصري في الاستقصا .

اذن ، فلم تتح ليوسف بن تاشفين فرصة لتعلم القراءة والكتابة ، وظل على اميته وجهله التام او النسبي باللغة العربية ـ لغة الامبراطورية التي كان يحكمها ـ الى ان مات .

وكانت هذه الامية ، وهذا الجهل التام او النسبي باللغة العربية ، مثار تندر كبير من الادباء الاندلسيين ؛ فيقال ان الشعراء الاندلسيين قدموا عليه لتهنئته بالنصر في وقعة الزلاقة ، وانشدوا بين يديه اشعارهم ، ولكنه لم يفهمها او لم يتذوقها بالرغم من ان المعتمد بن عباد كان يساعده على ذلك .

ويبالغ (الشقندي) في رسالته التي وضعها في المفاضلة بين الاندلس والمغرب وبين شعبيهما ، فيذكر ان هؤلاء الشعراء عندما انشدوا اشعارهم بين يدي يوسف بن تاشفين ، سأله المعتمد :

— ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟

يقول الشقندي ، فاجابه يوسف :

— لا ، ولكنهم يطلبون الخبز !!

والشقندي هذا ، هو الذي ساق في رسالته المذكورة البيت الذي ذكرناه آنفا ، والذي يشبه فيه يوسف بن تاشفين بالبغل ! !

والحقيقة — بقطع النظر عن كل هذا — ان معظم المؤرخين الجادين الذين تحدثوا عن يوسف بن تاشفين، اذا تصدوا للحديث عن الرسائل التي ترد عليه، يذكرون ان كاتبه قراها وشرح له فحواها بلسان المرابطين ، مما يدل دلالة قاطعة على انه لم يكن يفهم العربية اصلا ، او لم يكن يفهمها بالقدر الكافي .

ونحن اذ نقول : لم يكن يفهمها بالقدر الكافي ، او نتحدث عن جهله النسبي باللغة العربية ، فذلك لان هناك مؤرخا مغربيا هو (ابو القاسم الزياني) في كتابه «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب» يقول بعد ان يذكر تشنيع الادباء الاندلسيين على يوسف بن تاشفين : **((وقد ثبت انه كان حافظا لكتاب الله تعالى مشاركا في الفقه والحديث ، راغبا في مجالسة العلماء ، محبا للعلم واهله ، لكنه غير محسن لعلم العربية والتصريف ، وكان على كبر سنه يتعلمها ، ولم يبلغ به الجهل الى هذا الحد))** .

لقد تحدثنا حتى الآن عن امية يوسف بن تاشفين ، وعن مدى معرفته باللغة العربية او قدرته على تذوقها ، ولكن السؤال الذي طرحناه كان مدى حظ يوسف بن تاشفين من المعرفة ؟

والمعرفة في الحقيقة لا تنحصر في القراءة والكتابة، ولا في فهم او تذوق لغة من اللغات .

انني شخصيا من الذين يفضلون ان يضعوا خطا فاصلا بين الامية والجهل ، فما كل امي جاهلا ، ولا كل عارف بالقراءة والكتابة عالما .

اننا لا نقصد ان نمجد الامية دفاعا عن يوسف ابن تاشفين ، ولا ان ننكر ان القراءة والكتابة باب واسع جدا من ابواب المعرفة ، ولكنه على كل حال ليس بابها الوحيد ، وكم من امي تجلس اليه فلا تملك الا ان تحترم ذكاءه وعقله واطلاعه ومعرفته وقدرته على الفهم والتصرف في عظائم الامور ، وكم من قارىء كاتب تجلس اليه لتكتشف حالا جهله وتفاهته وعجزه وقصوره ، والامثلة على ذلك كثيرة جدا من الواقع ومن التاريخ معا .

فمن اي صنف من الاميين كان يوسف بن تاشفين ؟ .

انني لا اتردد في ان اقول : انه كان اميا من ذلك الصنف الذي لا يصح باي حال من الاحوال ان يقال عنه انه جاهل ، وكل تصرفاته في جميع الامور التي كانت تعرض له من سياسية وحربية وغيرها تؤيد هذا الراي وتدافع عنه وتقره ، فقد كان ذكيا ، وقد عركته التجارب وحنكته ، واكسبته من الخبرة والتجربة والدراية ما قد يغنيه عن استيحاء كل ذلك من بطون الكتب والدواوين .

وصفة اخرى كان يتحلى بها يوسف بن تاشفين ، وهي التاني والتفكير الطويل قبل الاقدام على اي عمل من الاعمال، وجمع اكبر عدد ممكن من الاراء وتمحيصها والمفاضلة بينها، ولم يكن يتورع اوتكبر عليه نفسه حتى من استشارة كاتبه الاندلسي الذي كان يمحضه النصح ، ويشير عليه احيانا في اعاظم الامور بما يدل على اخلاص ونباهة وحسن فهم للامور .

ومهما يكن من مساعدة الظروف التي كانت محيطة بيوسف بن تاشفين على تكوين امبراطورية واسعة كالتي كونها ، فانه لم يكن في امكانه ان يستغلها ذلك الاستغلال الكامل لو لم يكن يتمتع بصفات عقلية نادرة ، على انه لم يكن امبراطورية فقط ، وانما عرف بحق كيف يضبطها ويرتب امورها ويسوسها بالعدل والاحسان .

لقد كان يوسف بن تاشفين – كما يقول عنه (يوسف اشباخ) – " يتمتع باوفر قسط من الذكاء والراي الثاقب والشجاعة وبعد النظر ، وهي اخص صفات الزعامة » .

و (يوسف اشباخ) لا يلقي هذا الراي جزافا ، وانما هو قد استخلصه من غير شك – كما يستطيع كل قارىء جاد للتاريخ ان يفعل – من استعراض مواقف يوسف بن تاشفين وتصرفاته واعماله .

*

ونختم هذا الحديث بقضية اخرى مهمة في بابها .
يقولون : انه ما من عظيم في التاريخ الا ومن ورائه امراة .

وسواء كان هذا الكلام صحيحا على اطلاقه او غير صحيح ، فانه واقع بالنسبة لصاحبنا يوسف ابن تاشفين ، فقد كانت من ورائه امراة ، امراة عظيمة جدا ، على حظ كبير من الجمال والذكاء والفهم وبعد النظر ، تلك هي زوجه (زينب بنت اسحاق النفزاوية)

وقصة زواجه بها قصة طريفة في بابها ، فانه لم يكن زوجها الاول ، بل ولا الثاني ، وانما كان هو زوجها الرابع ، بعد ان توفي عنها زوجان ، وطلقها الثالث .

كان زوجها الاول هو (يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن وطاس) شيخ « وريكة » بنواحي مدينة مراكش ، وقد قتل في حرب له مع مغراوة وبني يفرن . فتزوجها بعده (الامير المغراوي لقوط بن يوسف ابن علي) امير (اغمات) وقد قتل هو الآخر في حرب له مع المرابطين . فتزوجها بعد (الامير المرابطي ابو بكر ابن عمر) وظلت في عصمته الى ان اضطر الى العودة الى الصحراء كما اسلفنا ، فطلقها اشفاقا عليها من حرارة الصحراء وخشونة العيش فيها ، ونصح لها بعد ان تستكمل عدتها ان تتزوج ابن عمه يوسف بن تاشفين .

وهكذا تزوجها يوسف . فكانت كما يقول الناصري : « **عنوان سعده ، والقائمة بملكه ، والمدبرة لامره ، والفاتحة عليه بحسن سياستها لاكثر بلاد المغرب ، ومن ذلك اشارتها عليه في امر ابي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته ، حسبما ذكرناه آنفا ، وهكذا كان امرها في كل ما تحاوله رحمها الله** » .

ولا يذكر لنا التاريخ ما يفيدنا بشيء عن سن هذه المراة عند ما تزوجها يوسف ، اما عنه هو فقد كان اذ ذاك في حوالي الخمسين من عمره ، ولا ينبغي ان ننسى هنا انه قد عاش مائة عام ، وقد احبته زينب وحرصت على نجاحه وكانت تساعده برايها على بلوغ هذا النجاح .

ولا شك ان تقلب الحياة بها ، واضطرارها الى العيش في اجواء مختلفة ، واحتكاكها في كل تجاربها السالفة بشؤون السياسة والحرب بحكم مراكز أزواجها السابقين ؛ لاشك ان كل ذلك قد فتق من ذكائها ، وقوى شخصيتها ، واهلها لان تشغل المكان المرموق الذي شغلته في حياة يوسف بن تاشفين .

ويبدو انها كانت لا تزال في شرخ الشباب والفتوة والجمال عندما تزوجها يوسف ، فان التاريخ يروي لنا قصة بسيطة في ذاتها ، ولكنها قوية الدلالة في أن هذه المراة كانت في اذهان العامة على عهد يوسف بن تاشفين اكثر من مجرد امراة ، كانت حلما جميلا ، كانت اسطورة ، كانت امنية غالية تعيش في قلوب الخياليين والحالمين .

وملخص القصة ان ثلاثة نفر – على حد تعبير المؤرخين – سمروا ذات ليلة وبداوا يحلمون ، فتمنى الاول لو ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين يوليه ولاية ، وتمنى الثاني لو أن امير المسلمين يعطيه كذا دينارا من المال ، وكان ثالثهم اكثر تواضعا واوسع خيالا فتمنى لو ان امير المسلمين ينزل له عن زوجه زينب بنت اسحاق النفزاوية ! !

والذي يهمنا نحن من شان زينب ، ان نذكرها اولا كامراة مغربية عظيمة ، وان نذكرها ثانيا كمحرك كان يعمل من وراء ستار في حياة يوسف تاشفين ، ولعله لا مكابرة اطلاقا في الدور الكبير الذي يمكن للمراة الطموح الذكية ان تلعبه في حياة الرجل .

وقد كانت هذه المراة الى جانب جمالها النادر ، في منتهى الذكاء والطموح .

كانت كما يقول عنها (ابن خلدون)« **مشهورة بالجمال والرياسة** » وهو نص على قصره غني بالمعاني والايحاءات ، فقد عودنا ابن خلدون في تاريخه – على عكس ما فعل في مقدمته – على الايجاز والتركيز الى حد الاخلال احيانا ، واذا كان تاريخه طويلا جدا ، فليس ذلك لانه فصل القول فيه ، ولكن لانه جمع فيه اخبار الاولين والاخرين .

وعند ما يقول ابن خلدون « **الرياسة** » فانه يعني من غير شك جميع الصفات التي تؤهل صاحبها لان يتصرف في شؤون الدولة ويعالجها ويبدي رايه فيها ، وقد كانت هذه المراة في الواقع تتمتع بجميع هذه الصفات .

محمد الثالث و محمد الخامس

٢٥ شتنبر ١٨٧٠

٢٥ شتنبر ١٩٥٦

بقلم عبد الهادي التازي

تاريخ يجب ان يكتب :

في كل مطالعة ، وعند كل مناسبة يجد الباحث نفسه امام هذا السؤال الذي تردد ذكره منذ حقبة طويلة: « هل ان تاريخنا كتب حقيقة ؟ » وقد نجد جانبا من الناس يقنعون ببعض هذه المؤلفات التي ظهرت لحد الآن ، ولكن الذين كتب لهم ان يلقوا نظرة على تاريخ الامم الاخرى يتملكهم الخجل عند ما يشعرون بهذا « الفراغ » العميق الذي يوجد بالنسبة للمؤرخين ، واظن ان الوقت ليس بمناسب لرثاء هذا « الخصاص » فخير ان تقبل على العمل دون ان تكلف نفوسنا عناء البكاء على الماضي ، ولعل في صدر من أوجعتهم مضاضة ذلك « الفراغ » اولئك المستشرقين الذين تفرغوا للدراسات المغربية بل لعل اسوا ما قيل عنا من بعضهم كان بسبب هذا « الخذلان » من التاريخ فهم وقد امنوا جانب المزاحم ، ابوا على الاختلاف والابتداع حتى ولو فيما لا يستساغ فيه ذلك ، وهكذا كنا نخشى ان نجد انفسنا امام « تاريخ مفتعل » ليس لنا ولسنا منه ، ولكن ماذا كنا ننتظر من مؤرخين يعتمدون فيما يكتبون على الخيال والافتراض ؟

فرصة مواتية :

ومن حسن الحظ ان تتهيا الظروف اليوم اكثر من اي وقت مضى للظفر ببعض العناصر التي صنعت ذلك التاريخ المجيد فنحن الآن في مغرب حر مستقل ، وان ايدينا لفي استطاعتها ان تتسرب لسائر الرفوف التي تكتظ بها خزائن المخطوطات بالمغرب فمنها ما اصبح فعلا من ممتلكات الدولة ، وفي العدد الكبير من الخزائن الشخصية التي يبدي اصحابها استعدادا طيبا لجعلها تحت تصرف « البحث العلمي » الذي يهدف الى مثل هذه الغايات النبيلة ، على اننا من جهة اخرى نمتلك « عن طريق دبلوماسيتنا » ذخرا كبيرا لا يقل عن هذا الزاد الذي ننعم به في الداخل ، فان سائر الدول التي كان لها في الماضي صلة بالمغرب اضحت مرتبطة به اليوم بنفس التعهدات التي تكون عادة بين الدول الصديقة ، وفي وثائق هذه الدول الشيء الكثير عنا : في فرنسا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال ، وانجلترا وامريكا وغير هذه ... وان اول طلب منا لهؤلاء الاصدقاء لكاف بان يجعل تلك « الوثائق » في متناول المؤرخين الباحثين

المغرب العربي :

ولعل في ابرز النواحي الهامة من تاريخنا القديم هذه الصفحات الطوال التي كتبت عن وشائج القربى والصداقة التي ظلت تربط بين اجزاء المغرب العربي طيلة هذه المراحل من التاريخ ... سنقف « متى اردنا ذلك » على نواحي تهمنا وفيها ما يهم الدول الاجنبية نفسها ... سنقرا عن رايتنا الحمراء وهي ترفرف على مراكبنا الوطنية على مقربة من جبل طارق ، وسنشاهد وصفا « حيا » للسهرات « الفولكلورية » التي كانت تقام احتفاء بمقدم سفرائنا في البلاد الاوربية ، كما وفي استطاعتنا ان نعرف شيئا عن البروتوكول » المتبع في الاستقبالات الرسمية . كل هذا في المخطوطات التي اخذت تعرف اليوم طريق النور ... ولكن كل هذا لا نريد في هذه المرة ان نتتبعه ، والشيء الذي نريده هنا هو ان نتناول في سطور قليلة هذا « التجاوب الدائم » الذي يوجد بين اقطار المغرب العربي من خلال بعض هذه المخطوطات ايضا ...

بعثة ديبلوماسية :

وسوف يقتصر حديثي على مظهر واحد من تلك المظاهر التي تجلى فيها ذلك « التجاوب » ففي اواخر القرن الثاني عشر الهجري اي منذ قرنين تقريبا وجه سلطان المغرب العظيم سيدي محمد بن عبد الله سفيره

محمد بن عثمان للقيام لدى اسبانيا ببعض المساعي تهدف من جهة الى تدعيم العلاقات بين البلدين ، ولكنها من جهة اخرى ترمي الى الترفيه عن الشعب الجزائري وهكذا تم فيما بين 20 شوال 1193 وبين 26 رمضان 1194 السفر الى هذه الديار في رحلة رسمية ...

بروتوكول مدريد :

ولقد وصل السفير المغربي الى « مادريد » بالالف كما يلذ له ان يكتبها « يوم الاربعاء رابع محرم 1194 الموافق لـ 11 يناير 1780 وهنا اتصل بالسلطات المركزية حيث تم الاتفاق بعد مفاوضات ومساومات كذلك على اطلاق سراح اكبر عدد ممكن من الاسرى ، وبمجرد ما ان حصل الوفد على هذه البغية وكانت اقصى ما يمكن ان يصل اليه ديبلوماسي مثل ابن عثمان في الحنكة والمرونة ... ومن مدريد اتجه الوفد شمالا نحو مدينة شقوبية (SEGOVIA) حيث المعتقل الاول : لقد كان الاسرى يقيمون في حصن بعيد عن المدينة « وكان اول ما سمعناه ــ يقول السفير ــ هتاف الاسرى بحياة السلطان حتى ارتجت القصبة » ، وبعد حديث مؤثر معهم ، وبعد استفسار عن احوالهم جميعا رجعوا الى المعتقل في انتظار بشرى الخلاص ، ومن شقوبية نزلوا جنوبا عن طريق طليطلة الى المدينة الساحلية « قرطاجنة » حيث كان هناك معقل من العن المعتقلات التي نصبت للمجاهدين الاحرار من ابناء الشمال الافريقي ، وكان ايضا هتاف ومعروف وبكاء ايضا ...

الشباب اولا ...

وكان قد فوض الى السفير المغربي بشأن « الاساس » الذي سيقع بمقتضاه اختيار هذا الفوج من المحررين ، وهنا تظهر مرة اخرى بصارة السفير ورجاحة عقله ، انه امام مركزين من مراكز الاعتقال ، ولكن الذي يوجد منهما على الساحل كان اكثر ارهاقا من الذي يقع على مقربة مدريد ، فليختر اذن من هؤلاء الثين وتسعين ، ومن ذاك ثلاثين ، تلك مائة واثنان وعشرون ثم بعد هذا ممن يختار هؤلاء؟ لقد كان من رايه ان يحمل بسراح «الصغار» خلافا لما كنا نتوقعه، فانهم ــ يقول السفير ــ عرضة لغلبة الكفرعليهم اكثر من غيرهم » فخير ان تنقذ عقائدهم من تهديد محتمل ... وخير كذلك ان يعدو من جديد للساعات الشداد ، ثم بعد هؤلاء ياتي دور الشيوخ والمتضررون وذوو الاعذار ومن طال مكثه بالسجن من أمد بعيد

وقبل هذا الفا اسير .

وكان عدد الاسرى من الذين وقعوا في قبضة الاسبان يناهز ثلاثة آلاف نسمة ، ولكن العاهل المغربي كان يتصيد المناسبات والفرص ليفاتح ذوي الحل والعقد من الاسبان في شأنهم ولا يتردد ــ اسبغ الله عليه الرحمات ــ دون استعمال بعض « الوسائل » التي تساعد على تهيء الجو لتلك المفاتحات ، وهكذا توصل الى اطلاق سراح عدد مهم يناهز الالفين في فترات متتابعة ...

والاسرى كلهم من الجزائر

واذا كان السفراء يختارون من الاسرى طبقات معينة ، فانهم ــ وقد زودهم السلطان بتوجيهاته ــ يجعلون نصب اعينهم « مبدأ » لا يحيدون عنه ، ذلك ان يتم الاختيار لا على اساس مغرب اقصى او مغرب اوسط ولكنه المغرب العربي المسلم ، بل وامعن من هذا في العطف وادخل ان العاهل الكريم كان يوحي الى مبعوثيه بايثار ابناء الجزائر على ابناء المغرب باعتبارهم اولى بالسند والمناصرة ، ولست هنا بصدد الحديث عن موقف الولاة الاتراك آنئذ من الاسرى الجزائريين الذين ينتسبون الى اصل عربي ، فان ذلك لا يعنينا بقدر ما يعني ان نبرز هنا موقف السلطان المغربي حيال فكرة « لا جزائر ولا مغرب ، وانما هي قطعة تجمعها اواصر الدين والعروبة .

25 شتنبر 1780 بسلا

وبالرغم من ان كتب التاريخ ظلت خرساء عن يوم من اغر الايام التي عرفها المغرب على عهد السلطان محمد الثالث ، فقد استطعنا ان نقف اخيرا على وصف لهذا اليوم في سطور مختصرة ، ولكنها مليئة بالمفاخر والمناقب ، كان هذا اليوم من ايام رمضان ليلة القدر من سنة 1194 (اي يوم 25 شتنبر 1780) حيث تم بالمكان الذي يدعى لحد الآن « ظهر المجاز » بضواحي سلا استعراض حافل حضره الملك المعظم في خيل عظيم لاستقبال هذا الفوج من الاسرى المجاهدين ، لقد وردوا وكلهم يحمل جملة من المخطوطات التي راحت بها « البعثة الديبلوماسية » كهدية من ملك اسبانيا الى الملك المعظم ، هذه المجموعة التي حبس نصيب منها ــ فيما اعتقد ــ على خزانة جامعة القرويين .. اقبل موكب السلطان فامتزجت هتافات الاسرى بدوي

الطلقات التي كان الفرسان يرسلونها فى الفضاء . وتفضل الملك فنزل عن فرسه ، وبعد برهة خشع فيها الجمهور نطق بهذا الدعاء الكريم : « اللهم تقبلها منا ذخرا » وعلى اثر ذلك اتجه نحو القبلة ، وعلى مرأى ومسمع من هذا الجمهور سجد فى هذا المكان شكرا لله الكبير المتعال ، ثم ودع القبلة واقبل على الاسرى يهنئهم ويسلم على عشائرهم وذويهم ، وبعد ان صافحهم اجمعين فاه بهذه الكلمات الطيبات : « الحمد لله الذي انقذكم .. وجمع شملكم باخوانكم المؤمنين ، فاحمدوا الله على نعمه واشكروه يزدكم من كرمه » .

الاحرار ينقلبون الى تلمسان

ولما كان الناس على ليالي العيد فقد طلب اليهم السلطان ان يأخذوا راحتهم بضعة ايام هنا فى الجزء من وطنهم : « انتم منذ الآن فى ضيافتنا حتى نوجهكم الى ناسكم ومسقط راسكم » ومضت بقايا رمضان وحل العيد فوصلهم بهبات سنية وكان ــ وهذا دليل الاهتمام ايضا ــ لا يعتمد على وزير ولا ظهير فى القيام بذلك ولكنه يجد المتعة فى مباشرة ذلك فهو يعد ويحسب ويسلمهم المقادير بيده الكريمة . وبعد ايام العيد اصدر اوامره للسفير ان يصحب الاسرى الى فاس حيث يتوجهون منها الى وجدة ثم الى مدينة تلمسان ..

25 شتنبر 1956 بوجدة

وها مائة واثنان وثمانون سنة يخطوها تاريخ المغرب فماذا تجده فى هذا التاريخ ؟ ان سياسة المغرب الخارجية التي كان ينتهجها سيدي (محمد الثالث) حيال الجزائر كانت هي بالذات السياسة التي يقتنع بها جلالة محمد الخامس ، فالعطف على الجزائر ظل « متوارثا » بين الملوك عبر التاريخ ، ولقد كنت وانا اقرا هذه السطور المكتوبة بالصمغ على هذا الورق العتيق ، كنت اخال نفسي اقرا تاريخا حاضرا كتب الى عهد قريب . افليس انه فى هذه الايام نسمع عن نفس المساعي تتكرر من قبل صاحب الجلالة مع دولة يفصلها هي الاخرى عن الجزائر البحر والدين واللغة ؟ وهل ننسى ذلك اليوم التاريخي بوجدة والعاهل المغربي ما يزال يعاني من عناء المنفى السحيق ، هذا اليوم الذي اراده التاريخ ذكرى ليوم سلا ، يحمل اسم الشهر ونفس اليوم (25 شتنبر) لقد قال الملك المعظم : « ان الشمال الافريقي يكون وحدة فى الجغرافية والجنس والدين واللغة والتقاليد ولذلك فمصيره ــ كما كان ماضيه ــ واحد والمغرب بحكم الروابط العديدة التي تربطه بالجزائر الشقيقة وبحكم جواره منها وتاثره بكل ما يجري فيها لفي طليعة الدول التي يهمها استتباب السلام فى ربوعها ضمانا لسلامة الشمال الافريقي كله .. من اجل ذلك نهيب بمن بيدهم الامر ان يسرعوا لعلاج المشكل فيضعوا بذلك حدا للآلام ويعيدوا للجزائر الشقيقة السلام .. »

« ليسوا بلاجئين .. ! »

ولم يكن خطاب وجدة فى الحقيقة الا حلقة من سلسلة خطابات وتصريحات ، افلم نسمعه منذ ايام فقط يصرح لوزير الدفاع فى الحكومة الجزائرية الموقتة بهذه الكلمات : « ان حرية الجزائر شرط اساسي لتشييد وحدة المغرب العربي وضمان مصيره واستقلاله » .. وبعد هذا فهو الذي اجاب رجال جيش التحرير الجزائري عندما شكروه على ضيافته للاجئين ، اجابهم بانه لا يسمح بتسميتهم لاجئين فهم فى بيوتهم وبين ذويهم حتى يرجعوا الى ناسهم فى الجزء الاخر من الوطن ! ..

الموقف المشين

واذا كانت هناك من مهزلة تستدعي الرثاء فهي امتعاض بعض الجهات من اشفاق سلطان المغرب على حرية الجزائر ، افلسنا نرى رؤيا عين ان اسلافه بالامس كانوا يبذلون فى سبيل تلك الحرية ما وسعهم البذل لم يعتبروا ذلك فضولا ولا تطاولا على حقوق غيرهم .. ولئن صح ان نستغرب من بعض المواقف المفاجئة فانه ما كان يصح ــ ولن يليق ان يصح ــ الاستغراب من موقف ظلت الاجيال تتوارثه ، وعلى العكس مما يدعون فان الاعتراف بحقائق التاريخ فى ابرز الصفات التي يتحتم على السياسيين أن يستشعروها وعلى القادة ان يقتنعوا بها ، وهذا فقط طريقنا الى اكتساب المعركة ..

وبعد فان الذي يعني بدراسة التاريخ المغربي لابد ان يلحظ كثيرا من التشابه بين خطوات الماضي وخطوات الحاضر فهل سيشمر المؤرخون عن سواعدهم للمقارنات والمفارقات بين الامس واليوم وبالتالي فهل سنكون بارين بهذا التاريخ .. ؟

الواقعية في الأدب

بقلم: أحمد زايد



الواقع ان ادبنا ما يزال لم يستوف عناصر تكوينه التي تستطيع ان تحدد اتجاهه تحديدا واضحا يمكننا من وضعه في اتجاه خاص من الاتجاهات الادبية العالمية .

والواقع ايضا ان عناصر هذا التكوين تسير سيرا بطيئا حتى لتحسبنه احيانا توقفا وركودا . والحقيقة كذلك ان اتجاهنا الثقافي في مجموعه ما يزال تائها وما يزال يسير في ضعف اولا وعلى غير هدى ثانيا ، لان عوامل التكوين العقلي ما تزال متباينة مع بعضها فكان مما لابد منه ان ينعكس اثر هذا التباين في اتجاهنا الادبي . ومن ثم فنحن مطالبون من اجل توحيد عوامل التكوين العقلي ، اي توحيدها في الاصول والجذور ، وفي المدارس وفي المعاهد ، مراعين شخصيتنا وظروفنا الاجتماعية ، حتى اذا كتب لنا النجاح في توحيد هذه الاصول والجذور عمدنا الى عملية تلقيحها بالاصلح والانسب لنا من ثقافات الامم الاخرى . ثم يأتي دور توجيهها في الاتجاه الذي نريده لها . ثم تأتي مرحلة اختيار المدرسة الادبية التي توافق مزاجنا وعقليتنا وشخصيتنا وظروفنا الاجتماعية ، وتلك اعمال من السهل جدا كتابتها في سطور وكلمات ، ولكن تطبيقها يحتاج الى كثير من الجهد والصبر .

ان التوصل اليها يحتاج الى شغل متواصل والى جهد ينطوي كل منهما على الكثير من العناء . على انه من ابواب تيسير العسير ان نركز محاولاتنا وجهودنا التي نبذلها منذ الآن حول اتجاه ادبي يناسب ظروف البلاد ويتدرج في نفس المراحل التي تتدرج فيها شؤوننا الاخرى . فماذا نختار من هذه المذاهب الادبية التي نقرا عنها ؟ وما هو الاصلح والانسب لظروفنا الاجتماعية وعقليتنا ونفسية هذا الشعب الذي نريد التحدث اليه عن طريق ما ننتجه ؟ ثم ما هو المذهب الادبي الذي نكون باختياره والاتجاه فيه نساير الحركات الادبية في بلاد اخرى ونسهم معها بما نستطيعه في هذا الباب ؟؟

انه سؤال وضعته لنفسي منذ زمن طويل ، واجبت عليه بنفسي منذ زمن طويل كذلك . الا انني اود الا افرضه على غيري ، وانما الذي اريده وارغب ومن اجله اكتب الآن هو ان يجري تبادل الراي في هذا الموضوع مع مراعاة ما ذكرته سابقا من امر ظروفنا الاجتماعية وهذه البيئة التي نحياها والتي تحيط بجميع جوانبنا ، لاننا نريد ان يسهم الادب في بناء مجتمعنا ، ولاننا نطمح الى ادب يستمد ايحاءه من بيئتنا ، ولاننا بعد هذا وذاك نريد ضم هذه المحاولة وجمع شتاتها . فالادب العربي المعاصر ظل — ولعله ما يزال — كثيرا من حيث الكمية ، ولكنه قليل التاثر سواء بالنسبة للمجتمعات التي ينتج فيها او بالنسبة للآداب العالمية الاخرى . اما لماذا كان ضعيف التاثير في كيفيته ؟ فلانه لم يحدد اتجاهه تحديدا واضحا ، ولانه — في رايي — لا يراعي البيئة العربية الا في محيط ضيق . ولان الجهود التي تبذل لانمائه لا تلتقي مع بعضها الا في القليل من الاحيان .

على ان هذا الادب العربي اصبح في اهم البلاد العربية يحتوي على عنصر اساسي يسهل عليه الوحدة او — بعبارة اخرى — يسهل عليه تحديد اتجاهاته ولو تعددت واختلفت حتى يصبح له طابع

من طوابع المدارس الادبية فى النثر وفى الشعر ، طابع يمكن القارىء له والمطلع عليه من ان يعرف نوع الانتاج ولونه ، وهذا العنصر الذي اصبح يتوفر للادب العربي هو توحيد عوامل التكوين الفكري التي اصبحت بعض الشعوب العربية تتوفر عليها او على اغلبها فى مدارسها ومعاهدها ، وهو عنصر ما يزال تحقيقه بعيدا بالنسبة الينا ، واعتقد ان الادب فى الشعوب العربية ينبغي له ان يعتنق الواقعية ويجعلها من اتجاهاته ، لان مجتمعات الشعوب العربية غنية بمواد الادب الواقعي الذي يؤدي ازدهاره ورواج سوقه الى غايتين اثنتين : اولاهما : ان يعين هذا الادب على نشر الوعي فى كافة الميادين وتشخيص المجتمع عن طريق المقالة والقصة وحتى الشعر ، فينتج عن ذلك تحقيق الغاية الثانية ، وهي انتاج ادب حي وصادق يقرأ فى داخل المغرب وخارجه ، فيجد من الاعجاب والتقدير ما هو جدير به ، لانه سيكون ادبا انسانيا قبل ان يكون ادبا قوميا . ولا احتاج الى القول بان روائع الادب الانساني اكثرها واغلبها استند على الواقع اكثر مما استند على الخيال . وليس معنى هذا ان الخيال ليس له اثر فى تكييف الادب واخراجه ، ولكن الواقع افضل منه ، لانه يصور الحقائق بسهولة وفى غير عسر ، اما الخيال فقد يكون خصبا معطيا وقد يصاب بالعقم والجدب او بالتصنع . والعقم والجدب والتصنع لا يستطيع واحد منها ، بل انها لا تستطيع مجتمعة وصف جانب من جوانب الانسانية بصدق وفى اسلوب يطابق الحياة .

واذا كان الاستاذ العقاد يقول ـ واظنه ما يزال على رايه هذا ـ ان الادب هو الحياة ، فالحياة هي الانسانية بمعناها الواسع . واقدر مذهب من المذاهب الادبية على وصف هذه الانسانية التي هي الحياة هو المذهب الواقعي .

ان الاتجاه الادبي ـ هو بالطبع ـ ميول قبل ان يكون شيئا آخر ، فلكل اديب ميوله الخاصة ، ما فى ذلك من شك ولا ريب . فالذين اتجهوا صوب الادب الرومانتيكي قد اتجهوا نحو هذا الاتجاه تحت تاثير ميولهم ، وكذلك الذين اتجهوا نحو المذهب الطبيعي » الذي ظهر اخيرا وحاول قادته ان يجعلوا من الادب مرآة تنعكس عليها ثورة العلم الحديث ـ فميول الاشخاص ظاهرة لابد من اعتبارها ، ولكن ما هي العوامل التي تكون فى الشخص ميوله الخاصة واتجاهه الخاص ؟ انها قبل كل شيء عوامل البيئة التي عاش ويعيش فيها، وعاش فيها قبله آباؤه الاقربون او الابعدون ، وهذا كل ما نرمي اليه ، فاذا استطاعت البيئة فى المغرب ان تكيف ميول الاديب فانها ستدفعه حتما لان يتاثر بواقع الحياة ويتملى من صورها ويغمس قلمه فى معينها ليرسم لوحاته الادبية . وهو اذا تملى منها وغمس قلمه فى معينها فان لوحاته ستاتي واقعية . ستصور المجتمع المغربي فى المقالة وفى القصة وفى الشعر كذلك .

ان عوامل البيئة استطاعت التاثير على بعض الادباء من الطبقة البورجوازية فكيفت كتاباتهم بكيفها الخاص ، فاخرجوا ادبا رائعا صوروا فيه هذه البيئة وصوروها فى مستواها العام لا في مستواهم الخاص . فكتبوا عن البؤس والشقاء والاقطاع والطغيان وابدعوا كل الابداع . لان نفوسهم تفتحت للاستيحاء من عوامل البيئة ، بل ان عوامل البيئة فرضت عليهم ان يكونوا واقعيين وان يصفوا شقاء الفلاح واستعباده واستغلاله ، لقد كانوا وكان آباؤهم من طبقة المستغلين، ولم يهتم تاريخ الادب بامرهم كاشخاص ، وانما اعار كل الاهتمام لما انتجوه من روائع ادبية ما تزال حتى اليوم تمثل نوعا من الانتاج الادبي الخالد . وهو انتاج نقراه اليوم فنقدر فيه هذه الروعة ، وهذه الروعة جاءت من التوفيق الذي حالف اولئك الادباء الذين انتجوه وابدعوا فى انتاجه . اما الادباء الذين قضت عليهم ظروفهم الخاصة بان يندمجوا فى البيئات التي عاشوا فيها اندماجا كليا فانهم خلفوا وراءهم تراثا انسانيا اكثر روعة واكثر خلودا . لانهم كانوا يصورون حياة الملايين من ابناء بيئتهم وكانوا فى الوقت نفسه يصورون حياتهم الخاصة ، وكانوا الى هذا وذاك يصورون جانبا من جوانب الحياة . هذه الحياة التي لم يلجأوا فيها الى الخيال ليعصروه عصرا حتى يوحي اليهم بما يكتبونه ، وانما لجأوا فيها الى الواقع ، الى حياتهم اليومية فرفعوا اقلامهم وصوروا بعضها فجاء تصويرهم آية من آيات الادب والفن . ويمكننا ان نستعرض تاريخ الآداب فى هذه الامم التي ازدهر فيها لنرى ان الصور التي ظلت خالدة فيه حتى الآن انما هي صور الواقع الذي تنبض فيه الحياة والذي ما تزال تنبض فيه حتى الآن ، واغلب الظن انها ستستمر نابضة الى ما شاء الله .

ان « ترجيف » الاديب الروسي الذي عاش ملاكا من عمالقة الملاكين لم يسعه الا ان يستسلم لعوامل البيئة التي كان يعيشها الفلاحون فاستوحى

منها وكتب ما خلفه من قصص رائعة . لقد كيفت ميوله هذه البيئة وارغمته ارغاما على اعتناق مذهب الواقعية ، وارغمته على ان يصور استغلال الفلاح وارهاقه ولو كان هو من جملة المستغلين .

اما الاديب الروسي (جوجو) زعيم الواقعية فان مآثره ما تزال تقرأ وتعاد وستقرأ وستعاد لانها تنطوي على دقة فى تصوير البيئة التي عاشها (جوجو) وخبرها وكان محيطا بالكثير من جوانبها ، والاديب الفرنسي « اميل زولا » تحتل آثاره الادبية مكانة رفيعة فى تاريخ الادب لانه تأثر بعوامل البيئة العامة التي كان الشعب الفرنسي يعيش فيها . ورفض ان يساير الاتجاه الادبي الذي كان يظهر الشعب الفرنسي على غير حقيقته ، حينما كان يقتصر هذا الادب على تصوير حياة البذخ والنعيم التي كانت تمثل حياة طبقة لا حياة شعب بكامله .

واذا استعرضنا الادب العربي نجد فيه قلة تأثير الحياة الواقعية فى انتاج الادباء . الا اننا نجد فى طليعة روائع الادب النوع الذي يتسم بالواقعية فكتاب (الايام) للدكتور طه حسين وقصة (زينب) للدكتور هيكل ويوميات « نائب فى الارياف » للاستاذ توفيق الحكيم وقصص الاستاذ نجيب محفوظ وغيرها من الآثار الادبية التي استمدت من واقع البيئة العربية المصرية ، انها كلها حظيت باعجاب وتقدير ، وكتب لها من الخلود اكثر مما كتب لغيرها . وترجم البعض منها الى لغات اجنبية ، لانها تصور الحياة فى مجالها الواسع ، ولانها آثار تنبض بالحياة ، ولانها اخيرا تقدم جزءا من الحياة الانسانية التي يحياها الانسان . وبدون « رتوش » .

فهذا الاتجاه هو الذي اعتقد انه يفيدنا فى حياتنا الحاضرة ، ويفتح آفاقا جديدة لانتاجنا الادبي .

والبيئة المغربية زاخرة بمواد الادب الواقعي ، اي انها زاخرة بالمواد التي يمكن للاديب ان يصوغ منها آثارا خالدة . تشخص مجتمعنا كما هو وفى صور تفيض بالحيوية ، ولا يستطيع احد غير الاديب ان يشخص ما ينطوي عليه مجتمع كمجتمعنا من صور ، البعض منها نرضى عنه بعض الرضى او كل الرضى ، والبعض منها لا يرضينا . كما ان البعض منها نجهله ونعرض اعراضا عن معرفته .

ان مئات من القصص الواقعية يتحدث بها الفلاحون فى البادية المغربية ولا تحتاج لغير اقلام الادباء لكي تنقلها كما يرويها الفلاحون . وفى الحياة الاجتماعية المغربية على اختلاف جوانبها صور انسانية يمكن ان تجليها المقالة والقصيدة او القطعة الادبية الصغيرة .

واعتقد انه من الاحسن لنا ولمصلحة ازدهار الادب فى المغرب ان نتملى بما فى بيئتنا من صور الحياة لنصوغ منها انتاجا فكريا ، واعتقد اننا سنجد الكثير ممن يقرءون هذا الادب ويتذوقونه ويسعون اليه ، اما مختارين او مكرهين .

ولقد كان بعض الادباء المغاربة قاموا بتجربة فى ممارسة الادب الواقعي ، وكانت تجربة ناجحة فصديقنا الاستاذ عبد الرحمن الفاسي كان انتج اقاصيص مغربية من الادب الواقعي ، صور فيها جانبا من البيئة المغربية فى مدينة فاس ، فاعجب بها القراء اعجابا كبيرا بالرغم عما فى اسلوب صديقنا الاستاذ عبد الرحمن من كلاسيكية تكاد تكون فى بعض الاحيان صورة من النثر الفني فى القرن الرابع ، ونذكر من بينها قصته (عمي بوشناق) وهي قصة ما تزال تكون فى رأيي نوعا من القصص الواقعي الرفيع . وله قصة اخرى اسمها (ماريان) وثالثة هي (ابنتي) ولو انه اعاد نشر واحدة منها لما كان فى اعادة نشرها تكرار لشيء منشور . بل انني ارجوه ان يفعل ذلك عسى ان يكون فى هذا العمل حافزا لادبائنا على السير من حيث انتهى اخوان لهم من قبل .

ولست اعني بكل ما ذكرته انه ينبغي لادبائنا ان ينصرفوا كل الانصراف الى ممارسة هذا النوع من الادب ، ولكنني اريد ان نركز جهودنا — كما قلت وكررت ذلك — حول هذه البيئة المغربية التي تزخر بمواد صالحة لان يصاغ منها انتاج ادبي قومي وانساني فى الوقت نفسه . لانه اذا كان بعض الادباء فى امم اخرى يعرفوننا ببيئاتهم على طريق ما ينشرونه من انتاج فيكون من اللازم ان نعرفهم بهذه البيئة التي نعيش فيها عن طريق انتاجنا الادبي . فالادب الواقعي يمكنه ان يساهم باكبر نصيب فى تشخيص اماكن الضعف فى الشعوب التي ما يزال فيها ضعف ثم انه قادر على ان يكيف نفسية الاديب بكيفية خالية من كل اثر للتصنع او التكلف . وهو قادر ايضا على ان يزود الاديب بالمادة الصالحة التي تجعل من انتاج الاديب مرآة تنعكس عليه احساساته لان الادب يكون

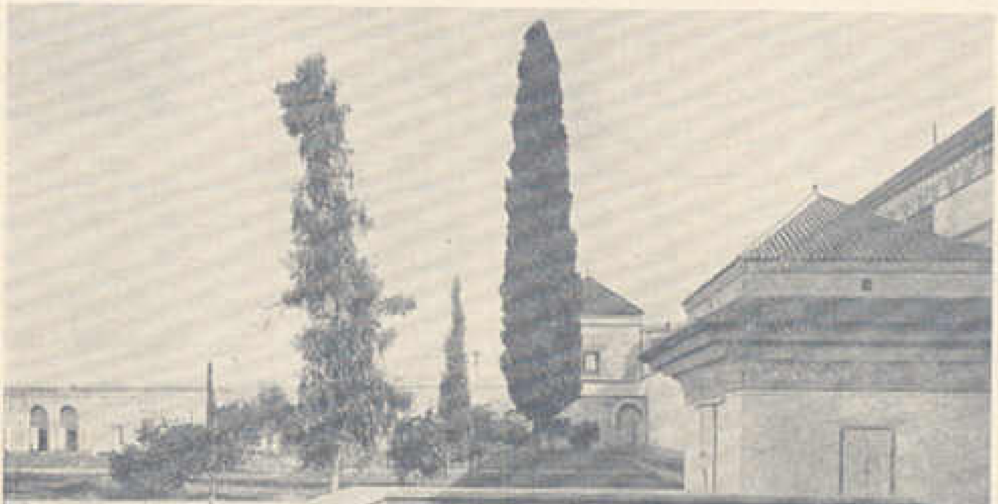
رائعا كلما كان ادبا صادقا يصور احساسات تفاعلت فيها عناصر المشاهدة والملاحظة . ويكون على العكس من ذلك خافتا وباهتا كلما صدر عن نفسية مصطنعة . تقلد ولا تبتكر ، واظن اننا نتعثر احيانا فيما ننتجه لاننا ننصرف كل الانصراف عن التملي بما في هذه البيئة المغربية الزاخرة بكل ما يخلق ادبا صادقا ورائعا . واظن اننا في حالتنا كهذه كمن يترك الماء ينساب زلالا امامه وهو يشكو من الظما – كما يقول عمر الخيام . واظن ان مقياس الروعة في ادبنا سيظل محصورا والى زمن طويل في مقدار ما ينطوي عليه الاثر الادبي من قوة مستمدة من واقع هذه البيئة المغربية الزاخرة بالالوان التي لا يجد الاديب صعوبة في التملي بها ، متى قر عزمه على ذلك ، انني لا ادعو الى اقليمية ادبية ، وانما الذي ادعو اليه هو المساهمة في رسم هذه اللوحات الكبيرة للادب التي يشارك في رسمها جميع ادباء العالم ، كل واحد منهم يرسم فيها ما يقع عليه نظره وما تنفعل له نفسه .

ان هؤلاء الذين خلفوا في آثارهم الادبية صورا حية لبيئاتهم لم يكونوا ادباء اقليميين ، وانما كانوا عالميين وانسانيين . لانهم استطاعوا التجاوب مع بيئاتهم ، واستطاعوا التعبير عن آلام وآمال هذه الجماهير التي لا تملك وسائل التعبير .

لقد صوروا احساساتها تصويرا صادقا ، وابدع البعض منهم في هذا التصوير . فجاء هذا الابداع صورة انسانية قبل أن يكون صورة محلية او اقليمية.

ومخطىء كل الخطا من يظن ان السياسة هي التي تستطيع وحدها ان توقظ الوعي في الجماهير او تعبئها ، بل الادب هو الذي استطاع ان يوقظ الوعي في الجماهير وان يعبئها ، ولئن لوحظ ان هناك ضعفا او ما يشبه الضعف في كثير من اتجاهاتنا فان مرد ذلك – في رايي – الى ان بلدنا ما يزال في حاجة الى ثورة فكرية تعبد الطريق لما ياتي بعدها من انواع الاصلاح .

والتاريخ يشهد انه ما من بلد وقعت فيه ثورة فكرية الا وكان لها ابلغ الاثر في تيسير الصعاب . ولهذا فان عناية الادب بواقع حياتنا وانسجامه معه يتولد عنهما دون شك وعي صحيح ، وتعبئة صحيحة وادب متين وصادق ورائع ، يرفع من شان الفكر في بلدنا ويفسح الطريق امام هذا الادب ليصبح ادبا عالميا يعنى بامره الناس خارج بلدنا ، ويرون في مرآته آلامنا وآمالنا ، ويفردون له مكانا في صف الاداب العالمية الاخرى .



جانب من حديقة القصر الملكي بمدينة مراكش

مشاكل القومية في المغرب العربي

بقلم : ادريس الكتاني

فسرت القومية العربية عشرات التفاسير ، وقد يكون من المفيد ان نضيف لها تعريفا سهلا بلغة الحساب والارقام ، وهي اللغة التي يفهمها قادة الغرب الاستعماري ، كما يفهمها رجل الشارع في المغرب ، عندما يضرب بها مثله الشعبي « قد ما عندك قد ما تسوى » وحسب هذه اللغة فان « القومية العربية » هي قوة عالمية تتكون من 90.000.000 من العرب (اي ما يعادل سكان فرنسا وبريطانيا معا) ، و13.447.633 كيلومتر مربعا اي ما يعادل مساحتهما بـ 17 مرة) ، تمتد من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، على حدود نهر السنغال ، وتسيطر على اخطر المواقع الاستراتيجية العالمية ، وتنتج جميع المنتوجات الزراعية ، وتتوفر على معادن الحديد والرصاص والقصدير والفوسفاط والزنك والالومنيوم والفحم الحجري والمنغنيز والكوبالط والنحاس والذهب والفضة والرصاص الاسود والتوتيا والرخام والكبريت والزئبق وغيرها ، وتنتج فوق ذلك ربع بطرول العالم ، كما تتوفر على 65٪ من مجموع الاحتياطي العالمي للذهب الاسود .

ارض واسعة ، وثروة ضخمة ، ورجال يخطئهم العد ، تلك هي طاقات « القومية العربية » التي صهرتها الآلام والدماء والدموع ، فتدافعت بعضها الى بعض : تلتئم وتنسجم وتلتحم ، وزحفت جموعها كالامواج من قلب الشعوب العربية ، لتتحد بعد شتات ، وتستغني بعد فقر ، وتتقوى بعد ضعف ، وتعز بعد ذلة ، ولتصبح صخرة عالمية يتحطم عليها الاستعمار والاستعباد والاقطاعية ، وتظل هي في مكانها قوة للبناء والسلم والحرية ، وحصنا للانسانية المظلومة المعذبة .

ويعجبني في تعريف العروبة – كمذهب – وهي كلمة مختصرة للقومية العربية ، قول الدكتور كمال الحاج : « ليست العروبة فكرة مجردة ، انها بعض وقائع الحياة ، هي تعبير اقتصادي قدر ما هي بناء روحي ، من الخطا اعتبارها دفاعا عن مثل عليا فقط، مثل الثورة كمثل الانسان ذاته : انها تتركب من جسم وروح ، علينا ان نغذي الجسم لننعش الروح في نضالها من اجل القيم ، لا سماء بدون ارض ، جريمة اذن هي القطيعة بينهما، ان الثورة التي لا تعتني بالصناعة في مختلف نواحيها ، تكون ثورة فاشلة ، المجتمع لا يزدهر الا بالعلم ، ومن العلم كانت الصناعة ، ومن هنا كان تصنيع العروبة امرا واجبا » .

ويجمل الاستاذ عبد الرحمن البزاز عميد كلية الحقوق ببغداد خصائص القومية العربية فيما يلي :

1) هي « قومية » بالمعنى الحضاري الشامل ، ولكنها ليست عنصرية .

2) وهي « اشتراكية » تدعو الى تدخل الدولة لزيادة الانتاج ، وتحقيق العدل في التوزيع ، ولكنها ليست شيوعية .

3) وهي « شورى » تومن بسيادة الامة ، وتضع مصلحتها فوق كل شيء ، وترى في الديمقراطية الصحيحة السليمة الطريق السوي الذي يكفل الحرية والكرامة والخير العام للامة .

4) وهي ترى ان كل نظام استبدادي ، يناهض طبيعة الامة العربية من حيث الاساس ، ويعارض الحقائق النهائية التي ترسبت لهذه الامة من تاريخها المجيد .

5) وقوميتنا بعد هذا « تقدمية » تاخذ بكل وسيلة مجدية لاعلاء شان العرب ، ورفع مستواهم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي » .

*

واذا كان الغرب قد ادرك في القرن التاسع عشر اهمية التكتل ، تكتل الشعوب داخل قومياتها ، وتكتل الايدي العاملة في المصانع والحقول ، وتكتل

رؤوس الاموال فى المشروعات الضخمة ، وكانت هذه التكتلات مصدر القوة التي زحف بها الاستعمار من الغرب الى افريقيا وآسيا ، فان القرن العشرين يشهد انبعاثا جديدا لهذه التكتلات فى الشرق باسم القوميات، فى طليعته « القومية العربية » .

والجماهير العربية التي تنشد الحرية ، ادركت فى آخر الحساب ، ان الحرية هي ثمرة القوة ، وان القوة هي الوحدة ، ولذلك آمنت بان الوحدة ، وحدة الشعوب العربية ، هي مفتاح باب « العالم الافضل » الذي تبحث عنه .

ولم تكن شعوب المغرب العربي لتتخلف عن ركب الثورة العربية الا قليلا من الزمن ؛ فلم تلبث شرارة هذه الثورة ان اندلعت فى الجزائر وتونس والمغرب ، ولم يلبث الايمان بالوحدة ان اصبح من مبادىء هذه الشعوب ، وهكذا انعقد مؤتمر « وحدة المغرب العربي » بطنجة فى ابريل سنة 1958 .

ومع ذلك ، فان العروبة تواجه فى المغرب العربي عدة مشاكل هي فى الحقيقة من مخلفات 130 سنة من الفرنسة والاحتلال بالجزائر ، و75 سنة بتونس ، و44 سنة بالمغرب ؛ فقد نشأت اجيال لا تعرف عن تاريخها وحضارتها وعروبتها الا الجانب الذي لا يقلل من اعتراف المغربي للمستعمر الفرنسي بتفوقه العنصري والحضاري ، ولا يغير شيئا من طبيعة الاستسلام والتبعية التي يقتضيها الاعتراف بهذا التفوق .

*

واول مشكلة واجهتها القومية العربية فى المغرب المستقل هي مشكلة التعريب ، تعريب لغة الدولة فى الادارة والتعليم ؛ واليوم تطالب الجماهير الشعبية بتعريب التفكير ايضا ، بعد ما احست بان كثيرا من هؤلاء الذين يحكمون ، ويوجهون ، ويديرون جهاز الدولة ، لا يتكلمون فقط بلغة المستعمر ، بل يفكرون ايضا بتفكيره ، ويستعملون منطقه واسلوبه . والواقع ان الفكر واللغة شيء واحد كما يقول ماكس مولار ، وهو يشبههما بقطعة النقد ويقول « ان ما نسميه بالفكر ليس الا وجها من وجهي النقد ، والآخر هو الصوت المسموع » . ومن البديهي ان العروبة لا يمكن ان تسترجع مكانتها الادبية ، ودولتها السياسية ، فى المغرب العربي ، طالما ان هناك من لا يزال يحس بمركب النقص بالنسبة للغته وامته العربية ، تجاه تفوق المستعمر الفرنسي .

فنحن فى المغرب ، ونحن فى تونس ، كثيرا ما نتجاهل فضل الحضارة العربية على حضارة الغرب ، والدور الذي قام به المغرب العربي فى غرب اوربا ، ونتجاهل ان اللغة العربية كانت هي « اللغة العالمية » خلال القرون الوسطى ، وان الغرب حتى القرن الخامس عشر ظل يشعر بتفوق العرب ولغتهم ، وبقصوره عن مجاراتهم ، وان دعاة النهضة الاروبية ، اضطروا لبذل جهد كبير لازالة الشعور بالنقص من مواطنيهم تجاه التفوق العربي . وها نحن اليوم ، بعد ان دار الزمن دورته ، نجد اننا فى بدء نهضتنا الجديدة ، تقف من الغرب نفس الموقف الذي كان له اتجاهنا ، فى بداية نهضته خلال القرن الخامس عشر ، نعاني كثيرا من مركب النقص تجاه التفوق الاروبي واللغات الغربية ، وننظر الى طاقاتنا ولغتنا نظرة مفعمة بقلة الاكتراث ، وعدم الثقة ، بينما يسند الاستعمار الفكري هذه النظرة كل يوم ، ليوهن عزائمنا ، ويشيع روح الانهزام فى نفوسنا ، هذه هي العقد النفسية التي تعانيها اجيالنا الحديثة ، والتي تقف حجر عثرة فى سبيل تطور سريع للبناء القومي .

ومن هنا نجد ان التوجيه الذي تسير عليه « وحدة المغرب العربي » يطبعها بطابع الوحدة الاقليمية الجغرافية ، اكثر مما يصوغها فى قالب الوحدة القومية؛ لننظر مثلا طابع هذه الوحدة كما جاء فى الدستور التونسي الذي اعلن امس ، والذي نهنىء تونس الشقيقة بميلاده بعد كفاح طويل ، لقد جاء فى الفصل الثاني منه : « الجمهورية التونسية جزء من المغرب الكبير تعمل لوحدته فى نطاق المصلحة المشتركة » فان حذف كلمة « العربي » لم يكن بدون هدف ، والاستعاضة عن « المغرب العربي » حتى فى ديباجة الدستور باسم « المغرب الكبير » مع ان الاسم السابق هو الذي وقع الاصطلاح عليه حتى الآن ، تعني ان هذه الوحدة تقوم على اساس الارتباط الاقليمي ، لا على اساس الارتباط القومي .

ومن الجدير بالملاحظة ، انه منذ انعقد بالقاهرة « مؤتمر المغرب العربي » فى يبراير 1947 وهذا الاسم « المغرب العربي » هو الذي تستعمله الحركات الوطنية فى الصحافة والاذاعة والخطب الرسمية ، بل انه نفس الاسم الذي تستعمله الصحافة الفرنسية الحرة ، بينما تعدل عنه الصحافة الاستعمارية الى اسم « المغرب الكبير » حتى لا تعترف ضمنيا بعروبة الجزائر فى الوقت الذي تؤكد فيه انها فرنسية .

ولا يمكن الاعتذار عن هذا التحفظ ، بان البربر يسكنون المغرب وهم ليسوا عربا ، فعروبة المغرب لم تقم فى وقت من الاوقات ــ بفضل العقيدة الاسلامية ــ على اساس العنصرية والدم ، بل على اساس اللغة والدين والتاريخ المشترك ، والاكثرية الساحقة من البربر تتكلم العربية ، وبها يتفاهم السوسي مع الريفي ، والشلح مع القبائلي ، لا بلهجاتهم البربرية المختلفة اشد الاختلاف . يضاف الى هذا ان البربر يحرصون على تعلم العربية لكونها لغة دينهم ، ولكونها اللغة العلمية القومية الوحيدة التي تساعد على تطورهم الفكري ، بينما لا تفي لهجاتهم البربرية باكثر من معاني التخاطب .

ومع ذلك ، فان الزمن والاستعمار معا ، يخدمان « القومية العربية » ، وتطورها فى المغرب العربي مرهون بانتشار التعليم ، واشتداد الوعي السياسي ، وادراك اهمية التكتل القومي كاقوى سلاح لمحاربة التكتل الاستعماري ؛ على اننا لا نزال فى المرحلة الاولى من المراحل التي اجتازها الشرق العربي قبلنا ؛ فمنذ اقل من عشرة اعوام كتب الدكتور احمد زكي فى جريدة الوفد « المصري » يقول : «ما العرب وما الفراعنة ؟ انما نحن قوم مصريون » ! ، واليوم هو رئيس تحرير مجلة « العربي » احدى السنة العروبة ، بل ان مصر التي كان كتابها يدعون للفرعونية بالامس القريب ، هي بطلة « القومية العربية » اليوم .

بيد ان سوريا كانت اسبق الشعوب العربية وعيا وايمانا بالوحدة العربية ، وكان دستورها الصادر سنة 1950 اسبق الدساتير العربية فى التنصيص على ان الشعب السوري جزء من الامة العربية » كما جاء فى مادته الاولى ؛ وجاء دستور الاردن سنة 1953 فنصت مادته الاولى ايضا على ان « الشعب الاردني جزء من الامة العربية » ؛ ثم صدر دستور الجمهورية المصرية سنة 1956 فجاء فى ديباجته : « ان شعب مصر يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربي الكبير ، ويقدر مسؤولياته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك لنصرة الامة العربية ومجدها » ثم نصت مادته الاولى ايضا على ان « الشعب المصري جزء من الامة العربية » ؛ واخيرا صدر الدستور المؤقت للجمهورية العراقية ، فنص على ان الشعب العراقي جزء من الامة العربية » وكان الدستور السوري قد ذهب الى ابعد حد ، عندما ادخل فى مادتيه 46 و 75 الخاصتين بالقسم الذى يؤديه النواب ورئيس الجمهورية عبارة « ... وان اعمل على تحقيق وحدة الاقطار العربية » ، وبرت سوريا بقسمها برا لم يسبق له نظير فى التاريخ .

وهكذا نجد ان الدول العربية اعترفت كلها بحقيقة « القومية » التي تربطها ؛ فاذا كان الدستور التونسي اليوم لم ينص على ان « الشعب التونسي جزء من الامة العربية » فانه اكد فى ديباجته بان الشعب التونسي « ينتمي للاسرة العربية » وهي خطوة جديرة بالتقدير فى دستور تونس « الاول » تعبر بدقة عن المرحلة التي وصل اليها تطور الفكرة .

ويجب ان لا ننسى ان الاستعمار الفرنسي ، كان الى ما قبل الاستقلال ، يتهمنا فى المغرب ، كما يتهمنا فى تونس ، باننا لسنا امة ، ويتساءل : هل عندنا « شعور قومي » ؟ ! ، ويحاول ان يثبت للعالم باننا خليط من الشعوب ، كان له فضل توحيدنا وتهذيبنا ! ، تماما كما يتهمنا اليوم ايضا فى الجزائر ؛ والذي اغراه بهذا الاتهام هو فعلا ضعف « الشعور القومي » عند شعوبنا التي تكونت وتربت على اساس انها « امة اسلامية » ؛ فالمغربي عندما تسأله عن هوية شخص مثلا ، يجيبك : انه « مسلم » او « نصراني » بدلا من ان يقول : « مغربي » او « فرنسي » وهذا يعني ان الحدود الدينية ، هي اهم الحدود الفاصلة والمميزة عنده ، ولما كان الفرنسيون لا ينظرون لهذه « القومية الدينية » النظرة الفسيحة التي يراها المغربي ، فقد استغلوا ذلك لاتهام المغربي والتونسي بفقدان الشعور الخاص بانه عضو فى « امة » بمعنى « مجتمع قومي » ، من غير ان يقدروا شعوره القوي بانه عضو فى « امة » بمعنى « مجتمع ديني » .

واليوم، بعد ان طغت المفاهيم القومية فى العلاقات الدولية ، على المفاهيم الدينية ، واصبح للاولى حقوق شرعية فى عرف القانون الدولي ، غطت على حقوق الثانية ، فان حكومات المغرب العربي التي تقدر مسؤولياتها الجديدة ، لا تجد مفرا من الاختيار ، فاما ان تقوم سياستها على اساس اعطاء الاولية لتدعيم المواطن بالانتساب الى « الامة » بمعنى المجتمع القومي ، وهذا يعني تدعيم القومية العربية ، او الى « الامة » بمعنى « المجتمع الديني » ، وهذا يعني تدعيم القومية الاسلامية . اما التحفظ والتردد فى سلوك السياسة الاولى ، واعتبار السياسة الثانية خيالية او رجعية ، فهذا يعني البقاء بدون « سياسة قومية » على الاطلاق ، وبالتالي ، عدم القدرة على الاختيار ، لعدم نضج الايمان بفلسفة قومية خاصة .

دور العرب في المستقبل

بقلم: محمد الغزي

في هذا الوقت التي تتقرر فيه مصائر الشعوب ، فتكثر التكتلات والاتحادات ، ويقف الاستعمار متأهبا لخوض معركته الاخيرة ، وفي هذا الوقت الذي تبرز التجمعات الاقتصادية وتتحالف المناطق النقدية الراسمالية لحصار الدول الصغرى وارغامها على الاستسلام والخضوع ، في هذا الوقت وفي هذا الوقت بالذات يجدر بنا كشعب تحدق به الاخطار وتتجاذبه التيارات وتحاك حوله الدسائس ، وكشعب مارس استقلاله حديثا ان نعرف حدود المكان بالنسبة الينا ، وهذا المكان او مجالنا الحيوي على وجه الارض ليس هو حدودنا الدولية ؛ بل انه يوجد خارج تلك الحدود انه يمتد الى المكان الذي ياتينا منه مختلف التيارات التي تؤثر فينا وانه المكان الذي تتفق مع اهله في الكفاح من اجل مستقبل افضل .

اذا نظرنا الى خارطة العالم واذا رجعنا الى انفسنا وعواطفنا والى التاريخ نجد اننا مرتبطون بوشائج متينة مع غيرنا :

1) نحن من هذا المغرب العربي الكبير .

2) ونحن افارقة .

3) ونحن عرب .

4) ونحن مسلمون .

لقد جمعنا التاريخ والحضارة والمظاهر الجغرافية وجمعتنا الآلام والآمال والمصير مع اخواننا في الجزائر وتونس ، ووضعتنا الاقدار في باب افريقيا الشمالي ، وحددت لنا دورنا في هذا الصراع الذي ينشب اليوم بين مائتي مليون افريقي وخمسة ملايين اوروبي ، واخضعتنا لنتائج ومعطيات هذا الصراع الذي يدور حول مستقبلنا كافريقيين ، ويجتذبنا ويؤثر في حياتنا هذا الوطن العربي الذي ننتسب اليه وتجمعنا واياه روابط جغرافية وتاريخية وفكرية ، ونسير واياه في خطى واحدة نحو مستقبل مشترك .

وعند ما نسرح باعيننا في قارات العالم ونجتمع مع ثلاثمائة مليون مسلم في كل من الباكستان والاندونيسيا والشرق الاوسط وخمسين مليونا في كل من الصين وروسيا وعشرات الملايين غيرهم في امكنة اخرى من العالم ، نجد رابطة الدين وموقفنا جميعا من تيارات الالحاد والمادية وصراعنا المشترك ضد الاستعمار تخلق منا قوة لا حدود لامكانياتها وعناصرها

ولا يختلف اثنان اليوم في اننا عرب ، وفي ان قوتنا تكمن في احكام صلاتنا بعرب المشرق ، فلم يعد للشعوبية او الاقليمية مكان في العالم الحديث الذي تتحلق دوله حول اتحادات وتكتلات طلبا للقوة وسعيا

وراء الاكتفاء الذاتي ، ولكن الشيء الذي لا يـزال موضع شك عند بعض شبابنا هو الفائدة العاجلة المباشرة الكامنة وراء اتحادنا مع الاقطار العربية الاخرى ، ولا يستغرب ذلك في زمن السرعة الذي نعيش فيه ، ولا في شباب شعبنا الذي اصبح الان فقط ـ بعد ان ناضل في سبيل الاستقلال السياسي ـ متفرغا للتفكير فيما يوجد وراء حدوده الدولية .

لقد مر اخواننا في سوريا ولبنان ومصر في نفس الطريق عقب حصولهم على الاستقلال ، فسوريا التي هي اليوم بحق قلب العروبة النابض ظلت حتى سنة 1948 لا تفكر الا في الاتحاد على شاكلة سوريا الكبرى او الهلال الخصيب ، وقد كان الحزب (القومي السوري) انذاك اقوى حزب نضالي ، وكانت الفكرة التي يعتنقها ان السوريين ليسوا عربا ، ثم لم يلبث الشعب ان ادرك ان جذوره لا توجد تحت ارضه فقـط ، وان مصيره لا يمكن ان يقرر في دمشق او بيروت كما لا يسمح له ان يقرر في لندن او باريس او واشنطون . وعليه فقد اجتازت الفكرة ظروفا صعبة قبل ان تتثبت وتتدعم في سوريا ، وقبل ان تنتقل بعد ذلك الى العراق والاردن ومصر والخليج العربي والمغرب العربي .

وليس الان مجال للتحدث في بحوث نظرية تتناول القومية العربية ومقوماتها بل ان الموضوع الذي احب ان اعالجه هو تلمس اسباب القوة التي تتوافر عليها هذه المجموعة العربية وكيف يمكن تفجيرها وتحويلها الى طاقات تفيد منها المجموعة كلها .

وقبل ان نحلل عناصر تلك القوة يجدر بنا ان نتساءل : هل يستطيع العرب ان يتغلبوا على مظاهر التخلف عندهم ويستفيدوا من امكانياتهم ويصبحوا مجتمعين في مصاف دول العالم العظمى ؟ ليست الثقة بالنفس وحدها هي التي يجب ان تدعونا للجواب على ذلك بـ : نعم .

ان الله قد وزع العقول على الناس بقدر متساو لا فرق في ذلك بين اسود وابيض او بين عربي واروبي ، وعدم التساوي الظاهر بين عقليات الافراد والشعوب مرده الى التدريب الفكري فقط فالفكر مثل السيف اذا ترك في غمده صدأ ولم يعد قاطعا ، وكذلك عضو الانسان اذا ترك في قالب (الجبس) مدة ضمر وجف واحتاج الى الترييض والممارسة ليعود الى حالته الاولى ويدعي لامارك بان البطة كانت عبارة عن طائر مائي كان له جناحان قويان واصابع طويلة ولم يلبث ان تغير المناخ عليها وزادت الامطار وانتشرت المستنقعات المليئة بالاوحال والاتربة ، فبدات البطة تتكيف مع الوضع الجديد فتوسع ما بين اصابعها حتى ظهرت الوشائج اللحمية التي نراها في ارجل البط ، ويعتقد اخرون بان الدجاج كان طائرا عاديا قبل ان يدجن منذ بضعة آلاف سنة وتضمر اجنحته ويصبح غير قادر على الطيران .

والشعوب مثل ذلك لا يوجد تفاوت وراثي طبيعي فيها ، والتفاوت الذي نشاهده ظاهري جديد خلقه التدريب والتربية ومزاولة العمليات الفكرية منذ الصغر .

وقد كان الصينيون القدماء اصحاب صناعات واختراعات في حين كانت توجد قبائل متوحشة في اروبا ، وكان اليونانيون في مضمار الفكر والايطاليون في مضمار القوة السياسية والعسكرية والتنظيم ياتون في طليعة الشعوب المتحضرة يوم كان الرعاة هم سكان اروبا ، وكذلك الشان عند العرب فقد اهتم الفنيقيون منهم بالملاحة والجغرافيا والفلك والبابليون بالطب والمصريون بالعمارة وتنظيم الري . وكان العرب اسيادا في الشرق الادنى والاوسط يلعبون دور الحكم والموجه ، ثم صار امرهم الى الانحطاط منذ القرن الثالث قبل الميلاد فنشا عن ذلك الصراع المرير بين العرب والرومان وتحولت المنطقة ميدانا للفوضى الضاربة .

وعند ما عاد العرب الى قوتهم ووحدتهم في القرن السابع والثامن ظهروا كاقوى امبرطورية في العالم تبسط حكمها على جنوب اروبا ونصف كل من افريقيا وآسيا ، تفتحت عبقريتهم في الطب والفلسفة والفلك والاداب والجغرافيا ، ولم يشهد العالم الوسيط تركيزا علميا كما شهدته (دار الحكمة) التي اسسها المامون في بغداد ، وناتي بمثال بسيط على العبقرية العربية انذاك هو توصل علماء العرب الى قياس محيط الارض ورسم خطوط العرض والطول بحيث لم تختلف تلك المقاييس الا قليلا عما وصل اليه العلم الحديث اليوم .

فما دهى العرب حتى تخلفوا عن الركب الحضاري واعطوا الزمام للشعوب الاروبية ؟ هل السبب في ذلك هو انهم لا يتلاءمون مع العصر الحالي المستنير او ان امكانياتهم محدودة بالنسبة لدول اروبا ؟ .

لقد راينا فى فقرات سابقة ان العقول موزعة بالقسطاس بين الناس وسنرى فى الفقرات التالية ان امكانيات العرب لا تقل عن امكانيات غيرهم فى المجال الاقتصادي والبشري عامة فالسبب اذا فى التخلف الظاهر عن الركب الحضاري الحديث راجع لعوامل اساسية هي :

اولا **الاختلاط :** فلقد كان امتزاج العرب بغيرهم من الشعوب التي دخلت فى الاسلام منشطا للحضارة العربية وباعثا لها كما كان من جهة اخرى سببا فى اختفاء الخصائص العربية العشيرية والعصبية التي هي عصب القوة والمنافحة كما يقول ابن خلدون ، وشيوع التفسخ والتبذل اللذين طوحا بالدولة العربية فى المشرق والاندلس ، وانصراف العرب الى اللهو والعبث عن النضال والحياة الفكرية العلمية ، بذلك كله اخذت اسباب الضعف والانحلال طريقها اليهم ، فكما كان للفرس اليد فى تقويض الحياة الاجتماعية فقد عمل الترك الذين جلبهم المعتصم على تقويض الحياة السياسية والادارية .

ويعتقد فيلسوف النازية (روزنمبرغ) فى كتابه (اسطورة القرن العشرين) ان الاختلاط هو الذي طوح بحضارات الهند وايران واليونان والرومان والمصريين. هذا هو العامل الاول : الاختلاط .

اما العامل الثاني : فهو الهجمات البربرية التي قام بها على المشرق المغول والتتار فى الوقت الذي كان اسطول المغرب فى صراع مع قراصنة ازوبا .

والعامل الثالث : هو الهجوم الصليبي .

والعامل الرابع : هو الاستعمار التركي الذي ينعته المؤرخون والادباء بصفة (عصر الانحطاط) لما تميز به من تعطيل للحياة الاقتصادية والفكرية .

واما العامل الخامس : فهو الاستعمار الاروبي الذي هدف الى نهب البلاد العربية وتحطيم شوكتها .

وبعد قلنا ان نتساءل هل للعرب بعد هذه الغفوة وهذا التعفن ان يعودوا الى امجادهم فيفرضون وجودهم على غيرهم ويحتلون كالشعوب الاخرى مكانهم تحت الشمس ؟ وهل فى امكانهم ان يصبحوا دولة عظمى فى تاريخ المستقبل ؟ .

توجد امثلة كثيرة فى التاريخ عن تحول شعوب ضعيفة هزيلة الى دول من الدرجة الاولى فاليابان انقلبت فى ظروف قرن واحد من مجموعة اقطاعيات « سماوية » الى دولة عظمى ، والاتحاد السوفياتي كانت حاله فى عام 1920 دون حالة العرب اليوم ، ولم نذهب بعيدا فنحن العرب قد اقمنا صرح اعظم دولة فى التاريخ خلال نصف قرن فقط بعد ان كنا مستضعفين متاخرين .

قد يضحك البعض من ذلك ، وقد لا يصدقه آخرون وقد يتساءل فريق ثالث : هل يمكن ان نفوق فى يوم ما الاروبيين فى مجال التفنن والتصنيع ؟ وهل يمكننا ان نلحق بالامريكيين فى امكانياتهم الاقتصادية ؟ وهل يعقل ان نشبه روسيا فى تقدمها العلمي والعسكري ، وابريطانيا فى سيطرتها على البحار واروبا فى مجال التنظيم ؟ .

لا اريد ان اقول « نعم » قبل ان نرى الامكانيات نفسها ففيها يمكن الجواب ويتحدد .

فما هي مكانة العرب الاقتصادية فى عالم الغد ؟ .

ان اول ما يتبادر الى الذهن هو **البترول والمواد الخام** ، وينتج العالم العربي من البترول 150 مليون طن اي ما يقارب انتاج الولايات المتحدة ، واكثر من انتاج فنزويلا وروسيا وليست اهمية البترول العربي فى انه اكثر او اقل من انتاج تلك الدولة او هذه بل اهميته تاتي من الامور الآتية :

1) وفرة الاحتياطي المخزون تحت الارض فى الوقت الذي تجف كل سنة آبار البترول فى امريكا وروسيا .

2) قرب البترول العربي من اماكن الاستهلاك اي اروبا الغربية والشرق الاقصى ، ونحن نعلم كيف تاثر العالم الغربي من ازمة حرب السويس التي سدت فى وجهه منافذ البترول .

3) تكاليف الانتاج البخسة وقد قدر ان برميل الزيت فى امريكا الشمالية يكلف 78 سنتا وفى امريكا الجنوبية 43 سنتا وفى البلاد العربية 10 سنتات فقط .

4) غزارة انتاج الآبار المكتشفة وهي ما يوضحها المثال الآتي :

تنتج بئر فى الولايات المتحدة 11 برميلا ، وفى فنزويلا 230 برميلا وفى البلاد العربية 400 برميل فى اليوم ، فهذه المادة التي تتزايد الحاجة اليها فى العالم تضعها الاقدار فى يدنا كعنصر من عناصر قوتنا فى المستقبل ، ولنا ان نتصور انفسنا وقد اقمنا صناعات هائلة واممنا البترول ومنعنا سيلانه الى خارج حدودنا

لاشك – عند ما نصل الى ذلك – في ان مركز الصناعة سينتقل من اروبا الينا وستصبح مصانع اروبا متاحف يرى السائح فيها حالة الصناعة في النصف الاول من القرن العشرين .

وعن العنصرين الاخرين من عناصر القوى المحركة وهما **الكهرباء والفحم** فانهما لم يستغلا في الوقت الحاضر استغلالا كافيا ، والمشاريع فيهما اكثر من المنجزات فالمغرب مثلا يوجد فيه اثنا عشر سدا لتوليد الكهرباء والري يبلغ انتاجها جميعا 700 مليون كلوات ساعي ، ولكنه لا زال يستخرج الكهرباء من الفحم في جهات كثيرة .

وفي مصر ستتم كهربة خزان اسوان في سنة 1960 ليعطي (1950 م . ك . س) اي ما يقارب سد بين الويدان عندنا ويجري هناك ايضا بناء السد العالي على خمسة مراحل تكلف المرحلة الاولى فقط 500 مليار من الفرنكات ، وعندما ينتهي بناؤه بعد خمسة عشر عاما سيكون اعظم خزان ومولد في العالم كله .

واما **الفحم** فهو يوجد في كل مكان من بلاد العرب وخاصة في العراق والمغرب وتجري تحريات عنه في مصر واليمن ، واما **المعادن** فهناك الحديد في المغرب ومصر والمنغنيز والكوبالت والزنك ينتج المغرب وحده منها عشر ما ينتجه العالم باسره كما انه ياتي بعد الولايات المتحدة في انتاج الفوسفاط . ولا يمكن حصر بقية المعادن واماكن وجودها وكمياتها الاحتياطية ولكننا اذا اخذنا المغرب وحده كمثال على الفاعلية المعدنية عند العرب نجد انه يستغل على نطاق تجاري ستة وعشرين معدنا هاما يبلغ انتاجها العام اربعين مليون طن في عام 1958 .

ومن هذه اللمحة نرى ان البلاد العربية توجد فيها جميع المعادن المتعددة في الصناعة والقوى المحركة اللازمة لها فهي لا تشكو ما تشكوه بريطانيا من تضخم الفحم وقلة الحديد او ما تشكوه فرنسا من وفرة الحديد وقلة الفحم او ما تشكوه جميعا من انعدام البترول ...

ان العقبات التي تقف في طريق التطور الصناعي في بلاد العرب يمكن التغلب عليها لانها غير اساسية او رئيسية ويمكن اجمالها فيما يلي :

1) **الحاجة الى تجهيز صناعي :** وان هذا التجهيز قد بدا على ساق الجد في غير ما موضع وخاصة في الجمهورية العربية والمغرب فهناك مشروع خمس سنوات لتصنيع الاقليم الشمالي بميزانية قدرها 73 مليارا من الفرنكات ، ويهدف البرنامج الى اقامة 43 مشروعا صناعيا يستفيد منها 100 الف عامل ، واما برنامج التصنيع لخمس سنوات في مصر الذي ينتهي في عام 1960 فيبلغ راسماله 325 مليارا من الفرنك .

وقد سار المغرب في نفس الطريق فاعدت وزارة الاقتصاد برنامج التسيير لسنتي 1958 و 1959 ثم وضعت برنامجا للنهوض الاقتصادي مدته خمس سنوات سيدخل في التنفيذ اعتبارا من هذه السنة .

2) واما العقبة الثانية في طريق التصنيع فهي **ندرة اليد الخبيرة** وهذا امر لا يمكن ان يستعصي طويلا .

3) **رؤوس الاموال :** غير ان موارد البلاد العربية الهائلة يمكن ان تمول المشاريع الانمائية المختلفة وقد انشات جامعة الدول العربية بنكا عربيا لتمويل المشاريع الاقتصادية وتجهيزها ، هذا وقد شعر العرب اخيرا بعد ان وضعوا مرارا تحت الحصار الاقتصادي الغربي ، وبعد ان ظهرت اخيرا السوق الاروبية المشتركة بضرورة التعاون المثمر ضمن سوق عربية مشتركة تمهيدا للوحدة الاقتصادية الشاملة التي يدرسها اليوم المجلس الاقتصادي العربي .

لقد وضعت الدول الغربية قيودا على الاستيراد اليها ، وخفضت بعضها من قيمة عملتها ووضعت اخرى قيودا نقدية ، فما يؤخر العرب ان يقدموا على تكامل اقتصادي فيما بينهم مع العلم بان ذلك ممكن من الوجهة العملية ؟ .

هذا عن قوة العرب الاقتصادية وهي معيار عالم اليوم ولكن مكانة العرب في عالم الغد لا يثبتها الاقتصاد وحده بل تقيمها ايضا **قوتهم المكانية في العالم** اي موقع بلادهم الاستراتيجي .

ان عقد الواصلات العالمية تحتكرها البلاد العربية وهي قناة السويس ومضيقي جبل طارق وعدن فيما يخص المواصلات البحرية ، والدار البيضاء والجزائر والقاهرة وبيروت في مجال الاتصال الجوي والبحري ، وقد كانت البلاد العربية مثار حروب منذ القديم لموقعها الممتاز ، ونتذكر على سبيل المثال الصراع بين الفرس والبزنطيين وبين الاتراك والانجليز والروس وبين الالمان والحلفاء ، واخيرا حرب السويس التي نشبت بسبب تاميم مصر لقناتها البحرية ، ولا زالت سحب الحرب الباردة والحامية تتلبد فوق الشرق

الاوسط والمغرب فالصراع على اشده بين المعسكرين في منطقتنا وسنصلى منه بسبب وجود قواعد عدوانية فوق اراضينا .

فما هو الحل يا ترى للاستفادة على نطاق واسع من هذا التوسط المكاني مع ابعادنا عن الاطماع والمؤامرات ، اني اجد ذلك الحل في امرين هما :

1) **الوحدة العربية .**

2) **الحياد الايجابي وعدم التبعية** الذين سارت عليهما الجمهورية العربية والعراق واليمن والمغرب

وهناك ناحية اخرى تضمن للعرب قوتهم في عالم الغد وهي **الناحية الفكرية والمعنوية** . فالحضارة الحديثة في الغرب وفي العالم الاشتراكي لا تفسح فيها مجالا للقوى المعنوية التي تستند الى الدين والقومية في حين ان هذه القوة تاتي كاهم المقومات في حياة العرب المستقبلة ، وانه لتكمن في الدين الاسلامي جميع القيم الاخلاقية والانسانية كما انه من دعائم وحدة الامة العربية لارتباطه بحياتها وتاريخها ومقوماتها .

اما **القومية العربية** التي تشق طريقها اليوم نحو النماء فهي اقوى ضمانة لاستمرار كفاح العرب من اجل عزتهم وقوتهم لانها تذكرهم دائما بامجادهم وترتفع بهم عن الشعوبية والفوضى الاجتماعية والانحلال المذهبي ، ويقدم لنا التاريخ امثلة واضحةعن انتصار شعوب كثيرة بسبب سلوكها الطريق القومي كدول اوربا الشرقية السلافية والمانيا وايطاليا ، وان اهم صخرة سيتحطم عليها الاستعمار العسكري الاستيطاني في افريقيا والاستعمار الاقتصادي في جنوب امريكا هي الشعور العنصري والقومي عند الافارقة واللاتين .

ومن مقومات قوة العرب الفكرية ايضا **اللغة العربية** وتاتي قوتها من امرين اولهما انها قابلة للتطور والثانية هي انه لا يوجد غيرها في بلاد العرب .

ونحن نسمع بعض شبابنا يتحدثون عن قصور اللغة العربية وعدم تمكنها من مسايرة ركب التقدم الفني ، ولكن ما راي هؤلاء في كلتي الطب والعلوم في دمشق اللتين لا تدرس فيهما اية مادة بغير اللغة العربية ؟ وما قولهم في ان دوائر الدولة لا توجد فيها اي آلة طابعة بلغة اجنبية وفي ان الروس او الامريكيين او الفرنسيين اذا مروا بشوارع دمشق مثلا اضطروا ان يراجعوا دليل السائح والقاموس في كل لحظة ، وبعد ذلك ما رايهم في ان سوريا التي يوجد فيها كل ذلك تتقدمنا في مضمار التطور .

اما العنصر الرابع من عناصر القوة الفكرية فهو **التاريخ العربي** نفسه الذي هو تذكير بالامجاد واجترار للاحداث لاجتناب اخطاء الماضي ووضع خطط المستقبل

وتبرز من بين اسباب قوة العرب في المستقبل **الوفر البشري** الذي هو قوام الجيوش والحياة الاقتصادية ، ويجدر ان نسال اولا هل زيادة السكان في حد ذاتها موطن قوة او موطن ضعف في الدولة ؟ الواقع ان الجواب عن هذا السؤال يحدده مقدار ما وصلت اليه الدولة من تجهيز اقتصادي ، وسوية حياتية . اننا نشكو اليوم من البطالة ونحاول ان نجد لها حلولا ، ونفس الوضع كانت عليه المانيا في سنة 1932 واليابان في 1911 والولايات المتحدة بعد الحرب الاخيرة ، وبينما كان الالمان يفكرون في تحديد النسل وتقليص الاسرة حتى لا يضاف جيش جديد من العاطلين الى عشرة ملايين كانت لا تجد لها عملا تراهم بعد خمس سنوات فقط يقدمون اعانات للاسر وللمتزوجين الجدد سعيا وراء زيادة النسل لان الامكانيات التي تكشف عنها البلاد الالمانية خلقت الحاجة الى اليد العاملة للعمل فيها وفي تضخيم الجيوش ، وكذلك كان الامر في فرنسا بعد عام 1938 عندما بدا انقراض الشعب الفرنسي .

فعند ما يبدا العرب في كتابة اسطر مجدهم المقبل سيجدون ان عدد السكان الحالي يجب ان يضاعف ، فبدلا من ثمانين مليونا الحالية يجب ان يكون هناك مائة وخمسون . ولن يجد العرب صعوبة في رفع اعدادهم لان الخصب الجنسي والتوليد عندهم اصبحا مضرب الامثال في علم السكان .

وهكذا فالحل الضروري لهذه الزيادة ليس هو تحديد النسل بل هو **تجنيد الامكانيات وتفجير الفعاليات** الاقتصادية وضمان حياة اجتماعية افضل ، ولا مكان لمثل افكار مالتوس في بلاد غنية بكر كبلادنا العربية .

بقي هناك عنصر هام في مظاهر القوة وهو التصميم والعزم او ما يسمى **بالقوة النضالية** ، والواقع ان الشعب العربي لم يسالم المعتدي في اي وقت ففي القديم نذكر صراع المغاربة ضد الرومان والوندال ،

والسوريين ضد الرومان، وفى العصر الوسيط والحديث كان صراع بين العرب والغزاة المغول والتتار وبينهم وبين الصليبيين والبرتغال والاسبان ، وكذلك الصراع ضد العثمانيين الذي تبلور فى الثورة العربية الكبرى سنة 1916 وضد الاجانب فى شمال افريقيا والشرق، ومما يدل على حيوية هذا الشعب وقدرته على الكفاح الثورة المصرية التي قامت ضد محترفي السياسة والكفاح فى سوريا ضد الدكتاتورية وفى المغرب ضد الاستعمار وفى العراق ولبنان والاردن والسودان ضد اذنابه ، ولا زلنا نشهد الى اليوم كفاحا جبارا يخوضه الشعب الجزائري والعماني ، وان قبوع اللاجئين الفلسطينيين فى خيامهم الممزقة ينتظرون اليوم الذي يعودون فيه الى بلادهم ويرفضون جميع الحلول لاقرار سلام او تسوية لهو اعظم دليل على قوة هذا التصميم .

هذه هي مظاهر القوة المستقبلة للعرب : كيان اقتصادي جبار ، وضع استراتيجي مرموق ، قوة فكرية ومعنوية وفر هائل فى الرجال وقدرة نضالية لا تعرف الحدود ، فهل بدا العرب يا ترى فى قطع الاشواط الاولى فى هذا الطريق ؟ .

لقد وعدوا فى الحرب الاولى بدولة عربية واحدة ، ولكن النتيجة كانت تقسيم البلاد العربية واقامة اسرائيل ، وازاء الالحاح والنضال والدعوة الى العصيان على « الواقع » الذي هو التجزئة وشجب الكيانات السياسية بدا الاستعمار البريطاني الذي عرف بنظريته فى **الاستعمار الواقعي** فى تصعيد هذه العواطف التي خاف ان تتبلور فى حركة قومية عارمة ، فاوعز بتاسيس دولة سوريا الكبرى ولكنه فشل ثم قامت فكرة الهلال الخصيب لضم سوريا الى العراق وفشلت هي الاخرى ثم وقع ضم فلسطين الى الاردن سنة 1948 ، وفى تلك الاثناء كانت الجامعة العربية تتعثر فى خطيئاتها وضعفها فلم تستطع ان تؤدب عصابات اليهود او ان تنفذ مشروعا هاما واحدا والسبب فى ذلك هو الاصابع التي كانت تحرك دولها من تحت فى ذلك الوقت .

غير ان اوضاع البلاد العربية تغيرت الان عن ذي قبل فقد ثارت مصر والعراق ولبنان ومات الملك عبد الله واستقلت ليبيا والمغرب وتونس والسودان واجتمع الجميع بروح جديدة وآمال جديدة ورغبة حقيقية فى التعاون ، فوقعت معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة وظهرت الاتحادات الثنائية والانضمامات الكاملة ، وتباشر الجامعة هذه الايام دراسة مشاريع للوحدة الاقتصادية بين العرب ولاقامة السوق العربية المشتركة وشركتي الطيران والبحرية العربية . .

نعم هذا هو البرهان الاول على ان العرب سائرون فى هذا الطريق : **الوحدة العربية** .

اما البرهان الثاني فهو حركة التصنيع التي توجد فى كل مكان واما البرهان الثالث فهو وضوح مكانة العرب فى المجال الدولي فقد اشتد التنافس على البلاد العربية منذ الحرب الاخيرة ، فاصدرت انجلترا وفرنسا وامريكا البيان الثلاثي الذي يحافظ على حدود الدول العربية ولا يسمح بان تربح دولة شيئا على حساب الاخرى ، واستدرجت مصر سنة 1952 لتوقيع معاهدة الدفاع المشترك ، وفرض حلف بغداد على شعب العراق ، ولكن تصميم العرب على عدم جعل بلادهم قاعدة للعدوان جعلهم يتحدون الدول العظمى ويعتنقون الحياد وعدم التبعية ، ولم تعجب هذه السياسة دهاقنة الاستعمار وكادوا يشعلون حربا عالمية ثلاث مرات بسببها مرة فى عام 1956 عندما اممت القناة ومرتين فى عام 1958 عندما نزلت الجيوش الامريكية ثم الانجليزية فى لبنان والاردن .

❋

هذه هي عدة العرب فى بناء المستقبل ، وهذا سبيلهم الى القوة والمجد ، لقد رسم المستعمر الحدود بين المناطق العربية واقام الدويلات، فلم نقوم بحراستها والتغني بقدسيتها وتخليد كياناتها ، ان الدول المكروسكوبية كانت دائما هدفا للعدوان وتقع دائما تحت رحمة الدول الكبرى .

وقد انهزم العرب فى فلسطين رغم انهم كانوا سبع دول لسبب بسيط وهو انهم كانوا سبع دول .

على هامش مشكلة التعريب في المغرب

اللغات الأجنبية ... مكانتها في البرامج التعليمية

بقلم: محمد عبد الواحد بناني

لا يكاد يشك اليوم احد في ان اللغة خير اداة للتعبير عن شتى الافكار والمشاعر والقيم ، وانها تكون ركنا هاما من الاركان التي تبنى عليها الامم ، وانها عامل ايجابي منتج في صهر الافراد ضمن مجتمع واحد، يعمل كل اعضائه متساندين لما فيه المصلحة المشتركة والخير العام .

هذه حقيقة . واخرى ، ان مغربنا العزيز عربي دما ولحما ، اجمع على هذا الرواة ، وتواترت الانباء . . فهو اذن محتاج الى لغة عربية توحد بين ابنائه ، وتكون اداة فعالة في نشر مبادىء المحبة والانسانية والسلام والاشتراكية والمحبة بين ارجائه ، بواسطة سياسة تعليمية تربوية تستمد روحها العامة من واقع امتنا الحديثة العهد بالاستقلال ، الطامعة في ان تتخلص يوما ما من رواسب الاستعمار .

وكلنا يذكر ان من الاهداف التي كان يسعى اليها الاستعمار ما وسعه الجهد في بلادنا « شمال افريقيا » التنصير والفرنسة ، حيث تجلت هاتان النزعتان صرامة في عدة خطب وتقارير منذ احتلال الجزائر ، فهذا الملك شارل العاشر يقول في خطاب العرش الذي القاه يوم 20 مارس 1830 ما يلي « ان الترضية الباهرة التي اريد الحصول عليها ــ حفظا لكرامة فرنسا ــ ستتحول ــ بعون الله تعالت قدرته ــ لمنفعة النصرانية » . هذا عن التنصير ، اما عن الفرنسة فقد جاء في تقرير رسمي وضع سنة 1849 ما يلي :

« لا ننس ان لغتنا هي اللغة الحاكمة ، وان قضاءنا المدني والجنائي يصدر احكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة ، وبهذه اللغة يجب ان تصدر ــ باعظم ما يمكن من السرعة ــ جميع البلاغات الرسمية ، وبها يجب ان تكتب جميع العقود ؛ وليس لنا ان نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان اهم الامور التي يجب ان يعتز بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم الينا ، وادماجهم فينا ، وتمثلهم بنا ، وجعلهم فرنسيين ! » كلنا يذكر هذا ، ويذكر ايضا الهجومات العنيفة التي كان يقوم بها المغاربة ــ داخل المغرب وخارجه ــ على هذه السياسة الجائرة ، مؤمنين بانه يوم تحصل بلادنا على استقلالها سيكون الحال غير الحال ، اذ ستحل لغتنا القديمة محل اللغة الفرنسية في كل مجال .

والآن ، وقد حقق المغرب ما كان يصبو اليه من استقلال ، واصبح في وسعه ان يختط من الخطط ويسن من الانظمة ما يحقق له مختلف الغايات والاهداف ، فمن اين كان يجب ان يبدا الانطلاق نحو « التعريب » الذي هو ضرورة اجتماعية لابد من تحقيقها لفائدة حاضر بلادنا ومستقبلها على السواء ؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من الاستفادة من تجارب غيرنا الذين مارسوا نفس المشكلة وعانوا نفس الاستعمار ، والذين تجمعنا بهم روابط واحدة من الدين واللغة والتاريخ والمصير ، تجارب اخواننا عرب المشرق عامة ، واهل سورية ، واهل سورية الاشقاء على الخصوص .

لقد بداوا الانطلاق من حيث يجب ان يبدا ، من التعليم الابتدائي ، حيث جعلوه عربيا خالصا ، اما اللغات الاجنبية فلا يبدا تعليمها الا مع المرحلة الثانوية .

وهنا اترك المجال « لحولية الثقافة العربية » السنة الثالثة ، تاليف الاستاذ الكبير ساطع الحصري ص 16 ، حيث ستتكفل ببسط هذا الموضوع ، استنادا الى البيانات التي القيت على نواب الامة ورجال التعليم في مدرج الجامعة السورية ، عند صدور قانون بذلك سنة 1944 .

اذ جاء في هذه البيانات ما يأتي بالنص :

(ان فكرة حذف اللغات الاجنبية من مناهج المدارس الابتدائية صادفت معارضة شديدة ومقاومة عنيفة من بعض البيئات . . .

لقد ظن المعارضون ان هذه حركة ارتجاعية تبعد البلاد عن الغرب ، وتعزلها عن الحضارة الغربية ، وتؤدي الى انحطاط مستوى الثقافة فيها ، وقد حاول هؤلاء ان يبرهنوا على حجة مزاعمهم هذه بالتكلم عن اهمية اللغات الاجنبية ، وعن ضرورة الاتصال بالثقافة الغربية .

ولكن هذه المزاعم لا تقوم على اي اساس صحيح : لان حذف اللغات الاجنبية من مناهج الدراسة الابتدائية لا يعني اهمال هذه اللغات في سائر مراحل التعليم ، فالبحث عن اهمية اللغات الاجنبية لا يبرهن على اي شيء كان في هذا الموضوع .

اننا لا ندرس في المدارس الابتدائية – مثلا – علم الاقتصاد ، فهل يعني ذلك اننا لا نقدر اهمية هذا العلم، واننا نريد ان نحرم البلاد من فوائد علم الاقتصاد ؟

وكذلك اننا لا ندرس فن الجراحة في المدارس الثانوية ، فهل يعني ذلك اننا لا نقدر اهمية هذا الفن ، ونضع بيننا وبينه سدا منيعا ؟

ان كل مادة تدرس في المدارس لغاية خاصة ، وفي الصفوف التي تستطيع ان تحقق تلك الغاية . وعندما نبحث في الموقع الذي نعطيه لكل مادة من المواد، ولكل علم من العلوم في مناهج الدراسة ، يجب علينا ان نتساءل :

اولا : ما هي الغاية المتوخاة من تدريس ذلك العلم وتلك المادة ؟

وثانيا : متى – في اية مرحلة من مراحل التعليم ، وفي اية سنة من سني الدراسة – يجب تدريس ذلك العلم وتلك المادة ، لتحقيق الغاية المذكورة ؟

وعندما نريد ان نقرر الموقع الذي يجب ان نخصصه لتعليم اللغات الاجنبية في مناهج الدراسة يترتب علينا ان نسير على خطة مماثلة لذلك ، فنتساءل اولا :

ما هي الغاية من تعليم اللغات المذكورة ؟

ونفكر بعد ذلك ، فيما اذا كانت الغاية المذكورة تستوجب تعليم اللغات الاجنبية في المدارس الابتدائية.

ان تعليم لغة من اللغات الاجنبية يهدف الى غايتين اساسيتين :

اولا : غاية عملية . وهي الفوائد المباشرة التي تحصل من جراء استعمال اللغة الاجنبية في المعاملات المختلفة ، تكلما او كتابة .

ثانيا : غاية ثقافية . وهي الفوائد التي تحصل من تعلم اللغة المذكورة عن طريق توسيع المدارك من جهة ، والاستفادة من الكتب الادبية والعلمية المكتوبة بتلك اللغة من جهة اخرى .

ومن البديهي : ان الغاية الاولى تتطلب تدريس اللغات الاجنبية في المدارس التجارية ، والغاية الثانية تتطلب تدريس تلك اللغات في المدارس الثانوية ، ولكن لا الغاية الاولى ولا الغاية الثانية تستلزم تدريس اللغات الاجنبية في مدارس المرحلة الاولى من التعليم . ذلك لان هذه المدارس تؤسس لاجل تعليم ابناء الشعب ، ولهذا فانها تحصر اعمالها وتدريساتها في الامور التي يحتاج اليها جميع الناس ، والتي لا يستغني عنها احد ، مهما كانت المهنة التي سيمارسها ، فيما بعد .

ومن الامور البديهية ان اللغات الاجنبية لا تدخل في نطاق هذه الامور :

انها لم تكن من الامور التي يحتاج اليها جميع افراد الشعب والتي لا يستغني عنها احد ، ولهذا السبب يجب ان تبقى خارجة عن تدريسات مدارس المرحلة الاولى من التعليم .

هذه حقيقة ناصعة ، يعترف بها جميع رجال التربية في جميع انحاء العالم المتمدن . . .

فاننا اذا استعرضنا مناهج الدراسة الابتدائية الموضوعة في مختلف البلاد الاوربية ، نجد انها تقدر هذه الحقيقة حق قدرها ، فلا تدخل في هذه المناهج لغة غير اللغة القومية . ولا تشذ الدول عن هذه القاعدة العامة ، – ولا تدرس في مدارس المرحلة الاولى من التعليم لغة ثانية – الا في بعض الاحوال الخاصة ، وذلك لاعتبارات سياسية محضة .

ان الاعتبارات السياسية تعمل عملها في هذا الشأن في البلاد التي تتعدد وتتشابك فيها اللغات البيئية تشابكا يضطر الحكومة الى تقرير لغتين رسميتين ، ولا اراني في حاجة الى القول : ان في تلك البلاد تصبح « معرفة اللغة الثانية » ضرورية لجميع المواطنين ، فتدخل لهذا السبب في مناهج الدراسة الابتدائية .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الاحوال الخاصة، قضايا « التعليم فى المستعمرات » بالنسبة الى الدول المستعمرة ايضا ، وذلك لان هناك تتغلب مصالح الدولة المستعمرة على كل شيء ، وتعتبر لغة الدولة المذكورة اللغة الرسمية فى البلاد ، ولا تؤسس المدارس الا لغرض تنشئة « العمال والموظفين » الذين تحتاج اليهم مصالح حكومة الاستعمار ومرافقها ، ومتاجر المستعمرين ومعاملهم ، ولذلك يعتبر (تعليم اللغة الاوروبية الرسمية) الهدف الرئيسي للمدارس ، فلا يلتفت لا الى مصالح الاهلين ولا الى مبادىء التربية والتعليم .

واذا استثنينا امثال هذه الاحوال الشاذة ـ الناتجة من الاعتبارات السياسية ، كما قلنا ـ نستطيع ان نؤكد : ان مدارس المرحلة الاولى من التعليم لا تدرس لغة غير اللغة القومية بوجه عام ...

وخلاصة القول : ان اللغات الاجنبية ليست ضرورية فى المرحلة الاولى من التعليم ، وفضلا عن ذلك يجب ان يلاحظ ان تعليم اللغات الاجنبية فى المرحلة الاولى من التعليم لا يخلو من الضرر ايضا : لان تعليم لغة اجنبية لتلاميذ لم يتقنوا بعد لغتهم القومية ، لا يتفق مع قواعد التربية الصحيحة ، وينافي مبادىء التربية القومية السليمة .

اذ من المعلوم ان « تجزئة المشاكل ومعالجتها واحدة بعد اخرى » يعتبر من اوليات قواعد التربية والتعليم ، ولا حاجة الى البرهنة على ان تعليم الصغار قواعد لغتين مختلفتين فى وقت واحد يخالف هذه القاعدة الهامة مخالفة كبيرة ، وهو يشوش اذهان التلاميذ ، ويرهق عقولهم ، ويعيق نموهم الفكري من جراء هذا التشويش والارهاق .

هذه حقيقة ثابتة من الابحاث والتجارب التي قام بها عدد غير قليل من رجال التربية وعلماء النفس فى مختلف البلاد الاوروبية .

ان ادارة المعارف فى مقاطعة جنيف فى سويسرة ، درست المشاكل التي تنتج من تعليم الاطفال الصغار لغتين مختلفتين فى وقت واحد ، واستعرضت التجارب والابحاث التي اجريت فى هذا السبيل ، فقررت فى الاخير ان لا تدرس لغة ثانية «لاقبل السنة السادسة من الدراسة الابتدائية .

ولكي تقدر اهمية هذا القرار حق قدره ، يجب الا ننسى أن مدينة جنيف من اشهر المدن العالمية التي تزدحم فيها الاجناس ويجتمع فيها الاجانب ، كما يجب ان نتذكر ان مقاطعة جنيف تنتسب الى الاتحاد السويسري الذي يعتبر اللغات : (الفرنسية والالمانية والايطالية) « رسمية » فى وقت واحد ، وعلى حد سواء .

وفى الاخير ، يجب ان يلاحظ ان الاضرار التي تنتج من تعليم الصغار لغتين فى وقت واحد ، تكتسب خطورة خاصة بالنسبة الى اولاد الناطقين بالضاد ، وذلك لعدة اسباب :

اولا : ان اللغة العربية كثيرة التعقيد فى حد ذاتها، والخط العربي كثير المشاكل فى حد ذاته ، ولذلك لا مجال للشك فى ان تعليم قواعد هذه اللغة وهذا الخط يتطلب من اطفال العرب جهدا ذهنيا اكبر بكثير من الذي تتطلبه سائر اللغات والخطوط الاوروبية .

ثانيا : ان الفروق الموجودة بين اللغة العربية وبين اللغات الاوروبية التي يراد تدريسها فى المدارس العربية اكبر بكثير من الفروق الموجودة بين مختلف اللغات الاوروبية .

ثالثا : ان الطفل العربي يضطر الى تعلم اللغة الفصحى فى المدرسة ، ومن المعلوم ان الفروق القائمة بين اللغات الدارجة وبين اللغة الفصحى ليست من الفروق الضئيلة ، وهذا ايضا يكلف التلميذ العربي جهودا تفوق الجهود التي يتكلفها امثاله الاوروبيون . ولهذه الاسباب كلها ، نستطيع ان نؤكد : ان الاضرار التي تنتج من تعليم لغة اجنبية فى مدرسة ابتدائية . تكون اكثر واعظم من الاضرار التي تنتج من امثال ذلك فى البلاد الاوروبية .

ان الذين لا يزالون يتمسكون بمبدا تعليم لغة اجنبية فى المدارس الابتدائية يقولون : ان حاجتنا الى اللغات الاجنبية اكبر من حاجة الاوروبيين اليها .

ولكنا نقول ردا على هذه الملاحظة :

ان هذه الحاجة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار فى مدارس المرحلة الثانية من التعليم ، لا فى مدارس المرحلة الاولى .

ان هذه الحاجة تستوجب الاعتناء باللغات الاجنبية فى المدارس الثانوية والمدارس المهنية والمعاهد العالية . ولكنها لا تبرر قط تعليم اللغات الاجنبية فى المدارس الابتدائية)

فما راي وزارة التهذيب الوطني ، وما راي اللجنة الملكية للتعليم ؟؟

مشاكل شبابنا على ضوء الواقع

بقلم : محمد العربي الخطابي



ان الحديث عن الشباب ، حديث حبيب الى النفس قريب منها . فالشباب ينبوع الحياة الدافقة المتجددة ، واشعاع الطاقة والقوة في هذا الوجود ، وهو توهج الامل وتوقده .

*

لقد رايت ان اعالج هذا الموضوع معالجة واقعية بعيدة عن النظريات الجافة ، مستعينا في تقصي الواقع واستنباط حقيقة حالة الشباب الراهنة ومشاكله من تجربتي التي هي تجربة الآلاف من شباب هذه الامة الفتية ، ومن معاناة نفس القلق والتطلع والحيرة التي يعانيها معظم الشباب في الوقت الحاضر ، والتي اصبحت من صفاته المميزة .

وقد ذهبت في تقسيم مشاكل الشباب مذهب التحديد المستنبط من نوع هذه المشاكل وصفتها واهميتها بالقياس لحياة مجموع الامة التي يعد الشباب رائدها وطليعة كتائبها السائرة نحو النور والعزة والنجاة .

الشباب ومشاكله العاطفية

اقصد بالمشاكل العاطفية جزءا من مسائل الشباب الخاصة التي يعيش تحت سيطرتها ، وتظهر آثارها في تصرفاته واعماله ، كما اقصد بهذه المشاكل مجموعة الانفعالات والحوافز الداخلية التي تكون اخلاق الشباب وتؤثر فيها ، كالحب والكره ، والاخلاص والخوف والغضب ، وما يترتب عن ذلك من روابط الاسرة ، والصداقة والزواج ، والنضال في سبيل المثل العليا ، وغير ذلك .

واو لما يتبادر الى الذهن ان عواطف الاغلبية من شبابنا ليست من الاتزان والشموالسوي بحيث تستطيع ان تسيطر سيطرة تامة على الانفعالات التي تعتمل في نفوسهم ؛ ويعلل علم النفس الحديث هذه الظاهرة بأن الخلق ليس في حال نماء وقوة ، حيث ان للعواطف اثرا كبيرا وحاسما في تكوين الخلق . ومن هنا تبدا المشاكل العاطفية عند الشباب .

وفي طليعة هذه المشاكل الصعوبة التي يجدها الشاب ، وقد قطع طور المراهقة ، في تصريف غرائزه الفطرية والتحكم فيها بكيفية رشيدة لا تؤدي الى الكبت الذي يولد الشذوذ ، اذ ان قوة الخلق او الشخصية لا يمكن ان تتم الا بالسيطرة على الانفعالات التي هي « المحرك الحقيقي للغرائز » – كما يقول العالم النفسي (سارجنت) . –

وتعليل مشكلة الشباب العاطفية ينحصر في الاضطراب الذي نراه في البيئة المغربية بسبب انعدام التقارب العقلي والفكري في معظم الاسر ، وعدم انسجام جيل الكهول والشيوخ مع الجيل الطالع من الشباب ، في الافكار والاتجاهات والميول ، مما يؤدي في الغالب الى اضطراب الحياة العائلية ، وفقدان روابط ودية تقوم على التفاهم والاحترام الصحيحين بين افراد الاسرة الواحدة ، حتى اصبحت العائلة من اعوص المشاكل التي ترهق بال الشباب ، وتعكر عليهم صفو حياة هنيئة يسودها الانسجام والتفاهم .

ومن هذه المشاكل العاطفية ايضا مسالة الحب والزواج التي تصطدم في كثير من الاحيان بسلطان العائلة ، حينما يريد الابوان تزويج ابنهما او ابنتهما بمن يختارونه هم ، او يحولون بين ابنائهم وبين عاطفة حب شريف بريء ينتهي الى الزواج .

اما عاطفة الصداقة والشعور الوجداني المشترك، فقد تصبح مكتملة نامية اذا وجدت شيئا من التوجيه الرفيق والعناية التي تهدف الى جعل هذه العاطفة تؤدي وظيفتها على احسن وجه فى حقل التعاون المنتج الصادق لخير المجموع .

المشكلة الاجتماعيــة

هي من المشاكل التي ترهق الشباب ، وتسد فى وجوههم مسالك الطمانينة والاستقرار . وتتجلى هذه المشكلة فى فرص العمل وكسب العيش التي تتاح اولا تتاح للشبان ، وفى اختيار العمل الملائم للاستعداد والمؤهلات والميول ، والمشاركة الفعلية فى الخدمات الاجتماعية المنتجة .

ان الشباب المغربي يتطلع بالحاح ومثابرة الى تحسين مستواه المادي والمعاشي ، وترقية حالته الاجتماعية ، غير انه يتردد كثيرا فى ان يناضل نضالا هادفا فى سبيل تحقيق عدالة اجتماعية تامة ؛ تتساوى فيها فرص العمل والكسب امام الجميع ، كل حسب طاقته وكفاءته ، كما يتردد كثيرا فى اداء واجباته الاجتماعية ، والمساهمة الفعلية فى رفع المستوى المعاشي والانساني للمجموع . فالجمعيات والمؤسسات ذات الاهداف الاجتماعية تنقصنا ؛ وبسبب ذلك تضيع على البلاد تلك الطاقة الحية التي يزخر بها الشباب ، والتي تصرف فى غير محلها.

ان اوقات الفراغ لدى الشباب موفورة ، ولكن معظمهم يصرفونها فى العبث الذي لا طائل تحته . والسبب هو ان التوجيه الاجتماعي ناقص او منعدم بالمرة كما تكاد تنعدم المؤسسات والهيئات الاجتماعية ذات الاغراض المحددة المرسومة ، والتي تسعى ، فى مجموعها ، الى رفع مستوى سائر الطبقات الاجتماعية ، ماديا وخلقيا ، وتعميم التثقيف الشعبي وخدمات البر والمواساة والاسعاف ، وتوجيه الاطفال ، وحماية المشردين منهم ، وارشاد سكان القرى والبوادي فى مجال الخدمة الاجتماعية سعيا وراء رفع مستواهم عن طريق تحسين الوسائل التي يعتمدون عليها فى سعيهم وعملهم ومعاشهم ، وغير ذلك من ضروب الخدمات الاجتماعية التي تتولى القيام بها فى الامم الراقية الجمعيات والهيئات الخاصة المتنوعة الاغراض المتعددة المقاصد ، ولا تقع على كاهل الحكومات وحدها .

المشكلة الثقافيــة

وهي لا تقل شانا عن سابقتها ، واني لاتساءل : هل يسعى الشباب المغربي بعد الانقطاع عن الدراسة المتوسطة او العليا ، الى توسيع ثقافته وانمائها ؟ هل يشارك هذا الشباب فى مختلف مظاهر النشاط الثقافي ، او على الاصح ، هل يسعى فى خلق هذا النشاط بتاسيس الاندية الثقافية ، والفرق التمثيلية والاجواق الموسيقية ، وتنظيم الندوات الادبية والفنية، واقامة المعارض والمشاركة فيها ؟

ان الانصاف يقتضينا ان نعترف بان الشباب المغربي الطامح الى حياة فكرية وعقلية افضل وارقى قد بدا يولي عناية ملحوظة فى هذا المجال ، ادراكا منه انه لا فلاح ولا تقدم لهذه الامة الا بابراز مواهب ابنائها فى مجالات الفكر والثقافة والعلوم . فاخذ هؤلاء الشبان يعنون بالشؤون الثقافية ، بعد ان قضوا زمنا فى الضياع والانقياد الاعمى .

لقد اخذ الشباب يهتمون ، بدافع من انفسهم بتنظيم الندوات الادبية ، والسهرات الفنية ، وعقد المحاضرات والمناظرات ، واقامة المعارض التي يشارك فيها فنانون وفنانات مغاربة تبشر اعمالهم بالخير .

وانه لمما يؤخذ على الشباب المتعلم قلة عنايته بالمطالعة الذاتية ، لتوسيع ثقافته ومعلوماته عن طريق قراءة الكتب القيمة واستيعابها . فمعظم الشباب لا يحفلون بتغذية عقولهم بالنافع من العلوم والآداب والفنون ، بل يكتفون بما عندهم من معلومات ؛ فتبقى مداركهم جامدة، ومقاييسهم مبلبلة؛ فيجب اذن ، ان يعود الشباب انفسهم المطالعة الدائمة التي هي غذاء الفكر ، ولقاح العقل . ولابد فى هذا المضمار من توجيه الشباب للمطالعة والدرس بانشاء المكتبات العمومية وتعميمها . كما يجب انشاء مكتبات للاطفال فى المدن والمراكز القروية لتعويدهم المطالعة واستعمال المكتبة، حتى اذا ادركوا سن الشباب بقيت فى نفوسهم عادة ارتياد المكتبات ، ومطالعة الكتب التي تجعلهم دائما على اتصال بحياة الفكر والثقافة .

ومما يلاحظ على الشباب ايضا قلة اقبالهم على تذوق الموسيقى الرائعة الحية التي تعد من اكبر الوسائل التي تعتمد عليها الامم الراقية فى تربية الذوق السليم ، وتهذيب الاحساس ، وابراز العواطف الطيبة ، واذكاء روح الانسجام والتعاون والمشاركة الوجدانية . ومما يؤسف له ان كثيرا من شباب المغرب يقبلون بالحاح مخجل على سماع الاغاني والمقطوعات المائعة التي تقتل الهمم وتبلد الذوق ، وتعلم الميوعة والتفسخ الخلقي .

المشكلة القومية

اما المشكلة التي تنصهر فيها مشاكل الشباب العاطفية والاجتماعية والثقافية ، فهي « المشكلة القومية » التي تشغل بال الشباب الناهض الحي في كل آونة ولحظة ، وتبدأ هذه المشكلة بما نراه ونلمسه من تباين خطير في التكوين والافكار والمقاصد والمثل العليا ، ومن اعراض كثير من شبابنا المتعلم تجاه قضية تعريب الادارة والتعليم ، ومغربة مصالح الدولة ، وتتجلى هذه المشكلة ايضا في قضية الجلاء وتطهير البلاد من الاحتلال الاجنبي ، ورفع قيود التبعية عن اقتصادنا القومي ، واستثمار ثروات البلاد وخيراتها خير استثمار لرفع مستواها المادي والانساني ، وتتجلى ايضا في قضية الجزائر المكافحة الشقيقة ، التي تخوض ضد الاستعمار الفرنسي اعنف حرب ، ويتحمل ابناؤها الابطال كل ضروب التضحية والصبر والنضال في سبيل تحرير الوطن الجزائري العزيز ؛ كما تتجلى هذه المشكلة ايضا في علاقة المغرب بقية اقطار العروبة والاسلام ، وموقفه من مشاكلها الداخلية والخارجية .

فهل يعي الشباب المغربي هذه المشكلة القومية ، ويحيط بتفاصيلها واسرارها ، ويعمل على رفع ما ينتج عنها من اضرار بشخصية المغرب وكيانه الاسلامي العربي ؟ هل يشعر شبابنا بقومية بلاده ويعتز بها ، ويعمل على تاكيدها وتحريرها وتخليصها مما يراد بها من المحو والابادة ؟

الحقيقة ان شباب المغرب مقصرون في هذه الناحية تقصيرا كبيرا ، فالذين نالوا منهم قسطا من الثقافة الغربية ، وخاصة الفرنسية ، لا يأبه معظمهم للقومية الاسلامية العربية ، بل انهم يرمونها بكل قصور، وينتقصون من شانها ؛ بينما يقف بقية الشباب الذين تعلموا تعليما عربيا ، مكتوفي الايدي ، مكمومي الافواه، لا يعملون شيئا في سبيل ترسيخ دعائم القومية التي نعتز بها ، وتسفيه احلام خصومها ، والقضاء على ما عمل الاستعمار طيلة نيف واربعين سنة على تثبيته في الاذهان من افكار خطيرة ضد الاسلام ومبادئه وثقافته .

وشبابنا مقصرون كذلك في مسالة كفاح الجزائر وجهاد ابنائها ، لا يهتم معظمهم بتتبع اخبارها ، والتعرف على حقيقة ما يعانيه رجالها الابطال من البلاء والتحمل . وما يقوم به الفرنسيون المستعمرون في القطر الشقيق المجاهد من اعمال وحشية ، وتصرفات مخلة بالكرامة الانسانية . ولن اقول شيئا عن تقصيرنا في مساعدة الجزائر وابنائها المساعدة المادية والمعنوية الفعالة المستمرة ، لانه تقصير مخجل لا يرضى عنه الله الذي شرع للمسلمين الجهاد بالاموال والانفس ، واراد منهم ان يكونوا امة متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

ثم ان شبابنا مقصرون ايضا في تتبع ما يعصف باقطار العروبة والاسلام الشقيقة من تقلبات ، وما يعتريها من احوال داخلية وخارجية ، ولا يجهدون انفسهم في التمييز بين الحق والباطل في قضايا العروبة والبلاد الاسلامية ، بل يندفعون كثيرا بعواطفهم من غير تدبر ولا روية .

قضية الدين

ربما تكون قضية الدين ابرز المشاكل التي يعانيها الشباب المغربي في الوقت الحاضر ؛ وهو يجتاز بسبب هذه المشكلة ازمة نفسية حادة ، واضطرابا خلقيا كبيرا .

ان معظم شبابنا لا يؤدي واجباته الدينية على الوجه الاكمل ، يستوي في ذلك المتعلمون منهم وغير المتعلمين ؛ والاغلبية الساحقة من هؤلاء الشباب لا تؤمن ايمانا اقتناعيا واعيا بالدين وبرسالته . فالمتعلمون لا يجدون في انفسهم الشجاعة الكافية لمجابهة المشكلة الروحية ومعالجتها ، للتوفيق بين تعاليم الاسلام الصحيحة ، ومقاييس العصر وقوانينه الخلقية والاجتماعية والانسانية ، واستخلاص نظام للحياة يتفق وتلك التعاليم ، ويساير التطور البشري الذي هو ضرورة احدثها تقدم العلوم والفنون والصناعات في العصر الذي نعيش فيه . اما غير المتعلمين فانهم لا يعلمون من حقيقة الدين شيئا ، فهم مسلمون بالتبعية وحكم الاسرة والبيئة ، جاهلون بحقيقة الدين وجوهر تعاليمه جهلا يكاد يكون تاما .

ولعل اسباب ذلك تكمن اولا وقبل كل شيء في جذور الماضي القريب والبعيد : الماضي البعيد الذي كان الجهل فيه متفشيا ، والخرافات مسيطرة على هذه الامة ، حيث كان يتولى معالجة شؤونها الروحية طائفة من الرجال الجامدين نصبوا انفسهم لحماية الدين والتكلم باسمه ، وكانوا ادوات طيعة في يد الرجعية والتاخر حتى اصبحت رسالة الدين في ايديهم جامدة ميتة لا اثر للحياة والانطلاق فيها . والماضي القريب ، ايام الحماية ، حيث اعتمد المستعمرن على هذه الطائفة الجامدة ، فاستعملوها لتثبيت جذور الجهل والرجعية والانحطاط الفكري والخلقي في هذه الامة لتبقى فقيرة مريضة ، مفرقة الكلمة . واننا لنذكر ان الاستعمار كان يعتمد اكثر

ما يعتمد فى ذلك على جماعات من رجال الدين ــ ولا دين ــ لتخدير العقول وتذ للهم ، واخماد كل دعوة كريمة تستحث على النهوض والانبعاث فى ضوء تعاليم الاسلام الصحيحة المتجددة الحية . اولئك « العلماء » الذين اعتمد عليهم الاستعمار كانوا يتهمون بالكفر والزندقة والمروق عن الدين كل مسلم ناهض يحاول ان يبصر قومه بواقع انفسهم الاليم وان يدعوهم الى الجهاد اعلاء لكلمة الحق التي هي كلمة الله ، والى التحرر من الخوف والخمول والعبودية والاستعمار . وقد كان هذا الموقف الآثم من هؤلاء الادعياء من الاسباب الرئيسية التي شككت الشباب فى صلاح الدين ، وملاءمة تعاليمه السمحة للتطور والتجديد اللذين هما من سنة الله ؛ فوقف هؤلاء الشباب حائرين بين موكب المدنية والحياة الذي يتقدم الى الامام ، وبين كتائب الرجعية الدينية المنهزمة ، فى انتظار من يبصرهم بحقيقة الاشياء .

ومن جهة اخرى اقبلت طائفة من شباب المغرب، اتيح لها نصيب من المعرفة والثقافة ، على مناهل الغرب تنهل منها كل شيء حتى ما له مساس بالاسلام، دين هذه الطائفة من شبابنا التي اخذت تلتقط من كتاب الغرب ومستشرقيه ، ما بثوه فى مؤلفاتهم وابحاثهم من افكار مبيتة ضد الاسلام تأثر بها هؤلاء الشباب الى حد بعيد ، فاصبحوا خطرا ، طائعين او كارهين ، على حقيقة الدين الجوهرية ، يقوضونها باقوالهم وافعالهم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا . وتلك معركة اخرى من المعارك المهلكة التي خاضها الغرب ضد العالم الاسلامي ، وهي معركة الثقافة والفكر التي يقول عنها عالم فاضل هو الاستاذ محمود شاكر بانها كانت اعنف من المعركة التي وقعت بين العالم الاسلامي والغرب فى ميدان الحرب ، « واشدها تقويضا للحياة الاسلامية ، والعقل الاسلامي » . لقد انقلب كثير من شباب هذه الامة اعداء للاسلام وهم لا يشعرون ، لان المعول الهدام فى الثقافة الغربية قد عمل عمله فى تقويض عقولهم ، وافساد عقائدهم ، حتى اصبحوا عاجزين كل العجز عن التوفيق بين فروض الدين ، ومقتضيات الحياة العصرية ومتطلباتها، وغير قادرين على مجابهة الواقع بشجاعة ، ورغبة فى معرفة الحقيقة الناصعة التي لا يشوبها غبار الشك، ولن اكون مبالغا ان قلت بان ازدراء الدين اصبح ديدن شباب غرهم بهرج الحضارة الغربية وقشورها ، فتنكروا لدينهم وقوميتهم ، وفقدوا بسبب ذلك شخصيتهم .

ومن جهة اخرى اصبحنا نرى القيم الاخلاقية الكبرى التي تعد من فضائل الاسلام ، تتقوض من تحتنا ونحن غافلون : افلام الدعارة العارية المكشوفة تعرض على انظار نسائنا ورجالنا واطفالنا ونحن لا نحرك ساكنا ؛ والخمارات تفتح من حولنا ولا تهزنا الغيرة الاسلامية ، والقرآن فخرنا ، وحجة الاسلام الكبرى ، ودستور اخلاقنا وعبادتنا ينتقص من حرمته فلا تثور نفوسنا ، ولغتنا القومية تداس فلا نثبت وجودها ، ولا نحمي ظهرها الا بالكلام الذي لا يجدي ولا يفيد .

كل هذا يحدث ، وشبابنا حائر مخدوع لا يكاد يتبين طريقه ، وبينه وبين مشكلته الكبرى التي تتطلب العلاج والحل السريع ستار مسرود من الباطل والمهاترة .

فعلى الشباب ان يراجعوا انفسهم ويحاسبوها، وعلى اولئك القادرين منهم على القيادة والتوجيه ان يؤدوا رسالتهم الثقيلة العبء بالدعوة والارشاد والاسوة الحسنة ، والعمل المنتج الكفيل بأن يجعل من هذه الامة وطنا مغربيا ناهضا ، وجزءا حيا نافعا من الدولة الاسلامية ، وعضوا بارزا مباركا فى الجماعة الانسانية الكبرى يساند الحرية والسلام فى غير ذلة ولا صغار ولا تبعية ... ذلك ما يباركه الله ويرضى عنه .

القصة التاريخية في الأدب العربي

بقلم: هنري بيريس - تعريب: أحمد المكناسي

نشر في المجلد الخامس عشر من مجلة « حوليات معهد الدراسات الشرقية » (1) التي تصدر عن كلية الآداب بجامعة الجزائر، بحث ادبي تحليلي هام بقلم الاستاذ هنري بيريس، استاذ الآداب بالجامعة المذكورة تحت عنوان « القصة التاريخية في الادب العربي ».

ويعد هذا البحث من الابحاث الادبية التاريخية المهمة ضمن البحوث التي تظهر من حين الى حين في بيبلوغرافية الادب العربي، التي تنشرها المؤسسات الثقافية الاجنبية. وتكون صرحاء اذا قلنا ان دراسة الادب العربي المعاصر مفتقرة جدا الى مثل هذه البحوث والدراسات في الشكل الذي يقدمها لنا هذا الاستاذ.

فهانري بيريس من المستشرقين البحاث، المختصين في دراسة الشعر العربي الاندلسي، والادب العربي على العموم، الى جانب اهتمامه بالدراسات الادبية النقدية، وقد اطلعنا على مجموعة من ابحاثه التي تبرهن على عمق دراسته وخبرته الواسعة في ميدان البحث الادبي.

ويتعرض الاستاذ بيريس في بحثه الطريف هذا، الى القصة التاريخية في الادب العربي باسلوب واضح ومعلومات تاريخية مرتبة، حسب سير التاريخ مما يجعل المثقف يقراه بدون جهد ولا عناء.

وانا بدوري اريد ان اقدمه الى القارىء العربي مع ايضاحات، وتلخيص بعض نصوصه، الشيء الذي جعلني اراجع مراجع شاملة جميع المصادر الادبية والتاريخية التي مر بها الباحث في دراسته وانا اترك الفرصة للقارىء ليرد على الآراء التي جاءت في هذا البحث، منها تلك الافكار التي تؤكد ان النهضة الادبية الشرقية يرجع الفضل فيها الى المؤسسات التبشيرية الدينية الغربية التي استقرت في البلدان العربية.

*

يقول الكاتب في مستهل بحثه ان التاريخ المعروض بشكله القصصي لم يشاهد القرنين التاسع عشر والعشرين ليكسب حق الاستيطان في الادب العربي. ففي الماضي نجدمثلا قصصا لعنترة، ولسيف بن ذي يزن ولبني هلال وللجزية، وقصة البطال وذات الهمة وغيرها. ويتساءل الكاتب هل لدينا ضمن هذه القصص المذكورة قصص « تاريخية » بهذا المعنى الدقيق ؟ فيجيب: يصعب علينا أن نرد على هذا السؤال بالايجاب. كل ما هناك هو عبارة عن « اناشيد المفاخرة »، فابطال هذه القصص او اناشيد المفاخرة موجودون حقيقة في التاريخ، ولكن كتابها سمحوا لانفسهم بالحرية لقلب حقائقها ! وزيادة على قلبهم لها اضافوا الى قصصهم مجموعة من القصائد الشعرية، حتى جعلوا منها ملاحم لا قصصا تاريخية بمعناها الحقيقي.

اذا فيجب علينا ان نبحث عن اصول القصة التاريخية في (السير) لان بهذا الاسم تعرف احيانا القصص المذكورة، واما من ناحية القدم فان كلمة السيرة التي تجمع على سير، اقدم بكثير من كلمة قصة، الجمع قصص فنجد مثلا في « رسائل » عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة (132 هـ — 750 م) ذكر كلمة السيرة، كما ان ابن هشام البصري المتوفى سنة (218 هـ — 833 م) عنون كتابه المشهور بـ « سيرة الرسول »، اما كلمة القصة فلا نجدها الا في كتاب « المعارف » لابن قتيبة، المتوفى سنة (276 هـ 889 م) بمعنى « اخبار نبوية ».

ولم يذكرها ابن النديم في فهرسته (اواخر القرن الرابع الهجري) ونجدها بعد ذلك ببضع سنين مذكورة في كتاب تحت هذا العنوان « قصص الانبياء » لابي اسحاق الثعالبي ، المتوفى سنة (427 هـ – 1035 م) . وهل يمكننا ان نبحث عن المنشأ الحقيقي للقصص التاريخية في « ايام العرب » ؟ (2) ، وقد نجد في كتاب « مروج الذهب » للمسعودي ، المتوفى سنة (346 هـ – 957 م) معلومات واضحة في هذا الموضوع ، تبين لنا كيف كان الخليفة معاوية يقضي بعض اوقاته الليلية في سماع اخبار العرب وايامهم فيقول المسعودي : « ... ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب (اي معاوية) وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تاتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من الماكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وانواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم . » (3) .

فايام العرب التي كانت موضوع اهتمام ، منذ القديم ، من طرف اللغويين والنحاة مثل ابي الاسود الدؤالي ، والخليل بن احمد ، والاصمعي قد جمعها ورتبها ثم لخصها الكاتب الاندلسي المعروف ابن عبد ربه المتوفى سنة (328 هـ – 939 م) في كتابه العقد الفريد . فمن ايام العرب ومن كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، استقى المستشرقون الاروبيون وخصوصا منهم فرنسل وكوسل دو بيرسفال جميع معلوماتهم عن تاريخ العرب قبل الاسلام .

بعد هذا ياتي بيريس بآراء وملاحظات حول ايام العرب والسير والقصص ويؤكد بان كل هذا يعتبر من جانب اللغويين والنحاة والمحدثين وشراح القرآن الكريم متممات فحسب للدراسة الاساسية للقرآن والسنة .

*

ان القصة التاريخية لم توجد في الادب العربي في القرون الوسطى ، وقد كان من اللازم ان ننتظر القرن التاسع عشر التي ظهرت فيه القصة التاريخية بفضل الحركات الثقافية والعلمية التي عملت على انشائها المؤسسات الدينية التبشيرية من البروتستانت والكاثوليك الاميركية والبريطانية والفرنسية في سوريا . وقد اتخذت هذه المؤسسات الدينية الغربية اللغة العربية لنشر الثقافة والمعرفة الاروبية بواسطة مؤسساتها التربوية .

ففي اوائل القرن التاسع عشر بدات اعمال المبشرين الاميركيين ، اذ بعد مجيئهم من جزيرة مالطة استقروا في بيروت وفتحوا اول مدرستهم البروتستانية ثم انتشروا شيئا فشيئا في ربوع سوريا ولبنان وفلسطين حيث اسسوا المعابد والمدارس والمكتبات والمطابع والمستشفيات حتى ظهر الكاثوليكيون الفرنسيون في هذا الوسط التبشيري ، ومن بينهم اليسوعيون والعزاريون الذين انضم اليهم فيما بعد الآباء الدمينكان والآباء البيض . اما المدارس التي اسسها المبشرون الاميركيون تذكر بالخصوص منها كليتهم الطبية فالمطبعة والمرصد و المستشفى ومؤسسات اخرى علمية كانت تقوم بنشر المعرفة بين الطبقة السورية واللبنانية ، المسيحيين منهم على الخصوص .

ولهذا فالنهضة الادبية العربية وتجديد كلمات المعجم من طرف اللبنانيين يرجع الفضل فيها الى الاثر الذي خلفته تلك المدارس والمؤسسات الغربية الدينية .

كما ان احسن مظاهر هذه الحركة نجدها ضمن التراث الفكري الذي خلفه لنا ناصف اليازجي واحمد فارس الشدياق اللذان تكونا واعيا من الناحية المادية والفكرية والخلقية في هذه المؤسسات .

اما مناهج التعليم لهذه المدارس فكانت تشمل اللغة الانجليزية والفرنسية ، زيادة على اللغة العربية وآدابها . ودراسة هاتين اللغتين الاجنبيتين كانت تلقن مباشرة بواسطة مطالعة النصوص الاصلية لادباء غربيين مثل سويفت و والتر سكوت وشيكسبير من

---

2) انظر مقال ميتيوش في دائرة المعارف الاسلامية ، ج 1 ، ص 3 – 222 .
3) كتاب مروج الذهب ، ج 2، ص 332 ، مط . دار الرجاء ، سنة 1357 هـ .

الجهة الانجليزية ، وكورنيي وفيكتور هجو ودوماس من الجهة الفرنسية ، اضف الى هذا ان بعض المعلومات عن الادب الاغريقي واللاتيني كانت تعطى بواسطة اللغتين الانجليزية والفرنسية .

ومن هؤلاء العرب الذين كونوا ثقافتهم فى هذا الوسط ايضا نجد الكاتب المعروف جميل نخلة مدور الذي اظهر اعجابه بكتابي « التيلماك » للراهب الفرنسي فينيلون (4) ، و « رحلة الشاب انا شرسيس » الذي كتبه الراهب بارتيليمي (5) ، وهذا الكتاب الاخير هو عبارة عن رحلة قام بها المسمى انا شرسيس فى اليونان قبل موت الاسكندر الاكبر ببضع سنين ، وقد لاحظ هذا الرحالة فى جميع الجهات التي زارها عوائد اهلها وحياتهم الاجتماعية وطبيعة حكومتهم ونفسيتهم وبه مقدمة تشمل كل ما يمكن ان يعرف عن اليونان من حروب وعوائد وفنون من العصور الغابرة الى عصر فليب المقدوني والد الاسكندر الاكبر ، وقد كلف هذا الكتاب لمؤلفه ثلاثين سنة فى البحث والتاليف ، وظهر فى نفس السنة التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية .

فجميل نخلة مدور كان من الادباء العرب الذين كان لهم المام باللغة الفرنسية ، اظهر هذا الاستعداد عند ما قام بتعريب قصة « اتلا » للكاتب الفرنسي المشهور شاتوبريان ، وطبعت فى بيروت سنة 1882 حين كان سنه يقرب من العشرين .

اما رحلة « الشاب انا شرسيس » فقد اثرت فيه تاثيرا عجيبا لاسلوبها الرفيع وموضوعها الطريف مما جعله يقتبس منها الفكرة ليكشف لنا عن عصر من عصور التاريخ الاسلامي متبعا فى ذلك منهاج الكاتب الفرنسي المذكور ، واذا كان الكاتب بارتيليمي قد اختار لكتابه عصر الاسكندر الاكبر ، فكاتبنا العربي اختار هو كذلك عصرا مشرقا من عصور الاسلام وهو عصر الخليفة هارون الرشيد الذي رفع الامبراطورية الاسلامية الى اعلى اوجها .

وقد سمي كتابه بـ « حضارة الاسلام فى دار السلام » وهو عبارة عن مجموعة رسائل وصف فيها عصرا من عصور الاسلام « قد اشرق به نور العلم . وجرت فيه اعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جمالهم . وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسي (6) طوفته معظم البلدان الاسلامية فى المائة الثانية للهجرة . وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة الى ان تكبهم الرشيد كما تراه فى موضعه من الكتاب ... (7) »

ويقول جميل مدور فى آخر مقدمة الطبعة الثانية لكتابه : « .. قد عقدت النية اجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الاسلامي فى شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها فى مثل هذا السمط من درر الآيات البينات » (8) .

وحضارة الاسلام فى دار السلام تحتوي على عشر رسائل :

الرسالة الاولى كتبها الرحالة فى النهروان سنة 157هـ/773م فى نهاية امرة الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور (136–158 هـ/753–775 م) .

يبدأ حديثه فيها بذكر قدومه الى العراق ، ولقائه لبعض علمائها ، ثم يتحدث عن البصرة واماكنها المشهورة ووصف عمرانها ، وصبر اهلها على طلب العلم ، وكما يتكلم عن العرب البادية وياتي بنتف من اخبارهم ويمضي متكلما عن انفصاله عن البصرة حتى ياتي بلمحة عن اخبار الحجاج ، واخيرا يتحدث عن مروره بمدائن كسرى انو شروان ، ويتضمن وصف ايوان كسرى وتخطئة الخليفة ابي جعفر فى تخريبه ، وان حفظ الاثر الجميل لجميل اثر للملوك الغالبين .

---

4) كتاب Félémaque هو عبارة عن مغامرات قصصية كتبها الراهب الفرنسي Fénelon وطبع لاول مرة سنة 1699 م. اما المؤلف فينتمي الى عائلة نبيلة فرنسية ولد ببوغود سنة 1651 ومات فى كمبراغ سنة 1715 م. وقد ترجمه الشيخ رفاعة الطهطاوي الى العربية فى القرن الماضي .

5) من الكتاب الفرنسيين ، عاش فى القرن الثامن عشر ومات سنة 1795 م.

6) شاب فارسي مسلم من هرمز بالخليج الفارسي، خرج من مسقط راسه سنة 156هـ/773م متوجها الى بغداد لطلب العلم . ومنذ بداية رحلته اعتاد ان يكتب الى صديق له فى فارس .

7) انظر مقدمة الطبعة الاولى للكتاب .

8) انظر طبعة جريدة المؤيد للكتاب ، مصر 1323هـ /1905م .

الرسالة الثانية كتبها في بغداد سنة 157 هـ 774 م ويذكر الرحالة قدومه الى بغداد والتقاءه بالخليفة في بعض المساجد مصليا ونزوله ضيفا على القاضي ابي يوسف . ثم يصف بغداد واقليمها وعمرانها وبلوغ اهلها من السعة ما لم تبلغه الامم المترفة من قبلهم . ثم يتكلم عن النصرانية في الاسلام وفيه صفاء المسلمين مع النصارى وان استخدامهم في الدولة لا يضر الاسلام . ثم تقربه من البرامكة وآل المهلب وامراء شيبان . ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث بحضرته عن ابي مسلم الخراساني وانه ما نكب ابا مسلم الا ميله مع اهل البيت . ثم ياتي بالمعة من اخبار ابي جعفر وان العدل هو الذي فتح الدنيا للمسلين وان النصارى كانوا يشاركونهم ببعض غزواتهم .

الرسالة الثالثة كتبها ايضا في بغداد سنة 158 هـ ـ 775 م ويذكر فيها لقاءه ولي العهد وحظوته لديه يذكر الرحالة السبب الذي قربه من المهدي وانعام هذا عليه بضيعة في السواد ودار في بغداد تشرف على دجلة وان المهدي اقامه على ولديه موسى وهرون مؤدبا ثم ياتي ببقية من اخبار ابي جعفر وسهر الخليفة على تدبير المملكة وصلاح الدولة بخالد البرمكي وان قتله العلويين ظلم واقع عليه وعلى آله من بعده عاره وجزاؤه . ويصف بعد ذلك ركوب الخليفة الى الحج وفيه وصف موكبه وركوبه في البردة والخاتم والقضيب ومصير الامر بغيابه الى المهدي ابنه . ثم ينهي هذه الرسالة بذكر من لقيه من الشعراء وفيه طرف من اخبار بشار ومروان ابن ابي حفصة وابي العتاهية وابي دلامة وابن المولى والسيد الحميري واشجع السلمي وذكر شيء من ابياتهم .

الرسالة الرابعة من بغداد سنة 161 هـ ـ 778 م وكان الرحالة على اهبة السفر الى خراسان ويذكر فيها جلوس المهدي على دست الخلافة وسياسته وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية وذكر مآثره وحمله ووضعه في ديوان المظالم ورفعه الكسور والمون واستمالة الناس بالاحسان اليهم ورده الضياع المقبوضة عنهم . ثم يتكلم الرحالة عن ظهور المهدي بمناصرة العلم واتخاذه لاهل الادب مجالس يعرضون فيها بضاعتهم من فن او علم او صناعة ثم يجيزهم على ذلك بما وسعت يده من الكرم . وتنتهي هذه الرسالة بولوع المهدي بمزاولة الصيد وذكر حجه وبنائه الكعبة وفتح يده في عطاء اهل الحرمين وسياسته مع اهل البيت ثم ظهور المقنع في خرسان يدعي الربوبية ويستغوي الخلق، وبعثة الرحالة الى مرو لمقاومة دعوته .

الرسالة الخامسة كتبت في بغداد سنة 181 هـ 8 ـ 797 م وفيها طرف من اخبار المهدي والهادي ، ويذكر الرحالة عوده الى بغداد بعد طول الغيبة عنها وما حدث من اخبار المهدي والهادي الى ان صارت الخلافة الى الرشيد 170 هـ ـ 786 م . ثم ياتي جمال بغداد بالرشيد والبرامكة وترف البغاددة وانغماسهم بطيبات العيش ، ثم يصف دخوله على هرون الرشيد ويذكر الرحالة ما لقي من انس الرشيد به وما وجد بنفسه من الاضطراب في تقديم المامون على الامين بالولاية مع ان بني هشام مائلون الى الامين .

ثم ياتي الكلام عن الرشيد ويصفه بانه من فضلاء الملوك وانه اصلح من جده المنصور سياسة ويتكلم عن البرامكة ويقول ان الدولة قائمة بيحيى البرمكي ، وان التواد الذي بين الرشيد وجعفر لم يكن مثله بين اخوين . ثم يتعرض للتجارة والمعاملة وما وجب على الرشيد من تقدير السكة بعد ان تفاحش الغش في التجارة ، وما كان في نيته من فتح البحر عند السويس لوصل البحر الرومي ببحر القلزم وتعرض جعفر لهذا المشروع .

وتنتهي الرسالة بوصف محاسن دولة الرشيد وانه اجتمع ببابه من العلماء والادباء والشعراء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط وان زينة مجالسه ثلاثة ابو نواس والاصمعي واسحق النديم . كلهم امام في الادب ولكن غلب على ابي نواس الشعر وعلى اسحق الغناء وعلى الاصمعي النوادر والاخبار .

الرسالة السادسة كتبت في بغداد سنة 185 هـ 801 م ، تصف بيت الرشيد ، صلاح الرشيد وتقواه وذكر مواليه وجواريه وترف ذويه ، وذكاء المامون من اولاده وتعلق امور بيته بمسرور العبد وصنع زبيدة زوجه اعمالا يتباها بها الملوك . ثم ياتي الكلام عن جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم ثم وصف الدولة في خلافة الرشيد ثم عمران بيت المال ثم مجلس الغناء بدار الرشيد وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين ابراهيم بن المهدي واسحق النديم في صناعة الاصوات وان هذه المناظرة داعية الى الاجادة في الغناء .

الرسالة السابعة كتبت في بغداد سنة 185 هـ 801 م ويذكر فيها آداب العرب وتعريب البرامكة

كتب الفلاسفة من قوم اليونان وبلوغ العرب الغاية التي يرمونها من علم او ادب او صناعة في اقصر مدة من الزمن ثم ياتي الكلام عن الطب والاطباء والتجامة وعلم الافلاك ثم الحديث وعلوم الشرع ثم تدوين اللغة ثم الشعر في البداوة والحضارة ثم الغناء وتحريره واصلاحه ثم لمعة في علوم الفلسفة عند العرب وتنتهي الرسالة بالكلام عن السير والحكايات وفيه ثناء جميل على كتاب كليلة ودمنة ونظرة في كتاب الف ليلة وليلة وتعريبه عن الفارسية ، وتدوين الاخبار وايام الناس .

الرسالة الثامنة كتبت في بحر تونس سنة 186 هـ ــ 802 م ، بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم . ذكر فيها الرحالة الطاف الرشيد الى قيصر الروم وانه هو الذي حمل الرسالة ، وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بني امية لينتزع الاندلس من ايديهم .

ثم ذكر مروره بالكوفة وبلاد الشام ووصف دمشق بانها بهجة البلدان ثم اتى بنتف من اخبار بني امية حدث بها مغنية كانت للوليد بن يزيد (126 هـ 744م) . ثم يذكر زيارته لجامع الوليد المعروف بالجامع الاموي ومروره ببعلبك مع وصف لها وانها من آثار الروم لا من بناء سليمان ثم ركوبه البحر من بيروت وتنتهي هذه الرسالة بذكر لقائه للقيصر (شارلمان) مع بيان عادات الفرنج واندثار علومهم في ذلك الوقت الا ما حفظه الرهبان في ديورتهم وذكر ان خاطر القيصر يتوافق مع خاطر جعفر البرمكي في العدول عن مناجزة الامويين .

الرسالة التاسعة ، كتبها في المشاعر المباركة سنة 186 هـ ــ 802 م ، ذكر فيها مروره بتونس من بلاد المغرب ، وخبر الاغالبة واستقواء اهل البيت في المغرب (الادارسة) . ثم يتكلم عن الاسكندرية ومصر والنيل والاهرام ثم يصل سفره الى البلد الحرام فيصف مكة المكرمة فمناء فالمدينة المنورة ، وتنتهي هذه الرسالة بالكلام عن الرشيد والبرامكة فيذكر تحول الرشيد على البرامكة بحيلة الفضل بن الربيع الذي اوغر صدر الخليفة عليهم من العداوة .

الرسالة العاشرة ، كتبت في بغداد سنة 187 هـ 803 م ، وفيها يصف الرحالة رجوعه متخفيا الى بغداد ، وقتل جعفر البرمكي وطلب الرشيد الرحالة لينكب به . ثم يذكر الرحالة ما دار على السنة الناس من سبب نكبة البرامكة وان خبر العباسة اخت الرشيد مع جعفر لا صحة له . ويذكر انه ما نكب البرامكة الا ميلهم مع اهل البيت .

ثم في الاخير ياتي خاتمة الكتاب . يختم الرحالة حديثه بنظرة عامة في الاسلام وانحيازه الى دول ثلاث كبيرة « العلوية والعباسية والاموية » . ثم ينظر في احوال العباسيين ويذكر حيلهم ومكايدهم الى خلافة الرشيد ويقول ان دولتهم تحتاج الى رجال عقلاء يديرون سياستها ويدبرون امرها ، وانها اذا سقطت في يد خليفة قليل الخبرة بامور الملك لا تقوم لها قائمة بعد ذلك .

*

ان هانري بيريس يلاحظ على جميل نخلة مدور اهماله للمراجع الاجنبية في تاليف كتابه واكتفى بالمراجع الاسلامية فقط التي « اسند اليها رواية الرحالة » وهذه المراجع معظمها مطبوع اما في الشرق او في اوربا ، فنجد مثلا مطبوعات باريس ، وروما ، وكوتنجين ، وبون ، وليدن ، ولايبزيك ، ولندن ، واكسفورد . اما المطبوعات الشرقية فاغلبها وارد من مطابع بولاق سوى بعض النسخ طبعت في القسطنطينية

ويستغرب المستشرق من هذا الاهمال حيث ان الكاتب العربي كان يتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية ولم يستعن بهما في تاليفه المذكور . ففي الوصف الذي يقدمه عن الشرق من جميع نواحيه اجاد فيه واتقن عمله ، ونسق جميع معلوماته التي استقاها من المراجع العربية المختلفة تنسيقا بارعا واضحا لخبرته والمامه بطريقة التاليف ، ولكنه حين يتكلم عن مدينتي مرسيليا وروما يرتكب اخطاء يرجع السبب فيها الى عدم مراجعته للكتب الاجنبية واعتماده بالخصوص على كتاب « تقويم البلدان » لابي الفداء طبعة باريس سنة 1940 م) ، اما معلوماته حول امبراطورية شارلمان التي اوردها في مؤلفه فقد اقتبسها من السيوطي ، وابن خلدون ، والمسعودي ، والماوردي، والابشيهي وابن عون .

ولهذا فلا يمكننا ان نعد كتاب جميل مدور من القصص ، لان حوادث العقدة القصصية غير موجودة فيه . فهو قبل كل شيء عبارة عن اخبار وحوادث تعرض امامنا بحذق بارع .

« فحضارة الاسلام فى دار السلام » طبع لاول مرة فى بيروت سنة 1888 وبعد هذا التاريخ بثلاث سنين ظهرت قصة « المملوك الشارد » التي تعد اول قصة تاريخية لجورجي زيدان .

ولد جورجي زيدان فى بيرون سنة 1861 وتوفى فى القاهرة سنة 1914 م ، وهو مؤسس ومدير مجلة « الهلال » الشهيرة. ينتمي الى عائلة لبنانية فقيرة، وبعد دراسته الابتدائية التحق بالجامعة الامبركية ببيروت ـ وذلك بفضل عزيمته القوية ـ دخلها كمستمع ليدرس فيها الطب . وبسبب خلاف وقع بين الطلبة واستاذ فى الجامعة غادر بيروت وتوجه الى مصر بقصد اتمام دراسته هناك ، فالتحق بمدرسة الطب فى قصر العيني ، الا انه لم يكمل دراسته فيها ، وتفرغ للاشتغال بالادب ، فتراس تحرير جريدة الزمان ، وفى سنة 1884 رافق الحملة التي ذهبت الى السودان مترجما فى قلم المخابرات ، ثم عاد الى بيروت وتلقن هناك اللغات العبرانية والسريانية واخواتها مدة عشرة اشهر ، ووضع على اثر ذلك كتابه المسمى « الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية » (سنة 1886) . وبعد عودته من رحلة قام بها الى لندن انضم الى هيئة تحرير مجلة « المقتطف » وانفصل عنها فى سنة 1888، حيث اسس مجلته المشهورة « الهلال » (1892) التي كتب فيها موضوعات مختلفة فى الادب واللغة والعلوم حتى ادركته المنية فجاة فى القاهرة سنة 1914 .

اما روايته « المملوك الشارد » (بيروت 1891) فتبرهن على ذوقه وميولاته التاريخية . ومعظم مؤلفاته نقل الى اللغات الافرنجية والتركية والفارسية والهندية وغيرها وهذه هي اسماء مؤلفاته :

مؤلفاته التاريخية

1) تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم ، جزءان .
2) تاريخ التمدن الاسلامي مزين بالرسوم 5 اجزاء.
3) العرب قبل الاسلام مزين بالرسوم جزء واحد .
4) تاريخ الماسونية العام مزين بالرسوم جزء واحد .
5) تراجم مشاهير الشرق مزين بالرسوم جزآن.
6) التاريخ العام ، الجزء الاول مزين بالرسوم .
7) تاريخ انجلترا مزين بالرسوم .
8) تاريخ اليونان والرومان (منتصر) .

مؤلفاته العلمية وغيرها

1) مجلة الهلال ، وهي مجلة علمية تاريخية ادبية . تصدر مرة فى الشهر وعدد مجلداتها حتى الآن (سنة 1914) 22 مجلد الاثنتين وعشرين سنة .
2) الفلسفة اللغوية .
3) تاريخ اللغة العربية .
4) تاريخ اداب اللغة العربية 4 اجزاء .
5) انساب العرب القدماء .
6) علم الفراسة الحديث ، مزين بالرسوم .
7) طبقات الامم . مزين بالرسوم .
8) عجائب الخلق ، مزين بالرسوم .

سلسلة روايته التاريخية الاسلامية

1) فتاة غسان جزآن .
2) ارمانوسة المصرية .
3) عذراء قريش .
4) 17 رمضان .
5) غادة كربلاء .
6) الحجاج بن يوسف .
7) فتح الاندلس .
8) شارل وعبد الرحمن .
9) ابو مسلم الخراساني .
10) العباسة اخت الرشيد .
11) الامين والمامون .
12) عروس فرغانة .
13) احمد بن طولون .
14) عبد الرحمن الناصر .
15) الانقلاب العثماني .
16) فتاة القيروان .
17) صلاح الدين ومكايد الحشاشين .
18) شجرة الدر .

روايـــة اخـرى

1) المملوك الشارد .

2) اسير المتمهدي .

3) استبداد المماليك .

4) جهاد المحبيـــن .

وبعد وفاة هذا الكاتب العبقري خلـــف وراءه اثنين وعشرين قصة كلها فى موضوع التاريخ تنقسم الى قسمين اساسيين ، قسم متعلق بالتاريخ الحديث للاسلام وقسم ثاني فى موضوع التاريخ القديم للاسلام فى الشرق والغرب .

فالقصص التي تدخل فى القسم الاول هي :

1 ـ « استبداد المماليك » (1893) ، التي تصف حوادث اواخر القرن الثاني عشر فى مصر تحت حكم آخر سلاطين المماليك .

2 ـ « المملوك الشارد » (1891) ، تصف اعمال محمد علي باشا مؤسس مصر الجديدة ، وامير سوريا الشهير بشير الشهابي (9) . والحديث الرئيسي فى هذه القصة يدور حول فرار احد المماليك من الاسر من قلعة القاهرة حيث دفع بنفسه فى الفضاء من اعلى سور القلعة ممتطيا صهوة جواده ، فسقط على الارض فمات الفرس ، وفر هو سالما ، بمعجزة ، فتوجه اثر ذلك الى سوريا ليقاوم هناك عدوه الاكبر محمد علي .

3 ـ « اسير المتمهدي » (1892) ، اختصت هذه القصة بعرابي باشا والمهدي السوداني ، حوالي 1880 ـ 1882 .

4 ـ « الانقلاب العثماني » تصف هذه القصة حالة المتحررين الاتراك فى عهد عبد الحميد ، وجمعياتهم السرية ، ومساعيهم لنيل الدستور الذي حققته ثورة سنة 1908 . وتجد فى هذه القصة كذلك وصفا لقصر الديز وبساتنه ، ومعلومات عن السلطان عبد الحميد العثماني وعن جواسيسه و مستاجريه ، وقد نقلت هذه القصة الى الفرنسية بهذا العنوان « الله يسهر ! . . . قصة الثورة التركية » (10) .

اما القسم الثاني من قصص زيدان فتنقسم كذلك الى مجموعتين ، المجموعة الاولى فى القصص الشرقية المحضة ، والمجموعة الثانية فى القصص الاسلامية الغربية ، وكلا المجموعتين تطرق موضوعا واحدا وهو التاريخ الاسلامي منذ عصر الفتوحات الكبرى الى نهاية الخلافة العباسية، 656 هـ ـ 1258 م

واليك القصص الشرقية مرتبة الترتيب الزمني لعصورها التاريخية :

1 ـ « فتاة غسان » (1903) ، تعرض هذه القصة حالة الاسلام من ظهوره الى عصر الفتوحات العراقية والشامية .

2 ـ « ارمانوسة المصرية » (1911) ، تروي هذه القصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص كما تكشف لنا عن لمحات بعض عوائد العرب ، والاقباط ، والرومان فى ذلك العهد .

3 ـ « عذراء قريش » (1899) ، تصف مقتل الخليفة عثمان وتاريخ خلافة علي .

4 ـ « سبعة عشر رمضان » (1900) ، تتحدث عن مقتل علي وتتكلم عن وضعية الخوارج والفتن الداخلية واستيلاء الامويين على الحكم .

5 ـ «عذراء كربلاء » (1901) ، تدور حوادث هذه القصة على تاريخ الخليفة اليزيد بن معاوية ومصرع الحسين فى كربلاء .

6 ـ « الحجاج بن يوسف » (1902) تقص حصار مكة المكرمة من طرف الحجاج بن يوسف ، ومقاومة عبد الله بن الزبير لهذا الحصار ، كما تصف استيلاء الحجاج على مكة وقتل عبد الله بن الزبير وتثبيت الحكم فى يد عبد الملك بن مروان .

7 ـ « ابو مسلم الخرساني » (1911) ، حوادث هذه القصة تتعرض الى سقوط دولة الامويين وظهور العباسيين بفضل القائد ابي مسلم الذي ضحى بنفسه فى سبيل قضيتهم .

8 ـ « العباسة اخت الرشيد » (1906) ، تروي هذه القصة تاريخ هرون الرشيد ونكبة البرامكة ، وقد

---

9) انظر فى بشير الشهابي ما كتبه هانري بيريس عن ناصف اليازجي فى « حوليات معهد الدراسات الشرقية » ، ج 1 ، (1934 ـ 1935) ، ص 237 .

10) ترجمة م . ى . بيطار وتيبرى ساندر (باريس فلامريون سنة 1924) .

لعبت اخت الرشيد العباسة دورا هاما فى هذه النكبة ، وترجمت هذه القصة الى الفرنسية (11) .

9 — « الامين والمامون » (1907) ، تتكلم عن انفصال هذين الاميرين وعن تغلب المامون على اخيه وقتل هذا الاخير بمعونة الفرس .

10 — « عروس فرغانة » (1908) ، تتعرض هذه القصة لحكم العباسيين فى عهدالمعتصم بالله ولقيام الفرس واستيلائهم على الحكم وزحف البزنطيين على الممالك الاسلامية .

11 — « احمد بن طولون » (1909) ، وهذه القصة تصف مصر ونوبة فى عهد الطولونيين .

12 — « صلاح الدين ومكائد الحشاشين » (1913)، تروي كيف تحولت مصر من حكم الفاطميين الى حكم الايوبيين ويرجع الفضل فى ذلك الى صرامة صلاح الدين ، كما تروي دسائس الفرقة الاسماعيلية المعروفة باسم الحشاشين .

13 — « شجرة الدر » (1914) ، وهي عبارة عن تاريخ هذه الاميرة القوية التي استطاعت ان تجلس على عرش مصر ، وماتت مقتولة سنة 655 هـ — 1257 م . وتتضمن كذلك الكلام عن الامير ركن الدولة بيبرس .

هذه هي القصص التاريخية الشرقية اما القصص التي تتعرض لموضوعات التاريخ الاسلامي فى الغرب فهي قليلة بالنسبة الى القصص المذكورة .

1 — « فتح الاندلس » (1903) ، تشمل حوادث فتح الاندلس على يد طارق بن زياد والمعركة الشهيرة التي قتل فيها الملك القوطي لدريق .

2 — « شارل وعبد الرحمن » (1904) ، تصف الفتوحات الاسلامية فى فرنسا ووصول المسلمين الى بواتي كما تصف المعركة التي تحمل اسم بواتيي (بلاط الشهداء) سنة (732 م) ، الى جانب الاسباب التي جعلت شارل مرتيل ينتصر على العرب فى هذه المعركة الحاسمة .

3 — « عبد الرحمن الناصر » (1910) ، نجد فى هذه القصة وصفا شاملا للاندلس فى عهد الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر الذي امتدت خلافته من سنة 300 الى 350 هـ (912 — 961 م) .

4 — « فتاة القيروان » (1919) ، تتكلم هذه القصة عن تاريخ العبيديين والفاطميين فى افريقيا وغزو مصر من طرف قائدهم جوهر .

*

وعند ما يستعرض القارىء هذا الاستنتاج القصصي الضخم المدهش يفكر فى الحين فى بلزاك او فى الكسندر دوماس (الاب) ، فاذا قرات مثلا صفحات من « العباسة » تجد تشابها بين هذا الكتاب الفرنسي المذكور اخيرا وبين كاتبنا العربي .

ان قصص جورجي زيدان التاريخية قد اكتسبت شهرة عظيمة فى الشرق كله ، ولهذا فقد اعيد طبعها مرات عديدة ، وترجمت الى اللغات الاسيوية والاوربية المختلفة ، ولهذا فان شهرة هذا الكاتب جاوزت حدود العالم العربي .

ومما يؤسف له ان هذه القصص لم تجد حتى الآن نقدا متينا فى الشرق لامن الوجهة التاريخية فحسب بل حتى من الوجهة الادبية . فابراهيم اليازجي المتوفى سنة 1906 قدم بعض ملاحظاته حول اسلوب كتابتها ، كما ان يوسف الطبشي اوضح من جهته ، سنة 1900 ، بعض الآراء الاسلامية فيما يخص قصة « عذراء قريش » . هذا مجمل ما كتب عن قصص زيدان .

ويتساءل هانرى بيريس عن ما هي المصادر التاريخية للقصص العديدة التي خلفها لنا هذا الكاتب العربي . لناخذ مثلا قصة « شارل وعبد الرحمن » فمشهدها الرئيسي فى معركة بواتيي ، فنجد زيدان يذكر غالبا المصادر ، التي استقى منها معلوماته التاريخية ، باسماء مؤلفيها لا بعناوينها ، وفى بعض الاحيان يذكر رقم الجزء فقط فى اسفل الصحيفة ، اذا كان المصدر يشتمل على اجزاء عديدة ، اما رقم الصفحة فلم يذكره قط . ومما يلفت نظرنا هو ان اسماء المقري والجاحظ وابن الاثير وابي الفداء وبار هيبراوس ذكرت فى هذه القصة مرتين فقط فى حين نجد اسمي رينو وشارل رومي مذكورين فى جميع فصول القصة بالتقريب .

---

(11) ترجمة م . ى . بيطار وشارل مولبي وقدم لها كلود فرير ، باريس 1912 .

ولهذا فيغلب على الظن ان زيدان اقتبس اغلب معلوماته التاريخية عن هذه الفترة الاسلامية من كتابين فرنسيين هما : « غزوات العرب في فرنسا » لرينو او « تاريخ اسبانيا ، من العصور الاولى الى ايامنا هذه » الجزء الثالث ، لشارل رومي .

واذا كان زيدان لم يتعمق في المصادر التاريخية لكتابة قصصه فانه لم يقصد تاليف كتب في البحوث التاريخية . انه اراد قبل كل شيء ان يقدم لنا تراجم في اسلوب قصصي فحسب . واليك مثلا في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » فهو يبرهن عن عمقه ومعرفته والمامه بالبحث التاريخي والادبي ويمكن ان يقارن بمؤلفات كولدزيهر وكرمير . ولهذا فزيدان كان يتعمق في البحث وفقا لطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه ، اذا ، فلا يمكن ان نقول فيه بانه كاتب سطحي ، فبراعة قصصه لا نجدها في كيفية استعماله للمصادر التاريخية وانما نجدها في القريحة التي يعرض بها الاحوال الطبيعية ذات الصبغة الدراماتيكية في الاسلام .

وقبل ان نتابع دراستنا عن القصص التاريخية بعد وفاة جرجي زيدان يجب ان نشير الى قصة ظهرت في نفس السنة التي صدرت فيها قصة « شارل وعبد الرحمن » (1904) وهي « اورشليم الجديد » لفرح انطون (1874 ــ 1922) فهذا الكاتب من اصل لبناني درس في معهدبقفطين، وتكون فيه تكوينا ثقافيا متينا ، فكان من الذين مهدوا للدراسات الفلسفية بالنسبة لاوضاع المجتمع الجديد في الشرق الادنى . وقد نشر هذه الدراسات في مجلته «الجامعة» التي تعتبر هي المجلة الثالثة في الشرق حسب الاهمية بعد مجلتي « الهلال » و « المقتطف » . وقد اظهر فرح انطون براعة في كتابة القصص الاجتماعية والتاريخية ، ونشاطا كبيرا كمؤلف دراماتكي ؛ وكبعض الكتاب الفرنسيين والروسيين، جعل من مؤلفاته منبرا لنشر افكاره السياسية والدينية والاجتماعية .

فقصة « ا رشليم الجديدة » التي طبعت لاول مرة في الاسكندرية سنة 1904 ، والتي تروي لنا غزو العرب لفلسطين سنة 636 م . هي قصة تاريخية وفلسفية واجتماعية وغرامية . فتصف زحف العرب لسوريا وحصارهم لمدينة القدس التي كانت اكبر عاصمة دينية للمسيحية في ذلك العهد ، كما تتكلم عن رحلة الخليفة عمر بن الخطاب الى الشام للاستلاء على المدينة المذكورة بطلب من بطريرك سوفرونيوس ، وبناء المسجد الاقصى فوق خرائب معبد سليمان ، بالاضافة الى معلومات عن حالة اليهود والمسلمين والمسيحيين في ذلك العصر ، وعن الافكار الدينية والسياسية التي كانت تقلق خواطرهم .

وبعد وفاة جرجي زيدان لم تعد القصة التاريخية تجذب ادباء العرب ، وذلك لان الحرب العالمية الاولى التي مست جهة من العالم العربي في الشرق ، اوقفت مدة 15 سنة كل انتاج ثقافي ، وبعد ما اصبحت الحياة تسير سيرها الطبيعي اتجهت الانظار من جديد الى القديم .

ففي سنة 1341 هـ / 1923 م ، ظهر في القاهرة كتاب « حضارة العرب في الاندلس » لعبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة « البيان » . فعنوان هذا الكتاب يتشابه بعنوان كتاب « حضارة الاسلام في دار السلام » لجميل مدور المذكور سابقا. فبدون شك قد تاثر البرقوقي بمطالعة كتاب جميل مدور . ويحكي هو كذلك ، بواسطة الرسائل ، عن لسان رحالة مصري ركب البحر سنة 345هـ/956 م ، من الاسكندرية متوجها الى ميناء المريا بالاندلس ومنها واصل سفره برا الى قرطبة عاصمة الخلافة الاموية في نهاية امرة عبد الرحمن الناصر (300ــ350 هـ / 912 ــ 961) . واثر رحلته في البحر تعرف على العالم اللغوي ابي علي القالي ، الذي استقدمه الخليفة الاموي ليضمه الى بلاطه الثقافي .

ففي الرسالة الاولى يصف الرحالة كيف ان الباخرة التي كانت ملكا للخليفة مرت بجزيرة كريد التي وجد بها جماعة من المسلمين الاندلسيين الذين التجاوا اليها بعد ثورة ارباض قرطبة (سنة 202 هـ/ 817 م) ومرورها كذلك بمضيق مسين وريجيو وبليرمو .

وقد خص الرسالة الثانية بالكلام عن قرطبة وفيها يصف رحلته في البر حينما توجه من المريا الى عاصمة الاندلس ، ويقول عن المريا بانها مدينة صناعية و « مرسى للسفن القادمة الى الاندلس وفيها يربض الجانب الاكبر من اسطول الاندلس » مع معلومات موسعة عن الاسطول الاسلامي في ذلك العصر

بقيادة الامير عبد الرحمن بن رماحس « قائد اساطيل الاندلس الاكبر الذي امره الحكم بن عبد الرحمن الناصر ان يتلقاهم ويجيء معهم الى قرطبة تكرمة من الامير لهم ، ولابي علي القالي » ، وكان يضم هذا الوفد جماعة من الشعراء والادباء . وكذلك يصف الرحالة كيف توجهوا الى عاصمة الخلافة في « ركب فخم نبيل ، وكان في طليعة الركب امير البحر عبد الرحمن ابن رماحس المذكور مع وفد من وجوه الاندلسيين و في طريقهم كانوا يتذاكرون في الادب ومفاضلة الشعراء والادباء المشارقة والاندلسيين » . وعلى اثر هذه المذاكرة اورد المؤلف البرقوقي في ثمان صفحات ، على التقريب ، حول الشعوبية في الشرق والغرب وتنتهي هذه الرسالة الثانية بذكر حكاية عن الغزال ، الشاعر الاندلسي الظريف ، « وهو يحيى بن حكم البكري الجياني ، الملقب بالغزال لجماله ، وجهه الامير عبد الله بن الحكم المرواني الى ملك الروم فاعجبه حديثه وخف على قلبه ، وطلب منه ان ينادمه فتابى ذلك واعتذر عنه لتحريم الخمر » .

وكان البرقوقي قد اعلن في مقدمة كتابه المذكور وفي تعليق اتى به في صفحة 177 عن نشر رسالتين ليكمل بهما تاليفه وهما الرسالة الثالثة والرابعة مختصتين بالكلام عل ىمجد حضارة قرطبة ، ولكنه لم يوف بوعده ولهذا فان كتاب « حضارة الاسلام في الاندلس » يعد دائما كتابا ناقصا .

*

ان القصة التاريخية يظهر انها اهملت من جانب كتاب العرب بعد سنة 1924 ، رغم ان التاريخ الاسلامي بقي دائما مصدرا غنيا للافكار . فنجد ان الشعراء هم الذين استانفوا البحث لاحداث نهضة جديدة في هذا الصدد بواسطة اشعارهم الغنائية ولكن هذه النهضة لم تكن حية وواقعية . فحافظ ابراهيم صاحب ديوان شعر كلاسيكي و « ليالي سطيح » حاول كتابة ملحمة عن عمر بن الخطاب بعنوان «العمرية» (1918) . وحوالي سنة 1932 طبعت بعض المسرحيات لاحمد شوقي في المطبعة الملكية بالقاهرة ، في موضوعات تاريخية كـ « كليوبطرا » و « قمبيز » و « علي باي الكبير » و « عنترة » و « اميرة الاندلس » ولكن كل هذه المسرحيات لا تعد باي حال قصصا تاريخية . ومنذ سنة 1930 بدا يظهر اتجاه جديد عند كتاب الشرق الادنى ، خصوصا في مصر وسوريا حيث صدرت التراجم العديدة لاشهر الاعلام ، وكثرت تراجم حياة الرسول، عليه الصلاة والسلام ، وشخصيات اسلامية بارزة (12)

وهذا الاتجاه جديد في القصة التاريخية ، يستحق هو وحده دراسة خاصة .

واخيرا بقي لنا ان نقول اذا كان نوع القصة التاريخية قد انتهى تماما ، فجرجي زيدان يعد في هذا النهج كاتبا فريدا في نوعه ومن الممكن ان لا يقلد .

---

12) نفكر بالخصوص في مؤلفات معروف الارناءوط وهي : سيد قريش (1931) ، عمر بن الخطاب ، طارق بن زياد (1941) ، فاطمة البتول (1942) . العباس محمود العقاد ، عبقرية محمد ، عبقرية عمر ، عبقرية الصديق الخ .. (1943 – 1944) . طه حسين على هامش السيرة (1933 ، 1938 ، 1946) ، الفتنة الكبرى : عثمان (1947) . محمد حسين هيكل ، حياة محمد (1935) محمد احمد جاد المولى ، محمد المثل الكامل (1934) . عمر ابو النصر ، محمد النبي العربي ، خلفاء محمد ، فاطمة بنت محمد ، الحسين بن علي ، خالد بن الوليد ، معاوية ابن ابي سفيان الخ .. (من سنة 1935) . محمد لطفي ، ثورة الاسلام وبطل الانبية ، ابو القاسم محمد بن عبد الله (1939) . محمد رضى ، محمد رسول الله (1939). مصطفى فهمي ، محمد رسول الله (1945). محمد عزت دروزة ، سيرة الرسول (1948) اضف الى هذه القائمة الطويلة الترجمة العربية لكتاب حياة محمد ، للكاتب الفرنسي اميل درمنغم (باريس 1929) لعادل زعيتر (القاهرة 1364 هـ/1945)

المعرفة والحدس عند برجسون

بقلم
عبد المجيد مزيان



ما هي المعرفة ؟ وما هي الطرق المؤدية اليها ؟
اول ما يتبادر الى عقلنا حينما تتكلم على المعرفة بذهنيتنا التقليدية هو تقسيمها الى منقول ومعقول ، ومنا من يتعدى هذا التقسيم فيرى نوعا من المعرفة ياتي عن طريق الشعور ، ونوعا آخر جربته الصوفية وسمته « بالذوق » .

ولكننا اذا نظرنا الى المعرفة كعملية نفسية ، انفتح امامنا عالم واسع تشعبت فيه النظريات الفلسفية ايما تشعب ، وتعددت فيه الآراء بتعدد المذاهب ، لان مشكلة المعرفة من المشاكل الاساسية التي تهتم بها الفلسفة .

بيد انا نرى انه منذ بداية التفكير الانساني الى عصرنا هذا يوجد دائما فى هذا الموضوع تصادم منتج بين من نسميهم بالمثاليين والواقعيين ، او الشعوريين والعقليين .

ونعلم ان المذهب ذا النزعة الواقعية العقلية قد افل نجمه فى العالم الاسلامي منذ ابن رشد ثم ابن خلدون اللذين لم يكن لتعاليمهما اي صدى فى البلاد الخاضعة للثقافة العربية .

ولكن هذه النزعة كانت قد تسربت فى خطوطها الكبرى الى اوربا باسم تعاليم ارسطو ، حتى جاء ديكارت وانشا المذهب العقلي ، ثم جاء التجريبيون وكانت على يدهم الوثبة العلمية الكبرى ، فاعتقد كثير من المفكرين انه لا وجود للحقيقة الا اذا اقرتها التجربة العلمية ، فكان الكثير فى اواخر القرن الماضي ينكر وجود الروح مثلا لانها لا ترى فى المخبر ، ويسمى هؤلاء المؤمنون بالعلم وحده « علمانيين » ، وكانت طائفة اخرى تقول بأن العقل البشري عاجز عن اكتشاف حقائق ما وراء الطبيعة والروحيات ، وهؤلاء هم الوضعيون . وجاءت جماعة من العلماء فى المانيا تقول بانه يمكن وزن العمليات النفسية فى امتدادها وقوتها كانها اشياء تخضع لقوانين الفيزياء .

هذا الجو المسرف فى الاعتماد على العلم التجريبي هو الذي عاش فيه (بركسون) فى اواخر القرن الماضي ، فقام ثائرا على اخطاء العلمانيين ، وبدا اول ما بدا بمراجعة معاني المعرفة .

وكانت اول نظرية له برزت للوجود هي ان العقل والكلام المعبر عنه ملتصقان بالعالم الطبيعي ، بحيث تكون المعرفة العقلية التجريبية مجرد معرفة للماديات . فنحن اذا اردنا ان نبحث فى النفسيات استعملنا العقل ، وهو كما يقول بركسون اداة غير صالحة لانها لم تخلق لهذا النوع من العمليات .

فالعقل جزء من عالمنا النفسي ، مخصص فى الاشياء الخارجة عن النفس ، ولكنه ملكة تطغى قوتها على الملكات الاخرى مثل المخيلة والذاكرة والشعور .

فعالمنا النفسي مقسم الى قسمين : قسم سطحي ، وقسم عميق ، والعميق منهما مغطى بالماديات حسب تمثيل بركسون كما تغطى بركة الماء بالاوراق المتناثرة فوقها ، والعقل من مظاهر الـ

« انا » السطحي الذي تحكمت فيه الماديات والعادات الاجتماعية ، ويكون هذا الـ « انا » السطحي قشرة تحيط بالـ « انا » العميق من كل جانب ، ولا سبيل الى بروز هذا الـ « انا » الا بازالة القشرة عنه ، فيجب قبل كل شيء ان ننزع عنا المعارف التجريبية التي هي مجرد ماديات ونتحرر من سيطرة العقل الذي هو بطبيعته اداة لها ، اذ ليس مطابقا للصواب ، اذا اردنا معرفة بعض الحالات النفسية التي هي من الجزء العميق ، ان نحكم فيها الجزء السطحي ، واذا استطعنا ان نحصر الـ « انا » السطحي في حدوده ، استطعنا بعد ذلك ان نمزق الستار الذي يحجب عنا الـ « انا » العميق فنتصل اليه مباشرة ، وتغمرنا بداهته وبساطته وصفاؤه .

فالعقل هو المسيطر في الـ « انا » الخارجي والموصل اليه، وهو بهذا اداة للمعرفة العلميةالتجريبية

وهناك ملكة اخرى هي المسيطرة في الـ « انا » الداخلي والموصلة اليه وهي بهذا اداة للمعرفة البديهية ، وهذه الملكة هي **الحدس** .

اننا حين نذكر الحدس عند بركسون نتصور من اول وهلة انه ملكة نفسية ذات مظهر واحد واستعمال واحد ، فهو القوة الروحية التي تدرك الحقائق بالبداهة ، وهو الملكة المخصصة في الابحاث النفسية .

والواقع ان معنى الحدس ووظائفه قد تطورت وازدادت غنى عند بركسون بمرور السنين واتساع الابحاث .

اننا نجد في كتبه ومقالاته عبارات مثل « الحدس الصرف » او « الحدس الاولي » او « الحدس البديهي » كانه يريد ان يقول ان الحدس ليس بالملكة النفسية التي تتصرف بكامل الحرية ، فاذا وقع استعمالها في المعرفة الروحية صارت عرضة لتدخلات العقل الذي يمس باستقلالها ، وكانه يوصينا بان نكون على يقظة مستمرة لوقاية الحدس من العقل التجريبي حتى لا يفقده بداهته وصفاءه .

ويتجلى هذا التباين بين الحدس الصرف والعقل التجريبي خصوصا في المؤلف المشهور لبركسون « التطور الخالق » حيث يدخل عامل جديد للمقارنة بينهما الا وهو الغريزة .

ان ما يعبر عنه بركسون بالتيار الحيوي ، وهو تلك الدفعة الاصيلة التي انبثقت منها كل حياة، يتشعب في عالمنا هذا الى ثلاثة انواع من التطورات والتجارب تتفاوت في درجة الوجدان بقدر ما تتفاوت في درجة الحرية والحركة .

فالاتجاه الاول من التيار الحيوي تكيف في في النباتات التي تاخذ قوتها مباشرة من الارض ، ولا تتحرك من مواضعها ، فوجدانها قليل بسبب قلة حركتها وعدم استقلالها عن المادة .

والاتجاه الثاني من التيار تكيف في الحيوانات التي تتحرك لتاخذ قوتها من النبات فتتصل بالمادة في مظاهر مختلفة وتتعرف بها بواسطة اداة خاصة وهي الغريزة ، ومن خصائص المعرفة الغريزية انها معدة للتعرف بالعالم المادي بقصد التصرف فيه ، وانها من جهة اخرى معرفة غامضة ، ومن خصال الغريزة انها بديهية ومتصلة مباشرة بالتيار الحيوي الذي تاخذ منه وحيها .

ويقول بركسون : « انه لو امكننا استفتاء الغريزة ، ولو كان في امكانها ان تجيبنا لاعطتنا معلومات عن تيار الحياة التي هي ملازمة لها »

واما الاتجاه الثالث للتيار الحيوي فقد تكيف في الانسان .

تتجلى في هذا الكائن الحي ملكة تفوق الغريزة من حيث الوضوح ، وتمكن من معرفة العالم المادي بوعي اكثر . وهذه القوة الموضحة هي العقل . فبه يتحرر الانسان من المادة ويتسلط عليها ، وبه يتميز عن الحيوانات لانه يكسبه قبل كل شيء قدرة على صنع آلات يستعين بها في اعماله ، ثم ان العقل يخول الانسان معرفة بالماديات هي المعرفة التجريبية التي ذكرنا آنفا .

ولكن المعرفة التجريبية والقدرة على صنع الآلات يقصدان اتجاها واحدا وهو التصرف في العالم المادي ، ويلتقيان في هذا الاتجاه بالغريزة لان الكل يندفع بطبعه الى العالم الخارج عن النفس .

واما الحدس فهو شبيه بالغريزة في ملازمته للتيار الحيوي واستمداد وحيه منه ، وهو يكون مرحلة تقدمية بالنسبة الى العقل لانه اداة صالحة للدخول الى العالم الروحي الممنوع على العقل ، فانه لا يمكننا ان نحصل على المعرفة المتعلقة بال « انا » الا اذا بلغنا هذا النوع من التحرر من ربقة العالم المادي بعملية تستوجب كثيرا من الارادة والجهد ، فنقرر اول الامر التجرد من كل ميل الى العمل المادي ، ونطرح جانبا كل الادوات التي حملتنا الحياة للقيام بهذا العمل : من عقل ولغة وحواس ، وناخذ الاداة الصالحة لمعرفة الروحيات وهي الحدس ، ونجعل اتجاهنا كله صوب التيار الحيوي فيوحي اذ ذاك الينا هذا التيار بمعارف بديهية اخذت من عنصرها الاول غير مشوهة بالماديات ولا بالعقل المخصص لها ولا بالكلام ، لان الكلام يصدر عن عمليات العقل ، فنكون بهذا قد خصصنا كل اداة في وظيفتها داخل ميدان المعرفة .

ثم نرى في كتاب « منبعي الاخلاق والدين » ان الحدس قد تطور في معانيه بتطور معنى المعرفة عند بركسون ، نجد في هذا المؤلف الشهير ان هناك اخلاقا تتوارثها وتفرض على الـ « انا » الخارجي فرضا ، فتبرز في قواعد ينظمها العقل حسب المقتضيات الاجتماعية ، ولهذه الاخلاق سيطرة على الفرد نسميها ضغطا اجتماعيا ، فهي اخلاق عقلية . وقد راينا ان بركسون يجعل العقل تابعا للـ « انا » السطحي المخصص في الماديات والاجتماعيات . ومن عيوب هذه الاخلاق انها تخضع للوسط وانها غير حرة في اتجاهها ، فهي على حد تعبير بركسون « الاخلاق المغلقة » اغلقها العقل بقوانينه السطحية والمجتمع بضغطه ، وبحصره اياها في الوسط المحدود الذي هو الاسرة والقبيلة والامة .

وهناك نوع آخر من الاخلاق اكثر حرية من الاول وليست له قواعد اساسية ، بل يستمد وجوده من الاقتداء بما هو احسن ومن الميل الى الكمال ، ويرجع هذا النوع من الاخلاق الى الشعور ، لا الى العقل ، ويسميه بركسون « بالاخلاق المفتوحة » فتحها الشعور لانه قوة نفسية اكثر غنى وعمقا من العقل ، وفتحها ميلها الى الكمال وتطورها بحرية مطلقة وقدرتها على الشمول ، والواقع انا لا نجد اخلاقا مغلقة صرفة واخلاقا مفتوحة صرفة ، فالاخلاق كلها في الحقيقة خليط من هاتين النزعتين.

وعظماء الانسانية ليسوا الا المجددين الكبار الذين لا يدينون بالاخلاق المغلقة ، بل يكسرون قيودها ويثبون الى الامام بشعور عميق وحدس قوي صاف فيحققون بذلك تطور البشرية وتقدمها .

فسر عظمتهم انهم يضعون انفسهم في اتجاه التيار الحيوي ، فلا تغربهم عنه الماديات والعقليات بل يبقون متمسكين بالحدس والمعرفة البديهية ، فياخذون الحقائق في صفائها .

كان هذا شأن عيسى بن مريم اذ اتى بحرارة جديدة ، اخذها مباشرة من عنصر التيار الحيوي ووثب بها الى الامام بانفتاح وحرية ، فكسرت قيود القواعد الدينية والاخلاقية وحققت مرامي الحياة في التطور والانبثاق .

يظهر مما ذكرناه عن المعرفة والحدس البركسوني ان هناك تباينا بين العقل الباحث والحدس الصرف ، ولكننا نشوه فلسفة بركسون ان وقفنا عند هذا الزعم وتناسينا التدقيقات التي تتمم هذه النظرة الاجمالية ، فالفلسفة الحدسية لا ترفض العقل الباحث تمام الرفض ، بل تؤمن بانه القوة المؤدية الى الوضوح على حد تعبير بركسون « النواة المضيئة التي لا تبدو حولها الغريزة والحدس، الا ضبابا غامضا » وانما الشيء الذي تعيبه الفلسفة الحدسية على العقليين هو تمسكهم بنظريات صلبة لا تلصق بتشعب الواقع ولا تقوم بأي تجديد في ميدان المعرفة الانسانية ، بل هدفها تنظيم المعارف السابقة وترتيبها ، بينما الحدس ياتي بالفكرة الجديدة البسيطة المستوحاة بواسطة الاتصال المباشر بالواقع .

ان ما ينسب الى العقل من قدرة على فض جميع المشاكل بتحريك نظريات صنعتها الحياة الاجتماعية من اجل الحياةالاجتماعية مجرد ادعاء، لانالسبيلالوحيد لفض المشاكل انما هو العمل المجهد المثمر الذي يمزق الحجب عن « الكلمات » ليتصل « بالاشياء » ولكن العقل لن يزال بسبب وضوحه وقدرته على المقارنة والتنظيم يكون المرحلة الحاسمة في سبيل الوصول الى الحدس المجدد الباعث .

فكانما يريد بركسون ان ينبهنا في هذه التدقيقات المتعلقة بالعقل والحدس ان لنا ادوات لا نحسن استعمالها ، اذ نجعل انفسنا تحت الضغط

الناتج عن ميلنا الى العمل ، ان العقل قد تعود على تحليل المادة وتقطيع اجزائها ثم الصاق هذه الاجزاء بعضها بالبعض ، وهو محصور فى مرمى واحد وهذا المرمى هو العمل الذي يعود بالمنفعة على الانسان، بينما كان من حق العقل الباحث التحليلي ان يعين الحدس على الالتصاق بالمادة نفسها ليطلع على حقيقتها حيث ان المادة ليست بالنسبة الى الروح كالضد لضده يتنافران مطلقا ، بل يوجد بينهما اتصال نشاهده اول'ما نشاهده فى لبس التيار الحيوي للمادة الجسمية وهو اتصال الروح بالجسد .

فاذا اتجهنا بالمعرفة صوب هذا المرمى المجرد من فكرة الانتفاع وجعلنا العقل معينا للحدس لا ضاغطا عليه حققنا مرحلة عظيمة فى سبيل التحرر .

والمعرفة الحدسية كلها ليست فى نظر بركسون الا تحررا ، انها تحرر حينما تقول للوضعيين والتجريبيين والعلمانيين اخطأتم بزعمكم ان الفكر البشري غير قادر على تمزيق الحجب التي تعوقنا عن التعرف بالنفس تعرفا مباشرا ، بل العالم الروحي ميدان لنا القدرة على الخوض فيه واكتشاف اسراره ، ولنا من اجل ذلك الاداة الصالحة وهي الحدس .

والمعرفة الحدسية تحرر لانها تمزق الاغلال التي تقيد « الانا » العميق وتجعله مغطى بالـ « انا » السطحي .
وهي تحرر لانها تجعل حدا لحرماننا من وحي التيار الحيوي الذي « انحرفنا » عنه .

وهي تحرر لانها ثورة ضد الثقافة العقلية المغلقة التي تمخض الافكار القديمة منظمة او مقارنة ، مدعية انها تكتشف بهذه الطريقة عن اشياء جديدة .

وهي تحرر لانها تكسر قيود القواعد الاجتماعية والاديان الشكلية لتثب بنا نحو اخلاق حرة تماشي التيار الحيوي وتستضيء بنوره .

❊

ولكن يجب ان نتساءل هل يمكن فى الواقع تحقيق هذه الحريات البركسونية فى تعددها : من كشف عن الـ « انا » العميق ، ومماشاة للتيار الحيوي ، وتكسير لقيود الثقافة المغلقة والقواعد الاجتماعية .

وهل فى الامكان تطبيق هذا المذهب الحدسي فى الفلسفة والتوصل بواسطته الى اكتشافات جديدة ؟

الحق انه يصعب الجواب على هذه الاسئلة بكيفية حاسمة ، وان البركسونيين يمكنهم ان يقولوا بانهم فتحوا امامنا عوالم كان مضروبا بيننا وبينها سور من حديد ، ولا ينكر احد ان علم النفس مثلا قد تقدم بخطوات عظمى منذ بروز البركسونية الى يومنا هذا ، ولا ينكر احد اننا عرفنا وثبة روحية عظيمة فى القرن العشرين ، ولكن هل كان الحدس وحده هو السبب فى مثل هذا التقدم ؟ كلا بل كانت التجارب والابحاث العقلية اكبر عامل فى جميع الميادين على وثبة الانسانية نحو التقدم والرقي ، وكثيرا ما نتساءل اذا القينا نظرة واحدة على هذه المطامح البركسونية هل هي حقائق ام اوهام . فالعقل الذي نحكم عليه بالعقم ، اذا نظرنا اليه بمنظار بركسوني ، اليس هو اكثر قوانا النفسية مرونة على اكتشاف الحقائق ، فهل من الصواب ان نسكت هذه الملكة الانسانية المرنة لنستفتي غيرها سيما وان هذا الغير لم يعطنا نفس الضمانات الكافية فنقبل تسلطه .

ثم اذا نظرنا فى التشوف الى الحرية وجدنا ان العقل والعلم اللذين تعدهما الحدسية قيودا بسبب مراميها الانتفاعية العملية ، انما هما فى الحقيقة سبب عظيم فى تحرر الانسانية من ربقة المادة ، وهل جربنا حتى الآن وسيلة اكثر منهما قدرة على القيام بهذه المهمة التحريرية ؟ لقد استطعنا بالعقل والعلم التجريبي ان نزن الكون مع عظمته ونخترق اسرار العالم الغير المتناهي فى الصغر والعالم الغير المتناهي فى الكبر وننتقل من فتوحات الى فتوحات اكبر منها حتى صرنا لا نيأس اليوم من صنع الحياة نفسها « فى المخبر » على حد تعبير العلمانيين ، فليس الحدس بل العقل والعلم هما اللذان علمانا مثلا ان المادة والطاقة شيء واحد ، او لا يعد هذا الاكتشاف من اكبر مراحل التحرر ؟ .

ثم ان العقليين يعيبون مع بركسون هذه الثقافة « المغلقة » وهذه الاخلاق « المقفلة » التي تصير الافكار الانسانية عقيمة ، والعقل اول من ثار على

الشكليات الاجتماعية وحتى العقلية ، فديكارت مثلا هو الذي حطم منطق ارسطو ، والعلماء والمفكرون العقليون هم الذين حطموا قيود القواعد الاجتماعية للدعوة الى مجتمع احسن والطموح الى الكمال والحرية ، وهم مع كل هذا واقعيون يعلمون انه لا يمكنهم التحرر من المجتمع وميراثه وايحاءاته لانهم يفكرون بناء على افكار غيرهم او بالنسبة لها .

ثم أن المذهب الحدسي نفسه لم يات من ناحية اخرى الا تابعا للمذهب الشعوري الذي عرفناه فى القديم عند الافلوطينيين ثم الاشراقيين من المسلمين مثل الغزالي والسهراوردي وجماعة الصوفيين وحتى ابن سينا فى بعض مظاهر فلسفته .

ولم تبرز الحدسية الا فى اطار الثورة على افكار الوضعيين والتجريبيين مثلما ثار الغزالي على الفلاسفة فى كتاب « التهافت » .

فالمذهب الحدسي اذن خاضع للقواعد الاجتماعية من حيث هو استمرار وتتابع فى سلسلة الاشراقيين ومن حيث هو ثورة على العقل .

ولم يكن منهج بركسون فى البحث واقامة صرح فلسفته بمنهج حدسي ، انما كان بركسون ياتي بالحجج المنطقية ليبني هذا الكل الفلسفي الذي هو المذهب الجديد .

وهل يوجد مذهب دون تحليل وتركيب ، وهل يعد التحليل والتركيب الا وظيفتين من وظائف العقل

انه شأن جميع المفكرين الذين قالوا بعجز العقل ، فهم يقيمون دائما مذهبهم على مناهج معقولة . هكذا كانت طريقة الاشعري فى ثورته على المتكلمين ، وهكذا كان منهج الغزالي فى قيامه على الفلاسفة . ولولا ذلك لما عدوا من المفكرين .

من اجل قضية التعريب

خدمة لقضية التعريب التي اصبحت من القضايا الوطنية الهامة ، قرر بعض العاملين فى اقسام الترجمة بمختلف الوزارات والادارات عقد اجتماعات دورية تحت اشراف الدكتور محمود ابو السعود للمناقشة حول الكلمات والمصطلحات الفنية والعمل من اجل تعميمها فى صيغها العربية فى مختلف مكاتب الترجمة .

و ((دعوة الحق)) مجلة العربية والاسلام فى المغرب ، اذ ترحب بهذا النشاط وتدعو للقائمين به بمزيد التوفيق ، ترجو من جميع المثقفين ان يسندوه ويعملوا على انجاحه .

وهذه اسماء السادة الذين يمكن الاتصال بهم فى الموضوع :

السيد احمد الصفار : وزارة الخارجية .

السيد محمد بن عبد الله : وزارة المالية

السيد حسين الدراجي العاشوري : وزارة الاقتصاد الوطني

أساليب النشاط الاقتصادي الأمريكي ومدى إمكان تطبيقها بالمغرب

بقلم عمر السعدي المنجرة
رئيس قسم التنسيق الاقتصادي
بوزارة الاقتصاد الوطني

-2-

2) استيعاب امكانيات السوق :

وهذا مجال نشاط تجاري صرف يمكن ان تقول عنه انه ينحصر في توفير بعض المدخرات من المنتجات وذلك في مكان وزمان معينين . واذا كان كل فرد او جماعة صغيرة تنتج لحسابها الخاص ، فلا سبيل للاتجار . ان التجارة تبرز وتتضاعف بقدر ما يتشعب الاختصاص . ثم ان ازدياد المبادلات التجارية يستلزم وجود منظمة خاصة باستيعاب امكانيات السوق . هذا وتطلق عادة كلمة الوسطاء على الذين يقومون بهذا النشاط . ففي الولايات المتحدة التي تلجأ بكثرة الى مثل هذه المنظمات ، فان الاعمال الموكولة الى الهيئات الخاصة باستيعاب امكانيات السوق ، عديدة ومتنوعة . وينحصر عمل هذه المنظمات في التنسيق بين ما يتطلبه المستهلكون ، وبين كميات المواد الغذائية قصد ارضاء هذه الطلبات . اما استيعاب امكانيات السوق فهو يتلخص في المهام الرئيسية التالية : جمع المواد ، فرزها ، نقلها ، تمويلها ، بيع المنتوجات ، ثم تحمل الاخطار الناتجة عن هذه العمليات .

ومن ثم تظهر لنا اهمية هذا النشاط وفوائده . غير انه يجب أن نميز بين هذا النشاط — ونعني هنا النشاط في حد ذاته — وبين الشخص الذي يقوم به . فاذا نحن قللنا من عدد الاشخاص الوسطاء ، فلا نكون بعملنا هذا ، قد حذفنا مختلف الاعمال الرئيسية التي تقع بين مرحلة الانتاج ومرحلة الاستهلاك . ولهذا يصبح استيعاب امكانيات السوق — ضروريا ، اضف الى ذلك انه من المفيد ان يكون هذا الاستيعاب فعالا ، لان نتائجه تتجلى في انخفاض يطرا على الثمن الذي تباع بها المنتوجات للمستهلك .

ولقد كان هذا النشاط ينمو في الولايات المتحدة، في نفس الوقت الذي كانت تنمو فيه الصناعة ، كما ان التخصص في هذا الميدان أصبح له اليوم مميزاته

فان « الوسطاء » يتخصصون في هذه البلاد ، اما حسب الفروع التجارية ، او حسب المهام الموكولة اليهم . ثم ان مهام التاجر الذي يبيع بالجملة تختلف عن التي يقوم بها البائع بنصف الجملة ، كما ان اعمال البائع بنصف الجملة تتميز عن التي يضطلع بها البائع بالتقسيط الذي يتحتم عليه اكثر من غيره ، ان يهتم برغبات الزبناء وباذواقهم وميولاتهم ، ويحرص على ان يقدم لهم منتوجات اكثر تنوعا من التي توجد عند غيره . والسبب في كل هذا هو ان البائع بالتقسيط وثيق الصلة بجمهور المشترين .

وتوجد بالولايات المتحدة عدة اصناف من البائعين بالتقسيط :

ا) دكان عام وهو يوجد في البوادي .

ب) دكان متخصص شبيه بدكاكين البقالة الكبرى الموجودة عندنا والتي تتوفر على كمية ضخمة من المواد المتنوعة .

ج) « سلسلة الدكاكين » التي تتجر في الكميات الضخمة من البضائع وهي تبيعها باثمان معتدلة ، كما انها قادرة على التخفيض من تكاليف النقل والاشهار ، وشحن البضائع ، وعلى تشغيل المديرين لتسيير فروعها .

د) وهناك « المتاجر الكبرى » وهي شبيهة بالاروقة الكبرى التي بالمغرب وفي اوربا .

ر) ثم نجد « مؤسسات الارسال عن طريق البريد » وهي متخصصة في تزويد المستهلكين بالنماذج المصورة تعرض فيها عليهم جميع المنتوجات مع ذكر اثمانها وجودتها ، وتستطيع هذه المؤسسات

تزويد زبنائها (الذين يسكنون عادة بعيدا عن المدينة) بكل ما يرغبون فيـه .

ف) واخيرا نجد « السوق الرفيع » وهـو آخر ابتكار تجاري حدث بالولايات المتحدة ، وهي مؤسسة كبرى تبيع المـواد الغذائيـة ، واللـوازم المنزلية غير انها تتوفر على ساحة واسعة لايـداع السيارات . والواقع ان هذا الابتكار هو نتيجة مباشرة لتضخم عدد السيارات بالولايات المتحدة .

وجميع هذه النظم الخاصة بالاتجار ، وبنقل المنتجات وبيعها ، كلها ناتجة عن التخصص العظيـم الذي تمتاز به مرافق النشاط الاقتصادي الامريكي . فالتنسيق بين مختلف المرافق التي تعمل فيها مؤسسة واحدة ، والترتيب الهندسي والعملـي للمتاجـر ، وتطبيق اساليب التسيير القياسي والحرص علـى جعل زيارة الزبون سارة مربحة، عملية، كل هذه الاشياء تدخل ضمن الاساليب الخاصة باستيعاب امكانيـات السوق . وهي اساليب تتطور بقدر مـا يتضاعف التخصص وحسب ازدياد الموارد التي يتوفر عليهـا المستهلكون .

استيعاب امكانيات السوق بالمغرب

ما من شك ان هذه الاساليب غير شائعـة بالسوق المغربية بنفس التطور الذي عرفته فى امريكا، غير اننا نقدر على القول بان السوق المغربية بحكـم ارتباطها بدرجة التخصص ، لن تكون مسرحا لنشاط واسع من هذا القبيل ، الا عندما تصبح السوق المغربية اكثر تشعبـا ــ اي حين يصبح المستهلك اغنى مما هو عليه الآن ، وبالتالي يكون حينئذ قادرا على خلـق طلبات ضخمة بفضل موارده ونفقاته . غير انه يمكننا من الآن **ادماج** عدد كبير من العمليات التي تربـط بين مرحلة الانتاج او الاستيراد ، وبيـن مرحلـة الاستهلاك فى النطاق التجـاري المغربي . فان تقنين الاساليب ، والتخصص فى المهام التجارية ، واحترام المستهلك بمزيد من العناية ، كل ذلك لا يـؤدي الا للخير . ومن جهة اخرى فليـس من واجب السلطات المحلية ان تدافع عن هذا المستهلك فقط ، الذي يجد نفسه فى الاخير مضطرا لاداء واجب عدد كبير مـن الوسطاء ، بل وعلى السلطات كذلك ان تحمي البائـع بالتقسيط من شره البائع بنصف الجملة ، وان تقـي هذا الاخير من البائع بالجملة ، وقـد يطلب منهـا فى بعض الاحيان ان تحمي البائع بالتقسيط من التاجـر بالجملة .

فالمغرب يتوفر على امكانيات تطوير هذا الميدان الذي يشمل عددا كبيرا من الاعمال المتنوعة التي تربط بين صانـع المنتـوج ومشتريـه .

ان الاساليب العلمية لـلادارة والتسيير العام يجب ان تكون متقونة اذا اردنا ان نصل الى هـذا التطور ، ذلك لانها اساس الفعالية التي تتولـد عـن تنسيق الاعمـال المختلفة وانسجامها وضبط سيرها.

٭

3 ــ اساليب الانتـاج

هذه مسالة تتصل بالصناعات بصفـة خاصة . والامر هنا يتلخص فى التاكيد بان هذه الاساليب تصبح متشعبة وتتطلب المزيد من التنسيـق والتصميـم والمراقبة بقدر ما ينمو التخصص فى انتاج المصنـع .

وفى الولايات المتحدة فـان هـذه الاساليب لا تتطور حسب هذا التخصص فقط ، بل وكذلك حسب ظروف المزاحمة التي تطغى على السوق وعلى المستوى الفني للصناعة . ومهما كان الامر ، فاننا نستطيـع ابراز القواعد العامة التي ترتكز عليها هذه الاساليب :

1 ــ « تصميم » عمليـات الانتـاج

ا) مراقبة الانتاج : ان اهمية تصميم حسـن للانتاج ، ناتجة عن كون **الوقت والتحويل يجب** ان يكونا متناسقين طبقا لقواعد دقيقة شاملة ــ ثم ان التكاليف التي تنتج عن ضياع فى الوقت او فى تحويل المنتـوج الخام او المصنوع ، يجب التخفيض منها الى ان تبلغ ادنى حـد ممكـن .

ب) طبيعـة تصميم الانتـاج

ان المشاكل التي تسوى بفضل هذه العملية هي :

1 ــ فى مـدة قصيـرة :

ــ ماذا يجب انتاجه ؟

ــ متى ، وكيف واين ينبغي انتاجـه ؟

ومن جهة اخرى فان المصالح المكلفة بتصميـم الانتاج ، تهتم بـ :

ــ عمليات الاعداد التي تشمل طلبات الانتاج ، والحصول على العتاد والآلات الخ . .

ــ استعمال الزمان الذي يهدف الى استغـلال التسهيلات المحلية استغلالا افضل

ــ العلاقات التي تربط بين مصلحة التصميـم ومتجر البيـع .

لهذا فان عمليات الوقت ، والسرعة والفعالية ، تحتل مكانة هامة كما ان التنسيق بين التصميم والتنفيذ ، قائم على الدوام وفى كل وقت .

2 ــ فى مدة طويلة ، يتلخص التصميم فى :

ا) تحديد المهام وتصميم العمليات .

ب) القيام بالتخمينات الخاصة بالحاجيات المالية قصد تبليغها الى علم المصالح المختصة ، وذلك مع مراعات ما قد يطلب من المنتجات المصنوعة . ان هذه التخمينات تمكن من وضع نطاق للانتاج وتساعد على مراقبة الميزانية ، وتضمن الاستقرار فى الانتاج والتشغيل والتخفيف من اخطار العمليات وتؤدي الى تحديد الاثمان المناسبة للمنتجات .

ب ــ الانتاج نفسه

من مميزات الانتاج ، تقسيمه حسب اعراف علمية ، ذلك لان كل مهمة تدرس بصفة مفصلة كما ان تحليلها يمكن من تحديد الفروق التي تفصل بين كل مرحلة من مراحلها . وهكذا فان تطبيق اساليب تراعى فيها الفعالية ، والتفكير البشري ، وضبط الطاقة الفردية ، وامكانيات الاعياء، كل قد يؤدي الى جعل مرحلة واحدة تمكن من القيام بمجموعة العمليات التي تشكل ما نسميه بـ « مهمة ــ الوحدة » .

وفى هذا المضمار فان مباديء تقوية الانتاج ، تحتل الصدارة كما تطبق الابحاث الخاصة بالزمان والحركة . ولا فائدة لنا فى التحدث عن التفاصيل الفنية لهذه المباديء الخاصة بتقوية الانتاج غير اننا يمكن ان نذكر هنا ان :

ــ ضبط الاعمال

ــ سهولة الحركة

ــ السرعة

ــ التعجيل بالانتاج فى الزمان

هي الاهداف التي ترمي اليها المباديء الفنية لتقوية الانتاج .

ج ــ مراقبة الانتاج

ولمراقبة الانتاج نفس الاهمية التي يكتسبها التصميم والتنفيذ ، ذلك لانها تمكن من تحسين الانتاج بصفة دائمة ، وتساعد على وضع معيارات يمكن بفضلها القيام بالتخمينات او التغييرات وبالتالي التخفيض من اخطار العملية وتكاليفها .

تلك هي الافكار الرئيسية لاساليب الانتاج الصناعي بالولايات المتحدة . هذا ولا يمكننا الدخول فى التفاصيل الفنية والحسابية لهذه الاساليب ولذلك نكتفي بان تكون لنا فكرة عامة عنها .

اما فى المغرب فان هذه الاساليب لا تطبق باقصى مايمكن من الاستغلال وذلك نظرا لطبيعة معظم مؤسساتنا الصناعية . ومن المفروض ان نفكر بجد ، وفى نطاق تصنيعها ، فى استعمال هذه الاساليب التي تمتاز بحرصها على ربح الوقت ، والفعالية والسرعة فى العمل ــ وكل ذلك يرتكز على تخصص واسع النطاق .

ان فهم تصميم الانتاج الصناعي المغربي وتطبيقه يجب ان يرتكزا على اكثر الاسس ترتيبا ، كما ان التخمينات والمراقبة يجب انتتم فى احسن الشروط القياسية .

ولا جدال فى النتائج الاقتصادية التي تتمخض عن تطبيق هذه الاساليب :

ــ عمليات الانتاج اكثر فعالية .

ــ السرعة والربح فى الحركات

ــ وصول سير الانتاج الى مستوى افضل

ــ تخمينات اكثر صلاحية

ــ ازدياد فوائد الاستثمار

اما النتائج الاجتماعية فهي تظهر بعد زمن طويل غير انه يمكن ان نلخصها كما يأتي :

ــ يصبح العمال اكثر تخصصا فى مهنهم

ــ ويكونون اكثر اختصاصا واكثر تهذيبا فى القيام باعمالهم

ــ يصبح المسؤولون اكثر تقدمية فى فهمهم للعمل والتصميم .

ــ ويصبح التنسيق القائم بين العمل او المهمة وبين الذي يضطلع بها ، اكثر قوة وصلاحية ، الامر الذي يتسبب فى ايجاد توازن سعيد يسري بين مجموع العمال .

ـ كما سيكون الارتياح العام اهم وارضى لانه سيتولد عن قوة افضل للانتاج ، وستنتج عن هذا الارتياح ـ زيادة فى الدخل ، وتخفيض فيما ـ يكلفه صنع المنتجات .

تلك هي النتائج التي يؤدي اليها تطبيق الاساليب الامريكية للانتاج فى الميدان الصناعي للبلاد .

*

4 ـ ابحاث حول السوق .

ان للابحاث الخاصة بالسوق ، اهمية كبرى بالنسبة للاقتصاد الامريكي ، ولذلك فقد توسع نطاقها تحت تاثير المزاحمة المفرطة القائمة بين المؤسسات ، وبتاثير كذلك من طلب المستهلكين الذي يزداد صعوبة وحجما ، وقد جاء ذلك التوسع ، آخر الامر ، كنتيجة للتطور الذي طرا على المرافق الاقتصادية والاجتماعية للبلاد .

وتتلخص هذه الابحاث الخاصة بالسوق فى استعمال طريقة التنقيب والاساليب الاحصائية قصد دراسة :

1) حاجيات المستهلكين

2) اذواقهم والاسباب التي من شانها ان تغير هذه الاذواق

3) ما يفضلونه فيما يخص الشكل الذي تقدم فيه المنتجات .

4) تاثير الاشهار على المستهلكين
وذلك قصد تحديد او تقدير :

ا) المبيعات المتحملة للمنتجات

ب) العلاقات الواقعة بين تغيرات المستهلكين ومواقفهم ازاء المنتجات

ج) الطلب المضبوط والطلب المؤقت للمنتجات

د) مركز المؤسسات داخل السوق ازاء المؤسسات المزاحمة لها .

ر) امكانيات التوسع فى السوق .

هذا وترتكز الابحاث عادة ، على دراسة الطلب المحلي للمنتجات وعلى تحديد العلاقة الواقعية بين هذا الطلب وبين ثمن المنتجات وما يكلفه صنعها .

وهناك استجواب تقوم بها فرق الباحثين ويمكن بفضلها وضع علاقات تربط بين عدد المستهلكين وبين كمية المنتجات التي تم بيعها ، وتساعد هذه الاستجوابات على معرفة النسبة المائوية الخاصة بالتغييرات التي تطرأ على الطلب والتي تناسب التغيرات الحاصلة فى الاثمان ـ وفى شان هذه الاخيرة يمكن الاستناد على التغيرات الحاصلة فى تكاليف صنع المنتجات ، ثم هناك مبادىء علمية يمكن تطبيقها لتحديد هذه العلاقات وتساعد على القيام بتخمينات متفاوتة فى الدقة تمكن هي الاخرى من صنع المنتجات المطلوبة وتخزينها واستيرادها او تحويلها .

ولبلوغ هذه الغاية ، من الضروري الحصول على الخبراء الفنيين كما ان تمويل دراسة خاصة بمنتوج معين ، ليس بالامر السهل ، ولهذا فان القيام بهذه الابحاث كان دائما خاصا بكبريات الشركات التي كانت تقدر ، بفضل مركزها الاحتكاري داخل السوق ، على تسديد النفقات الناتجة عن هذه الابحاث . على ان اعتمادات مستخلصة من الميزانية تخصص لهذه الابحاث ، وما من مؤسسة امريكية كبرى الا ولها اليوم قسم خاص بالابحاث يضم احيانا ، علماء مبرزين فى الاقتصاد ، ومهندسين واختصاصيين فى علوم الاجتماع وعلوم النفس . اما الفوائد المنتظرة من هذه الابحاث فهي معروفة من طرف جميع التجار الصناعيين الامريكيين الذين تدفع بهم حالة المزاحمة القائمة بالسوق ، الى التعرف على المستهلكين وتتبعهم قصد الوصول الى توجيههم عند الاقتضاء نحو حاجتهم عن طريق الاشهار ، ويقصد من ذلك ايضا الحفاظ او مضاعفة كمية المنتجات التي يبيعونها فى السوق . ويجب ان نعترف هنا مرة اخرى ، ان المستهلك هو المنتفع الرئيسي من هذه الابحاث . فهو يتبع فى طلباته واهوائه ، بغية ارضاء حاجياته واذواقه فى كل حين . فما عليه الا ان يدفع الثمن المفروض ، وفى هذا الشأن فان المستهلك يصبح ذا نفوذ اذا كان الامر يتعلق بمنتجات قامت بصنعها مؤسسات صغيرة او متوسطة ، ولكنه يفقد ذلك النفوذ اذا ما رغب فى شراء اشياء تقوم بصنعها مؤسسات احتكارية كبرى. ومهما يكن من امر فان المستهلك يفوز بالمنفعة لان ارضاءه يستلزم الافراط فى العمل والاتقان من طرف البائع .

اما فى المغرب ، وهو بلاد متخلفة اقتصاديا ، فلا سبيل فى الوقت الراهن ، الى التفكير فى القيام بابحاث واسعة النطاق حول السوق المغربية ، وذلك

لكون المؤسسات المحلية لا تتوفر على الاموال الطائلة لتمويل هذه الابحاث ، ونظرا كذلك لكون اذواق المستهلكين المغاربة لا تختلف بعضها عن بعض .

غير انه من الممكن بل ومن الواجب القيام بابحاث غير عميقة مع مراعاة النظم المحلية ، وسلوك المستهلكين من السكان ، وتطور مستوى معيشتهم .

ويمكن اجراء هذه الابحاث بثمن ضئيل نسبيا قصد تحديد العناصر الحقيقية التي يستند عليها الطلب المحلي والعناصر التي لا تنصهر مع هذا الطلب (وهي اذن عناصر قابلة للتغيير) ، والمقصود من ذلك هو تقدير ما يباع من المنتجات في الثلاثة اشهر او في السنة ، وتتبع المستهلكين بصفة احسن ، وعند الاقتضاء توجيههم نحو السبل اللائقة بهم ، وذلك بواسطة الوسائل الاشهارية .

ومن رايي ـ وهذه مميزة يتصف بها اقتصاد جميع البلدان المتخلفة ـ وكما حصل ذلك فيما يخص الاشهار ـ هناك تردد من طرف التجار والصناعيين يجعلهم يعدلون عن القيام بهذه الابحاث المفصلة . ويرجع هذا الاعراض الى اسباب مادية (عدم وجود الاحصاءات والفنيين ، والباحثين ، والمعلومات الخاصة بالعناصر المسببة للطلب المحلي ، وبمعلومات حول النظم الاجتماعية وحول الفرد الخ ..) وهناك اسباب مالية وفي بعض الاحيان يكون المانع هو الحذر . ويبدو ان مؤسسات كبرى بالمغرب قد اخذت تعمل في هذا الميدان وتلجأ في ذلك الى الاختصاصيين من الاجانب . غير انه من الملاحظ ان معرفة البلاد تنحصر في « الحياة » مع سكانها ، واعتبار المشاكل التي تعتريهم والتطور الاجتماعي الذي يطرأ عليهم ، كل هذه العناصر يتوقف عليها نجاح ابحاث من هذا القبيل . ولهذا يجب مراعاة البيئة قبل الشروع في اعمال التنقيب . وذلك بيت القصيد : لان تكوين باحثين مغاربة من طرف المؤسسات المحلية الكبرى ، وتشجيع التكوين التقني للاطارات ولمسيري هذه الابحاث ، من المشاكل التي يجب ان تشغل بال التجار والصناعيين بهذه البلاد .

هذا وان الصبغة النفعية التي تمتاز بها هذه الابحاث لا يشتابها شك ولا ريب لان كل اموال تنفق قصد اكتساب المزيد من التعرف على الطلب المحلي وعلى اسباب تغيراته وقابليته للتوسع ، هي اموال استعملت استعمالا حسنا .

ولهذه الابحاث ايضا ، تأثير اجتماعي هام . فبعد مدة طويلة يتجلى ذلك التأثير في تهذيب السكان وتوجيههم نحو بعض الاذواق المعينة وذلك رغم كون عدد غير محدود من العوامل الغير القياسية يتوقف عليها طلب السكان سواء فيما يخص المدة او الزمن .

5 ـ الادارة في الميدان الاقتصادي

10 ـ **ففي الولايات المتحدة** فان التنظيم الاداري للمؤسسات التجارية والصناعية يمتاز حتما بالتشعب والاهمية الكبرى . والواقع ان كل انماء اقتصادي يتسبب في خلق طلب كبير بالنسبة للمسيرين ذوي الكفاءة ، وذلك سواء كان الامر يتعلق بالاعمال الحرة او بالادارة العمومية . ثم ان البلدان الضعيفة ، يكثر فيها عادة ، التجار الذين يحدوهم الشره الرامي الى كسب الاموال عن طريق شراء المنتجات بابخس ثمن ثم بيعها باغلى الاثمان او بواسطة تقديم القروض مع المطالبة بقدر مائوي مرتفع . والذي تحتاج اليه هذه البلدان ليس روح الابتكار ، ولكنها في حاجة الى خبرة الادارة. واذا كان المشرفون على تسيير المؤسسات الكبرى ، يتوفرون على الكفاءة التي تجعلهم يقومون بذلك بصفة فعالة ، فان الاقتصاديات الناتجة عن الانتاج بكثرة ، تؤدي الى زيادة ضخمة في الدخل . ولهذا فما من شك ان ضعف البلدان المتخلفة اقتصاديا يتلخص في معرفة واختيار هذه المشاكل الخاصة بالتسيير من حيث هو اهم مرافق الاعمال .

ان تكوين الاطارات ومديري المؤسسات الكبرى امر يمكن تحقيقه . ولكن الملاحظ ان المسيرين الكبار يولدون بهذه الصفة ولا تجود بهم سائر الايام (واشير بكلامي هذا الى آل فورد ، ودبون وولوورث بالولايات المتحدة) .

غير انه من الممكن بذل جميع هذه الجهود للوصول الى خلق طبقة من رجال الاعمال يتصفون بالنشاط والاقدام ويتحلون باجمل الصفات الثقافية والخلقية والجسمانية .

ولنتطرق الآن الى الكلام عن بعض المظاهر التقنية لتسيير الاعمال كما هو في الولايات المتحدة :

1) ان الهدف الرئيسي الذي ترمي اليه اساليب ومبادىء « تسيير الاعمال » هو الوصول الى تنظيم فعال ، سريع ، منسجم ، منسق ، مختصر ،

قياسي ومراقب مراقبة محكمة . ولبلوغ هذه الغاية فان العوامل الاساسية ثلاثة :

ـ التصميم

ـ التنسيق في التنفيذ

ـ مراقبة المنجزات

وتستلزم هذه العوامل الثلاثة :

ا) التنظيم

ب) التسيير

ج) الادارة

فالتنظيم ضروري لتنسيق نظام العلاقات الناتجة عن وجود عوامل يجب تظافرها (صلة الفرد بالفرد او بالجماعة . الالات الفلانية مع الشكل الفلاني للتجهيز) .

اما مهمة التسيير فهي تنحصر في تحديد نظام العلاقات التي يجب ان تربط بين مختلف افراد المؤسسة ، وفي تغييره ان اقتضت الظروف ذلك . ان اعضاء مجلس الادارة مطالبون بوضع هذا النظام وبتغييره عند الاقتضاء وذلك اما قصد تحسين الانتاج ، او للتخفيض من الخسارات .

كما ان الادارة تتلخص في مراقبة العمل الذي يجب انجازه لتتيقن ان ذلك العمل قد تم طبقا لبرنامج الاشغال المبنية في منهاج التنظيم .

اما واجبات المديرين واختصاصاتهم بالنسبة للمستخدمين ، فهي مفسرة في ذلك المنهاج الذي يحضره اعضاء مجلس الادارة للمؤسسة .

ان فائدة تطبيق هذه الاساليب تتجلى في رغبتنا الدائمة في التقليل من طرق العمل المتشعبة فيما يخص وضع العلاقات الرابطة بين مختلف المرافق والمصالح ، كما انها تتجلى ايضا في تحسين الخدمات التي نقوم بها لفائدة المستهلك ، وفي حرصنا على كسب الوقت الذي يمكننا من حشد وسائلنا بكيفية افضل الامر الذي يساعدنا على حل مشاكلنا الخاصة بالتنسيق والتنفيذ والمراقبة .

ولا تخفى على هذه الاساليب التقنية الادارية ، المظاهر النفسية والاجتماعية للتنظيم الصناعي او التجاري . ولهذا هناك جداول تحدد مهام كل « خلية » ادارية وتعنى بالعوامل البشرية ، وبطبيعة العمل وملماته ، وبسرعة المهام وسهولتها ، كما انها تهتم بالرفاهية العامة للمستخدمين وبأحاسيسهم وعواطفهم . ثم ان تاثير النظم الاجتماعية والعادات المحلية ، وطبيعة طبقة المستخدمين ومؤهلاتهم ، كل ذلك محط الاهتمام قصد اعطاء التنظيم القائم اكثر ما يمكن من التنسيق والقياسية والانسجام .

تلك هي الخطوط الكبرى للاساليب الادارية المطبقة في عالم الاعمال بالولايات المتحدة .

2) اما في المغرب وحتى في عدة بلدان اوروبية فان التنظيم الاداري للمؤسسات الصناعية والتجارية لم يبلغ هذا الحد من التطور . ومن المؤكد ان بلوغ هذه الدرجةمن التطور يتوقف على النظم الاساسية للاقتصاد وعلى مستوى نموه .

ومهما يكن من امر فان بالمغرب مجالا واسعا لتحسين سير الادارة والتسيير في الميادين الاقتصادية اما في المرحلة الاولى فيجب اعطاء الاهمية للعوامل التالية :

ا) التصميم وما شمله :

ـ تحديد الاهداف

ـ التخمينات

ـ التنسيق

ـ الانسجام

ب) التنفيذ القياسي مع :

ـ التحسين المستمر لطرق العمل

ـ تحديد دقيق للمسؤوليات

ـ التخصص

ـ اعتبار عناصر الوقت والسرعة

ـ تخفيض مستمر من الخسارات المادية والمتاعب ، ومن مصاعب او سام المستخدمين .

ـ ضمان فوائد الاستثمار الاقتصادي وكذلك حدوث التاثيرات النفسانية والاجتماعية السعيدة .

ج) المراقبة ، ويقصد منها معرفة ما :

ـ اذا كانت التخمينات المقررة في مرحلة التصميم قد تم انجازها

— اذا كان يجب ادخال بعض التعديلات

— اذا كان من الضروري القيام باعادة التنظيم المادي او الاداري

— اذا كانت تكاليف الانتاج لا تتعدى حدود ما تقرر في التصميم .

د) اختيار الاطارات ، وتراعى فيه :

— مؤهلات الاشخاص الذين تعطى لهم المسؤولية والنفوذ داخل المؤسسة .

— طبيعة الجماعة الاجتماعية التي يتم ضمنها التشغيل .

— الاساليب التي من شانها ان تاتي بتحسين تكوين المستخدمين وتتميم هذا التكوين من الناحية الادارية والتقنية .

— تقديرهم لمهامهم « كرؤساء مسؤولين » ، وتراعى كذلك في اختيار الاطارات ، شخصية المستخدمين وقوة امكانياتهم في الانتاج .

اما في المغرب فمن رايي ان هذه المبادىء قد اصبحت قادرة على تحسين اسس التنظيم والتسيير بالنسبة لعدد كبير من مؤسساتنا التجارية والصناعية فاذا اقتبسنا مما انجز بالولايات المتحدة وبالاخص في المسائل المتعلقة بعالم الاعمال الذي تغمره المزاحمة والذي يتطلب بذل اقصى ما يمكن من الجهود ، امكننا عندئذ ان ننتج في بلادنا ونبيع باثمان غير مرتفعة ، ونحصل على قوة للانتاج تزداد بكيفية مستمرة .

وخلاصة ما سبق ، يمكن القول بان الوسائل الراهنة التي تتوفر عليها المرافق التجارية والصناعية للاقتصاد المغربي ، عاجزة عن تطبيق الاساليب التي ذكرنا . فان عدم وجود مستخدمين تقنيين اكفاء ، ومعلومات احصائية عامة اخصائية وجهل المظاهر النفسانية للشخصية الاقتصادية التي يمتاز بها المغربي ، وجهل العوامل التي تحتم عليه او تتسبب في جعله يغير سلوكه كمستهلك ، وكون الاهمية لا تعطي للروح التقدمية في الانتاج وفي سير الاعمال ، ولا للتنظيم والتسيير القياسي المثمر — كل هذه الاسباب تحول دون تطبيق الاساليب التي ذكرنا من طرف المؤسسات التجارية والصناعية . على ان الولايات المتحدة والبلدان المتقدمة الاخرى كفرنسا ، في امكانها ان تساهم بحظ وافر، في تحسين الوضعية التي يعيش فيها المغرب . ومن جملة الاسباب التي لها تاثير حميد على هذه الحالة نذكر المساعدة الفنية الخاصة بتكوين الاطارات المهنية ، وبجمع المعلومات الضرورية لاستيعاب الميادين ، وبقوة الانتاج ، واليد العاملة .

اما فيما يرجع لمرافق النشاط الحرة ، فسنجد اننا مضطرين الى الاعتناء بهذه الاساليب التقنية بغاية الاهتمام ، وذلك بقدر ما يتطور اقتصاد المغرب ، ويزداد الدخل ويتضاعف طلب المستهلك . ثم ان المزاحمة القائمة بالسوق ، والتخصص في الانتاج والمبادلات ، وضرورة ارضاء الرغبة الملحة للمستهلكين كل ذلك سيحتم على تجارنا ، وصناعيينا ، واصحاب الابناك ، وجميع المشتغلين بالاقتصاد ، ان يغيروا اساليبهم التقليدية ، ويقتبسوا من البلدان المتقدمة ليبلغوا مستوى مرتفعا في انتاجهم وفي تصريف منتجاتهم .

كتب هذا البحث باللغة الفرنسية الاستاذ عمر السعدي المنجرة ، وترجمه الى العربية بقسميه ، المنشور في العدد السابق ، والمنشور في هذا العدد :

الاستاذ الحسين عاشوري

من تاريخ اللحى

بقلم: عبد القادر القادري

في الانباء الواردة في شهر ماي الفارط من (هافان) عاصمة (كوبا) ورد هذا الخبر الذي مر به اكثر الناس مر الكرام .

قالت وكالات الاخبار العالمية التي اوردته ، ومحطات الاذاعات في العالم اجمع الى اذاعته .. ان فضيل كاسترو زعيم كوبا ورئيس وزرائها لم يحلق لحيته بعد ، رغم مرور اربعة اشهر على قضائه على الديكتاتور باتيستا ودخوله هافان ظافرا منتصرا على راس ثواره (الالحيين) . انتهى ما قالته وكالات الانباء العالمية وما اذاعته محطات الاذاعات العالمية ، اوردناه بلفظه .

الا ان هذا الخبر لا يضعف من قيمة لحية فضيل كاسترو ، فقد التمس احد الاثرياء في كوبا من زعيم الثورة الكوبية فيديل كاسترو ان يبيعه شعر لحيته حينما يحلقها ، وخصص لهذه الصفقة 25 مليون فرنك ، والثري المشار اليه كان يساعد الثوار فيما سبق ، ويمدهم بالمال ، وهو معجب بكاسترو الى حد انه اراد ان «يتبرك» بشعر لحيته، ولكن الزعيم رفض هذا العرض وقال انه : « ما يزال في حاجة الى لحيته » وقد علقت صحيفة العلم على هذا الرفض بقولها فيا سوء من يحلقها كل صباح مجانا .

وليست لحية كاسترو هي التي لعبت وحدها دورا في ثورة ، فقد كان الزام الملك امان الله عاهل الافغان السابق رعاياه من الشيوخ بحلق لحاهم سنة 1929 من الاسباب الرئيسية التي ادت بالقبائل الافغانية الى شق عصا الطاعة على الملك امان الله خان واقصائه عن العرش الافغاني بسقوط كابول عاصمة افغانستان في قبضة زعيم الثوار باجة سقة .

وحلف وزراء بوجندة بافريقيا سنة 1953 بايمانهم الغليظة بان لا يحلقوا لحاهم ، حتى يعود ملكهم الكابكا الى عرشه الذي نزعه منه الانجليز ، وقد بر الوزراء بوعدهم ، وحلقوا لحاهم عام 1955 عند رجوع ملكهم ، وقدموا له شعر لحاهم ليملأ به وسادة فراشه ! (انظر مقالي عن رجعة الزعماء المنشور في جريدة العلم عدد 11 يونيو 1956) ويقول عباس حليم في الحلقة الثانية عشرة من مذكراته المنشورة في مجلة المصور المصرية عدد 30 يناير 1959 : فاروق يطلق لحيته . وتم للانجليز كل ما ارادوا حتى في الازهر . ولما جاء فاروق الى مصر بعد وفاة ابيه كان الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخا للازهر . ولقي وجوده هوى في نفس احمد حسنين وفتحت ابواب القصر للشيخ المراغي وكان فاروق يتلقى عليه بعض تعاليم الدين . وبا ليت فاروق حاول ان يستفيد من علم الشيخ وفضله لقد كان ما يهمه – هو ايضا – ان يصبح خليفة للمسلمين ، وزين له « عقله » ان يعتمد على نفسه في تحقيق هذا الحلم الذي داعبه فماذا فعل ؟ اطلق لحيته .. وراح يظهر بها في الصور التي تنشرها الصحف – .. بل لقد تمادى في ايهام نفسه وايهام الناس بصلاحه وورعه ، فطلب من مريديه واصدقائه المقربين ان يطلقوا لحاهم مثله ، ولعلكم تذكرون – يقول عباس حليم – ان فاروق كانت له في وقت من الاوقات ثلة من اصحاب الذقون كانوا يروجون بين المسلمين لمسالة الخلافة ، ويصفون فاروق قائلين انه الملك الصالح ! وكان فاروق كما عرفنا مندفعا في تصرفاته .. اندفع في اطلاق لحيته ثم طلب الى اصحابه ان يحلقوها مثله ، وكان يقول لهم : «الذقون منفعتش .. احلق يا ولد»!

وللحي تاريخ عريق في القدم ، ففي ازمنة الكتاب المقدس نالت اللحي عناية فائقة وكانت لبشلزار لحية مجعدة من طبقات منتظمة ولعله كان يصبغها بمسحوق الذهب ، وعندما استيقظ اهل الكهف المذكورة قصتهم في القرآن الكريم لم يعرفهم الناس الذين راوهم اذ ذاك بسبب كث لحاهم ، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد اعتادت ملكة مصر حتشبسوت ان تظهر في الحفلات العامة في لحية مستعارة مرتدية ملابس

الرجال ، وذلك لتستطيع ان تستأثر بكل سلطة الفراعنة لنفسها ، وفى اعقاب احدى الحروب امتهن الملك هانان ملك « امون » ممثلي دافيد ملك «جوديان» بان امر بحلق نصف لحية كل منهم ، فقد ارسل الملك دافيد رجاله فى سفارة ودية لدى الملك هانان ، ولكن اميرا من امراء دولة هانان ابدى لمليكه رايه فى ان دافيد قد ارسل هؤلاء الرجال للتجسس ؛ ولما علم دافيد بما قد حدث لرجاله امرهم بالبقاء حتى تنمو لحاهم الى ما كانت عليه .

وقد امر الاسكندر الاكبر جنوده بحلق لحاهم حتى لا يتركوا للاعداء جذبهم منها ، ويقال ان عادة حلق اللحي فى روما بدات بسكيبيتو الافريقي الذي كان يحلق لحيته يوميا ، وكان الشاب الروماني يستهل حياة الرجولة عندما يحلق للمرة الاولى ، فتقام له الاحتفالات تمجيدا لهذا الحادث الجلل ، تشبه حفلة الختان عندنا .

وبدا تحبيذ اللحي فى روما عندما اطلق الامبراطور هارديان لحيته ليخفي آثار بعض الجراح فى وجهه اما الامبراطوران انطونيوس بيوس وماركوس اوريليوس فقد ارسلا لحيتهما باعتبارهما فيلسوفين .

وفى القرن السادس عشر كان من ابرز اصحاب اللحي جيوم دوبرات مؤسس كلية كليرمونت لليسوعيين ، وقد اجتمع رجال الكنيسة بكامل هيئتهم وقرروا ان هذه اللحية غير مناسبة للبطريق ، واجمعوا على وجوب حلقها ، وعندما توجه البطريق بعد ذلك الى الكنيسة استقبله رئيسها ورجالها بالامواس والمقصات والصابون والماء الدافىء ، ولكنه ما كاد يرى حلاقيه المنتظرين حتى اسرع بالفرار الى منزله الريفي فى بوربجارد حيث توفى بعد مرض قصير سببه له الغضب من هذه المحاولة لحلق لحيته .

وفى روسيا فى عهد بطرس الاعظم تعرضت اللحى للحرب من الحكومة بواسطة الضرائب فكانت تتقاضى عن لحية التاجر من الطبقة الممتازة مائة روبل وعن لحية التاجر العادي ستين روبلا اما العبيد وخدام الكنيسة فتتقاضى عن لحية الواحد منهم ثلاثين روبلا فقط ، ويسمح لبعض الطبقات من الريفيين بالالتحاء مع اعفائهم من الضريبة الا فى حالة زيارتهم للمدن .

وبلغت حرب بطرس للحى اقصى عنفوانها فى عام 1722 حين امر المجلس التشريعي باستصدار قانون يحتم على الملتحين ارتداء ملابس العصور القديمة ، والشخص الملتحي الذي يذهب الى مكاتب الحكومة بغير ملابس العصور القديمة لا يفصل ، وانما يتحتم عليه دفع غرامة قدرها خمسون ربلا ، واذا عجز عن الدفع ارسل الى العمل بما يوازي هذه الغرامة على سطح السفن الحربية ، وابيح للمخبر ان يلقي القبض على اي رجل ملتح يرتدي الملابس العادية وان يقتاده الى المحكمة حيث تثبت ادانته ويتسلم ملابس الرجل فضلا عن نصف الغرامة .

اما فى انجلترا فكانت اللحى فى عهد الملكة اليزابيث مظهرا مرغوبا فيه للرجال وقد شاعت اللحى بين الرجال من كل الطبقات ، وبات نموها امرا بالغ الاهمية بالنسبة للشبان العصريين ، وشاعت صباغتها فى بعض الاحيان حتى اعتبرت اللحية التي يتركها صاحبها على لونها الطبيعي شذوذا عن المألوف ، وتنوعت نماذج اللحى حتى كان منها ما تشبه الشوكة او ذيل العصفور ، والقصيرة المحدبة والطويلة المدببة وغير ذلك ، اما لحية الكاتدرائية (الكنيسة) فكانت طويلة عريضة مسترسلة ، وقد بدا الشاوسد ورجال الكنيسة يتخذونها نموذجا منذ اوائل ذلك القرن .

وقد كتب احد عن مؤرخي تلك الفترة يصف اشكال اللحى فاطلق عليها « لحية كين المصبوغة » وهي لحية صغيرة مائلة اللون الى الاحمرار ، وسبب التسمية ان « كين » كان يظهر بلحية من هذا النوع — وكذلك كان ايضا جوداس — فى التصاوير القديمة ، وقد ذكر نفس المصدر ايضا — « لحية قرضتها الفيران » بين انواع اللحى وهي تنمو منقسمة الى خصلتين الواحدة الى اليمين والاخرى الى اليسار .

وفى مسرحيات شكسبير اشارات عديدة الى اللحى ففيها تحقير للحى وهزء بها وقسم بها ، ففي مسرحية « سيدان من فيرونا » يقول الرجل الثالث الخارج على القانون : « استحلفك بلحيتي هلا ... » وفى مسرحية ما كبت اشارة الى الاعتقاد الذي ساد منذ عدة قرون بان المراة الملتحية ساحرة ، فيقول بانكو عند ما يلتقي بالساحرات الثلاث : « لابد انكن نساء ولو ان لحاكن تمنعني من ان افهم هذا ؟ » والملوك عادة هم الذين يضعون « الموضة » بالنسبة للحى ويتبعهم بلاطهم فعندما بدا فرانسيس الاول فى فرنسا يرسل لحيته احتذى حذوه مواطنوه مما دفع رجال القضاء والحكومة وقادة الفكر الى ان يحلقوا لحاهم .

اما هنري الثامن فى انجلترا فقد كان يرسل لحيته او يحلقها حسب هواه فيما بين عامي 1519 و 1535 وفى تلك السنة امر جميع رجال البلاط ان يقصروا شعورهم كما فعل هو بشعره ، كما امر الا تحلق لحيته بعد ذلك . وقبل ذلك بخمسة عشر عاما اقسم هنري امام السفير الفرنسي انه لن يحلق لحيته حتى يلتقي بفرانسيس الاول ، وقد اقسم فرانسيس ان يفعل ذلك ايضا وظل محافظا على قسمه بينما نكث هنري بالوعد فحلق لحيته قبل اجتماعهما فى سنة 1520 فاعتذر عنه توماس بان الملكة متضايقة من لحيته ، وقد حدث قبل هذا الحادث فى فرنسا ان حلق لويس السابع عشر لحيته فتضايقت من ذلك الملكة اليانور وشعرت بالالم لان لها زوجا حليقا ، وفى اوائل القرن السابع عشر انتشرت موضة اللحية القصيرة ثم تلاشت موضة الالتحاء تدريجيا بمرور ذلك القرن حتى اختفت طوال المائة والخمسين عاما التالية ، ثم عادت اللحى الى الانتعاش بين 1850 و 1880 وبعد ذلك عزم شباب اوربا عن ارسال لحاهم واصبح الالتحاء هناك مقصورا على بعض كبار الرجال ورجال الكهنوت .

وجل ملوك اوربا قبيل الحرب العظمى 1914 – 1918 كقيصر روسيا وغليوم الثاني امبراطور المانيا وجورج الخامس ملك انجلترا وعبد الحميد الثاني سلطان تركيا ، كانوا يطلقون لحاهم ، ولعل الامام احمد ملك اليمن الحالي وهيلاسلاسي امبراطور الحبشة هما الملكان الاثنان اللذان يطلقان لحيتهما .

والمعروف ان الراهب الفرنسي شار لرفوكو كان يطلق لحيته كلما دخل الى المغرب قبل عام 1912 للتجسس عليه ، واكثرية الرهبان الارتودكس لهم لحى كثة ، وما لحية الاسقف مكاريوس زعيم جزيرة قبرص عنا ببعيدة .

وتختلف الامثال القديمة فى تمجيد اللحى او تحقيرها فهناك مثل الماني قديم يقول : « اذا لم توجد اللحية لم يوجد الادراك والفهم » يناقضه مثل انجليزي من القرن السابع عشر يقول : « لم تكن اللحية فى يوم من الايام مميزة للعقول السليمة » ويناقضه ايضا مثل عربي يقول : « من طالت لحيته قصرت فطنته » ! وفى بعض قصص سكوت ايضاح لمثل اسباني قديم ، فقد كتب فى سياق القصة : « وانطلقوا بالعربة على نحو ما عبر عنه المثل الاسباني (ولحاهم على اكتافهم) ذلك انهم كانوا يلتفتون فيما حولهم من وقت لآخر ليحصلوا على اسرع المعلومات عن كل ما يصادفهم وكلنا يعلم قصة الشيخ الالحي الذي احرق لحيته بعد ما طالع كتابا فى البسيكولوجيا عن لحية الرجل اذا طالت ، ففكر فى الامر مليا حتى ثبت لديه حمقه وطيشه وكتب فى طرة الكتاب الذي كان فى يده هذه العبارة الشهيرة : « جرب فصح » وفى المدنيات القديمة كانت للحى طبقاتها التي تتفاوت رفعة وضعة ، والتجعدات المنتظمة فى اللحى تعتبر من مميزات قدماء الاغريق والاشوريين .

وتعود بي الذاكرة الى سني الدراسة فى الكتاب ، ويعارض احد الطلاب قول الشيخ عبد الواحد ابن عاشر فى شروط الامامة فى مرشده المعين :

شرط الامام ذكر مكلف
آت بالاركان وحكما يعرف

فيقول :

شرط الامام ذكر مكلف
لحيته فى وجهه قد تعرف

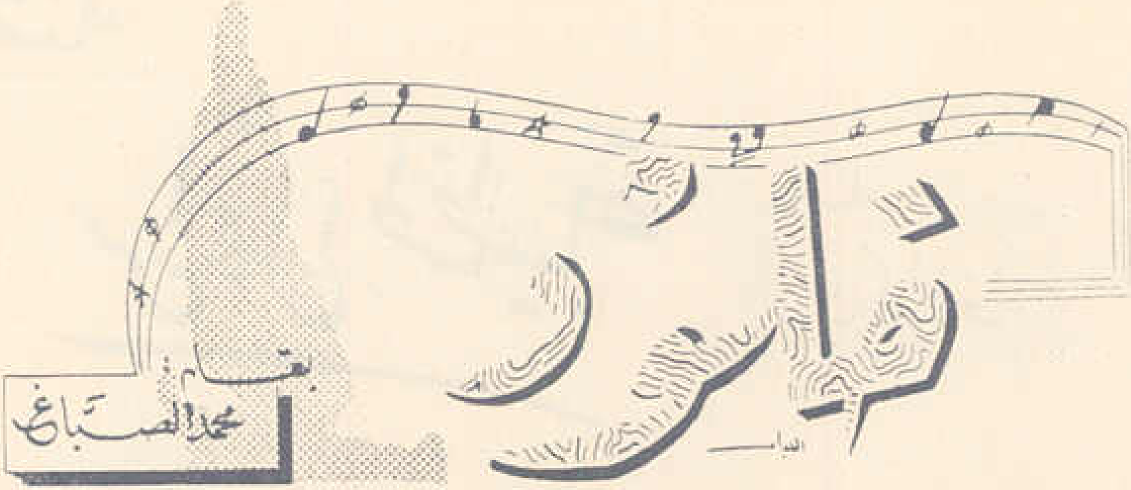
ذلك ان اللحية كانت وقتذاك شرط لازم فى الامامة بخلاف اليوم حيث تبدلت الاخلاق والعادات

ومن البديهي ان المسلمين لم يشرعوا فى حلق لحاهم الا بعد احتكاكهم فى اوائل القرن العشرين بالاروبيين وخصوصا بعد سقوط معظم الاقطار الاسلامية فى قبضة الاستعمار الاروبي ، وذلك واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ، وينظر المسلمون الى اللحية المرسلة نظرة احترام نظرا لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرسل لحيته .

والامر باعفاء اللحى ورد به حديثان صحيحان من ابن عمر وابي هريرة اما حديث ابن عمر فمتفق على صحته اخرجه البخاري ومسلم عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا المشركين وفروا اللحى . واما حديث ابي هريرة فاخرجه احمد ومسلم ولفظه جزوا الشوارب وارخو اللحي وخالفوا المجوس ، ووردت احاديث اخرى فى غير الصحيحين .

ويرى العالم الانجليزي دروين ان اللحى كانت موجودة فى الغالب لدى المراة والرجل على السواء عند بدء الخليقة ولكن المراة كانت تنتزع شعر جسمها ولحيتها اولا باول – كي تتجمل للذكر – حتى ضعفت منابت هذا الشعر فانقرض .

وليس قصدي من حديثي هذا ان يطلق الناس لحاهم او يحلقوها وانما الحديث شجون كما يقولون ولله فى خلقه شؤون .



كل ما في الوجود يتعرى ، حتى النسمة النحيلة المترقرقة على خدود الاغصان ، حتى اشباح الوهم السارية في مشاهر الظلمة الواهنة ، حتى النامة التائهة في مزالق الصمت الرهيب .

عاريا ارى كل ما الوجود ، وعاريا المسه . فالزمن القديم والحديث في ريشتي الوان واصباغ ارسم بها لوحة الخلود ، والمكان البعيد والقريب عجينة من طين انفخ فيها فتتحرك بالحياة ، والمطلق العميق ، والمدى السحيق زجاجتان ارى من خلاهما نطفة الحياة تفرخ، وتلد ، وتتزاوج .

برفة خيال ، أخلق عالما يمور بالسحر ، والحمام وصغار العاصفير .

وبيقظة حس ، احصد النجوم من مزارع الضوء، واختلس الاحلام من مضاجع الصبايا ومراقص الاعراس مشيدا لكم منها قصورا تروحون وتغدون فيها ، واحيانا تطيشون منها الى فراغ الزمن .

رب كلمة تقطفها فتاة من عريش كلماتي ، فتغفو في رفيفها الوردي فراشة تحلم بمساكب العبير، ورب ابتسامة طفل تفتق في اصابعي دوالي ، كرومها من عناقيد الطهر والحنان ، والفرح الابيض .

آه ! كم من الحان ناعسة في اشجار حديقتي ، اهز اغصانها بانامل خيالي ، فتسقط منها حبات من موسيقى وانغام . وكم من حبال ضوء في كل نجمة تشدني الى قلبها بمجرد ما احدق فيها ، فاغدو من عصير البنفسج ، ورفيف المحال .

من زقزقة الطير ، ونقرة العود ، وصفاء الوهم ، والمنتهى ، ريشتي .

امضى ، وفي سلتي سر الخلود ، امسح به على عيون الزهور ، والنجوم ، والاعشاب الضريرة فتمتلىء بالنور ، وازرعه في الصخور والرجام فتفور بالاريج ، والينابيع ، والطيور ، وانفخ به على الحصى ، وبنات الاحجار فتنقلب جواهر ولآلىء وقطرات عنبر .

غدا سيهوى جسدي من شرفة النجوم ، فيطحن على الارض شظايا هباء ، ودخان ، وبقايا جراح الياسمين . وستظل العوالم التي اكتشفتها لكم خالدة ، وستظلون انتم تحيون في عرصاتها الغيبية كلما فاح زهر ، ولمع نجم ، وغرد طير .

ساكون دائما على موعد معكم : في اللحون ، في الطيوب .

ستلقون صورتي في انة الرباب ، ونضرة الهيام .

كلماتي ارسلتها لكم في النجوم ، ونجوى العلى ، وصحو الخيال ، فبعدها لم يبق لحياتي نكهة ولا معنى.

قصة

من اصل الحطيبة

بقلم :
أبي بكر اللمتوني

ظل العدلان السيد (زين الدين) والسيد (منير) يتدارسان رسومهما منذ افطرا معا حتى اذن مؤذن الظهر . وقد طرب السيد (زين الدين) لصوت المؤذن، فقد كان يظن ان هذا الصوت سيعجل بانصراف زميله، ولكن ظنه كان خاطئا، فلم يبد السيد (منير) ما يشعر باعتقاده ان لهذه الجلسة نهاية . وبالرغم من ان السيد (زين الدين) لم يكن ينوي تقديم الغداء لزميله، فانه امل ان يكون الغداء هو ما ينتظره الزميل لينصرف، ففزع الى امه يطلب منها ان تلفق للضيف غداء مما يتيسر لها من المآكل . وبفضل حكمة أم السيد (زين الدين) وحسن تدبيرها وسع السيد (منير) ان ياكل حتى تجحظ عيناه، ولكنه مع ذلك لم يبد اي رغبة فى الانصراف !

ولم يكن السيد (زين الدين) ليضيق باعتكاف زميله فى بيته لو ان الزميل اختار لاعتكافه يوما آخر . ولكن السيد (زين الدين)، فى هذا اليوم وفى هذا المساء بالذات، مرتبط بموعد لعله ان يكون هو الجسر الذي سيعبره نحو المستقبل السعيد . فكيف اذن لا يضيق بزميله الثقيل، وهو لا يحب ان يتركه لشأنه، فيعنى بنفسه، ويهيئها للقاء الموعود .

واخيرا قال السيد (زين الدين) لضيفه فى غير قليل من الضيق :

انني على موعد هام فى هذا المساء، وسأذهب لاصلح من شأني .

وفى غير قليل من البرود اجابه السيد (منير) :

— اذهب، وسانتظرك هنا حتى نخرج معا .

وغاب السيد (زين الدين) طويلا فى حجرته الخاصة التي كان بابها مواجها لباب الحجرة التي جلس فيها السيد (منير) .

وحين خرج كان مظهره يشعر بانه افرغ فيه كل ما يحسنه من فنون التطرية والتجميل . ولكن لا جلبابه الناصع البياض، ولا بلغته الفاقعة الصفرة، ولا قفطانه الدقيق التفصيل، ولا عمامته المحبوكة التلفيف، ولا وجهه المتورد الخدين، لفت نظر ضيفه بقدر ما لفتته لحيته الحالكة السواد . لقد بدا للسيد منير ان هذه اللحية قد طالت بشكل ملحوظ .

كلا — قال السيد منير فى نفسه — ان اللحية لا يمكن ان تطول فى هذه اللحظة القصيرة . صحيح انها تطول باستمرار، ولكن ببطء لا يمكن ان تلاحظ معه الزيادة التي زادتها ما بين دخول صاحبها الى الحجرة وخروجه منها . وزاد السيد (منير) يحملق فى اللحية، فبدا له واضحا انها لم تطل، ولكن شيئا ما جد عليها

فجعلها تبدو اطول مما كانت . ترى ما هو هـذا الشيء ؟!

وكان السيد زين الدين تطوع للاجابة عن هذا السؤال حين مرر راحته على لحيته ثم قربها من عينيه وجعل يتبينها جيدا .

واذن فهو ينتظر ان يرى اثرا يلصق براحته من لحيته .

وحين وصل السيد منير الى هذا الاستنتاج عرف كل شيء ، عرف ان زميله انما دخل الى غرفته ليخضب لحيته .

ولم يسع السيد منير الا ان يضحك كثيرا .

ولما نظر اليه السيد زين الدين مستفهما ، لم يحجم ان جابهه بقوله :

— لقد كنت محقا في تسترك ، لانك انما كنت تقوم بعملية تزوير .

— كيف ؟ انني لا افهم شيئا .

فكان جواب السيد منير ان مرر اناملة على لحيته افقيا يحكي حركة « الطلاء » .

وقال السيد (زين الدين) مغالطا :

— وماذا في ذلك حتى احرص على كتمانه !!

— لانه كما تفوت مزور النقود الفائدة التي يلتمسها بتزويره اذا ما فضح امره ؛ تفوت مزور الشباب اللذة التي يتحراها من تزويره اذا ما كشف صنعه .

وحاول السيد (زين الدين) ان يغالب الضحك ، ولكنه لم يستطع ، فشفع ضحكته بوكزة سددها الى جنب صديقه وهو يصيح به :

— يا لك من شيطان !

— قل لي بربك فيم كل هذا البهرج ؟

ومال السيد زين الدين الى ان يكاشف صديقه بامره ، ويستأنس برايه ، فهم ان يتراجع عن تكتمه بالتدريج ، ولكنه وجد ان موعده قد ازف ، وان ما بقي لهذا الموعد لا يتسع للاستدراج ، فاسرع يقول لزميله :

— لابد ان تكون قد خمنت ، ولابد ان يكون تخمنك قد هداك الى واقع امري .

— نعم نعم ، لا ينبغي ان يكون هناك شيء يهمك اكثر من الحصول على الزوجة الصالحة ، فامك قد كبرت وضعفت عن خدمتك ، ولابد ان يكون هذا قد فتر من عزمها على الاحتفاظ بك خالصا لها . استطيع ان اعرف كل هذا بسهولة ، ولكن انى لي ان اعرف الاسرة الكريمة التي توشك ان تنظمك في عقدها الغالي !

— اسرة الهدار ، كريمة الحاج حمو الهدار .

— بخ ! يالك من صياد ماهر ! اسرة الهدار ، وبنت الحاج حمو بالذات ، انه حارس كنوز الاسرة المصونة ، ولكن ، اذا لم تخني ذاكرتي ، فكريمة الحاج حمو متقدمة في السن ، بحيث كان المنتظر منك ان تبيض لحيتك لها لا ان تسودها ، على انني في الواقع معجب بعقليتك العملية ، فالخير الخالص لا يوجد في هذه الدنيا ، فيكفي اذن ان ترجح الحسنات على السيئات ، واني لاراها راجحة في صفقتك هذه .

ومع ان السيد زين الدين قد امن في سره على كل حرف نطق به صديقه ، فانه اجابه متصنعا الغضب :

— انك يا سيد منير تعلم ان اسرتي وان كانت دون اسرة الهدار في المال والنشب ، فهي كفء لها في عراقة الاصل وطيب الارومة ، وهذا كل ما يهمني .

— طبعا طبعا ... ولكن قل لي ، هل وافق السيد الهدار نهائيا ؟

— نعم وافق ، ونحن الآن بصدد البحث في التفاصيل .

— اذن لا يسعني الا ان ابارك خطبتك !

والواقع ان السيد (زين الدين) كذب على صديقه حين زعم له ان الخطبة قد تمت ، فما تمت الخطبة في الحقيقة ، لان الحاج حمو علق تمامها على امرين اثنين هما ما خرج السيد (زين الدين) الآن من اجلهما .

اما اول الامرين فعرض السيد زين الدين نفسه على مخطوبته الآنسة « ماما » حتى تطمئن لشكله .
واما ثاني الامر فاجازة « سيد الفالي » شقيق الآنسة (ماما) لاختيارها .

*

لما دخل السيد زين الدين قصر الهدار ، وجد في مدخله عبيدا سودا متربعين على حشايا من الخوص

وهم يتثاءبون في سأم وملل ، وقد علق باقدامهم الحافية ما تلفظه الحشايا من نتف الحلفاء والخرق البالية ، وحولهم اطباق من القصدير تلمع بما لم تقو السنتهم على لحسه من الادام الفاقع المتجمد ، وعليهم اطمار لم يراع في قياسها على اجسادهم الا منعها من ان تنزلق وتنساب ، على ان الاثر الذي تحتفظ به هذه الاطمار يوحي بانها كانت ملابس فاخرة ، وانها احيلت الى ظهور العبيد لتموت فوقها بعد ما نهك غيرهم شبابها وكهولتها .

وسيق السيد (زين الدين) الى مقصورة فاخرة تتوسط حديقة لا تتناسب اناقتها مع سماجة مدخل القصر ووحشته .

وكانت المقصورة مظلمة ، مما جعل الرؤية متعذرة على السيد (زين الدين) اول ما دخلها ، ولكنه استطاع مع ذلك ان يرى ما تخيله طبقا ابيض عظيم الاستدارة معلقا في فضاء المقصورة ، فنزل بعينيه قليلا لعله يرى سندا يستند اليه الطبق ، فاذا هو يرى جرمين آخرين في لون الطبق معلقين ايضا .

واحتار ماذا يصنع ، ايقف ام يتقدم ، ولكن حيرته تلاشت على ضوء ساطع غمر المقصورة ، لان الخادم التي تقدمته اليها ، رفعت الستائر التي كانت تحجب ضوء النوافذ .

واستحال الطبق الى وجه انثى ضخم لاذقن له ولا عنق يحمله . اما الجرمان الآخران فظهر انهما ساعدان مخطوطان في حجم الاعمدة وصقلها . وكانت هذه الاطراف على بعد ما بينها ، تتصل بجسد هائل مكور الحجم ، ملفوف بالسواد .

واحتاج السيد (زين الدين) ان يعيد التحديق في صاحبتنا ليتبين اهي واقفة ام قاعدة ، ولكنه لم يجد وجها لترجيح احد الاحتمالين على الآخر .

هي قاعدة لانها لا يمكن الا ان تكون كذلك ما دامت فخذاها تتقدمان جذعها وتتجهان افقيا الى الامام ، وهي واقفة لانه لا يظهر حولها او تحتها شيء تجلس عليه .

وتادى الى سمع السيد زين الدين صوت رقيق من ورائه يقول :

— تفضل .

واستدار السيد زين الدين ، فرأى شابا كان من الجائز ان يروق في عينه ، لولا ان الشاب ما ان ابصر وجهه حتى زم شفتيه مستنكرا ، ووثب نحو صاحبتنا ، وانحنى عليها ، وادنى شفتيه من اذنها ، وجعل يهامسها ،

حاول السيد زين الدين ان يقرا حركة الشفاه، ولكن صاحبتنا نشرت دون الشفاه مروحة اخرجتها من بين طيات جسدها .

وكاد السيد زين الدين يجن من الخجل والخزي حين جعلت صاحبتنا تطوي المروحة فتحملق فيه ثم تنشرها وتعود الى المهامسة ، وكانما هو بغل معروض للبيع .

واخيرا اعتدل الشاب واقفا ، واشار الى السيد (زين الدين) الذي كانت رجلاه تكادان تنوءان بحمله ان يجلس ، ثم اشار الى صاحبتنا قائلا :

— الآنسة «ماما»

وتمتم السيد (زين الدين) يقول :

— «تشرفنا » !

فتثنت الآنسة (ماما) في خفر ، ونشرت المروحة فوق وجهها تداري خجلها .

واقتعد السيد زين الدين خشبة على مقربة من الآنسة ماما .

اما الشاب فجعل يتمشى مطرقا براسه كمن يبحث عن شيء سقط منه .

كان رشيق القد ، عاري الراس ، يرتدي فوق بذلته الكاملة معطفا بيتيا احمر اللون ، يوازي من طوله حتى قدميه ، فيجعله وهو يتحرك فوق البساط الاخضر المتماوج ، كالبطة تنساب فوق سطح الماء .

وكان صبر السيد (زين الدين) يكاد ينفد حين اقبل عليه الشاب يقول :

— سيدي الفاضل ، ان غيرك كثيرين طلبوا يد الآنسة ماما ، وما فيهم ذو ميزة وحيثية . ولكن والذي آثرك على جميع هؤلاء لما آنس فيك من فضل

ومروءة ، وقد راى مع ذلك ان يستشيرني انا شقيق ماما ؛ لان امرها يعنيني ، وسعادتها تهمني .. ولست استطيع ان ارد شيئا قبله سيدي الوالد ولكن ...

ووجد السيد (زين الدين) نفسه يقول مرتاعا :

— ولكن ماذا .. يا (سيدي الغالي) ؟

— اريد ان اقول : ان «ماما» ليست مسرورة كثيرا .

وماذا يسعني ان اصنع لتكون سيدتي العزيزة مسرورة جدا ، قل لي ، انني لا اضن باي شيء اقدر عليه من اجلها !

وحاول السيد (زين الدين) وقد قال هذا الكلام الذي غيظ نفسه عليه ان يستطلع اثره على وجه ماما ، ولكن وجه ماما كان يغرق في عرق الخجل وراء مروحتها .

اما (سيد الغالي فقد اجاب بوقاحة متناهية :

— ليست تريد منك الآنسة ماما الا ان تكون ابن عصرك هذا الذي تعيش فيه ، ان تكون ندا لها في الرقي والتقدمية ، ان تتخفف من هذه الاحمال التي برزح تحتها عود شبابك ، ان تجز — واشار الى لحيته — هذه الفروة التي رعت بها الآنسة .

وحاول السيد زين الدين ان يحمل نفسه على الغضب لكرامته المجروحة ، ولكن نفسه كانت قد فتنت بالآنسة ماما ، ونزعت الى ظلها المديد .

والواقع ان السيد (زين الدين) كان يتوقع ان تكون شروط (سيد الغالي) ادخل في باب الاعجاز من خلع الجلاليب وحلق اللحي ، اما وهي لا تعدو هذين الامرين اللذين سبقهما اليه كثير من زملائه دون مقابل من زوجة نافعة ومصاهرة مجدية ؛ فما اجدره ان يفعلهما .

وكان الجواب الطبيعي للسيد (زين الدين) وقد رضى بشروط صهره المنتظر ، ان يقول :

— نعم انا راض بخلع جلابيبي وحلق لحيتي

غير انه راى ان يتفادى هذا الجواب بتعبير آخر يكون له معناه ولا تكون له سماجته .

ولكن (سيد الغالي) قرا فكره ، فاعفاه من البحث عن التعبير المنشود ، بأن مد اليه يده قائلا في حزم

— اذن انت موافق ، وهذا يدل على انك تحب (ماما) وتتحرى رضاها ، فارجو ان تتصل بوالدي لتتفقا على موعد كتب الكتاب .

وحين خرج السيد (زين الدين) الى الفضاء الرحب ، عراه ما يشبه الندم على ضعفه امام (سيد الغالي) ووعده له بتنفيذ شروطه المزرية ، فراى ان يستشير صديقه السيد منير قبل ان يخطو خطوة قد يندم عليها .

وحين بسط الامر للسيد منير كان من رايه ان شقيق (ماما) مبالغ في تقدير حياتها التقدمية ومزاجها الرقيق .

ولكن السيد منير ما لبث ان سال زميله في جد وصراحة :

وماذا تنوي ان تصنع ؟

— وماذا كنت تصنع انت لو كنت مكاني ؟

فاوما السيد منير بيده الى لحيته يحكي حركة الموسى .

*

وعلى غير ما هو معهود في الحلاقين ، كان الحلاق الذي ذهب اليه السيد (زين الدين) في صمت الخرس واناة الفلاسفة ، مما احرج السيد (زين الدين وزاد من خجله ، وضاعف شعوره بالوقت الذي استسلم فيه ليد الحلاق .

وقد تنازل السيد (زين الدين) اكثر من مرة عن دوره لغيره من الزبائن الذين كانوا يشاركونه في الانتظار ، لانه كان يأمل ان ينتهي به الامر الى الانفراد بالحلاق ، ولانه ايضا كان يهاب الساعة الحاسمة فيعمل ما استطاع على تاخيرها .

وحين ازفت هذه الساعة واشار له الحلاق الى الكرسي ، تعثر وكاد ان يسقط في طريقه اليه .

وبكثير من الجهد ، استطاع ان يفهم الحلاق بكلام لم يع هو نفسه منه حرفا واحدا ، ان الطبيب نصحه بحلق لحيته !

وكان من المنتظر ان يقول الحلاق شيئا .. اي شيء ، ان يطري نصيحة الطبيب ، او يواسي زبونه في لحيته التي توشك ان تعدم ، او يشعره بان الحلق انسب بوجهه الوسيم وشبابه الغض، او يعدد له اسماء

امثاله ممن فعل بهم ما يوشك ان يفعل به .. اي شيء ، الا ان ينظر اليه شزرا ثم يأتي على لحيته في كثير من الخشونة والاستخفاف .

واعترى السيد (زين الدين) وهو يغادر دكان الحلاق ، نفس الشعور الذي يمكن ان يعتري المرء اذا خرج الى الشارع دون سراويل .

ولكن منظرا لاح لعينيه اثناء شعوره ونفسه كذلك منظر جسد هائل يترجرج ، فتتلقاه الجلباب هنا وتنساب عنه هناك ، جسد يترجرج بطبيعة تركيبه ، وبما يصطك من اطرافه التي ليس بينها فراغ تضطرب فيه ، ولكن صاحبته اذا لم تكن لها حيلة في تلافي رجرجته ، فان لها ان تصمت هذا الرنين الذي يمشي معها كما يمشي مع البقرة رنين الناقوس ؛ فقد كانت الحلي التي تغطي صدرها الى البطن ، والدمالج التي تواري معصميها الى المرفقين ، تهتز باهتزاز جسدها فتترك خشخشة وصليلا . وكانت المترجرجة على بدانتها تحاول ان تبدو رشيقة ولطيفة ، فهي تصر على ان يكون حذاؤها صغيرا دقيقا في حين يصر الواقع على ان تكون قدمها كبيرة غليظة لا يكاد يسع منها الحذاء الا المشط . وهي تتصنع النشاط والخفة والصبا ، فتجاهد ان تكبت بهرها وتقيم قدها ، ولكن هذا القد لا يلبث ان ينقض تحت لحمه وشحمه فتعود الاطراف الى اهتزازها واصطكاكها . وكان وجه المترجرجة ينطق بالبأس والياس اللذين تعانيهما صاحبته في مجاهدة البدانة ومدافعة الكهولة ؛ فقد كان وجهها كجرة حمراء ترشح بالماء .

ومن دون شعور تحسس السيد (زين الدين) مكان لحيته التي ذهبت ضحية الغش والخداع .

ما من شك في ان هذه المترجرجة .. هذه المتجلببة .. هذه العتيقة .. هذه الانثى المعدنية .. هي الآنسة (ماما) .. (ماما) التقدمية التي استخشنت هندامه وارتاعت من لحيته .. !

وراعه ان يمهر زوجة بكل هذا الهوان ، واحس بالشعور الى العزاء ، فراح يمني نفسه بالا تكون هذه المترجرجة خطيبته ، وان يكون قد اخطأ في تبينها .

وتبعها من حيث لا تشعر ، فكان ان انتهت الى قصر الهدار ، وتوارت فيه كما تتوارى في النفق القاطرة !

ومن عجب ان السيد (زين الدين) آنس الآن فقط حركة غير عادية بباب القصر ، صياحا وصهيلا ونهيقا واكياسا تلقى وهشيما يذروه الهواء .

ولم يكن السيد (زين الدين) في حاجة الى ذكاء كبير ليدرك ان هذه الاحمال الكثيرة انما هي غلال القمح حملت الى الحاج الهدار من ضياعه الكثيرة .. ضياع كثيرة جدا ليست هذه الاحمال الا لباب محاصيلها . وهذا اللباب نفسه سينقى ويطحن ويغربل ويصفى ويفعل به غير هذا مما يحيله الى خبز في بياض القطن ونعومة الحرير .

وتحسس السيد زين الدين ذقنه الناعم ، غير آسف على لحيته التي اشترى بها عيشا ناعما لا خشونة فيه .

ديوان دعوة الحق

يقولون واقول

للعلامة الأديب
محمد المختار السوسي

انشد الشاعر هذه القصيدة بمنفاه فى « الغ » بالسوس ، وهي مسقط راسه كما ذكرنا فى المقدمة التي كتبناها للقصيدة التي نشرت له فى العدد الماضي .

وعندما غادر الشاعر «مراكش» منفيا الى « الغ » خلف وراءه بالمدينة الحمراء حركة وطنية سياسية ، وشعورا قوميا ، وعملا فى مختلف ميادين الاصلاح . ولم يجد فى « الغ » ذلك الجو الذي خلفه وراءه ، فاحس بالغربة ، بالرغم من وجوده فى مسقط راسه .

وهذه القصيدة تعبير عن هذه الاحساس .

كان ذلك فى سنة 1937 والسنوات القليلة التي تلتها . اما بعد ذلك فقد عمت الحركة الوطنية والشعور القومي والتحمس للاصلاح المغرب كله ، سهله وجبله ، باديته وحاضرته . ولعل الشاعر لا يجد اليوم فرقا فى كل ذلك بين « الغ » ومراكش او الرباط او غيرهما .

يقولون : صبرا : انه بك اجدر ! ... فقلت : نعم لكنني كيف اصبر . ؟

وقالوا : تكلف ما استطعت فربما ! ... فقلت : لقد حاولته لم اقهر

وقالوا : تجلد فى الندى . فقلت : قد ... اباغت حينا بالدموع تفجر

وقالوا : تباعد ما استطعت . فقلت : قد ... تباعدت لكنني على الرغم احضر

وقالوا : اتبكي كل من قد تركتهم ؟ ... فقلت : لعيش بينهم ليس يكفر ؟

وقالوا : الم تقدر تناسي ذكرهم ... الى ان يعودوا ؟ قلت : لا لست اقدر

وقالوا : اهم ايضا وفوا ؟ قلت : انني ، ... على كل حال ، انني لست اغدر

وقالوا : قد استعبدت بالشوق . قلت : هل ... يفي فى النوى الا فتى متخير ؟

وقالوا : الست الحر ؟ قلت لهم : بلى ... ولكنني من ودهم لا احرر ؟

وقالوا : من اعلى الناس عندك سؤددا   ومن هو ازكى مخبرا حين يخبر ؟
فقلت : بنوا الحمراء شيخا ويافعا   وليس كراء من بذلك يخبر
وقالوا : ومن اولى الورى بجوارهم   ومن مورد منهم حميد ومصدر ؟
فقلت : بنو الحمراء من كان جارهم   سيورد من شتى البحار ويصدر
وقالوا : ومن اذكى الانام اذا سما   لبحث عويص دونه الفكر يعثر ؟
فقلت : بنو الحمراء اصحاب فكرة   كجذوة نار فى يفاع تسعر
وقالوا : سبى المراكشيون عقله !   فقلت : انا مختارهم ما اخير
وقالوا : اما فى (الغ) والاهل غنية ؟   فقلت : بلى لكن لمن ليس يشعر
وقالوا : اذن انكرت فضلا مشهرا '   فقلت : متى في البدو فضل مشهر ؟
وقالوا : اما فى (الغ) علم وحكمة ؟   فقلت : وآداب بها كان يذكر
فقالوا : الم تولد بـ (الغ) فقلت : هل   تظنون انى للولادة منكر ؟
وقالوا : لماذا اليوم تعرض جامحا ؟   فقلت : لانى بعدكم متحضر
وقالوا : اهذا كل ما كان وحده !   فقلت : وخلق من كلينا مغير
وقالوا : سيكفيك التخلق امره   فقلت : وخلف بيننا اذ نفكر
وقالوا : وما التفكير ؟ قلت : ابعد ذا   يعنفني ان صحت بالشكو معشر ؟
فانى يكون الحر بين معاشر   مداركهم لم تدر كيف التفكر !
امن بعد هذا تستطاب بالغكم   حياة بتنغيص الجمود تمرر
ومن عجب انى اجيش بفكرة   فاودعها شعرا بليغا فتدخر
فيحسب من فى (الغ) انى خائر   جزوع عظامي بالاسى تتكسر
فيعطف بعض كي يسلي ، ومادرى   بان صفاة الحر لا تتاثر
وما هي الا وثبة من خياله   وفورة جاش تستهل فتزفر
فتودع فى الاشعار خير ذخيرة   لكل اديب لافح الفكر يشعر
فكم شاعر فحل تخيل نكبة   لكيما يجيد القول فيها فيبهر
فكيف انا يا قوم افلتها وقد   عركت بها عركا يقض ويسهر
اكل مصاب فاض بالشكو جازع   خصوصا اذا يشكو خليا ويستر ؟
فما كل ذي رزء اذا ان ، خائر   ولا كل ذي شعر شكا متاثر

مع شوقي في : أميرة الأندلس

لشاعر الحمراء المرحوم : محمد بن ابراهيم

في العدد السابق نشرنا قصيدة لشاعر الحمراء المرحوم محمد بن ابراهيم تحت عنوان « مأساة شاعر » وقدمنا لها بمقدمة قصيرة رجونا فيها من اصدقاء الشاعر وتلامذته أن يمدونا بما لديهم من اشعاره لننشرها تباعا في مجلة « دعوة الحق » .

وقد وجد هذا النداء استجابة كريمة ، فبعث الينا (**السيد الحارثي ابراهيم**) من مراكش هذه القصيدة التي ننشرها اليوم شاكرين لسيادته حسن تفهمه ورغبته في المساهمة في بعث الحركة الادبية في المغرب والتعريف بها ، كما بعث لنا معها ببعض المقطوعات الاخرى سننشرها من بعد .

وقد توصلنا كذلك من (**من السيد محمد علي الجوهري**) الطالب بثانوية الجمهورية العربية المتحدة بالرباط ، بقصيدة اخرى للشاعر قالها في الحنين الى مصر اولها :

احن الى مصر وما انا من مصر ❊ ولكن طير القلب اعرف بالوكر

وسننشر هذه القصيدة في عدد مقبل شاكرين للطالب (**السيد محمد علي الجوهري**) الذي بعث الينا بها ، ولكل من قد يجد منه النداء الذي وجهناه على صفحات هذه المجلة استجابة كريمة ورغبة في خدمة الادب المغربي باحياء ذكرى هذا الشاعر الكبير ، وتسجيل شعره صونا له من الضياع .

❊

والقصيدة التي ننشرها اليوم ، انشدها الشاعر في نهاية حفلة تمثيلية بمراكش . ذلك ان جماعة من الادباء والهواة قدموا من فاس الى مراكش وقاموا بتمثيل رواية (**اميرة الاندلس**) لاحمد شوقي التي بسط فيها قصة المعتمد بن عباد بسطا ، وتحامل فيها تحاملا كبيرا على يوسف بن تاشفين .

وما كاد الستار يدل على نهاية المسرحية ، حتى ارتفع مرة اخرى ليجد المشاهدون امامهم شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم ينشدهم هذه القصيدة التي سجل فيها انفعالاته من مشاهدة المسرحية .

اتاك ، كما تاتي اللآلىء في العقد ❊ نوابغ « فاس » كل ند الى ند
وما منهم الا طموح الى العلا ❊ سبوق الى الغايات مستوصل الكد
لقد زرتمونا والروابط جمة ❊ وجئتم كما جاء النسيم من الورد
لكم عندنا من خالص الود ما كفى ❊ فهل عندكم لي مثل ما لكم عندي ؟

نعم (فاس) (للحمراء) تخلص ودها   ولا زال كل منهما مخلص الـــود
اتيتم بالتمثيـل اكبر مرشـــد   وليس سوى التمثيل يهدى الى الرشد

*

نعم ان شوقي وهو اكبر صائب ،   تنكر عنه الليث فى داخل اللبـــد !
تامل شوقي عن قريب فما اهتدى   وما ضر شوقي لو تامل عن بعـــد !
الحمد شوقي للقوافي رجالهـــا   كانت ، وللتاريخ ذو الاخذ والرد !

*

افاروق (1) افريقيا ! امتشقت مهندا   وقبلته شوقا وطوحت بالغمـــد !
ورحت به ركضا لاندلس بهـــا   تصد ذوي الاغراض عن سيء القصد
فابقيت للاسلام باذخ مجـــده   ولولاك اضحى الدير مقتعد المجـــد
وذدت عن الاسلام من رام كيـــده   واطفأت نيرانا مؤججة الوقــــد
ولم تكترث بالغانيات وعودهـــا   وتسوية الاوتار فى نغمة (الرصد)
ولم تحتفل بالراح من كف كاعب   لترشف من ثغر وتهوى الى نهـــد
بك استنجدوا طـرا فكنت لصوتهم   صدى شيمة الاسد الضواري مع الاسد
وحاشاك لم تنظر بمقلة طامـــع   لقصر ابن عباد ومابه من وفـــد

*

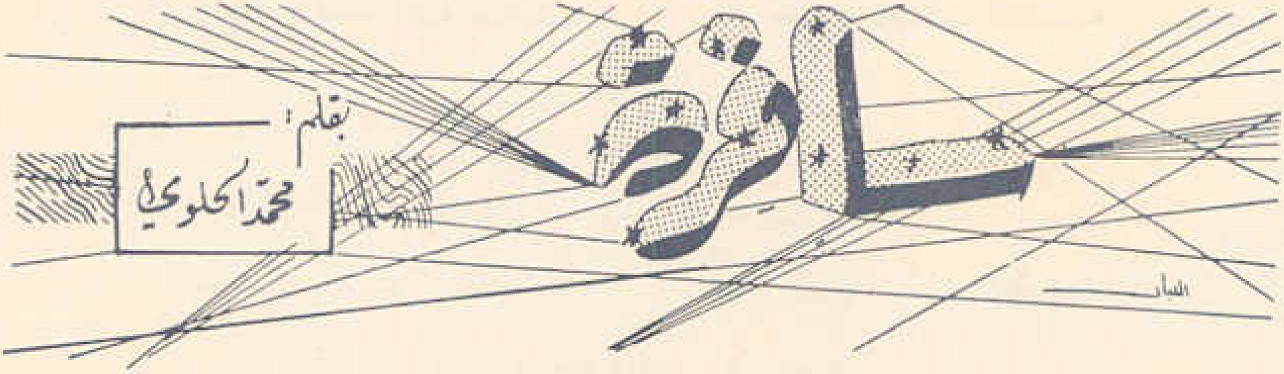
بني العرب اوطانا، بني الشرق وحدة،   بني الضاد ، ابناء الحنيف بني المجد!
يعز علينا القصر يفقد مجـــده   ويمسي ابن عباد به نحس السعـد
يعز علينا ان نـــراه مصفـــدا   يساق الى (اغمات) يرسف فى القيد
ولكن لنصر الدين ديـــن محمـــد   وانقاذه من بؤرة الهلك والنكـــد
نضحـي بعباد وآخــر كابنـــه   ومثله ممن لا يفيـد ولا يجـــدي

*

لتبكوا معي ذاك العظيـم وفقـــده   ولا تتركوني ابكه بينكم وحـــدي
وها روحه العليا ترفـرف فوقنـــا   وان كان منه الجسم غيب فى اللحد

---

1) خطاب ليوسف بن تاشفين ، تشبيها له بالفاروق عمر بن الخطاب.



اسفرت كالشمس تلقى شبكا   من سناها ورمت بالبرقع

كاعب بين حسان كالدمي
تتحدى كل ظبيات الحمى
بجمال ابدعت فيه السما

ما رآه الصب حتى ارتبكا   وتهاوى قلبه فى الاضلع

سحرها يكمن من خلف اللثام
فى عيون راشقات بالسهام
ترسل الموت كؤوسا من غرام

غادة كالشمس ترقى الفلكا   تخلف الشمس اذا لم تطلع

قمر مزق سجف السحب
وغزال طالما غرر بي
بفم حلو الثنايا شنب

مذ شكا قلبي منه ما شكا   فاض دمعي وبكى شعرى معي

اي تاج مترف فوق الجبين
كظلام عام فى صبح مبين
ثروة تنبع من كنز ثمين

فتفقد حين تبدو عقلكا   انه ان ضاع لم يسترجع

برزت مختالة فى سندس
من رياض ناعمات الملمس
تنفح الورد باذكى نفس

من رآهـا تلثم الورد بكـى		حظ خديـه بجاري الادمـع

فاسالي بـدر الدجـى عن سهـري
وانبئـي فى الظـلام العكـر
واسمعي القمري يـروي خبـري

فانـا الصـب الـذي بـادلكـا		حبـه صرفـا بنيـل المطمـع

امعـن العـاذل فى لومـي فمـا
زاد اذنـي اللـوم الا صمـمـا
واستطاب القلب فيك الالمـا

قد تحملـت هـواه المهلكـا		سمعت اذناي ما لم تسمـع

انكرتنـي اذ رات فى مفـرقـي
شعـرات غيـرت من رونقـي
وتناست عهد حبي المشـرق

يوم كنا عاشقيـن اشتركـا		فى الهوى وارتشفا من منبـع

فاذكـري يـوم نزلنـا نبتـرد
فى نهيـر سلسبيـل مطـرد
غـار منـا فجـرى مما يجـد

وتنـاجيـنـا وغـنـيـت لـكـا		لحـن حـب لسـت فيه ادعـى

لسـت انسـى ذكرياتي فى صبـو
مرتـع خصـب وواد معشـب
وشذى يزكـم انفـي طيـب

ايهـا المعـرض مـا اجملكـا		لـو ترفقـت بقلـب موجـع

رباعيات

بقلم عبد القادر حسن

الشك

قال قوم ما باله زبر شك
لا يرى ما يراه كل الانام ؟
تائها في مفاوز العقل يغدو
ثم يمسي في حيرة وسقام

❊

ليت ما يزعمون كان صحيحا
فيتم انعتاق نفسي وبرءي
ليت شعري متى أأوب مساء
لفراشي ولا ادين بشيء !

❊

لم ازل باحثا احاول كشفا
لخبايا نفسي وسر وجودي
وقيود الارض الثقيلة تأبى
غير غمسي في حماة التقليد !

❊

انما الشك لليقين طريق
فاعرفوه يأيها الاغبياء
لم يفد ما اتى به الرسل فيكم
فاخسأوا ان داءكم لعياء !!

❊

الصديق

بالغت في السؤال في كل حين
كلما صافحت صديقا يميني
ارقتني كم ليلة واثارت
بعض ما لا يعني وما يعنيني

❊

ان باب الصديق اضيق باب
ومجال الصديق احرج رحبا
طالما كنت للضمير وفيا
ولقول الحق المبين محبا

❊

كلما كنت ناجحا وسخيا
كنت للاصدقاء كهفا ومرعى
لا يملون من حياضك كرعا
ويفيدون منك باسا ونفعا

❊

انما الاصدقاء فينا صنوف
واعف الجميع عند ابتلائك
هو من لم يطأ قفاك ليرقى
ـ عن قصور ـ ولم يلغ في دمائك !!

❊

بحث عن الشعور

بقلم: بنسالم الدمناتي

تخلف عن شبحينا الشعور ... لانا سلكنا طريق الرجوع
وسرنا نطوف ... ندور ... نوزع عبر الروابي الشموع

نقل فوق الزجاج حذائين نعلهما يتندى دما
ولسنا نحس بادنى شعور ولسنا نحس بحر الظما
لانا فقدنا الشعور ... وها نحن نبحث ... نسال عنه السما

نغادر هضبة واد ... ونرقى لتل ... ونصعد اعلى الجبل
ونرنو الى ابعد الكون ... يقلقنا الشك انى الشعور انتقل
ونطوي الهوينا ... ونبذل جهدا ... لغاية ما يحتوينا الكل

وليس لدينا الزمان ... وليس لنا بعد فى الكون اي مكان
غريبين نبحث نحن ... وما اكثر البحث فى سويعات الزمان
يلاحقنا الامس ... ذاك المخيف بما لم يصوره هذا الاوان

ايسلبنا الامس لحظة وعي الحنان ؟
سؤال ! ولكن سينتحر الآن فوق اللسان
لان الشعور بعيد الوقوع

*

تخلف عن شبحينا الشعور ... لانا سلكنا طريق الرجوع
وسرنا نطوف ... ندور ... نوزع عبر الروابي الشموع

نمد يدينا ... نريد الوصول الى غاية لم تنلها يد
الى موضع مبهم الدرب نمضي وليس لاقدامنا مرشد
ذراع يلف ذراعا ... ويقظة نار يؤججها الحب والموعد

على مقعدي شكنا نحتسي دم موج تردى بسيف الغروب
نصيد بلفظ الشعور هنيهة حلم يتيه بنا فى السهوب
ونترك عنا المآل الحزين ... مآل وجود الاسى والكروب

ونمضي بعيدين عن منجزات الخطوب
لانا بدانا نحس بأن الشعور هنا فى القلوب
يدغدغ زاوية فى الضلوع ...

الجزائر الجزائر الجزائر

القضية الجزائرية في شهر

بقلم: المهدي البرجالي

الوضع السياسي :

هل ترتسم – حقا – في الافق ملامح حل سياسي متوسط للقضية الجزائرية ؟ ان تطورات الموقف في فرنسا والجزائر ، ليس من شانها ان تمنح الجواب عن هذا السؤال صبغة تأكيدية ، فقد سجلت الاسابيع الاخيرة من الشهر الماضي – بالفعل – آيات انتكاس اخرى في مجموع الوضع العام بالقطرين المتقاتلين .

ولقد اتجهت الاحداث مرة اخرى – بالنسبة للوضع الداخلي الفرنسي – اتجاهات معقدة ، الامر الذي لم يعد معه من الممكن استشراف اي سبيل لتطور مرض ومعقول .

ولم يكن لمجموع هذه الظواهر الا ان يؤكد متانة الرقابة التي يمارسها الغلاة على النظام الحالي ، والمدى البعيد الذي بلغته هذه الرقابة الجامحة العرمة .

واستمرار وقوع الجمهورية الفرنسية بهذا الشكل تحت تأثير سيطرة الغلاة ، هو ما يمكن ان يفسر مظهر التعقد المصطنع ، ذلك الذي تتشح به جميع جوانب المشكلة الجزائرية في مختلف مظاهرها الجزئية والاساسية ، فقد تآزرت – فعلا – مصالح الاحتكارات الزراعية والبترولية الكبرى مع الجهات المالية والصناعية في فرنسا والغرب ، على اضفاء اردية من الشعب المطلق ، والتحجر الكامل ، على هذه المشكلة السياسية البسيطة ، الامر الذي تبدو معه وهي تكاد تتميز – من بين جميع القضايا التوسعية العالمية – بمميزات سياسية ونفسانية خاصة .

وقد ساعد مركز فرنسا داخل حلف شمال الاطلنتي على ضمان نوع من الحياد السلبي او « الايجابي » الدولي امام الحالة الناشئة عن استمرار المشكلة والنتائج السيئة التي تنبثق عنها .

وعلى هذا النحو امكن للغلاة ان ينعموا دائما بكثير من حرية العمل في الجزائر ، وذلك في جو من الحصانة الدولية التي تجعلهم بمناى عن التعرض لكل رد فعل معاكس ذي نطاق واسع .

ومع ذلك فقد غدا من المألوف قليلا ان ينفرج الجو السياسي الفرنسي – في بعض الاحايين – عن بعض الاحتمالات الضئيلة التي تتصل بموضوع الحل المرتقب للمازق الجزائري الحالي . وقد بدت من قبل كثير من البوادر في هذا المقام ، ولكنها لم تكن تتوفر جميعها على قوة الافضاء الى نتائج انشائية وحاسمة ، وقد تكررت مثل هذه البوادر في السابق ، وذلك الى القدر الذي كان من شانه ان يفقدها حتى فعاليتها السيكولوجية الصرفة .

وعندما اطل الشهر الماضي ، كنا على موعد مع بادرة جديدة من هذا النوع ، ويتصل الامر في هذه المرة بشكل آخر من اشكال الحلول التي ما فتئت تفترض للمعضلة القائمة ، ثم تقصر في الغالب عن النفوذ الى مكامنها الجوهرية الرئيسية ، وقد انطلقت الارهاصات الاولى للبادرة غداة تأكد مشروع اجتماع محمد الخامس – دوكول وابتداء المحادثات التي اجراها ولي العهد في هذا الصدد .

ومشروع الالتقاء بين رئيسي الدولتين يؤول في بدايته الى عدة اسابيع ، ولكنه لم يتخذ صورته العملية الجادة الا في اوائل الشهر الماضي ، عندما ابتدات المحادثات التحضيرية المغربية الفرنسية ، وكانت خطوة اولى في سبيل اعداد اجتماع «القمة» الذي سيضم بين الشخصيتين الكبيرتين المغربية والفرنسية .

والواقع ان هذا الاجتماع المفترض سيستهدف — في اساسه — معالجة كثير من نقط الخلاف في العلاقات بين المغرب وفرنسا ، ولكنه ايضا سيكون مناسبة لاثارة بعض النقط الجوهرية التي تتصل بموضوع الجزائر من قريب او بعيد ، وعلى الرغم بعض التاكيدات الموحية باستبعاد هذا الموضوع من المحادثات فانه يبدو راجحا — بعض الشيء — ان طبيعة المشكل وارتباطاته الشديدة بموضوع العلاقات الفرنسية المغربية ، سوف لا تقصر عن فرض الموضوع على جو الاجتماع بصورة مباشرة او غير مباشرة .

ومن الواضح ان الجانب المغربي في المحادثات يود — على الاقل — رؤية الفريقين يندمجان في جو تفاوض ودي وهادف ، والذي يتجه اليه الرجاء هو ان يكون الجانب الفرنسي في وضع يمكنه من الاحساس بنفس الشعور . على ان هناك بين الجانبين ولا شك نقط اتفاق لها اهميتها الاساسية والجوهرية ، ومن بينها الرغبة المشتركة في وضع حد للصراع المستعر في الجزائر ، غير ان مفهوم الحل الذي قد يتخذ قاعدة لهذا الانهاء هو — بالضبط — نقطة التباعد الكبرى بين الفريقين .

ففي الوقت الذي يبدو فيه الجزائريون ، وهم لا يتصورون ان يستمروا وحدهم في العالم المظهر الوحيد لبقايا الحركات التوسعية الاوربية في القرن التاسع عشر ، يوجد الغلاة وهم لا يريدون ان يدركوا ان هناك حلا غير الادماج المطلق ، يمكن ان يكون صالحا لانهاء المشكل القائم ، ومن هنا كان مصدر هذا المظهر الدراماتيكي العنيف ، الذي تنطبع به المشكلة ، ويكاد يضفي عليها صبغة المأساة الانسانية الرهيبة .

والواقع ان عهد الجنرال دوكول لم يكن — كما رايناه مرارا — الا عاملا على استمرار اسباب هذه المأساة وتعقد جوانبها ، وتضاعف حدتها بصورة تفوق كثيرا تلك التي تميزت بها من قبل العهود الاشتراكية والراديكالية السابقة. ويؤول ذلك بالطبع الى الملابسات التي احاطت بقيام هذا العهد والظروف التي تكتنف وجوده الحالي . ومن بين اهم هذه العوامل :

1) اعتماد النظام الحالي في منشئه وفي استمرار وجوده على ولاء الغلاة ومساندتهم .

2) الحالة التي يوجد عليها الوضع الحزبي والتركيب البرلماني في الوقت الحاضر .

3) تضاعف مشاعر التخوف من امكانية حصول قطيعة كلية او جزئية بين فرنسا وغلاة الجزائر ، وذلك على النحو الذي اصبح يهدد به الكثيرون من قادة هؤلاء الغلاة .

واذا كان الامر كذلك ، ففي اي اطار يمكننا ان نضع التلويحات التي تكاثرت في اواسط الشهر الماضي ، والتي تركز معظمها حول امكانية التوصل لحل اساسي لمشكلة الجزائر ؟ هل يجوز لنا ان نقدرها كبادرة دعائية اخرى تندرج ضمن نطاق الحرب السيكولوجية في اطارها الدولي ؟ ام يمكننا ان نستدل منها على احتمال طروء تغير جزئي او جذري في موقف المسؤولين الفرنسيين ازاء المأساة العالمية ؟

لقد امكننا ان نستشف من احتمالات الموقف الفرنسي الرسمي — كما تؤكد ذلك بعض الاسبوعيات الباريسية — ان هناك ما يجوز ان يكون برنامجا تمهيديا لايجاد حل معين .

اما تفاصيل هذا البرنامج — الذي قد يتبناه دوكول ذاته — فتتركز في نقطتين اساسيتين :

1) التوقف عن اطلاق النار ، مع السماح للقوات الوطنية (وهذا هو المهم) في الاحتفاظ بمواقعها الحالية وضمان استمرار سيطرتها على المناطق التي تقع تحت سلطتها المباشرة .

2) ايجاد حل سياسي عن طريق الاعتماد على سلسلة من العمليات الانتخابية بعيدة المدى .

تلك هي الخطوط العريضة للمشروع ، ومع افتراض صحة مضمونه ومأتاه ، فاننا نلحظ — مع ذلك — انه لا ينطوي — كسابقيه — على اية عناصر جوهرية جديدة ، الا فيما يتصل بالتخلي عن المطالبة بالاستسلام العسكري ، كما كانت تستوجب ذلك العروض الفرنسية السالفة .

والواقع ان البرنامج في اساسه يكاد يلتقي في كثير من الجوانب مع المنهاج الذي كان قد تبناه « مولي » خلال فترة وجوده على راس الحكومة الاشتراكية الفرنسية السابقة .

فقد كان الزعيم الاشتراكي الفرنسي يرى انه من الجائز فض المشكل عن طريق الاستشارات الانتخابية ، ولهذا فقد عرض منهاجه الذي كان قد وجه عن طريق المناشير من الجو ، الى ضرورة

قبول التسليم العسكري المعجل من جانب القوات العسكرية ، وفي مدى ثلاثة اشهر يمكن تنظيم عمليات انتخابية « حرة » تستهدف التعرف على اتجاهات الشعب الجزائري ، ورايه في شكل النظام الذي يختاره

ولم يكن امام الجانب الجزائري الا ان يقابل هذه العروض بالرفض البات ، لانها لم تكن تشكل الا اساسا للتهافت على حل رخيص وغير هادف . ويبدو ان الاعتراضات الجزائرية كانت تتركز بالنسبة لهذا الموضوع في النقط التالية :

1) الشك في سلامة الجو السياسي الذي يتم فيه الاقتراع .

2) التاثير الذي قد يحدثه على سير العمليات الانتخابية وجود قوات احتلالية ضخمة في مجموع مناطق البلاد .

3) اصرار السلطات الفرنسية على رفض اي لون من الاشراف الخارجي .

على ان الامور قد تطورت بعد ذلك تطورا جوهريا ، فقد غدا من الجائز الآن ان يتم انعقاد اجتماع ثنائي بين ممثلي الفريقين المتحاربين ، كما اصبح ايضا من الممكن ان يقع تنظيم هذا الاجتماع في باريس نفسها ، بيد ان هذه النقطة بالذات اصبحت في الوضع الراهن وهي تكاد تشكل موطنا بارزا من مواطن الخلاف ، فالجزائريون يتقبلون مبدأ الاجتماع، الا انهم كما يلوح لا يدركون مفهوما لان يعقد بالضبط في العاصمة الفرنسية دون غيرها ، سيما وليس هناك من ضرورات مادية او معنوية تستوجب ذلك . وقد قال وزير الانباء الجزائري في هذا الصدد : «ان اجراء المفاوضات غير المقيدة بشرط سابق بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية – على ان تتم في بلد محايد – هو الحل الوحيد الممكن ، وهو المفتاح الذي يعتبر السبيل لاقرار السلام بالجزائر ... »

على ان قضية اختيار « المكان » الملائم لانعقاد الاجتماع ليست – في جوهر الامر – العقبة الاساسية والوحيدة في طريق التفاهم والتقارب ، فالامر ايضا يرتبط بالمبدأ السياسي والقانوني للمشكلة ، وبالتالي فانه يتصل – مبدئيا – بالصفة الشرعية التي يقوم عليها الاعتبار السياسي والقانوني للمفاوضين الجزائريين ، وذلك كما لا يجرؤ الكثير من المسؤولين الفرنسيين على الاعتراف به ، والعمل بمقتضياته ، بل ان هناك من المواقف الرسمية في باريس ما يكاد يحصر موضوع الخلاف حول هذه النقطة المبدئية البديهية ، ولهذا فان القادة الجزائريين لا يبدو انهم يرون ضرورة لتفاوض من اي صنف ، ما لم يتجه التفكير سلفا الى اعتبار الامر كمشكلة سياسية متميزة لها صبغتها القانونية الشرعية .

غير ان حكومة السيد عباس لا تجعل – مع ذلك – للاشتراطات المسبقة سلطانا على عقد المؤتمر ، فلم يعد هناك اقتضاء للعمل على تحديد جدول اشغال معين ، كما ان التصريح المسبق بالاستقلال لم يعد ثمت ما يجعله اساسا لامكانية انعقاد الاجتماع ، الا ان المسيرين الجزائريين لا يلوح انهم يستسيغون قبول تحديدات فرنسية سابقة ، الا في حالة ما اذا لم تكن تكتسي صبغة فرض او الزام ، والا فان المؤتمر في تلك الحالة سوف لا يكون لانعقاده اي موجب معقول .

وقد عبر عن هذه المقتضيات السيد رئيس الحكومة الجزائرية ، وذلك حينما اشار في حديث صحفي له الى «**ان الحكومة الجزائرية ترحب بكل البوادر الكفيلة بانهاء الصراع في الجزائر على اساس احترام المبادىء التي افتداها الكثيرون من الجزائريين بارواحهم وبدمائهم ...** »

كما عبر عنها كاتب الدولة الجزائري وذلك عندما اعلن الى مراسل وكالة (بيلكا) « **ان المفاوضات لا يجوز ان تستهدف فقط العمل على وقف اطلاق النار ، بل يتعين ان ترمي الى تسوية عامة لمجموع جوانب المشكلة ...** »

ولكن ما هو السبيل الذي يمكن ان يؤدي عمليا – الى هذه التسوية المتوخاة ؟ .

لقد كانت الاسابيع الاخيرة مجالا لترديد الشائعات حول مشروع حل جزائري ، يستهدف التوصل الى هذه الغاية بالذات ، وهذا المشروع يعكس – في عمومه – ميلا واضحا الى جانب التوسط والاعتدال ، وهو لذلك يتقارب في بعض الجوانب – مع ما تنطوي عليه بعض المبادرات الفرنسية السابقة ، تلك التي كانت ترمي الى حل المشكلة على اساس « تحرري » متسامح ، واذا ما تاكدت نسبة المشروع الى المصادر الوطنية الجزائرية – وهذا ما لا ارجحه كثيرا – فانه سيكون – ولا شك – تعبيرا واضحا عن اكثر وجهات النظر السياسية اعتدالا وتساهلا وتسامحا .

وتتحدد خطوط المشروع العريضة فيما يلي :

1) اجراء استفتاء في موضوع رفض الاستقلال او قبوله ، وذلك تحت الاشراف الفعلي لسلطات الامم المتحدة .

2) اقرار هدنة مؤقتة تمتد على فترة يقع تحديدها ، وذلك في سبيل اتاحة الفرصة لاجراء انتخابات جديدة .

تلك هي النقط الاساسية في المشروع . الا انه ليس من الضروري ان نعيرها عناية كبيرة ، لانه يبدو انها لا تنسجم مع وجهة النظر الرسمية الجزائرية تلك التي امكننا تسجيلها اعتمادا على النشرة السياسية لوزارة انباء الحكومة المؤقتة الحالية ، واذا ما حللنا مضمون هذه الوجهة من النظر ، فاننا نلحظه يتركز في الاساسين الآتيين :

1) ضرورة التاكيد على حق الجزائر في الاستقلال ، وحق الاقلية في مستقبل مضمون داخل اطار هذا الاستقلال .

2) استبعاد العمل على اقرار منشآت معينة ما دام ذلك خارجا عن نطاق الكيان الجزائري الذي تحدد تشكيله النقطة السابقة .

ومهما يكن فان ما يجوز استخلاصه من مجموع هذه المقابلات في وجهات النظر : هو ما يلاحظ من اتجاه القيادة السياسية الجزائرية نحو ايثار التفاوض كوسيلة مثلى لفض الخلاف ، وذلك على النقيض مما يتجلى في مواقف الغلاة من تمسك بمبدا الحل العسكري وتعلق باهدابه ومقتضياته ، وينعكس هذا التعلق في جريدة « ليكو دالجي » وذلك حينما تعلن انه « **ليس ثمة من سبيل لاضاعة فرصة النصر غير التفاوض** » . وتؤكد الجريدة ذلك قائلة : «**ان كل تفاوض او هدنة او توقف حربي على الصعيد الحكومي سوف يكتسي دائما صبغة سياسية ، ان كل ايقاف جزئي او نهائي لاطلاق النار سوف لا يمكن التفاوض حوله الا على الاساس الصحيح ، اي الاساس العسكري المحض ، وذلك بالطبع مع المسؤولين في القوات المسلحة لا غير ...** »

وعلى ضوء هذا الاعتبار فماذا يجوز ان تكون قيمة المشروع المفروض لدوكول وذلك باعتبار الراي العام الداخلي في فرنسا ؟ هل يمكن ان يحظى هذا المشروع بمساندة الجماهير الفرنسية بما في ذلك المتطرفون ؟

ان الوضع السياسي الفرنسي لا يبيح الاعتقاد بذلك الى حد بعيد ، والحق ان دراسة المخطط الذي يرسم تيارات الراي في فرنسا قد تجيز — فعلا — تعيين بعض الاحتمالات الايجابية ، فالتكتلات السياسية التي تنتمي لليسار او للوسط تتبنى هي نفسها مبادىء حلول مماثلة ، بل ان من بين عناصر هذه التكتلات (اتحاد القوات الديموقراطية مثلا) من يتولى التبشير بضرورة اعتماد حل استقلالي ناجز ، الا ان الذي يقلص من تاثير هذه القوات السياسية على الصعيد الحكومي هو السيطرة التي ينعم بها الغلاة داخل النظام الحالي ، والوسائل التي توفرها لهم ظروف الحياة السياسية — البرلمانية في هذا النظام — فالعهد الحاضر يستند كثيرا على ولاء الجناح اليميني المتطرف ، ومساندة العناصر العسكرية والمالية في فرنسا والجزائر ، كل ذلك مما لا تتوافر معه للجنرال دوكول استقلال فعال عن تاثير الغلاة المتزايد ، وتتضاعف تبعية النظام هكذا لهؤلاء الغلاة وذلك بالقدر الذي تشتد فيه مشاعر الخوف من الاحتمالات الآتية :

1) امكان قيام حالة من القطيعة بين فرنسا وعسكريي الجزائر .

2) احتمال تفسخ القاعدة السياسية التي يقوم عليها النظام الحاضر .

3) جواز قيام حالات سياسية واجتماعية معقدة داخل القطر الفرنسي ذاته .

على ان آراء دوكول الشخصية نفسها لا تتناقض في صميمها مع اتجاهات الغلاة ، وتتحدث « النيويورك تايمس » عن هذه الآراء فتشير الى ان موقف الجنرال الحالي « **يستهدف ضمان نوع من التطور السياسي والاقتصادي في الجزائر . فالرئيس الفرنسي لا تحدوه نية التفاوض حول الاستقلال ، كما انه لا يرغب في تجميد الوضع الحالي .. انه يريد التطور وكفى..** »

واذا كان الامر كذلك فما هي اذن دواعي التفكير في عرض مشروع من صنف الذي تحدثنا عنه في مطلع الموضوع ؟ .

الواقع ان بواعثه تبدو وكانها تنحصر في الاهداف السيكولوجية ، وترتبط هذه الاهداف بالمجال الدولي بصورة رئيسية ومركزة ، ذلك ان النظام الحالي لم يكن — نتيجة لحرب الجزائر — اكثر حاجة الى مداهنة الراي العام الخارجي اكثر مما هو عليه الآن .

فقد تضاعفت — بالفعل — عند مختلف المحافل السياسية الدولية التخوفات والارتيابات من امكانية استمرار الحرب في الجزائر ، مع ما يمكن ان يفضي اليه هذا الاستمرار من نتائج مهولة ، وتزداد نسبة هذه التخوفات عند الاوساط الغربية بقدر ما يزداد الصراع اساءة الى الحظوظ التي يتوفر عليها الغرب المنطقة ، ومما يزيد في حدة هذه المشاعر القلقة شعور الكثيرين بان الحل العسكري الذي يتبناه الفلاة لا يقوى — في شيء — على فض المشكلة المعقدة القائمة ، وقد عبرت عن هذه الحقيقة البديهية « السانداي تايمس » وذلك عندما اكدت بان « **الحل العسكري لا يمكن ان يرادف الانتصار الحربي .. »** كما اعربت عن ذلك ايضا جريدة « التايمس » حينما اشارت الى **«ان المعجزة التي كان ينتظرها الكثيرون منذ سنة لم تتحقق مطلقا ، فاتون الحرب لا يزال مضطربا بالجزائر ، وان هناك ما يناهز الاربعمائة الف جندي — بما فيهم الكثير من الشباب — لا يزالون يواجهون المعركة في مختلف نواحي القطر ، بينما لم يلاحظ وجود اي تخفيف في الاعباء المالية الباهظة ، التي يسيء كثيرا الى الاقتصاد الفرنسي والتي هي نتيجة حتمية لاستمرار الحرب ، هذا في الوقت الذي تتدهور فيه حظوظ فرنسا تدهورا ملحوظا .. »**

اما « لا كازيت دولوزان » فقد امكنها ان تلاحظ هي بدورها ما يعتقده الكثيرون من « **عجز الجنرال دوكول عن العثور على منفذ للخروج من المازق في الجزائر ... »**

والحق ان لهذه الاحاسيس من القلق ما يبررها فالمشكلة الجزائرية توجد في الواقع اكبر من عقبة كاداء في سبيل اي تفاهم افريقي — غربي : كما انها تسهم — باستمرار — في تدمير امكانيات استغلال الثروات الطبيعية الصحراوية ، بالاضافة الى ما تشكله من اخطار تتهدد وحدة حلف شمال الاطلسي نتيجة لما يحدثه من استمرارها من انعكاسات متباينة على مختلف اعضاء الحلف . هذا علاوة على ما تخلقه بين الغرب والعالم العربي من عوامل العداء المستحكم ، الذي يقوم كعامل مضاد لكل الاحتمالات التقاربية والتعاونية بين الجانبين .

ومما يضاعف من حدة المشكلة انها — بالاضافة الى قضايا جنوب الجزيرة العربية — تكاد تكون النقطة الرئيسية التي يستمر على اساسها الخلاف بين الديموقراطيات الغربية من جهة وبين الاقطار العربية من جهة اخرى .

ومن المنطق ان تكون لهذه الحقائق آثار نسبية على تفكير المسؤولين في كثير من العواصم الغربية ، الا ان وضعية فرنسا داخل نظام الدفاع الغربي ، لم تكن لتساعد على ظهور اختلافات بارزة في وجهات النظر حول الموضوع ، ولكن الامر — مع ذلك — يستاثر في الولايات المتحدة بكثير من الاهتمام المشوب بمشاعر الحذر والقلق ، وقد كانت الدورة الاخيرة للامم المتحدة مناسبة هامة انعكس عليها جانب من هذه المشاعر التي تزداد حدتها باطراد ، فقد امتنع المندوب الامريكي — لاول مرة — عن التصويت لصالح وجهة النظر الفرنسية ، بعد ان كان يساندها في جميع الدورات السابقة . ولم يكن للحادث ان يمر دون ان يخلف اصداء عميقة في اوساط الفلاة ، وقد ذهب البعض منهم الى حد اتهام السياسة الامريكية بالعمل ضد مصالح فرنسا ، ومستقبل « نفوذها » بمنطقة الشمال الافريقي عامة .

على ان مشاعر « التافف » الامريكية هذه ليست الا شيئا بسيطا جدا بالنسبة للآثار العميقة التي تخلقها المأساة الجزائرية في اوساط الراي العام الدولي غير الاطلسي ، واذا كانت الكثير من الوحدات التي يتشكل منها هذا الراي لم تقدم لحد الآن على الاعتراف الشرعي بالحكومة الجزائرية ، فذلك لا يعكس — بالطبع — وكما سبق ان لحظناه — شعورا بعدم مشروعية القضية التي تجسمها هذه الحكومة ، بل هو ناشيء — في كثير من جوانبه — عن اعتبارات سياسية مؤقتة ، على ان هذه الاعتبارات نفسها لم تحل بين كثير من البلاد وبين التعبير عن المساندة السياسية والمادية لنضال الشعب الجزائري ، ومن بين هذه البلاد ما ينتسب الى القطاع الدولي للحياد الايجابي ، كما ان من بينها ما ينتسب الى منطقة جنوب شرقي آسيا ، او الكتلة الاشتراكية او غيرها .

بيد انه من الحق الاعتراف بان هذه الالوان من المساندة التي تمنحها البلاد المناصرة لا تعدو — في كثير من الحالات — نطاق المواساة والعطف السلبي ، ولم تتخذ بعد اشكالا سياسية ودولية بعيدة المدى والفعالية .

وتلك ظاهرة سياسية غير سارة بالطبع ، اما تبريرها فيؤول — حسب ما يبدو — الى كون الوسائل

الدعائية التي تتوفر عليها مصالح الحكومة الجزائرية محدودة ، كما انها تعود ايضا الى ضيق النضال الدولي الرسمي ، الذي تتهيا اسبابه للدبلوماسية الجزائرية في وضعها الراهن .

وعلى هذا فانه يبدو من الضروري ان تتبنى المصالح الخارجية العربية (في جو من التناسق والانسجام) مسؤولية ملء جوانب الفراغ الدولي الذي قد لا تتوافر اسباب مواجهته لحكومة السيد فرحات، وذلك بالطبع ضمن اطار التعاون مع وزارة الخارجية الجزائرية ومع مصالح وزارة الانباء التابعة للحكومة المؤقتة الحالية ، ومن الواضح ان بوادر تعاون عربي من هذا الصنف قد تفضي ـ في حالة نجاحها ـ الى بعض النتائج الايجابية ، وخاصة بالنسبة للقطاعات الدولية غير التوسعية كمنطقة شمال اوربا (دول البلطيق) وامريكا الجنوبية وغيرها .

وعلى كل حال فان الرئيس فرحات لا يزال يوالي نشاطه الدائب في سبيل توسيع المجال الدولي والعالمي للقضية الجزائرية ، وقد قام في غضون الشهر المنصرم بزيارة هامة جدا ليوغوسلافيا لاريب انها اسفرت عن كثير من الفوائد السياسية والدعائية الناجحة .

ولا ينبغي ان ننسى في هذا المجال المضمون السياسي للاستقبال الذي خصصته بلغراد للرئيس الجزائري ؛ فان ذلك لم يكن الا تجسيما لما توليه الحكومة الشعبية اليوغوسلافية من اعتبار لصفة الرئيس السياسية .

على ان البلاغ المشترك الذي انبثق عن المحادثات الجزائرية اليوغوسلافية ـ تلك التي تمت بين الرئيسين الكبيرين ـ كان في محتواه القانوني والسياسي اهم مما تقدم بكثير ، واذا وضعنا في الاعتبار مدى الاهمية التي تنطوي عليها مضامينه ادركنا مغزى التاثير العميق الذي خلفه في مختلف الاوساط السياسية بفرنسا وغيرها ، ومن بين اهم هذه المضامين التي لها دلالتها :

1) الاشارة المتكررة الى الحكومة الجزائرية وتقدير القوة التمثيلية التي تتوفر عليها .

2) اعتبار صفة السيد فرحات الرئاسية .

3) الاعتراف بان التفاوض مع الحكومة الجزائرية يشكل الاساس الوحيد لانهاء وجود المشكلة القائمة .

4) تاكيد العزم على استمرار الاعانة اليوغوسلافية للشعب الجزائري .

ولهذا فقد كان حتميا ان تشن الحكومة الفرنسية حملات صاخبة على هذه الزيارة التي كانت مرحلة من مراحل انتصار القضية الجزائرية في المجال الدولي، ولم تكن الحملة موجهة بالطبع ضد تلك الزيارة بالذات، بل انها كانت ـ على التاكيد ـ رد فعل حتمته ظروف النجاح السياسي الذي تسفر عنه عادة رحلات الرئيس فرحات الى مختلف القطاعات الدولية والعالمية .

اما مظاهر هذا النجاح فتتجسد فيما يلي :

1) احباط المشاريع الديبلوماسية الموجهة لعزل الحكومة الجزائرية على الصعيد الدولي .

2) النجاح في اقناع الحكومات والجماهير بعدالة القضية ومشروعيتها .

3) امكانية استدراج بعض الاقطار الى الاعتراف الشرعي بحكومة الرئيس فرحات .

4) تاثير ذلك على الوضع السيكولوجي داخل الجزائر .

على ان المسؤولين الفرنسيين ، وان كانوا لم يخطئوا كثيرا في تقدير هذه الاعتبارات السياسية الناشئة عن الاتصالات اليوغوسلافية الجزائرية ، فانهم ـ مع ذلك ـ لا يزالون يتورطون في اعتبار القمع الوسيلة المثلى للحد من فاعلية النضال السياسي والوطني الجزائري ، ومما يضاعف من خطورة الامر اصرار المسؤولين الفرنسيين على ايثار هذه الطريقة والاعتماد عليها الى ابعد الحدود الممكنة ، ومن صور ذلك نشوء نظام مراكز التجميع، تلك التي اضحت تجسم اخطر فصول المأساة الجزائرية واكثرها شناعة وهولا، والواقع ان هذه المراكز لا تزال تثير في كثير من الضمائر الواعية هنا وهناك المزيد من المشاعر القائمة والانتفاضات الوجدانية العنيفة .

وقد اكدت التقارير الصحفية الفرنسية شبه الرسمية بان ما يناهز ربع مليون قد اجبروا منذ سنة 1957 ـ بالاخص ـ على مغادرة ماويهم الخاصة ، وذلك تحت تاثير الاساليب التي تعتمدها الادارة الفرنسية في مثل هذه الاحوال . ويعيش هذا العدد الضخم من المجمعين في اوضاع متباينة ومختلفة ، الا ان القاسم

المشترك بين هذه الاوضاع هو ما تتميز به من شذوذ وما تنفرد به من غرابة ، ويوجد نحو المليون من هؤلاء على الاخص وهم يجترون حياة كاسفة داخل مراكز للتجمع منبثة فى مختلف ارجاء القطر .

وبالرغم مما تثيره هذه المراكز من ردود فعل عنيفة فى مختلف الاوساط والمحافل ، فان المسؤولين الفرنسيين – مع ذلك – لم يبدوا من الاستعداد ما يوحي بامكانية انهاء مثل هذه الاوضاع الناشزة ، ويزداد ذلك وضوحا عندما ندرك ان القيادة الفرنسية تعتبر نظام التجمع هذا ضرورة اساسية واكيدة لامكانية استمرار قدرتها على مواجهة الموقف العسكري الدقيق بالجزائر ، فالقوات الوطنية – كما يرى المسؤولون الفرنسيون – تعتمد فى استمداد طاقتها المادية على مؤازرة السكان غير الحضريين ، ولهذا فانه من الضروري – بالنتيجة – حجز مصدر هذا الاستمداد عن طريق الاجلاء الفعلي لسكان الارياف ، وحشدهم داخل مراكز التجمع التي تتم مراقبتها بصورة دقيقة ومنظمة ، ويرى الاستراتيجيون الفرنسيون – كما يلوح – ان ذلك قد يكون من نتائجه التوصل الى النتائج التالية :

1) عزل القوات الوطنية عن مصادر التزود الاساسية .

2) الحيلولة دون تأثر السكان بالمزيد من الدعوة الوطنية والجهادية .

3) امكانية اصطناع الانصار من بين المجمعين .

4) احتمال استخدام هؤلاء الانصار عند الاقتضاء وذلك بعد ان يتم تنظيمهم ضمن كتائب مطاردة خاصة .

وعلى ضوء هذه التقديرات فانه كان مفترضا ان يلعب هذا النظام دورا هاما فى تعديل الوجه السياسي والعسكري للاوضاع فى الجزائر ، ولكن الواقع كان صورة مناقضة لكل ذلك ، فمراكز التجميع لم يكن لها ان تضم فى الواقع وفى غالب الامر الا العناصر العاجزة من السكان ، ولهذا فقد بدا من العسير ان تفضي الى النتائج المختلفة التي كان يتوخاها منها المسؤولون الفرنسيون ، بل انها على النقيض من ذلك اضحت بالاضافة الى سلبية نتائجها العسكرية ، عبئا باهظا يثقل هؤلاء المسؤولين بكثير من التبعات المادية والتنظيمية والنفسانية .

على انه بالرغم عن المصاعب الناشئة عن « نظام التجميع » فان الحكومة الفرنسية مع ذلك لم تتردد فى الاقدام على اتخاذ بادرة مسرحية مثيرة لم تكن متوقعة كثيرا ، ذلك عندما اعربت اخيرا عن الرغبة فى) تخويلها حق الاشراف على اللاجئين الجزائريين بتونس والمغرب بما فى ذلك اكراههم على العودة للجزائر ! . وقد استثارت هذه المطالبة كثيرا من مظاهر الامتعاض والاستهجان فى المحافل الرسمية وغير الرسمية بالقطرين المعنيين ، وقد ضاعف من حدة الاستغراب ان البادرة الفرنسية كانت تكتسي صبغة الرد على ما يتم فى مصالح الامم المتحدة من محاولات لاسعاف هؤلاء اللاجئين وتقديم العون الدولي اليهم .

غير ان المنظمة الاممية بالذات كانت – فى واقع الامر – من بين العوامل الرئيسية التي حدت بالمسؤولين الفرنسيين الى الاعراب عن مطالبات علنية من هذا النوع

فقد بدا يدنو بالفعل الموعد السنوي لانعقاد الدورة العادية للامم المتحدة ، ومما لا يلابسه الريب ان القضية الجزائرية ستكون من ابرز الفصول الاساسية التي سيتشكل منها الجدول الرسمي العام . ومن الجلي ان الحكومة الفرنسية تدرك سلفا مدى ما يمكن ان يكون هناك من تاثير على الراي العام الدولي نتيجة للاوضاع الناشزة التي تلابس حياة اللاجئين والظروف القاتمة التي تكتنف وجودهم . وقد غدا متأكدا اكثر من اي وقت مضى ان القضية قد تتخذ – على الصعيد الدولي وفى الامم المتحدة بالاخص – اساسا لحملات سياسية مركزة ، تمتد على كثير من الاعتبارات الانسانية والسياسية والاجتماعية ، ولهذا فقد كان موضوع اللاجئين دائما محط عناية كبيرة من جانب المسؤولين الفرنسيين وذلك فى سبيل الوصول الى تصفية وجودهم بما يتفق ووجهات النظر التي يتبناها الغلاة .

وقد اجتازت المساعي الفرنسية – فى هذا المقام – مراحل كثيرة كان من بينها :

1) تجنيد الشعور العام ضد وجودهم ، وذلك عن طريق الوقيعة السياسية المحبوكة ، ومن امثلة ذلك : الايحاء بان اللاجئين قد يتخذون اداة لتحقيق اهداف الحركة اليوسفية المحظورة فى تونس .

2) العمل على مضاعفة المصاعب المادية والتنظيمية الناشئة عن استمرار حالتهم المعقدة (مقاومة بوادر الاعانة الدولية او غيرها) .

3) الاغارة على مخيماتهم احيانا .

بيد ان الديبلوماسية الفرنسية ـ مع ذلك ـ لم تتمكن من تحقيق خطوات ايجابية في هذا المضمار ، بل ان الوضع المترتب عن حالة اللاجئين قد اخذ يثير مجددا المزيد من القلق في الاوساط الدولية وغيرها ، ومن ذلك كانت البادرة الفرنسية الاخيرة في المطالبة بـ « استرداد » هؤلاء اللاجئين ؛ ولكنها لم تفض الا الى اثارة عواصف اخرى من النقد والاستغراب والاستهجان .

ويبدو ان الاخفاق الذي تمنى به المساعي الفرنسية في مثل هذه المجالات ، هو ناشيء عن الخطا في فهم الحل الذي يجب لفض المشكلة من الاساس ، فالحالة المترتبة عن هجرة اللاجئين مثلا ليست الا مظهرا عاديا او نتيجة حتمية لاستمرار المعضلة الكبرى، تلك التي تتجسم في الصراع المرير بين الاستقلال والادماج في الجزائر ، فاذا كان من هم المسؤولين الفرنسيين ان يطالبوا باخفاء معالم الصورة الكئيبة التي تمثلها حياة اللاجئين ، فان عليهم ان يدركوا ان هذه الصورة ليست الا حلقة في سلسلة الصور القاتمة التي ترسم ملامحها جو الصراع العنيف بين الشعب الجزائري وبين القوات التوسعية.

فالحرب اذن هي قاعدة المأساة ؛ وليس من سبيل لتدمير هذه القاعدة الا بازالة الاساس الذي تنهض عليه ؛ وليس هذا الاساس ـ في الواقع ـ الا الاستعمار .

آراء اجنبية :

جورج بوشان : الكاتب العام المساعد للاتحاد الديموقراطي الاشتراكي للمقاومة : (ان احتمال تطبيق برنامج قسنطينة مع مواصلة الحرب في نفس الوقت بالجزائر هو شيء غير معقول بالمرة ؛ وان ما يبدو اهم من ذلك كله هو ان دافعي الضرائب الفرنسيين قد يصبحون نتيجة للارهاق الجبائي في وضع لا يسمح لهم باية بادرة لتوظيف رؤوس الاموال في بلاد الجامعة .

ان مطالبة الشعب الفرنسي بمساندة سياسة النفوذ والعظمة ، ليس مفهومها المبادرة الى احتضان كل ما يرتبط بالنفوذ والعظمة في اي شكل من الاشكال، لان كل سياسة شاملة المدلول لم تكن تلاقي في الماضي اي ضرب من ضروب النجاح نتيجة للضغط العميق الذي كان يمارسه البرلمان منذ سنة 1945 لتحقيق ارادة الاقطاعية المالية بالجزائر .

والآن توجد الحرب في ذلك البلد وهي بالغة اوج حدتها وسورتها ، وان النضال في سبيل السلام يعني ايضا الكفاح من اجل الديمقراطية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ان الادماج لا يعدو ـ في الواقع ـ ان يكون صورة اسطورية ، لقد كان في الحقيقة ممكنا تطبيقه غداة التحرير ، بل ايضا في بداية نونبر 1954 ، اما الآن فقد انقضت فعلا اربع سنوات من الصراع ، ولم يكن لذلك من نتيجة الا ان اعان على ايجاد هوة عميقة لم يعد ممكنا سدها ؛ ان اولئك الذين يهيمون بالادماج لا يفعلون ذلك الا لاتخاذه تكأة لمواصلة الحرب في الجزائر ، وذلك للحفاظ على الامتيازات الضخمة التي ينعمون بها على حساب الشعب الجزائري .

على انه قد اصبح في امكاننا الآن ـ مع ذلك ـ ان نلحظ وجود تعدل في الجو العام تظاهره كثير من الجهات الاقتصادية المستنيرة ، فقد باتت هذه الجهات تدرك بوضوح ان الحرب ، وان كانت تنطوي على بعض المكاسب فانها مع ذلك تحمل قدرا اكبر من المضار ، الامر الذي لم تكن له من نتيجة الا تدمير الطاقة الاقتصادية الفرنسية بعد ان اصيبت سابقا باخطر مظاهر الضعف والركود .

لكل هذا فانه من الضروري تهيء جو صالح لاجراء حوار ثنائي بين الفرنسيين والجزائريين ؛ يجب اقرار الحريات الاساسية والعودة الى احترام المشروعية الجمهورية ، كما يتعين ان يتدخل الصليب الاحمر جديا لضمان معاملة الاسرى من الجانبين على اساس انساني ، اما الاكثر اهمية من كل ذلك فهو الاندماج في جو المفاوضات على قاعدة التجرد من كل النوايا السيئة ، وذلك في سبيل التوصل الى توقيف اطلاق النار ونشر الوية السلام .

انني ارتاب جدا من قيمة العمل على اجراء الانتخابات في بلد يغمره جو الحرب والعنف ، ويتولى فيه الجيش الاشراف على مراكز الاقتراع . والذي اخشاه كثيرا الا يكون الممثلون المسلمون الذين تم انتخابهم في 30 نونبر الماضي ـ الا نسخا جديدة من « باواداي » او من يشابهه فهؤلاء « المنتخبون » لا يتوفرون على قوة تمثيلية تفوق ما كان لابناء (وي ، وي) من صنائع الجمهورية الرابعة الموءودة ، اما الجمهورية الخامسة فانها اذا كانت ترغب في خلق جو جديد حقا بالجزائر فعليها حينئذ ان تسارع

الى استخدام اساليب جديدة ، ان من الواجب الا يقع التلاعب بالانتخابات ؛ فان ذلك ينال ـ في الواقع ـ من سمعة فرنسا ، لا في اقطار الجامعة فقط ، بل ايضا في بقية بلاد العالم » .

كاستون ديفير : شيخ اشتراكي ـ عميد بلدية مرسيليا :

بالرغم من ان الجنرال دوكول يمثل ـ في الحقل السياسي سلطة قوية على العسكريين لم يتمتع بها اسلافه في الحكم ، فان الجيش ـ مع ذلك ـ يشكل في الجزائر قوة قد تصبح خطيرة على الحريات العامة.

ان استمرار الحرب في الجزائر ليس له في الواقع الا ان يزيد هذا الخطر تركيزا ويضاعف من احتمالاته الجهنمية الرهيبة ، ذلك انه في حالة ما اذا كا الجنرال دوكول سيضطر الى مغادرة الحكم لسبب من الاسباب ، فان مصير البلاد ستقع حينئذ ـ في ايدي رجال اقل ما يمكن ان يقال عنهم انهم غير ديموقراطيين .

هذا ومن جانب آخر فانه يبدو ان المسلمين قد تزعزعت ثقتهم كثيرا ، نتيجة لنوعية الاساليب التي احتذيت في اجراء الانتخابات التشريعية والبلدية بالجزائر .

اما اذا تم في المستقبل التصويت على تدابير ادماجية فسيكون مدلول ذلك ايصاد الباب امام كل حل سياسي للمشكلة القائمة ، بل ان الجنرال دوكول سيغدو ساعتئذ عاجزا عن وضع اي حد للصراع المستمر في البلاد .

انني في وضع يجبرني على الاعتقاد بان طبيعة ومعاني الاقوال التي فاه بها الجنرال دوكول اخيرا قد بدا عليها كثير من التغير بالنسبة لما كنا نعهده قبل عدة اسابيع ... »

فهل يعني ذلك مزيدا من الوقوع تحت تأثير الغلاة ؟ ؟

كفاح الجزائر بين الماضي والحاضر

بقلم: أحمد مراد

حينما نفض الحلفاء ايديهم من تقسيم تركة (الرجل المريض) في العالم العربي ، بعيد الحرب العالمية الاولى . وقف احد القواد العسكريين الانكليز ، في زهو المنتصر ، واختيال الظافر ، ولعله المريشال (اللنبي) ، على قبر صلاح الدين الايوبي في سوريا وقال: « الآن انتهت الحروب الصليبية .. » وكان يعني طبعا ان الحملة الصليبية التي اشهرتها دول الاوروبا المسيحية، وامتدت غاراتها الشعواء على الشعوب العربية بضعة قرون ، انتهت منذ ذلك اليوم بفرض السيطرة الاوروبية على بلاد العرب ، واحراز النصر لصالح الصليب على الهلال ..

ولكن لذة النصر هذه لم تدم طويلا لدى ساسة الاستعمار الاوروبي ، بل سرعان ما تبخرت في الهواء بعد اعوام معدودة ، اذ استأنف احفاد صلاح الدين الايوبي نضالهم لتحرير وطنهم ، وتطهير ارضهم الزكية من رجس الاستعمار الغربي ، مظهرين في كفاحهم كل ما تاصل في نفوس ابناء العروبة الاحرار من اباء وعزة وشمم ، وما فطروا عليه من ايثار للجهاد والتضحية بالنفس لاعلاء كلمة الله . والجود بالنفس اقصى غاية الجود . وبذلك خيبوا آمال اوروبا في (ممتلكاتها) الشرقية .. التي خلت انها قد استسلمت لها نهائيا ، وجنحت للدعة والسكون ، وقنعت بحظها من حياة الذلة والهوان ..

وقد انجلى غبار المعركة بين العرب واعدائهم عن اندحار المعتدين الصليبيين قديما وحديثا . فاسترد العرب حريتهم وعزتهم وكرامتهم ، واضحت بلادهم خالصة لهم (او تكاد) من دون الاستعماريين الغاصبين . ولم تبق اليوم الا بضع خطوات متوثبة يخطوها اخواننا العرب نحو الامام ، في الجزء الذي لم يبرح ابناؤه ارض المعركة الصليبية .. في الجزائر العربية . من اجل تحطيم مشروع (الفرنسة ...) الذي طالما حلم الفرنسيون بانجازه خلال مراحل احتلال القطر الجزائري ، ولا زالوا متشبثين باحلامهم ...

وحينما انقضت مائة سنة من عمر الاحتلال الفرنسي في الجزائر . اقام الفرنسيون حفلات الذكرى المئوية ، في اهم المدن الجزائرية . وكانت تلك الحفلات تتسم بسمة العنصرية المقيتة ، ويغلب عليها طابع الشماتة والتعالي والكبرياء ، هذه المساوىء التي لا ابالغ اذا قلت انها من (ميزات) العنصر الفرنسي في اغلبه ، ومن الاوصاف البارزة في تعامل الفرنسيين مع من اخضعوا لعدوانهم ، وغدوا ضحية لاستعمارهم . واستخف العجب والغرور ساسة الاستعمار يومئذ ، فمضوا يعلنون للملا ـ في وقاحة ـ بأنهم فرغوا من

امر الاسلام فى الجزائر ، وشيعوا – فى زعمهم – ما يسمى بالجزائر المسلمة الى المقر الاخير . ودشنوا بتلك الحفلات الصاخبة (جزائر فرنسية) لحما ودما ، « كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا »

وبعد سنين قلائل ابى المبشرون المسيحيون الا ان يضربوا على نفس الوتر ، ويسمعونا نفس النغمة ، (مع التماس متسع آخر لاحلامهم .. فى القطرين المجاورين) . فصرحوا – دون ادنى حرج – فى المؤتمر الافخارستي (مؤتمر الكرادلة) ، الذي انعقد يومها بتونس ، بما يفيد اعتبار شمال افريقيا كله ضمن نطاق (الممتلكات) التي تشملها الكثلكة برعايتها الابوية، موهمين انفسهم بأن سيطرة فرنسا على هذه الاقطار ، يخول لهم الحق فى اعتبارها ارضا كاثوليكية ... كيف لا وفرنسا تعد عند الاوروبيين (بنت الكنيسة البكر ..) بلا خلاف .

ورغم ما اثارته تلك الدعاوي التي ما انزل الله بها من سلطان يومذاك ، من شديد الاستنكار ، وما خلفته من سيء الاثر فى البلاد العربية والاسلامية ، وخاصة فى شمال افريقيا ، الذي ينصب عليه هذا التهافت مباشرة ، ويحسه فى صميم كيانه الروحي والقومي ، فان الضمير الفرنسي المريض بالعجب والكبرياء ، لم يشأ ان يصحو من غيبوبة النشوة التي كان مستغرقا فيها ، وهو يرى نفسه يومئذ يعيش فى غمرة من الاحلام والاماني ، بقرب استعادة بناء الامبراطورية الافريقية ، التي كانت تعيش تحت ظل راية روما فى يوم ما ، لاسيما والفرنسيون يعتبرون انفسهم احق الناس بميراث تلك الامبراطورية البائدة المنهارة .. وكانوا يعتقدون انه لا يتسنى لهم ان يقيموا بناءها من جديد ، الا على اشلاء الشخصية العربية الاسلامية ، فى شمال افريقيا ، وعلى انقاض ما شيده العرب المسلمون من مدنية وحضارة انسانية خالدة فى هذه الارض .

ولتحقيق ما سولت لهم به انفسهم الامارة بالسوء ، فقد درجوا دوما فى الجزائر على انتهاج سياسة ذات نزعة صليبية ، وارضاء لعواطفهم الجامحة، وبغية الوصول الى تحطيم الكيان المعنوي والروحي لهذه الامة ، وقطع كل صلة تربطها بدينها ولغتها ، وابادة كل اثر او تراث ادبي او مادي ، يشعر الاجيال الصاعدة بنوع من الاعتزاز والفخر فى الماضي او الحاضر .

وكانت اللغة العربية الهدف الرئيسي لطعناتهم المسمومة ، لانها لغة قومية ، ورمز الشخصية الوطنية فحالوا بين ابناء الشعب وبين تعلمها بكل الوسائل ، واعتبروها لغة اجنبية فى عقر دارها ، وبين ذوي قرباها كما كان الاسلام هدفا لتحاملهم وهجوماتهم المتوالية ، فلم يدعوا اية فرصة تمر دون ان يعملوا معاولهم الهدامة فى قواعده، عملوا على تشويه محاسنه فى نظر ابنائه ، واطلقوا ايديهم فى انتهاب اوقافه ، وافسدوا ضمائر رجاله والقائمين على شؤونه ، فاستعبدوهم وتحكموا فى رقابهم . عملوا كل ذلك تشفيا وانتقاما من هذا الدين ، الذي احتمت الامة الامة بجداره كلما تالبت عليها النوائب ، ولجأت الى كنفه الرحب عند كل ملمة تلم بها . فوجدت فى الاعتصام بحبله المتين وعروته الوثقى المناعة ضد غارة المبشرين ، والوقاية التي تقيها من الغزو الروحي والمعنوي ، الذي واصله الفرنسيون بشدة ضد عقيدتها الدينية ، ومقوماتها الادبية . كما واصلوه من الناحية المادية والاقتصادية .



الاستاذ احمد مراد

وخيل اليهم غير ما مرة انهم حققوا ماربهم ومبتغاهم ، واصبحوا قاب قوسين او ادنى من الظفر بامانيهم . وطالما انخدعوا بالسراب الذي يبدو لهم من خلال الفترات التي يتوقف اثناءها الشعب ، ليستجمع قواه من جديد ، ويتابع السير فى طريق النضال بعزم اشد ، وتصميم اوكد . وهكذا ظنوا انه بامكانهم ان يطمئنوا على (الجزائر الفرنسية) . ويناموا ملء جفونهم ما داموا قد اودعوا الجزائر العربية التراب ، واقاموا مآتم وفاتها فى الحفلات المئوية .

وما بقي عليهم الا ان يواصلوا مهمتهم (الصليبية..) في تونس والمغرب ، بتطبيق نفس السياسة التي اتبعوها في الجزائر ، مع تحوير بسيط يقتضيه اختلاف البيئة والمكان والاحوال الاجتماعية. وابرز عمل للحماية الفرنسية في هذا المجال ، هو اصدار «الظهير البربري» المشؤوم في المغرب . واثارة مشكلة (التجنيس) في تونس ، وغير هذين الحادثين مما تضمنه (تصميم) السياسة الفرنسية ، الذي وضعه عباقرة الاستعمار خصيصا لربح الحروب الصليبية في المغرب العربي ، كما ربحوها في المشرق العربي .. ولكن ...

ولكن يبدو ان واضعي التصميم الصليبي لم يكونوا على قدر كبير من المهارة ، لذلك اغفلوا تقدير الواقع ، واهملوا وضع الامور في نصابها ، وربط الفروع باصولها . فاضاعوا على انفسهم اسباب النجاح ، وفشل مشروعهم ، وانهار كل ما شيدوه على الرمال ، من حلو الاماني والامال .. انهار مع وثبات الاحرار في تونس والمغرب على معاقل الاستعمار، واوبتهم من ميدان المعركة يحملون رايات الظفر والانتصار . ولسان حالهم يشدو مع الشاعر الجزائري بقوله :

للمغرب العربي صولة ضار

ووثوب مقدام على الاخطار

كذب الذين نعوه بل هو لم يزل

غاب الاسود وموطن الثوار

يا ويح الاستعمار كيف تقوضت

آماله كالهيكل المنهار ..

ثم ماذا ؟

ثم اظهرت الايام ، وابان الواقع الملموس منذ اكثر من ربع قرن ، ان ما منى به الفرنسيون انفسهم في الجزائر كما في القطرين الشقيقين ، اضغاث احلام ، وما هم بتأويل الاحلام بعالمين . بل ما هو الا سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا . وان ما زعموه من موت الاسلام والعربية في هذا الوطن ، ليس له حظ من الواقع ولا نصيب من الصحة ، لان بذور الحياة الكامنة في طبيعة هذا الدين ولغته ، وجذور الايمان الممتدة في اعماق هذا الشعب العربي المسلم ، لا تقوى ولن تقوى اية قوة مادية ان تقتلها في مكمنها ، او تقتلعها من منابتها ، ولن تستطيع ان تعفي على آثارها وتأثيرها الفعال في النفوس والعقول . تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا ما تجلى بوضوح خلال معارك الكفاح الوطني ، التي خاضها شعب الجزائر العربي الابي ، ضد اعداء دينه ، ومغتصبي وطنه ، طيلة ربع القرن الاخير ، في الميدان السياسي والثقافي والادبي ، قبل ان يضطره امعان فرنسا في بغيها الاستعماري العنيد وفقدانها منطق الرشد والعقل ، لخوض معركة الكفاح التحريري المسلح ، منذ ما يقرب من خمسة اعوام ، ذيادا عن حمى الوطن المقدى وحقه في الحرية والاستقلال . متمثلا بقول الشاعر العربي الخالد :

(السيف اصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب)

ان جهاد الجزائر الحالي يوثق الرابطة بين ماضيها الناصع ، وحاضرها المشرق ، ويعبر بصدق عن اهدافها المعنوية والانسانية ، التي يناضل لتحقيقها في نطاق ما تتطلبه منها حقيقتها العربية والاسلامية ، من مسؤوليات حاضرة ومستقبلة ، ضمن الوحدة العربية الشاملة ، ولنختم هذه الكلمة بما صرح به اخيرا رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية :

« ان الشعب الجزائري يتابع جهاده الآن اكثر من كل وقت مضى ، وان العرب كلهم يؤيدون هذا الشعب في جهاده لتحرير بلاده ، ان فرنسا ارادت ان تقضي على عروبتنا وديننا ، وان تجعلنا جزءا من الشعب الفرنسي . الا ان الجزائريين يابون الا ان يحافظوا على عقيدتهم الاسلامية ، وقوميتهم العربية».

او ننال استقلالنا المنشود)

(نحن ثرنا فلات حين رجوع

مجاهدة

بقلم : عبدالله السعداني

جميلة : ـ هذه ذاتي
خطوط سوداء
واخرى حمراء
تحدثكم فى صمت
عن فظاظة القراصنة
وسياط الجلادين

*

هذه ذاتي
غصن ذوى
بعيدا عن دفء الشمس
اروي ثراه بدمعي
ومن سيل جراحي
اغذي اوراقه

*

هذا دمي
اهدره يا جلاد
انه المداد الازلي
سيخط فى امجد صفحة
صك الحرية
لبلادي .

*

هذا قلبي
فجره يا جلاد
انه فيض جارف
سيجتاح وجودكم
سيغسل ارضي
من عار القياصرة الاقزام

هذه انا
« جميلة »
ساظل واقفة
ولو جمدت
ساظل مجاهدة
ولو فنيت
ساظل منتصبة
وسوف لا اخر على الارض

*

سانادي
واعيد النداء
حتى يستيقظ المجد
النائم فى كنه الضمائر
سأصرخ
حتى تردد الدنيا
صدى صياحي ملء الحناجر

*

واذا خنقوا انفاسي
سالوح باجنحتي المهيضة البيضاء
سيحمل اليكم حفيفها
رجع النداء
نداء قلب
يعالج بقية ذماء

*

وهكذا ساعيش
رعشة فى فم الزمن
عارا فى وجدان الحياة
ولعنة فى جبين التاريخ
تاريخ احفاد « جاندارك »
وابناء (روسو) و (ميرابو) .

لا لن اغنى « يا سوستيل »
لن اموت « ياماسو »
سأعيش لاشهد الشعاع
يسكب النور فى جراحي
وجراح ابطال بلادي
ويتطاير شرارات
ليحرق اعداء السلام
فى بلادي .

*

حتى اسمع الصوت الرخيم
سابقى
يجلجل فى الفضاء
ويرسل النداء
تلو النداء :
لبيك يا جميلة
لبيــك
انا الحريــة

*

الشاعـر : ــ جميلة ... يا قربان
مدى فى ساح الوغى
السنة اللظى
واحرقى اسداف الليل
حتى يموت الظلام

وتتجلى غـرة الفجـر
على قمم الاوراس
مسحورة الضياء

*

جميلـــة ...
رددي اغنية اللهيب
انـك ثار يثور
ترنمي بأنشودة البقاء
فالغد القريب
بين طيات اكمام الزهور .
ارقصي ... واروي للورى
حكايات القيود
يا هزار الشدو
غن لحن الخلود

*

جميلـــة ...
غدا فى الشفق
ستعوديـــن
ويعـود الرفـــاق
ستدوس السدود
ونعبث بالحدود
لنشيد وحدة افريقيا
افريقيا لنـا
واسنا اليوم فيها بالعبيـــد

الجزائر الجزائر الجزائر

مطالعات وآراء

رحلة ابن بطوطة

بقلم الطاهر زبير

لم يكن من السهل ان نقف على مناهج البحث عند القدماء فيما كتبوا ، لان هذه المناهج غير مفهومة وغير واضحة .

ولذلك كان الوصول الى الحقائق التي يضمها هذا التراث القديم صعبا وشاقا جدا ، وخصوصا في عصرنا هذا الذي تطورت فيه اساليب البحث ومناهج العلم .

وقد كانت رحلة ابن بطوطة من بين هذا التراث الغامض في المنهج والهدف ، لقد انتهيت من قراءة اكثر ما كتب عن الرحلة الى ظاهرتين :

كانت الاولى توضح ان الرحلة تعتبر مصدرا **تاريخيا** لحياة تلك الشعوب التي مر بها ابن بطوطة ، اجتماعيا وسياسيا وفكريا .

وكانت الظاهرة الثانية تعتبر ان الرحلة **تخطيط جغرافي** لطريق الشعوب التي مر بها ابن بطوطة ، وهذا ما دعا الرحالة الشهير (سيترن) ان يقول :

« اي سائح اوربي يمكنه ان يفتخر بانه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من احوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الاسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟ بل اي امة اوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون ان تجد من ابنائها من يجوب البلاد الاجنبية ، وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم ؟ ان ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات افريقية المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات « لاون » الافريقي .

اما **جغرافية** بلاد العرب وبخاري وكابول ومندهار ، فقد استفادت من الرحلة كثيرا ، وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو انجليز الهند الى قراءته فان فيه ما يفيدهم في سياستهم » (1) .

ولا يكاد الواقف يستقر على هذا الظاهرة وعلى ما يؤيدها ويجعلها الهدف الخاص لهذه الرحلة حتى يكاد يفاجأ بما يناقضها او يقترب من مناقضتها . قال احد هؤلاء :

« وابن بطوطة لم يكن **جغرافيا** فهو لم يهتم بالاقطار الا قليلا ، وحتى المدن انما وصفها باعتبار ما يقطنها من الناس ، فقد كان الناس موضع اهتمام الرحلة ولذلك فقد يفيدنا في التاريخ والاجتماع اكثر مما يفيدنا في الجغرافية » .

وقال آخر : « واذا كان لكتاب رحلة ابن بطوطة ميزة يتفرد بها عن معظم كتب الرحلات فهو انه ليس **كتابا في الجغرافية** الوصفية للبلاد والجبال التي رآها الرحالة في اسفاره بل انه في معظمه نسخة نادرة من الصور التي ارتسمت في ذهن ابن بطوطة عن الاشخاص والناس الذين القت بهم الصدف في طريقه .

فهو صفحة من **التاريخ الاجتماعي** الاسلامي في القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي ، اكثر منه كتابا في تقويم البلدان والجغرافيا مع العلم بان ابن بطوطة لم يهمل تلك الناحية فيما كتب مما يتضح في المواضع المناسبة مما يلي » (2) .

---

1) مقدمة تهذيب الرحلة

2) الدكتور محمد مصطفى زيادة .

وهكذا نرى هذا **التعارض او ما يشبه التعارض بين آراء** الكتاب حول موضوع الرحلة ونقطة الارتكاز فيها والهدف الذي صيغت من اجله .

والواقع اننا لن نستطيع ان نفصل بين الاتجاهين لنجعل احدهما هدفا مرسوما للرحلة وطابعا خاصا بها وانما نقول ان الرحلة تجمع بين الاتجاهين .

فالرحلة تكاد تعتبر مصدرا **تاريخيا** فيما يتصل بابحاث التاريخ من سياسة واجتماع واقتصاد وثقافة وحروب ونظم للحكم والادارة والقضاء .

وتكاد تعتبر مصدرا **جغرافيا** ايضا فيما يتصل بالتخطيط العام لعالم الرحلةوبيان موقع المدن والبلدان وذكر المسافات بينها وبين غيرها وفيما يتصل بالمناخ والجبال والصحراء والثروات المعدنيـة والمائيـة والحيوانية وفيما يتصل بالسكان والوصف الجنسي لهؤلاء السكان ونوع عملهم ومقدار كثافتهم .

غير اننا ازاء هذا التوفيق ينبغي ان نلاحظ ان صاحب الرحلة في معالجته لهذين الميدانين : ميدان التاريخ وميدان الجغرافية ـ لم يجعل من رحلتـه كتابا تاريخيا بالمعنى العلمي الحديث ولا كتابا جغرافيا بالمعنى العلمي لذلك ، وانما كان ـ صاحب الرحلـة يتحدث في الميدانين حديثا كان مدفوعا اليه بطبيعـة السير مع الرحلة اكثر مما يكون مدفوعا اليه بطبيعة البحث العلمي في الميدانين التاريخي والجغرافي .

وهذه الطبيعة هي التي فرضت عليه ان يتفق مع المؤرخين والجغرافيين ـ في اكثر ـ المعلومـات التاريخية والجغرافية ، ويختلف معهم في طريقة البحث والمنهج والعرض .

فانت اذا قرات الرحلة لا تستطيع ان تجـد نفسك امام منهج تاريخي او جغرافي ينتقل بك مـن ميدان الى ميدان ومن فصل الى فصل ومن موضوع الى موضوع ، ولكنك تجد نفسك امام منهج جديـد وطريقة خاصة فرضتها طبيعة الرحلة .

فابن بطوطة اذا دخل الى مدينة من المدن يتحدث اليك عن اول ما يواجهه من هذه المدينة فيذكر لك موقعها والمسافة التي بينها وبين غيرها من المدن ثم يتحدث لك عن الحالة الطبيعية لهذه المدينة وعـن مظاهر الديانة والآثار التي توجد فيها .

ويتحدث ثانيا عن ملك تلك البلاد وعاداتـه وسياسته وعلاقاته الخارجية واحواله الداخلية .

واخيرا يتحدث عن الشعب وطبقاته ورجالـه وانواع هؤلاء الرجال وعاداته واخلاقه وتقاليده ومـا يمكن ان يكون منتشرا في تلك البلاد من مذهب فكري او ديني .

وهكذا نلاحظ ان ابن بطوطة ينتقل بنا مـن ميدان الجغرافية الى ميدان التاريخ الى ميـدان الاجتماع الى ميدان السياسة دون ان تكون له خطة مرسومة في طريقة العرض والمنهج .

ومن هنا كان من الصعب على القارىء لهـذه الرحلة ان يخرج بنتائج مهمة تجمع بينها وحـدة الموضوع وتربطها سلسلة من العرض والمنهج ونتيجة لهذه الصعوبة ربما يتوقف كثير من القراء عن متابعة هذه الرحلة وامثالها .

مع اننا اذا تتبعنا قراءة هذه الرحلة في صبـر واناة وعلى ضوء هدف معين نستطيع ان نخرج مـن قراءتها بنتائج مهمة تلقي اضواء على عدة ميادين وتساعدنا على ان نفهم اوضاعا وحالات كانت تعيش عليها تلك الشعوب التي مر بها صاحب الرحلة .

واذا كان البحث العلمي يفرض ان تكون الرحلة في غير هذا الوضع كما يفرض ان تكون ذات هدف وخطة ـ فان **الواقع** الذي كان يعيش فيه ابن بطوطة **والثقافة** التي جعلت منه كاتبا لهذه الرحلة . **والتفكير** الذي كان يسير في ظله ـ كل هذا لم يجعل للرحلـة طابعا غير هذا الطابع ولونا غير هذا اللون .

واذا كان هناك من واجب علينا نحو تراثنا القديم وثقافتنا القديمة فاني ارى ان هذا الواجب يتمثل في كلمتين اساسيتين وعملين ضروريين :

العمل الاول هو : نشر هذا التراث القديـم والخروج به الى عالم النور في ثوب جديد .

والعمل الثاني هو القاء اضواء من الدراسة على هذا التراث طبق ما وصل اليه البحث العلمي الحديث.

وبهذا نكون قد حببنا الى نفوس هذا الجيـل قراءة هذا التراث القديم واستفدنا اكثر ما يمكن مـن الحقائق .

في النقد الأدبي

في شعرنا المعاصر

بقلم: محمد الأسري المصمودي

- 6 -

هناك حقيقة نستخلصها بعد الوقوف على مضامين الانتاج الشعري لهذه القطاعة ، ونعني بها طغيان الجانب الذاتي على الجانب النضالي ؛ فاكثر القصائد المنشورة خلالها – باستثناء حوليات العرش – تدور فى محيط ذاتي بعيد عن واقع الشعب المغربي فى فترة حاسمة من تاريخه ، عكس القطاعة السابقة لها ، وقد راينا ان الشعر النضالي كان من ابرز مضامين انتاجها ، وسوف لا نجافي الحقيقة اذا نحن عددناها الاسهامة الكبرى للشعر المغربي فى اذكاء الثورة ضد الاستعمار ؛ اما التعليل الجذري لطغيان الجانب الذاتي فنراه ممثلا فى التاثر بهذه النزعة عند شعراء المشرق، انها الانفصال عن الشعب وآلامه ، وهو انفصال ساهمت فى تكوينه عوامل مختلفة ابرزها : احتكاك الامة العربية بالدول الغربية سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وبلبلة الاتجاه السياسي للحكومات العربية والجامعة العربية نفسها آنذاك ، مما بذر فى نفوس الشعوب العربية عقدا كان من اثرها على الشعراء دورانهم فى المحيط الداخلي لذواتهم ؛ وصحيح ان الاحتكاك حصل فى المغرب بجميع وجوهه كذلك ، لكن الاتجاه هنا كان واضحا ، وهو استرجاع السيادة المغتصبة اولا ، ومن ثم كان التاثر غير المتمثل هو الذي خط السبيل دون ان يعادله فى ذلك عامل الرقابة الاستعمارية ، وكانت حقا تجهز على كل انتاج ينبض بالروح الوطنية ، ومع ذلك لا ننكر ان ذلك الاجهاز كان يختلف بين الاونة واخرى تشددا وتغاضيا، كما لا ننكر ان الكتاب كانوا دائما يجرؤون على قول ما لم يجترىء عليه الشعراء احيانا ، ويحتفظ التاريخ الادبي للاستاذ احمد زياد بمقالات كان ينشرها بجريدة « العلم » و « رسالة المغرب » يندد فى اكثرها بانفصال شعرائنا عن بيئتهم ؛ نذكر منها على سبيل المثال مقال « نريد ادبا يمثلنا » وفيه يقول « وقد قلت مرارا وكررت القول بان انتاجنا الثقافي يجب ان يكون قطعة لا تتجزا من حياتنا العامة ، وانه من الخير للادب ومن الخير لنا ان يكون ادبنا منتزعا من صميم نفوسنا ومن مكامن البيئة المغربية »

واذا كان علينا الا نتغاضى عن نشاط النقد فى هذه القطاعة فلا يفوتنا ان نشير الى انه كان فى معظم حالاته فقهيا يعنى بالناحية اللغوية والعروضية اكثر مما يعنى بالناحية الفنية ، وكان من البارزين فى ذلك الاستاذان عبد الرحمن الفاسي واحمد زياد ، وقبلهما قرانا نقد الحاج ادريس الغماري لقصيدة الشاعر عبد الغني سكيرج « الادب والعرش » التي يقول فى مطلعها :

ما شاءت الاقدار لا ما يوعد
وحي من الرحمن لا يتقيد (1)

كما قرانا نقد الحلوي فى جريدة « الاسبوع » التونسية لاحدى قصائد المرحوم عمر البارودي ، وقد استهلها بهذا البيت :

رمتك الحياة يا اخت الحياة
فى صحراء مقفرة خالية

وفى هذه القطاعة طرق الشعر المغربي – لاول مرة على ما اعلم – الرواية التمثيلية ، فلقد قدم لنا علال ابن الهاشمي « ربة شاعر » التي كان ينشرها متسلسلة فى رسالة المغرب ، لكن الذي يعاب عليه فيها اعتماده على قصة جاهزة للمرحوم على الجارم هي « هاتف من الاندلس » ذلك ان شخوص هذه القصة هم نفس الاشخاص فى « ربة الشاعر » بدون استثناء حتى ما

1) العدد الثالث من رسالة المغرب السنة 1 (نونبر 1942) ونشر النقد بالعدد السابع من نفس السنة .

كان منها مختلقا كعائشة الجاسوسة الاسبانية ؛ فموضوع الرواية اذن ليس مبتكرا ، فلا يبقى للشاعر بعد هذا سوى الحوار الشعري ، وهو يبدو اقوى عند ما ينطق الشاعر احد شخوص الرواية في ابيات تطول او تقصر ، فاذا انطق اكثر من شخص واحد في البيت الواحد ، بدا على الحوار شيء من الوهن والهلهلة وتداخل البحور كما في قوله :

« ابن زيدون مناديا » : علي

علي الخادم : اجـــل

ابن زيدون : تـاد امي لتـاتي

وحيـن تنادي اعـد الفـرس

علي الخادم : سافعل ما تبتغيه سريعا

ابن زيدون : فانك عندي اوفى الحرس (2)

وكانت نهاية هذه القطاعة البارزة ضمن فترة الحماية بعد العيد الفضي للعرش المغربي ، فلقد جن جنون الاستعمار لما راى الشعب المغربي يحتفل اروع احتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع جلالة محمد الخامس على العرش العلوي المجيد ، فاهتبل فرصة تضامن المغاربة مع الشقيقة تونس لمقتل الزعيم النقابي فرحات حشاد ، فاصدر اوامره بالقاء القبض على الوطنيين الاحرار استعدادا لتنفيذ خطته الجهنمية المدبرة في عشرين غشت 1953 ظنا منه ان مجرد ابعاد الوطنيين سيتيح له الفرصة لذلك ، لكن الظروف كشفت ان تقديره خاب ، وان الوطنية المغربية ظهرت بنوع من الكفاح لم تكن قد استخدمته قبل ذلك الوقت ، انه وميض النار يندلع بين الشعاب والجبال ، والمدن والقرى ، انه المقاومة المسلحة تحصد غلاة المستعمرين والخونة والمتعاونين ، وانبرى الشعر يذكي هذه المقاومة في مثل هذه الابيات الملتهبة :

بك يا ابن يوسف يا سليل محمد
نحيا كراما او نموت كراما
تالله لا ترضى بغيرك امة
قد اسلمتك قيادة وزماما
زعم الفرنسيون قبح زعمهم
انا سنؤثر بعدك استسلاما

2) العدد 143 السنة 11 (غشت 1952) ص : 53

القتل ما لم يرجعوك سبيلنا
سيرون انا لا نهاب زؤاما
والثورة الحمراء في اوطاننا
سيزيدها احرارهم اضراما
يا حامل الآلام في منفاك لا
تياس ، فشعبك في الفداء تسامى
الشعب شعبك حاضرا او غائبا
والامر امرك اين كنت دواما
سنرد بالدم كل ما سلبوه من
اوطاننا لا نرتضي استدماما
زمن التفاوض والتفاهم قد مضى
والشعب مل جميعه الاوهاما

وهي ابيات مقتطفة من قصيدة طويلة لشاعر القصر الاستاذ عبد الرحمن الدكالي ، وقد نظمها بعد مرور عام على نفي جلالة الملك ، ونشرتها جريدة « الامة » وطبعت في تطوان ، ثم وزعت منها عدة الاف نسخة نقلها من الشمال احد الوطنيين .

3) **فترة الاستقلال :** ولم تذهب دماء الشعب المغربي هدرا ، فلقد انتصر الحق على الباطل ، وانهزم الطغيان امام قوة الايمان ، وعاد الملك المظفر يحمل معه بشارة الانعتاق والتحرر ، وانطلق الشعر يخلد هذا الحدث العظيم :

امة حرة تهز الوجودا
ما تراها ترتل التمجيدا
امم الارض حينا ، حي شعبا
ظهر اليوم في الحياة جديدا
طاطئ الراس يا زمان احتراما
اننا امة تذل القيودا
ما غلبنا بقوة منذ كنا
او رضينا بان نكون عبيدا
قد بذلنا دماءنا بسخاء
وبرزنا الى الجهاد اسودا

راح عهد وجاء عهد وصرنــــا
امة حرة تلين الحديــــدا

خلد اليوم في جبينك يا دهــ
ـــر عظيما بالذكريات مجيدا

يـا ملاذ البلاد اي ثنـاء
قد يوفي ثناءك المقصــودا

طهر الارض من جرائم تـؤذي
كادت الارض من اذى ان تميـدا

اي عفـو عـن خائـن لبـلاد
كرر الجرم مبدئـا ومعيــدا

اقطع الغش والخديعة والبغــ
ـــضاء والظلم والهوى والشذوذا

القوا ـ قبحوا ـ حياة عبيد
واحتقــارا وذلـة وجمــودا

والابيات من قصيدة « اليوم الخالد » للشاعر عبد الرحمن الدكالي ، وقد القيت من الاذاعة الوطنية بمناسبة اعلان الاستقلال . ويصف الشاعر عبد المجيد ابن جلون كفاح الشعب من اجل رجوع ملكه في قصيدة « عودة محمد الخامس » في مثل هذه الابيات :

اما خبر الدخيل كفـاح شعـب
ابى ان يستبـاح ويستضامــا

وكافح واستمات مدى قـرون
وطارد كل مقتحـم وحامــي

فلا كنـا اذا اختطفـوك يومـا
وذاقوا بعد جرائهم سلامـــا

وما ذاقوا سوى مر الدمـوع
ولا عرفوا سوى قاني النجيـع

اتاهم امرنـا قـدرا مبيـــدا
فلم يجدوا هنالك من شفيع(3)

وعادت بعض الصحف الوطنية الى الظهور من جديد، واقبل عيد العرش فظهرت حوليات العيد وليس فيها من جديد من حيث الصياغة غير انها امتازت بتسجيل كفاح الملك والشعب . نذكر منها قصيدة الشاعر الحسن البونعماني ومنها الابيات التالية :

اليوم تسترجع الاشبال مجدهم
على يدي ملك احيا العلا فينــا

الفضل يرجع للمولى ابن يوسف من
قد سالمته لدى الدجى لياليـنـا

لقد بنى دولة عظمى موحـــدة
وانجد العاثرين العلم والدينــا

ضحى وغامر حتى قيل هل ملك
مثل ابن يوسف قد بذ السلاطينا

كما نذكر للحلوي قصيدة « تحية العيد » (4) .

يا سليل الملـوك موقفـك الخا
لـد هز الدنـا وابلـى الزمانـــا

موقـف طـارت النفـوس شعاعـا
من صـــداه وروع الشجعانــــا

لـو وعـاه الملوك هـان عليهـم
ان يضحوا العروش والتيجانـــا

وتمضي ايام العيد ، ونحس فراغا هائـلا في الميدان الادبي على العموم ، وكانت خيبة الامل شديدة عندما لم تعد رسالة المغرب والثقافة المغربية الى الظهور ، لتحملا رسالة الادب بهذه الديار ، ولتسد هذا الفراغ الهائل الذي كان الجميع يستحسنه ويشكو منه ؛ على اننا يجب الا ننسى ما قامت به الصفحة الادبية في جريدة « العلم » من استنهاض للقرائح وايقاظ للهمم ، ولم تقع محاولة جدية لاصدار مجلة ادبية تكون المجال الواسع لاثراء الادب العربي بهذا الجناح الغربي من بلاد العروبة ، لقد كنا هنا نعاني مركبات معقدة ، نشات عن شعورنا بالهوة السحيقة

---

3) نشرتها فيما بعد « مجلة دعوة الحق » العددان الرابع والخامس .
4) نشرت القصيدتان معا في جريدة « العلم » .

التي تفصل بيننا وبين الوضع الادبي بالمشرق العربي ، فلقد استجدت هناك مفاهيم جديدة ، وكثرت الدعوة للالتزام بعد ما اصبحت فكرة القومية العربية هدفا يسعى لتحقيقه جميع المخلصين من ابناء العروبة ؛ وقد اخذ الزيف الذي كان يجثم على السياسة العربية فى الانقراض ، وكان الادباء على راس الداعين لفكرة القومية العربية بمختلف الوان الادب ، ونشطت الاقصوصة والقصة والرواية ، وترجمت شوامخ الفكر الانساني ، كما اخذت حركة الشعر الحر تجد لها دعاة وانصارا ، وكل ذلك اشعرنا هنا ببعد الشقة ، وكانت الضرورة الملحة تدعو لايجاد مجال للنشاط الادبي تنزل اليه اقلام لامعة ، وتترعرع فيه كفاءات ناشئة ، ولم تستطع بعض المجلات ان تضطلع بهذا العبء على النحو الذي كان الجميع ينتظره ، ومع ذلك لا ننسى لها تقديم بعض النماذج لشعراء ناشئين لمسنا فى بعضها جد المحاولة التي جعلت نقطة انطلاقها هذا الاتجاه الجديد فى الشعر .

قسما بمغربنا .. بارض الخصب تزخر بالغلال
قسما باطلسنا الذي سكنت به اسد النضال
الشامخ .. الجبار .. يعبق بالمهابة والجلال
لن نستكين .. وارضنا نهبى تهدد بالزوال (5)

وفى كثير من المحاولات نلحظ ضعف التوجيه الادبي الصحيح ، ونقصا فى استقلال شخصيات ذويها، وفهما منحرفا لحركة الشعر الحر فى الشرق ؛ ومن ثم كنا نقع على كلام لا هو بالشعر ولا بالنثر ، وهو كذلك لانه لا يعتمد على خطة مرسومة واضحة تنبىء عن وعي عميق بهذه التجربة الجديدة ؛ ولابد من الاشارة الى اصحاب القوالب من المتشاعرين واعني بهم اولئك الذين يعمدون الى بعض القصائد السيارة ليضعوا مقابل كل كلمة لفظة على وزنها فياتي فى النهاية ما رصفوه مما لا اجد له اسما ، خاليا من الروح والذوق والفن ، ولن اكلف نفسي مشقة الاستشهاد لهذا الهراء

وطلعت علينا مجلة « دعوة الحق » فى يوليوز 1957 واشعرنا العدد الاول منها ان حظ الادب فيه ضعيف ، ورأينا فى كثير من الاعداد التالية شعراء من مثل الاساتذة المختار السوسي وعبد الله كنون ومحمد الحلوي ، وعبد الكريم التواتي يشاركون فى المجلة لا شعراء كما عرفناهم ، ولكن ككتاب جندوا اقلامهم للاصلاح الديني، وهو ما لم يخطر ببالنا ان نعيبه عليهم، لاننا محتاجون اشد الاحتياج الى من ينير السبيل امام الناشئة المغربية التي تقبل على قراءة كتب اجنبية يشيع فيها التساؤل والحيرة والشك ، لكن الذي اقلقنا هو ما كنا نخشاه من تخلي شعراء كمن ذكرنا عن رسالتهم الشعرية ، غير ان قلقنا سرعان ما بدا يتبدد، وظهر لنا الحلوي شاعرا ــ كما عرفناه ــ فى قصيدة « نداء » التي ترتقي الى مضمون من الصعيد الانساني العام :

يا اخي نحن فى الحياة على رغم هوانا وانفنا اخوان ،
فعلا ما نعيش فى هذه الدنيا ذئابا فى صورة الانسان (6)

وعاد الينا الشاعر علال الفاسي فى مثل قصيدته « ثورة الصحراء » التي يثير اعجابنا بها هذا الربط المحكم بين الصحراء كمصدر لمقوماتنا الروحية كعرب مسلمين وكقضية وطنية تقرر مصيرنا السياسي والاقتصادي فى الاطار العربي العام ، وفى زاوية الاقليمية المغربية ، وعبد المجيد بن جلون فى مثل قصيدته « خلف الحقيقة » وهي تصور اصدق تصوير هذا التازم الذي يعانيه الشباب ، والاستاذ عبد الله كنون فى قصيدة تعبر عن مناورة جوان ضد العرش ، وعلي الصقلي فى قصيدة « شعب وعرش »

قل للطغاة من المستعمرين : غدا
يرون ما لم يكن فى خاطر يقع
ان املوا .. فغدا تبدو لاعينهم
آمالهم كسراب ظل يلتمع
وان هم امنوا ... فالخوف عاقبة
للغاصبين بما جاؤوه والهلع
اي « ماكس » يا حامي الصحراء :نحن هنا
ان كنت ذئبا فقد اودى بك السبع

وابو بكر اللمتوني فى قصيدة « امنا الصحراء »

وطني تقاسمه اللصوص وصيروا
من حسنه وجماله اشلاء

---

5) من قصيدة للشاعر الناشىء احمد المجاطي « رسالة ثائر » نشرت بمجلة الشباب العدد 9 السنة 1
6) « دعوة الحق » العددان الرابع والخامس السنة الاولى

فليرجعوا عما آتوه ويعلموا
انا نهضنا نجمع الاجزاء

ولتجف اطياف الرقاد عيونهم
ان آثروا غير السلام لقاء

وعبد الكريم بن ثابت فى « ليل وصباح » التي لم تستفد من نشرها فى « دعوة الحق » الا بيتين كانت الرقابة حذفتهما من رسالة المغرب العدد السابع من السنة السابعة ، وهما :

ونادى المنادي الكفاح الكفاح
وداووا به يأسكم تسلموا

فما من سلام وما من نجاح
بغير الجهاد فلا تأمموا

ولم تكد « دعوة الحق » تدخل سنتها الثانية حتى كانت قد استطاعت ان تجمع من حولها كثيرا من ذوي الاقلام اللامعة والكفاءات الناشئة على السواء ، واصبح نصيب الادب فيها غير مغبون ، ورأينا الشاعر المختار السوسي يفيض علينا من قصائده التي تسجل بعض فترات الكفاح الوطني ، كما رأينا الشاعر عبد الرحمن الدكالي يسارع الى نشر انتاجه ، وعاد الينا صاحب « احلام الفجر » الشاعر عبد القادر حسن الذي اسفنا كثيرا لصمته الطويل ، واتاحت لنا هذه المجلة ان نقرا لشعراء يضربون فى مجاهل الاتجاه الجديد فى الشعر ، هذا الاتجاه الذي نعتقد انه لم يستطع ان يرسخ قدمه الا عند شعراء قليلين فى الشرق ، من مثل نزار قباني وشاكر السياب ، ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وكاظم جواد ، وهم يعالجون هذه التجربة عن وعي عميق بها ، محاذرين الانزلاق الى ما وقع فيه غيرهم كثير ، من فوضى فى النغم الموسيقي ، وتقعر واسفاف مضحك احيانا ، ويمثل هذا الاتجاه عندنا مصطفى المعداوي ، ومحمد الطنجاوي ، واحمد البقالي ، واحمد المجاطي ، ويصعب علينا جدا ان نعترف بنضوج جميع محاولات هؤلاء ، وان كنا لا نفقد بعض النماذج التي تدعو الى بعض التفاؤل والذي يمكن ان نعيبه على بعض هؤلاء ، هو فقدان شخصياتهم فى اكثر ما ينتجون ، فالمعداوي مثلا فى قصيدة « اقول » نحس بتقمصه لروح نزار قباني ، ومن ثم كانت قصيدته طبعة ثانية لنفثات نزار ... اننا بحاجة الى روح المعداوي وتجربته هو نفسه ، وطابعه الشخصي فى تلميع الكلمات وتنجيزها ليستطيع ان يثير اعجابنا ، وما على القراء ليدركوا صدق ما ندعي الا ان يقراوا القصيدة التي نسوق منها هذا المقطع :

انسيت ، هلا تذكرين ؟ (7)
فى ليلة العيد السعيد
فى ليلة البعث الجديد
كان الرفاق يدندنون وكنت ابدو متعبا
فجذبتني وهمست لي لحنا لدي محببا
وعيونك الزرقاء كانت للسماء
مرفوعة تخفي البكاء
وانا مصيخ والدموع
حرى تناثر فى خشوع

كما نعيب هذه الفوضى فى الوزن ، لان الشعر الحر عند رواده الواعين لا يعني ابدا التحلل من كل وزن وقيد ، وانما هو التماس اوزان مطواعة ان لم تعتمد على كامل البحر او مجزوئه او مشطوره او منهوكه ، فهي تعتمد على تفعيلات ليست غريبة على الشعر العربي ، وان كانت غير متنوعة لتكون اكثر طواعية ، ومن مجموعها يتكون ما اسمته نازك الملائكة بالتشكيلات المنسجمة .

فالطنجاوي مثلا نراه فى قصيدة « على الحدود » (8) يقع فى اخطاء عروضية لا يسمح بها حتى الشعر الحر نفسه ، فالذي يفهم لاول مرة ان الشاعر اختار لقصيدته مجزوء الرمل ، ويعتمد عليه كثيرا فى الشعر الحر ، لكننا نعثر على كثير من التشكيلات التي تخرج تفعيلتها عن نطاق التفعيلة المختارة ، ولنسق هذه التشكيلة :

تحترق الاوجه بالشمس وتبلى

ولا يمكن لنا وزنها الا اذ صح لنا ان نحول « فاعلاتن » لا الى « فعلاتن » ولكن الى « فاعلتن » فيكون وزن التشكيلة هكذا :

---

7) دعوة الحق عدد 11 السنة الاولى
8) نفس المجلة عدد 5 السنة الثانية

تحترق الـ . اوجه بالشـ . شمس وتبلى
فـاعلتـن فـاعلتـن فـاعلتـن فـــا

ولم نسمع « بفاعلتن » هذه وحتى لو فرضنا وجودها فهي ليست مما يسمح به الشعر الحر الذي يرى من العيوب الخروج على وحدة التفعيلة . لان هذا الخروج معناه فقدان مبررات البعد عن نظام التفاعيل في البيت العربي القديم ، وفي المطلع حيث يبتدىء هكذا :

صاعــــدا . . .

صاعـدا في اكمــة

والعتمــــــة

فقد بقيت التفعيلة (فاعلاتن) هذا فاعلا . . . الا اذا تصورنا ان النقط تقابل ما بقي من التفعيلة او تقوم مقام « في » التي سيكسبها تكرار الكلمة التي قبلها (صاعدا) صفة الانقطاع والاختناق ، ومثل هذا نلحظه في كثير من نماذج هذا الاتجاه ، والذي نقوله لهؤلاء ، عليكم ان تدركوا اولا وقبل كل شيء ان الشعر الحر ليس تحررا نهائيا من كل قيد ، وانما هو تصرف في اختيار التفعيلات القديمة تقتضيه مختلف المعاني التي تزخر بها قريحة الشاعر .

وفقدان الانسجام الموسيقي في القصيدة يخرجها عن نطاق الشعر الذي لا تصوره بدون ذلك الانسجام، وليس عليهم الا ان يتتبعوا حركة هذا الشعر بذهنية متفتحة عند رواده الواعين الذين لا يعجزهم ان ينتجوا شعرا على الطراز التقليدي لا عند اولائك الذين يتحللون من كل قيد ، ويضربون على غير هدى ، وليسوا ابدا بقادرين على انتاج شعر من الطراز الاول . . .

بعد هذا العرض الطويل نعود فنثير نفس الاسئلة التي كنا اثرناها في اول مقال من هذه الدراسة، هل كانت نشاة الشعر المغربي الحديث سليمة ام كسيحة ؟ واذا كانت واحدة منهما فما السبب في ذلك ؟ ما هي العوامل التي تضافرت لجعله على هذه الحالة او تلك ؟ وهل هناك خصائص تميز الشعر المغربي عن غيره ؟ وما مدى تاثر شعرائنا بزملائهم في الشرق العربي ؟ وما موقفهم ازاء موجة التحرر الشعري في الشرق ؟ وما مدى تجاوب شعرائنا مع الاحداث والرجات الاجتماعية في الداخل والخارج ؟ وسنحاول الاجابة عنها هنا بشيء من الاختصار على ضوء العرض السابق .

لم تكن نشاة الشعر المغربي المعاصر سليمة على العموم ، وذلك في نظري راجع الى عامل اساسي هو ضعف حركة النشر في المغرب ، فالمجلات المغربية التي ظهرت قليلة اذا قورنت بما كانت تصدره بعض الاقطار العربية من مجلات شهرية واسبوعية ، ثم انها على قلتها لم تكن تستطيع ان تواصل سيرها دائما ، فكثيرا ما كانت تحتجب لسبب مادي ، او لالقاء القبض على مصدريها والمشرفين عليها ، لذلك تبقى نشاة الشعر عندنا مرتبطة بحركة النشر ، فعندما تزدهر هذه الحركة يزدهر ويترعرع .

ولا تكاد هذه الحركة تصاب بشلل حتى يكون ذلك من اهم عوامل كساحته ، والادب بجميع فنونه لا يزدهر الا بازدهار حركة النشر ، فاذا اصيبت هذه بركود كان معنى ذلك ركود الادب ، وغني عن البيان ان حركة النشر مرتبطة بتوافر القراء ، ومدى انتشار الثقافة في الامة .

والواقع انه من الصعوبة بمكان ، ان نجد للشعر المغربي خصائص تميزه عن غيره ، لانه على العموم ينزع الى التاثر بمختلف التيارات الشعرية في الشرق وان كان اكثر تشبثا بالاسس القديمة لروح القصيدة عند اكثرية شعرائنا ، وهذا يعني ان موقف الكثير منهم ازاء موجة التحرر الشعري بالشرق موقف تنقصه الحماسة وحسن الاستعداد ، وهو موقف ناسف له حقا ، لان تطوير الشعر العربي وتجديد اداته امران ضروريان تقتضيهما متطلبات العصر المعقدة والبيئة الجديدة التي يحياها الشعراء ، غير ان هذا التطوير وذلك التجديد يجب ان يكونا في دائرة لا يفقد معها كل مميزاته كشعر عربي اولا واخيرا ، والا فستكون جناية عليه واجهازا على الروح العربية فيه ، ولن نستطيع الاحتفاظ بهذه الروح لمجرد استعمال اللغة العربية كاداة للتعبير فيه ، بل لابد من الاعتماد على تفاعيل ليست غريبة على الشعر والذوق العربيين ، ومن حسن الحظ فان بعض تفاعيل الاوزان العربية تساعد على التطوير بشكل يذلل تلك الصعوبة التي تنشا عن تعدد تفاعيل البحور ، لكن اكثرية الذين يتوفرون على الحماسة لهذا التطوير عندنا تنقصهم الخبرة بالاوزان العربية وما تنطوي عليه من امكانيات ثرة يستطيع الشاعر الخبير بها استغلالها لصالح تجديد الشعر وتطويره ، وعندما يقبل الفريق الاول مبدا هذا التطوير، وعندما يدرك الفريق الثاني ان التجديد ليس معناه التحلل من كل القيود ولو كان ذلك على حساب

الانسجام الموسيقي ، عند ذلك سيستطيع شعراؤنا ان يسهموا بحظهم في التطوير والتجديد ، وسيسجلون بذلك انتصارا في خط سيرنا الادبي .

اما عن موقف شعرائنا ومدى تجاوبهم مع الاحداث والرجات الاجتماعية في الداخل والخارج ، فاننا اذا كنا لا ننكر لهم هذه الاستجابة بالنسبة لبعض الاحداث ، فمن الانصاف للحقيقة ان ننعي عليهم تقاعسهم حيال احداث اخرى ، فقد راينا ان فريقا من الطائفة الاولى والثانية لم يتوان في التعبير عن رد فعل لحادث الحماية المشؤوم ، كما لم يتوان كثير منهم عن تسجيل بعض الاحداث داخل فترة الحماية نفسها في حدود مهما تكن ضيقة فهي ليست منعدمة على الاطلاق، وان لم تكن في نفس الوقت على النحو الذي يدعو الى التنويه والاكبار ؛ هذا في الداخل اما بالنسبة للخارج فهناك احداث تتصل بالصعيد العربي العام كماساة فلسطين الجريحة ومشكلة الجزائر المكافحة ، وحادث الاعتداء الثلاثي على مصر وميلاد فكرة القومية العربية ، وفكرة توحيد المغرب العربي لم تلاق من شعرائنا ذلك الاهتمام الذي كان يجب ان تلاقيه لاتصالها بكياننا ووضعنا السياسي والاقتصادي .

اما ما يمكن ان نسميه بتيارات الشعر المغربي ، فنستطيع ان ندرك من تضاعيف ما سبق ان هناك ثلاث تيارات : تيار تقليدي وهو الغالب ، وتيار يجنح الى الاتجاه الجديد ولم يستطع رواده بعد ان يرسخوا اقدامهم فيه ، ولا يزالون في ميدان التجربة والمحاولة غير الناضجة احيانا . وتيار ثالث يتارجح اصحابه بين هذا وذاك ، وتبقى بعد هذا حقيقة لن يستطيع ان يماري فيها ممار مهما بلغ من التشاؤم الذي نعده من اكبر عوامل الهدم ، وهي اننا اذا كنا نشكو نقصا فاضحا مخجلا في فن من فنون الادب فلن يكون الشعر ولا المقالة بحال من الاحوال ، وانما نشكو ذلك في الرواية والقصة بنوعيها على ان هذا يجب الا يشعرنا باننا في مقدمة الركب في الفنين الاولين او اننا نستطيع ان نقف فيهما الى جانب كثير من الدول الشقيقة ، وانما الذي نقصده ان نقصنا فيهما لا يقارن بشكل من الاشكال بتخلفنا في ميداني القصة والرواية ، فهل آن لنا ان ندرك ان مجرد تاسفنا على اننا في مؤخر القافلة الادبية لن يفيدنا ولا الادب في شيء ، لاننا جميعا متفقون على ان وضعنا الادبي على العموم ليس مما يرضينا ، وما دمنا جميعا متفقين على ذلك فاي معنى يبقى لان نقول ونعيد القول ، باننا في مؤخر القافلة ، انه قول يبقى متلبسا بالسلبية مهما تلاعبنا بالالفاظ ، وتفننا في صوغه بمختلف الاساليب والكلمات الرنانة . .

ان الذي نحتاج اليه هو البحث عن اسباب تخلفنا هذا وكيف نقوى على تفاديه ، وفي نفس الوقت ننتج ادبا ؛ شعرا او قصة او رواية ، فان ذلك سيعطي لغيرتنا على الوضع الادبي بيلادنا مدلولا ايجابيا بناء نحن احوج ما نكون اليه في هذه الظروف لانقاذ سمعتنا الادبية . .

ضرورة العناية في نقل النصوص

نقد : محمد محمد الداودي

من اهم صفات الناقد دقته في نقل النصوص التي يعرضها للقراء ناقدا اياها او معلقا عليها او مستشهدا بها فلا يمكن ان يطمئن القراء الى صحة دعوى الناقد الا اذا ثبتت امانته في النقل .

واحيانا قد يتحرى الامانة هذه ناقد ولكن تعوزه الوسائل التي تمكنه من معرفة حقيقة النص ومطابقته للاصل الذي وضعه المنشيء ، لذا فان ثقافة الناقد لابد من ان تكون واسعة وشاملة .

والقارىء النابه المطلع قلما تفلت منه زلة الكاتب او الناقد ، وهذا ما يجعل الكتاب والناقدين حذرين فيما يكتبون من الزلل والغفلة ، واذا خفيت بعض هفوات الكتاب في نقل نصوص نثرية قد لا يكلف كثير من القراء انفسهم عناء الرجوع الى اصولها ، فان هفوات النقل للابيات الشعرية قلما تفلت من متذوقي الآداب وذوي الاذان الموسيقية . فموسيقى الوزن دقيقة ومحكمة ، واي خلل يحصل فيها تتلقفه الاذن وتقف عنده لانه افسد النشوة التي تحصل عند القارىء حين ترنمه بالشعر .

سقت هذه المقدمة لاني وجدت وانا اطالع (العدد الثامن من مجلة « دعوة الحق ») لهذا العام بعض الهفوات في نقل ابيات شعرية حرت في معرفة المسؤول عنها ، اهو مرتب الحروف او كاتب المقال ام كلاهما .

فهذا مقال للناقد الاستاذ الفاضل محمد المصمودي ، يتكلم فيه عن الشعر المغربي المعاصر ، وهو حين يعرض للشاعر **عبد المالك البلغيثي** ويروي له ابياتا من قصيدة عنوانها **(ارجيكم بني وطني)** نجد فىروايته خللا فى الوزن لا اشك فى براءة الشاعر منه ، وها انذا اذكر الابيات مع وضع خط تحت ما فيه خلل :

مضت فى المغرب الاقصى   سنون تعد كالعمر
ولم تر بيننا فئة   بنور علومها تسري
محام او مهندس او   طبيب شارح الصدر
وطيار يطير بنا   **لترقي مع الغير**
وغواص يغوص بنا   **على قطع الدر**
وهل كصنائع **الشعب** مـ   **ـن قاض على الفقر**

ولا نظن ان هذا الخلل قد صدر عن الشاعر لذا اقول : من المسؤول ؟ .

واذا جاز لي وانا امام هذا النص المظلوم ان انصفه ولعلي اقترب من الصواب او ابلغه ، فاني اروى الابيات بالصورة الاتية :

مضت فى المغرب الاقصى   سنون تعد كالعمر
ولم تر بيننا فئة   بنور علومها تسرى
محام او مهندس او   طبيب شارح الصدر
وطيار يطير بنا   **لكي ترقى مع الغير**
وغواص يغوص بنا   **على قطع من الدر**
وهل كصنائع **للشعـ**   **ـب من قاض على الفقر**

وهناك بيت يذكره الكاتب الفاضل للشاعر الغزلي عبد الرحمن حجي وهو ثاني البيتين الآتيين :

قد راق لي فى هواك الذل والارق
يا من له الاسودان الخال والحدق
الله فى كبدي وما تكابده
يا من له المشرقان الثغر والعنق

ولا شك فى ان البيت الثاني غير مستقيم الوزن وصوابه :

الله فى كبدي مما تكابده
يا من له المشرقان الثغر والعنق

ثم ان لي ملاحظة على بيت لشوقي رواه الاستاذ الشاب الاديب محمد بن تاويت فى مقاله « » سحر القافية » وقد رواه على الصورة التالية :

كذاك الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم
ويذهب عنهم امرهم حيث تذهب

ولا حاجة بنا الى التنويه بان الشطر الاول غير مستقيم الوزن ، وان صواب البيت هو :

كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم
ويذهب عنهم امرهم حين تذهب

*

هذه كلمة موجزة سقتها لا ابغي بها سوى بيان ضرورة الامانة فى نقل النصوص من اصولها ومن الله السداد .

اصلاح الميزان

لقد نشرت بالعدد الثامن من السنة الثانية من مجلة (دعوة الحق) حديثا تحت عنوان « **لغة القرآن والقومية العربية** » وعلق عليه فى العدد التاسع فى باب « العدد الماضي فى الميزان » الاستاذ رباح عضو البعثة التعليمية المصرية ، وقد سبق وهمه الى فهم غلط فى معنى كلمة (الحظوظ) الواردة فى حديثي المذكور ، فقال فى مجال نقده : لا يا اخي ان الله لم يختر اللغة العربية للقرآن على سبيل الصدفة او ما اسميته انت (حظوظا) فقولني بذلك ما لم اقله ، بناء على فهم خاطىء ترده عليه لغة القرآن نفسها ، فالحظ ليس هو الشيء الحاصل على سبيل الاتفاق من غير قصد اليه كما يقع فى القرعة او اليانصيب ، كما سبق الى وهم الاستاذ الناقد ، بل الحظ فى لغة القرآن هو النصيب المقدر ، وقد يطلق على بعض كتب الله المنزلة المقدسة. قال ابو القاسم الراغب فى مفردات القرآن : الحظ

النصيب المقدر ، قال الله تعالى : **فنسوا حظا مما ذكروا به** ، وقال تعالى : **للذكر مثل حظ الانثيين** .

والعبارة التي قلتها ففهمها الاستاذ رباح هذا الفهم العجيب هي : ان الله سبحانه هيا للغة العربية خير الحظوظ ، حيث انزل بها كتابه المحفوظ بوعده الصادق على لسان الوحي الناطق، فاذا فهمنا الحظوظ على لغة القرآن ، يكون المعنى ان الله هيأ للغة العربية خير الانصباء المقدرة ، واذا كان التهييء الذي هو اعداد هذه الحالة الخاصة للغة العربية وقع اسناده الى المقدر العظيم لكل الاشياء ، يصير المعنى الى الوضوح الذي لا يختلف فيه ، وهذا التهييء هو المطلوب من الالاه العظيم في كل الاحوال : « **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا** » .

وكذلك حصل اشتباه للاستاذ رباح فيما يستفاد من عنوان كلمتي (**لغة القرآن والقومية العربية**) ففهم اني اتناول بالبحث موضوعين : نفس اللغة العربية . واهداف ومرامي القومية العربية ، فرآني مقصرا ، وحجة فهمه هذا انه رجا ان اعود الى الموضوع ليكون لي شرف توضيح القومية العربية ولغة القرآن .

وما كان الشأن لكتاب الابحاث ان يتناولوا موضوعات متعددة في المقالة الواحدة ، بل العنوان اشتمل على جزئين مبتدا ومعطوف عليه بواو المعية ، والخبر الذي هو الجزء المتم للفائدة محذوف للعلم به ، فهو من باب ما ذكره ابن مالك في الفيته وكافيته بقوله فيما يحذف خبره :

وبعد واو عينت مفهوم مع ؛ كمثل كل صانع وما صنع ، ومثل له بقوله : كل صانع وصنعته ، وكل رجل وضيعته ، اي مقترنان او معلومان او مصطحبان .

وكذلك نقول هنا : كل لغة وقومها ، اي مقترنان ، وقد وفيت بهذا المعنى حيث ذكرت ان لغة القرآن رافقت الامة العربية في مختلف اطوارها وتقدمها ، فكانت لغة ادبهم في الجاهلية ، ولغة عقيدتهم وشريعتهم في اول الاسلام ، ولغة ادارتهم وعلومهم وفلسفتهم وحضارتهم وجميع ما تعبر عنه لغة حية عند كل قوم . اما اهداف القومية العربية ومراميها فما التزمت التعرض لها على الاطلاق .

وعلى هذا فما قولنيه الاستاذ رباح اولا ، وما الزمني التعرض له ثانيا في غير محله ، اما تلخيص الاستاذ لبعض فصول المقالة في شكل برقيات ترسل للصحف ويجاب عنها ببرقيات اخرى ، فهو ابتكار في النقد يشكر عليه الناقد ، ونرجو ان يكون في ذلك قدوة لغيره حتى يصبح تلخيص الابحاث في شكل برقيات يجاب عنها طريقة متبعة مثل طريقة السؤال والجواب في البحث التي اتبعها سقراط حكيم اليونان القديم .

محمد الطنجي

يفهم من التعليق القصير الذي اورده (**الاستاذ محمد رباح**) عضو البعثة التعليمية المصرية على مقال « **في شعرنا المعاصر** » **في باب العدد الماضي في الميزان** ، ان الاستاذ رباح اقتصر على قراءة المقال المنشور في العدد المراد نقده من مجلة دعوة الحق الغراء، ولم يكلف نفسه مشقة قراءة الاقسام الاخرى ، وقد نشرت متسلسلة في اعداد سابقة ولاحقة ، ومن ثم كانت ملاحظته غير صحيحة بالنظر لمجموع الاقسام ، ولو انه اطلع بالخصوص على العددين 4 و 6 من هذه المجلة لكان بوسعه ان يقف على الخطة المرسومة بشيء من العناية والتي وقع اتباعها في باقي الاقسام وسوف لا يفتقد فيها ما نفاه عن هذه الدراسة من الوضوح في التخطيط . . .

سيرى مثلا تقسيم اطوار الشعر المغربي المعاصر الى فترات هي فترة ما قبيل الحماية ، وفترة الحماية نفسها وفترة الاستقلال ، مع التماس بعض القطاعات المختلفة داخل كل فترة ، وكان الحرص فيها شديدا على ابراز مميزاتها وخصائصها جهد الامكان ، ولم يقع اغفال تحليل بعض العلل التي استدعت ظهور بعض السمات والاتجاهات في الشعر المغربي ، واذا كان ذلك التقسيم تاريخيا في اساسه فلان هذا التقسيم نفسه مجهول لدينا ، لان تاريخ الادب المغربي لم يقع تسجيله بعناية بعد .

اما عن سوق كثير من الشواهد فلغرض التعريف بالشعر المغربي الذي ليس مجهولا لدى الاقطار العربية الشقيقة فحسب ، بل وفي المغرب العربي ذاته ، وهو نفس السبب الذي من اجله لم يناقش الاستاذ الاحكام الكثيرة الواردة في المقال ، ولكي تتاح الفرصة كذلك لاخواننا بالشرق ان يقولوا شيئا عن شعرنا الذي لم يعرض له الا قليل منهم بشيء من التسرع والاختصار .

والى الاخ العربي الاستاذ رباح خالص التقدير والاحترام .

محمد الامري المصمودي

العدد الماضي في الميزان

الاستاذ عبد القادر حسين

عفا الله عن سميي الاستاذ «عبد القادر» الصحراوي فقد كلفني — عن حسن ظنه بي — شططا وهو يطلب مني ان اكتب في هذا الباب ، وقد حاولت بجميع ما وهبني الله من لباقة وحسن « تخلص » ان احيله على غيري ممن مارسوا الكر والفر في ميدان النقد والتقريظ ، لا ممن يحاول بشق الانفس ولوج باب القريض ، ولكن ذلك كله مر بدون جدوى ، فقد كان الحافه شديدا ، وما فتحت ثغرة للنجاة ، الا وجدته هيأ — في كياسة — ما يغلقها دوني ، فكأن الامر دبر بليل ، للايقاع بي في مشكلة كان احرى بي ان اكون منها بمنجاة .

فهل ارفع موازين النقد واضع انتاج الزملاء على المشرحة حتى اضع اصبع القاريء على مواطن الابداع ، ومواطن الضعف والسقوط في كل انتاج انتاج ؟ انها لمهمة شاقة ، سيما والمثل الدارج يقول « شهادة اليوم تلقاها غدا » وانا ما اريد ان افتح على نفسي ثغرة يصعب علي اغلاقها بعد حين فرحم الله ابا الطيب حين يقول « وعداوة الشعراء بئس المقتنى » .

وحتى لو اردت ذلك ، ووطدت العزم على ان اكون هدفا لغيري في مستقبل قريب ، فداء لقول «الحق» الذي تدعو له المجلة التي انتمي الى اسرتها ، فاي الموازين ارفع ، القديمة ، ام الحديثة ؟ فمن كتاب وشعراء هذه المجلة طائفة محترمة من الظلم تطبيق قواعد النقد الحديثة عليهم ، لانهم درسوا وانتجوا قبل انتشارها ، او لانهم لا يؤمنون بمقاييسها ، كما انه من الظلم تطبيق قوانين النقد القديمة على طائفة اخرى ناشئة ، جعلت تاخذ مكانها في حياتنا الادبية ، في حين انها لا تعرف الكثير عن تلك المقاييس ، او لا تؤمن بها ؟

يبدو لي انني ساكون ظالما على كل حال ، وحتى لو كلت بصاعين فسوف لا اسلم من الحيف ، فانا نفسي مخضرم — على ما يبدو لي — آخذ من كل فريق ما يحلو لي ، واعتمد في الاغلب على ذوقي الخاص ، لا على هذه المقاييس او تلك ، فالادب للادب يستبد بنفسي في الاغلب ، من حياتي ، ولاكنني — بدون شعور — اجدني في غمرة الادب للحياة في كثير من الاوقات ، ولا اظن ان اي اديب من ادبائنا المحترمين معافي من مظهر — قل او كثر — من هذه الحيرة التي يعيشها جيلنا الحاضر ، سواء جرؤ على الاعتراف بها ام لم يجرؤ ، احس باعراضها ام لم يحس .

طالما فكرت في هذا الموضوع ، اي موضوع البلبلة الذي نحياه جميعا — حسبما اعتقد — والذي يجعل الكثير منا نسي مشيته في حين لا يتقن مشية الحمام او على الاصح يوحي الينا ما قر في افكارنا من تقديس لكل ما هو من الغرب ، ان كل شيء في يدنا شر لا خير فيه ، وانه يجب ان نولد من جديد حتى نماشي الحياة الجديدة ، الملتزمة الهادفة ، ولكننا كلما تقدمنا خطوة في هذا السبيل ، الا وابتعدنا خطوات عن المنبع الذي يجب ان نظل نرتشف منه ، بسبب الاغراءات الخادعة ، ومركب النقص الذي يجعلنا نوشك ان نتنكب كل شيء لنا ان لم نكفر به جهارا ، وفي نفس الوقت لا نستطيع ان نمشي مشية الحمامة ، ذلك المخلوق الغريب عنا الذي جعلنا تقليده هدفا يجب ان نصله ، لا في الادب فحسب ، والا لهان الامر ، بالرغم عن ان الادب مجلي الحياة ، ولكن في المتجر ، والمخبز ، والادارة ، والمصنع ، والبيت ، والمدرسة ، بل اغرب من ذلك وهذا ، هو ما سمعت من حديث بعض القوم عن تطوير المسجد ! فقد اعجب هذا الشاب بحفلة دينية احياء لعيد الميلاد في احدى كنائس باريس ، فتمنى لو كان في مسجدنا شيء من تلك المغريات ، كراسي مثلا ، و (بيانو) ، واصوات جميلة ، فما راي وزارة الاوقاف المحترمة ؟

وان الالم ليحز في النفس حينما يتخيل المشفقون منا اي مصير نتردى فيه لو بقينا — لا قدر

الله ـ سائرين فى هذا السبيل وقيود الرواسب تشلنا، وتعوقنا عن اي حركة تهدف الى اية غاية غير ما زينته تلك الرواسب التي بذرها الغرب ، وما يزال يغذيها ، ونحن مجندون ـ احببنا ام كرهنا ـ فى عونه على انفسنا .

ان مهمة « دعوة الحق » مهمة صعبة وشاقة ، اذا تصورنا هذا المحيط الذي تعمل فيه ، والـذي يجرفها هي ايضا ، بحجة حرية الفكر ، الشيء الـذي تغبط عليه ، ولكنها فى نفس الوقت لا تنسى مهمتها « الهادفة » وهي تقويم التفكير ، وتوجيهه الوجهة التي ترضى قوميتنا ، وتاريخنا ، وديننا واخلاقنا ، فهي ، بفضل الثلة المباركة التي تلتف حولها ، والتي تكون الدعامة الاولى لنهضة الفكر والادب فى هـذه الديار ، مع المحافظة على ما لنا من تراث فكري واخلاقي ، تصارع ذلك التيار الجارف ، ولكن برفق ورزانة ، وبدون مغامرة فى جدال قد يكون ضرره اكثر من نفعه ، شان الوالد الحنون المشفق على ابنائه يسايرهم فى مطالبهم بالقدر الـذي لا يخل بما يلزمهم من السلوك العام ، فى توجيه لا يثقل على نفوسهم الشابة الطموح لكل جديد براق .

فهي تسد فراغا كان يصبح لولاهـا مزعجا ، وهي من ناحية اخرى وجه الصحافة فى بلادنا من حيث الاخراج والطباعة ، مع ما تتمنى لها من اطراد التقدم والتوسع فى الابواب التي لا تطرقها او تطرقها برفق وتقاطع .

ولكن هذه المهمة الشاقة ، ولا ازيدكم علمـا بمزاياها ووجوب القيام بها ، لا يمكن ان تؤتي اكلها ، وتقوم بدورها احسن قيام ، الا اذا تضافرت الجهود للنهوض باعبائها فى اناة وصبر واستمرار ، وبالاخص من طرف الفئة التي تشفق على مستقبل الثقافة العربية والادب العربي ، والمبادىء والاخلاق الاسلامية فى هذه البلاد .

واذا كان لي ما اقوله لهيأة تحرير « دعوة الحق » فهو ان لا تفتأ تذكرنا بخطتها ، وان لا تمل من الحديث فى هذا الباب ، فالانسان كما يقولـون مشتق من النسيـان ، ونحن ما نزال نتحدر ، فتكرار الحديث فى هذا الباب ، وضرب الامثال ، والنقاش الرزين البناء ، كل ذلك يجعلنا نتحرى الهدف المقصود من هذا المشروع الجليل ، ويرد المنحرف الى الطريق ، ويهدي الحائرين ، ويدق جرس الخطـر للنائمين والغافلين منا حتى ياخذ كل واحد مركزه فى هذه المعركة الشاقة ، من اجل بقائنا عربا مسلمين، لا بالاسم وحسب ، بل بالعمل اليومي ، فى الادارة وفى المصنع ، و فى المدرسة ، و فى البيت ، وفى المقهى ، وفى الشارع وفى الفكر والقلب واللسان بالاحرى !

كما يحلو لي ـ وانا اكيل الملتمسات الى هيأة التحرير ـ ان اطلب اليها ان تدعو الى اسبوع التحدث بالعربية فى اوساط المثقفين على الاقل ، ريثما يوفق الله وزارة المعارف فتتخذه موسما تدعو له بما لديها من وسائل كل سنة على الاقل ، كما وجد (بركسون) من يقيم له اسبوعا ، حتى يتمرن شبابنا على التعبير عن افكارهم فى مدة اسبوع دون ان يلتجئوا الى لغة غير لغتهم ، واساليب غير اساليبهم .



الاستاذ عبد القادر حسن

وبعد ، فهذه فذلكة يمكن ان يعتبرها البعض خارجة عن موضوع هذا الباب الذي الف القراء فيه شيئا غير هذه ؛ تلخيصا لكلمات العدد السابق ، واطراء لمجهودات الكتاب والشعراء ، او نقدا لبعضهم نقدا نزيها فى الاغلب ، وقد يعتبرها البعض الآخر تعصبا ، ولاسيما وقد سبق ان مزحت فى الاول بما يؤيد هذا البعض ، ولكنني ارى ان الامر ـ حسب رايي ـ يتعدى حدود التعليق والتلخيص ، الى وضع مشروع « دعوة الحق » من حيث هو فى الميزان حتى نلتف حوله ، ونعمل كل ما فى وسعنا من جهد لانجاحه، انرايناه يسد حاجة، ويسير نحوهدف يرضي ضمائرنا ، والا نفضنا منه ايدينـا ، وهذا بالضبط ما حاولت ان اقوم بـه .

اما الزملاء المحترمون الذين اوقعهم حظهم فى هذه المرة بين يدي فاجرهم على الله ! فلا تلخيص ، ولا تعليق ، ولا اشادة ولا انتقاد ، وقد يكون هـذا من الخير لهم ولي ، فالعدد الذي بين ايدينا الآن هو آخر عدد من هذه السنة ، فالمجلة اذن فى اجازة فمن الخير ان يذهبوا هم ايضا ـ مرتاحي البال ـ الى اجازتهم .

أنباء ثقافية

※ كتب اديب لبنان المفكر الكبير ميخائيل نعيمة الى مندوب مجلة « دعوة الحق » بتطوان السيد محمد الصباغ رسالة اعجاب وتقدير لمجهودات هذه المجلة . وهذا مما جاء فيها « .. **وصلتني الاعداد التي صدرت حتى اليوم من مجلة « دعوة الحق » فاثارت اعجابي بشكلها ومضمونها . وما كنت احسب ان اخواننا المغاربة قد وثبوا مثل هذه الوثبة ، وبمثل هذه السرعة . بارك الله فيهم ..** »

※ نشرت مجلة الاديب البيروتية فى احد اعدادها الاخيرة رسالة الاستاذ عبد القادر الصحراوي التي وجهها الى الاستاذ بولس سلامة يشكره فيها على اهتمامه وعنايته بمجلة « دعوة الحق » ومشاركته فيها باشعاره القيمة .

※ اصدر الاستاذ الكبير السيد عبد الله كنون طبعة جديدة لكتابه القيم « مدخل الى تاريخ المغرب » فنهنىء الاستاذ كنون بهذا النشاط المتواصل لرفع المستوى الثقافي بالمغرب ، وندعو لكتابه بالنجاح .

※ حمل الينا احد اعداد « المصور » الاخيرة هذا النبأ « طلب الامير مولاي الحسن ، ولي عهد المغرب موافاته بنحو مائة كتاب من كتب القاهرة ، اكثرها يدور حول موضوع القومية العربية » .

※ اجتمعت لجنة تيسير الكتابة العربية فى مجمع اللغة بالقاهرة لدراسة المشروع المقدم من الاستاذ محمد الاخضر ، خليفة مدير التعليم العالي والبحث العلمي بوزارة التعليم المغربية ، وقد لاقى المشروع استحسانا من اعضاء اللجنة .

※ استدعي المغرب رسميا للمشاركة فى المهرجان الدولي للسينما الذي سيقام فى سان سيبستيان ـ اسبانيا من 11 الى 20 يوليو .

※ صدرت بالقصر الكبير مجلة « الجذوة » مشتملة على مقالات ادبية واجتماعية وفنية .

※ نظمت اللجنة الثقافية مؤخرا بدار الجمعيات الثقافية ندوة عولج فيها موضوع « عناصر الثقافة المغربية » شارك فيها عن المغرب الاستاذ الحسن السائح ، وعن الجزائر المجاهدة الاستاذ عبد الله شريط ومحمد الميلي ، وعن تونس الاستاذان مصطفى الفيلالي ومحجوب ميلاد ، كما القى نفس اليوم وبنفس المكان الدكتور البير الحوراني الاستاذ بجامعة اكسفورد محاضرة عن « النظام الجامعي بانقرة » .

※ غادر المغرب السيد عبدالعظيم اعمار من مصلحة التربية الاساسية متوجها الى ايطاليا ، ويوغسلافيا ، والجمهورية العربية المتحدة ، والسودان بمنحة من اليونسكو لاجل الاطلاع على على مشاريع ومنجزات هذه الدول فى ميادين تعليم الكبار ، والتكوين المهني والانعاش الاجتماعي وانتاج الكتب لتربية الجماهير

※ تصدر وزارة التربية التونسية بمساعدة بعثة اليونسكو للمساعدة الفنية فى تونس صحيفة جديدة لتثقيف الكبار الذين انهوا من تعلم القراءة والكتابة حديثا . وقد صدر منها العدد الاول مشتملا على موضوعات مختلفة تتناول شؤون السياسة والتعاون الزراعي والتغذية ، وخصصت صفحة للفنون الشعبية التونسية وحقوق المراة فى تونس ، كما خصصت صفحة لمراحل تطور تونس منذ ان نالت استقلالها، فضلا عن انباء تتعلق بالمغرب العربي الكبير.

※ اسست كتابة الدولة للتربية القومية مؤخرا فى تونس معهدا بيداغوجيا يتولى ضبط البرامج الجديدة لاصلاح التعليم .

※ القى الاستاذ كانبان المفتش للعلوم الطبيعية والخبير بمنظمة اليونسكو محاضرة قيمة فى تونس عن مشاكل التعليم بها وحلولها .

* القت القصاصة الجزائرية المعروفة آسيا جبار فى تونس محاضرة قيمة عن « الادب الجزائري » استمع اليها كثير من المثقفين الجزائريين والتونسيين

* افتتح المعرض التونسي للرسم الفني بقاعة البلدية للمعارض الفنية بتونس تحت اشراف كاتب الدولة للتربية القومية .

* انشأ رجال الفن بالقاهرة « معهدا اهليا للفنون الجميلة » بقصد الى دعم التعاون بين جميع الفنانين والهيئات المعنية بالنهوض بالثقافة الفنية ، ويكفل الاتصال بالهيئات والمعاهد الفنية فى العالم لتبادل النشاط الفني . وقد وضع المعهد لنشاطه برنامجا حافلا ، فهو ينظم معرضا دائما لاعمال التصوير والنحت والخزف والحفر والفنون الزخرفية ، يوفر على الفنان مكانا يعرض فيه دائما نماذج من اعماله ويسهل فى الوقت نفسه على محبي الفنون من الاهلين والزائرين من الدول الاخرى مشاهدة نماذج من الفن المعاصر فى القاهرة ، كما ينظم المعهد مواسم ثقافية من محاضرات ودراسات وندوات وينوي اصدار نشرة فنية ومطبوعات تسجل اعمال الفنانين .

* وفد الى دار منظمة اليونسكو بباريس الدكتور رياض عسكر مدير عام التربية والتعليم فى منطقة كفر الشيخ بالاقليم المصرى ، بمناسبة قيامه بجولة دراسية هيأتها له منحة من اليونسكو وتمهد له الاطلاع على تجارب هذه المنظمة الدولية فى ميداني التعاون والتفاهم الدوليين عن طريق مناهج حديثة فى التربية والتعليم . ويرى الدكتور عسكر ان التربية وسيلة مباشرة من وسائل بث الروح الدولية فى المدرسة ، فعن طريق العلوم الاجتماعية والنشاط المدرسي وعن طريق تتبع نشاط الامم المتحدة ومنظماتها المتخصصة ، تستطيع التربية المنهجية ان تخلق وعيا دوليا فى نفوس الشباب .

* صدرت بالقاهرة حديثا الكتب الآتية : « الوسائل والغايات فى التربية والتعليم » بقلم الاستاذ محمد محمود رضوان « تايلور » بقلم الدكتور احمد ابو زيد « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للزعيم المصلح عبد الرحمن الكواكبي « مشكلات الحياة الانفعالية » بقلم سبرجينون انجلش وجيرالد بيرسون وترجمة الدكتور مختار حمزة « شرح ديوان صريع الغواني » لمسلم ابن الوليد الانصاري ، تحقيق وتعليق الدكتور سامي الدهان « اتحاد الدول العربية وجمهورية العراق الجديدة » للدكتور جمال الدين الرمادي « رفاعة رافع الطهطاوي » للدكتور جمال الدين الشيال « ذكريات شباب » للدكتور عبد القادر القط « شيء من صدري » لاحسان عبد القدوس « انه الانسان » لخالد محمد خالد « الروائع » للدكتور لويس عوض يضم 20 مسرحية لشكسبير وسارتر وابسن « مشكلات حياتنا اللغوية » لامين الخولي « العدد الثالث من مجلة الصحة النفسية » « الفرضية فى السلوك الانساني » لكمال الدين عبد الحميد « الهيآت لابن سينا » للاب قنواتي والدكتور ابراهيم مذكور والاستاذ سعيد زايد « دراسات فى القومية العربية » للواء محمد حمدي « الجزء الخامس من كتاب الاغاني » « رسائل من نهرو الى ابنته » ترجمة الدكتور عبد العزيز العتيق « ادب وطرب » للاستاذ عبد العاطي جلال « الاعداد الاربعة والاربعون من تاريخ العالم لهامرتن » قام بترجمتها قسم الترجمة والالف كتاب بوزارة التربية والتعليم « مذكرات بكويك » لشالزديكنز ترجمة عباس حافظ « اصول الفلسفة الاشراقية » للدكتور محمد علي ابو زيان « الينبوع » للكاتب الاميركي يوجين اونيل وترجمة صلاح عز الدين « غزو الفضاء » لكامل خليل برتية « موكب النور » للدكتور جمال الدين الرمادي « جنوب الجزيرة العربية » لمحمود الشرقاوي .

* وافقت لجنة الترجمة والتبادل الثقافي على نشر كتاب « جامع التواريخ » بجزئيه وهو الكتاب الذي ترجمه الاستاذ صادق نشأت . كما وافقت « شعبة الفنون » على تكوين لجنة خاصة لترجمة المصطلحات الموسيقية على ان يدعى مندوب المجمع اللغوي للاشتراك مع اللجنة فى اقرار المصطلحات التي ينتهي البحث الى وضعها ، كما يدعى السيد هشام الشمعة من الاقليم السوري الى الوقوف بين الحين والحين على ابحاث اللجنة وابداء الراي .

* درست لجنة الشعر موضوع اصدار رسالة للتعريف بالشاعر شكري وموضوع نشر آثار الشاعر المرحوم عبد القادر المازني .

* تقرر ان تقوم لجنة الشعر باصدار ديوان يضم شعر المرحوم صالح الشرنوبي .

* اصبح رئيس تحرير « المجلة » التي تصدر عن وزارة الارشاد القومي بالقاهرة عبد المنعم الصاوي.

* قرر المجلس للآداب والفنون والعلوم بالقاهرة ترجمة عدة كتب الى اللغتين الانجليزية والفرنسية وفيما يلي اسماء الذين كلفوا بالترجمة مع اسم الكتاب ومؤلفه الى اللغة الانجليزية : مجدي وهبه يترجم « ابراهيم الكاتب » للمازني . ومحمد مصطفى بدوي يترجم « سارة » للعقاد . وقنديل ام هشام ليحيى حقي ومحمد على المتزلاوي يترجم «السندباد القديم» لحسين فوزي ، ونور شريف يترجم « السقامات » للسباعي . والى اللغة الفرنسية يترجم ريمون فرنسيس « احلام شهرزاد » لطه حسين و « سلوى فى مهب الرياح لتيمور ، واسكندر شماتة يترجم « الرباط المقدس » لتوفيق الحكيم ، ورمسيس يونان يترجم « احاديث جدتي » للقلماوي ، ولطفي قام يترجم « زقاق المدن » لنجيب محفوظ ، وجورج زايد يترجم « الضاحك الباكي » لفكري اباظة .

* يجمع مجلس الفنون بالقاهرة الامثال الشعبية المتداولة بين الناس فى البلدان العربية ليصدرها فى كتاب .

* سيصبح اسم المجمع اللغوي بالقاهرة مجمع اللغة فى الجمهورية العربية المتحدة .

* يوشك الشاعر على احمد باكثير ان ينتهي من كتابة مسرحيته الثالثة عن اسرائيل واسمها « الحية » وتجري وقائعها فى العهد الحديث . اما الاولى فقد اسماها « الخروج » وهي تقع فى عهد موسى ، واما الثانية فاسمها « الصليب » وتجري وقائعها فى عهد المسيح .

* اقيم فى الاسكندرية مهرجان كبير لذكرى الشاعر خليل مطران، تناول بعض المتحدثين حتى حياة مطران الاقتصادية .

* « عمان قديما وحديثا » عنوان كتاب صدر حديثا يضم مجموعة سياسية ووثائق تاريخية هامة بقلم محمد على الزرقا .

* صدر فى القاهرة كتاب غريب الفه الدكتور يوسف حسن المدرس بكلية العلوم بعين شمس ، لم يتكلم فيه عن الاقمار الصناعية والصواريخ فقط ، وانما تكلم فيه عن الشعر والموسيقى والخيال فى القمر .

* اصدر الاستاذ محمد عبد الله عنان كتابا فى الايام الاخيرة عن المذاهب الاجتماعية الحديثة . والكتاب يتناول عناصر هذه المذاهب من النواحي السياسية والاقتصادية والدستورية .

* « النبي الانسان » عنوان كتاب جديد صدر للقصاص المصري المعروف الاستاذ محمود تيمور .

* رشح المعهد القومي للبحوث بالقاهرة اربعة من اساتذة كليات العلوم والزراعة للحصول على منح اكاديمية العلوم بواشنطون .

* صدرت عن دار المعارف الاطروحة التي نالت بها درجة الدكتوراه سهير القلماوي . والاطروحة هي عبارة عن دراسة ادبية تحليلية لقصص الف ليلة وليلة مع الاهتمام بالنواحي الدينية والخلقية والحياة الاجتماعية والخوارق والمراة كما تصورها الف ليلة وليلة .

* استقال الكاتب المصري الحر الاستاذ خالد محمد خالد من وظيفته فى ادارة الثقافة ، وتفرغ للتاليف فى حقل الرواية . وهذه هي اول مرة يتجه هذا الكاتب لمعالجة هذا النوع من الادب .

* وافق المجلس الاعلى لرعاية الآداب على ايفاد ثلاث بعثات للفنون الشعبية الى جامعة استكهولم واوسلو وانديانا فى الولايات المتحدة .

* يقوم الدكتور لويس عوض بنشر كتاب بالانجليزية عن اسطورة « الاله بروميثيوس سارق النار » وتطورها فى الآداب الاوربية ، ولا سيما الانجليزية والفرنسية والالمانية .

* اصدر قسم الارشاد بدار الكتب المصرية اخيرا قائمة ببليوغرافية بالكتب والمراجع التي تبحث فى موضوع « كفاح العرب فى سبيل الحرية والوحدة »

* ظهر فى القاهرة مؤخرا كتاب تاريخ الادب الانجليزي من عهد تشوسر الى الآن .

* تكونت فى القاهرة لجنة جديدة بالمجلس الاعلى للآداب والفنون للشؤون الاجتماعية والتاريخية . وقد عينت سيدة اردنية كمقررة للجنة .

❊ تقرر فى القاهرة انشاء ثلاثة متاحف للآثار بالاسكندرية وبور سعيد والسويس ، وسيبدا العمل فيها فى هذه الايام .

❊ سيعاد فى القاهرة طبع « محمد ... الرسالة والرسول » للدكتور نظمي لوقا بعد ما لاقت الطبعة الاولى منه نجاحا كبيرا .

❊ سيصدر للمفكر الجزائري مالك بن النبي عن دار « العروبة » كتاب « مشكلة الثقافة » مترجما الى العربية بقلم عبد الصبور شاهين .

❊ زارت القاهرة مؤخرا بعثة من اساتذة جامعة برلين وطلبتها لتبادل الآراء فى جامعتها .

❊ وصل الى القاهرة الشاعر المهجري الكبير الياس فرحات الذ ياقام فى البرازيل سنين طويلة .

❊ صدرت للاستاذ علي احمد باكثير اخيرا مسرحية « اوزوريس » .

❊ « القادة الرسل » هو اسم لكتاب جديد صدر فى هذه الايام للاستاذ امين الخولي ، وهو عبارة عن مجموعة من احاديثه الاذاعية التي قدمها بعنوان « من هدى القرآن » .

❊ صدرت عن دار الادب الحديث مجموعة قصصية بعنوان « ذكرى عزام » لمحمد المندي .

❊ فاز بجائزة الدولة للجمهورية العربية المتحدة وقيمتها 500 جنيه ثروت اباظة عن قصته الطويلة « هارب من الايام » والمهندس حسن فتحي عن العمارة ومحيى الدين طاهر عن النحت ، والاخوان وانلي عن التصوير وخليل جرجس وصالح جودت ورشدي ماهر . وفى الدراسات الادبية قسمت بين : ابراهيم امين ومحمد صقر خفاجة وجميل صليبا وعبد العزيز الاهواني وسامي الكيالي . وفى التاريخ بين ابو الحجاج حافظ ، ومحمد عبد الغني الجمس ومحمد رفعت حسنين ومحمد سعيد علي والدكتور جمال الدين الوكيلي ومحمد جمال الدين زكي ومنصور مصطفى منصور .

❊ نعت القاهرة الممثل الشهير مختار عثمان .

❊ اقامت اذاعة صوت العرب حفلة كبرى بمسرح قصر النيل بمناسبة اسبوع الجزائر شارك فيها عدد كبير من الفنانين والفنانات .

❊ صدرت فى القاهرة الطبعة الثانية من الكوميديا الانسانية لساروبان وترجمة بدر الديب .

❊ اصدرت مؤسسة « كتابي » الترجمة الكاملة لقصة الدكتور تشيفاكو لباسترناك قام بتقديمها الدكتور طه حسين .

❊ كلف مجلس الاداب والفنون الاستاذ العقاد بكتابة تاليف عن عبد الرحمن الكواكبي يصدر فى ذكراه التي ستقام فى اكتوبر المقبل .

❊ خصص مبلغ 4000 جنيه لبناء مقر للاتحاد العام للجامعات بالقاهرة .

❊ اقامت وزارة الارشاد القومي للاقليم السوري مهرجانا ثقافيا فى جميع المدن السورية استمر شهرا كاملا فى موضوع القومية العربية اشترك فيها مفكرون من الاقليم الشمالي .

❊ اقيم فى منتصف شهر ماي فى سوريا مهرجان كبير للشعر .

❊ بعد الاديب الاستاذ محمد على الطاهر كتابا جديدا عنوانه « مخابرات الامير شكيب ارسلان » وهو يحتوي على الرسائل الكثيرة المتبادلة بينه وبين الامير شكيب والتعليق عليها ونبذة من حياة شقيقه الامير عادل ولمحات عن بعض الشخصيات السياسية الاخرى

❊ سيحتفل فى لبنان بذكرى امير البيان الاستاذ شكيب أرسلان فى مهرجان كبير .

❊ سيعقد فى سوريا من 16 الى 20 يونيه مؤتمر للطب العربي .

❊ صدرت فى دمشق مجموعة شعرية بعنوان « اغان بوهيمية » للشاعر سليمان عواد ، كما صدر فيها ديوان « من اغاني الرحيل » للشاعر سليمان عواد .

※ صدرت فى لبنان مؤخرا الكتب الآتية : « هكذا تشرق الشمس » و « النصر او الموت » وكلاهما من تاليف محفوظ ايوب « مذكرات مونتغومري » « جبل الالهة » لعبد الله حشيمة وتقديم سعيد عقل « الارض اللعينة » للكاتب الاسباني بلاسكو ابانييث وترجمة عبد اللطيف شرارة « مذكرات هتلر السياسية » « تدريس العلوم السياسية فى لبنان » « الوعي العقائدي » للدكتور حسن صعب « اللاستالينية » لاحمد المهدي امام وتقديم محمود جمول « صرخة الروح » لزهدي حسن جار الله « حريق فى المدينة » لذي الفقار قبيسن .

※ رشح نادي الشخروب الاستاذ ميخائيل نعيمة لجائزة نوبل للآداب لهذه السنة .

※ تباشر دار صادر ـ بيروت بطبع واخراج المخطوطة التي اهتدى اليها المستشرق الالماني هـ . ريتر « مشارق انوار القلوب ومفاتيح اسرار الغيوب » لابن الدباغ ويرجع تاريخها الى سبعة قرون .

※ ترجم الاستاذ ثروت عكاشة كتاب « النبي » لجبران خليل جبران . وقد سبق لهذا الكتاب ان ترجمه اولا من الانجليزية انطونيوس بشير ، كما ترجمه اخيرا عن الاصل الانجليزي رفيق المؤلف وصفيه ميخائيل نعيمة .

※ « المراة » اسم مجلة ظهرت حديثا فى بغداد للدفاع عن حقوق المراة .

※ ستصدر فى المملكة السعودية مجلة تبحث فى التربية والتعليم .

※ يقوم اعضاء البعثة الدانمركية للتنقيب عن الآثار بازالة طبقات من التربة عن عدد من الغرف وسلم وجدت جميعا فى حالة جيدة فى اطلال قلعة البحرين القديمة . وقد استقر الراي على تنظيف بعض هذه الغرف والممرات بعد ما وجد ان جزءا من هذا السلم فى حالة جيدة تحت الرمال والحصى ، وقلعة البحرين القديمة ادخل عليها البرتغاليون حينما كانوا فى البلاد ، بعض الاصلاحات ، والتجديد ، مستخدمين احجار الاطلال القديمة الموجودة فى البقعة . والتي يرجع تاريخها الى عصور « ديلون » السحيقة فى القدم والتي ترقى الى 5000 سنة خلت . ويتمركز اهتمام اعضاء البعثة فى التنقيب عن حضارة وثقافة « ديلمون » فيما شاهدوه من هذه الصخور التي يرجع تاريخها الى « ديلمون » والتي رممت بواسطتها القلعة . وفى احدى هذه الغرف التي اكتشفت حديثا بعد ان تم رفع الاتربة عنها ظهر بوضوح آثار بعض النقوش فى احرف كبيرة باللون الاحمر ، بيد ان الرقم او التاريخ ـ 1582 ـ هو الجزء الوحيد الذي ما يزال يقرا بوضوح . وتستمر اعمال البحث والتنقيب فى كل من قلعة البحرين القديمة ومعبد باربار حيث توجد فى الاخيرة مبان قديمة تثير اعجاب من اتيحت لهم مشاهدتها . وفى باربار تم العثور على « كوع » تمثال فى حجم اكبر من الحجم الطبيعي ، وجد عليها رسوم خرز ، وهذه الرسوم ذات اهمية عظمى . ذلك لان هذا الجزء هو بقايا تمثال يعود تاريخه الى اربعة آلاف سنة، كان قد تم العثور على جزء منه فى العام المنصرم . والى جانب هذا يجري التنقيب فى عدد كثير من اطلال مقابر البحرين القديمة . الا انه ـ على الطريق الرئيسي للبديع ـ اكتشفت ثلاثة قبور ، اثنان منها لم تصل اليهما ايدي لصوص المقابر . وقد عثر فيهما على هياكل عظمية واوان فخارية يرجع تاريخها الى العصر الحديدي . وبالقرب من قرية « جد حفص » عثر على قبر احدث من القبرين السالفين ، وجد فيه ورق ذهبي وجرة صغيرة ذات غطاء محدودب مصنوعة من المرمر فى حالة جيدة . واهم ما يهدف اليه اعضاء البعثة فى اعمال الكشف والتنقيب هو العثور على رموز او كتابة تلقى ضوءا على اللغة التي كان يتكلمها والعادات التي يعرفها سكان « ديلمون » القدماء ـ اولئك القوم الذين دلت مخلفاتهم من المباني ، على انهم كانوا على درجة متقدمة من الحضارة . ولكن هل من اثر كتابي يمكن ان يظل خمسين قرنا تحت الركام مع مواجهة اعمال السلب ؟ واجابة على هذا السؤال ، يظن البروفسور جلوب رئيس البعثة الدانمركية ، ان هذا يستلزم كثيرا وكثيرا من التنقيب . عن مجلة « العلوم » البيروتية عدد ماي 1959 ص 74 .

※ نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي دراسة باللغة الانجليزية فى دائرة المعارف الاسلامية التي ستصدر قريبا عن الباكستان .

※ من نشاط « مجلس الهند » فى خلال العام المدرسي الماضي للنهوض بالتعليم الثانوي ، انشاء اكثر من ثلاثمائة ناد علمي فى المدارس الثانوية والفصول التكميلية الزراعية فى الهند . وتقوم هذه الاندية

بنشاط واسع فى تنظيم محاضرات ومناقشات علمية واجراء تجارب عملية واقامة معارض وانشاء مكتبات وقاعات للقراءة فى العلوم وتطورها وتطبيقاتها الحديثة.

* استدعت جامعة نيودلهي بالهند الدكتور طه حسين ليقوم بتدريس الادب فيه لمدة عامين .

* فاز المهندس المعماري الياباني كنزوتانج بجائزة العمارة الدولية تقديرا لاعماله الفنية ، وخاصة بناء دار البلدية فى طوكيو وبناء مركز الفنون فى سوجنسون ، وهما مشروعان نفذهما هذا الفنان الياباني فى عام 1958 . وتخصص الجائزة فى كل عام لتقدير عمل فني كبير ، يتميز بجدة فى التشكيل المعماري ، او بتناسق الفنون وتكاملها فى الشكل المعماري العام . وقد دعي المهندس الياباني الفائز بالجائزة لقضاء اسبوع فى باريس .

* اكتشف مسرح تاريخي فى اسبانيا بالمقاطعة الشمالية الغربية لمدينة لهيونثيون باليونان ويرتفع تقريبا على علو الف متر عن سطح البحر ، وقد استطاع القائمون باعمال التنقيب من رجال الآثار ان يجددوا بعض الاماكن الهامة فى هذا المسرح . وجدير بالذكر انه قد تم اكتشاف آثار قديمة جدا بالقرب من المدينة التي اكتشف فيها المسرح . ويؤمل ان يتم اكتشاف آثار اخرى خصوصا آثار اكروبول مدينة لهيونثيون .

* اشترت السيدة مابل بروكس من استراليا ، البيت الريفي الذي اقام فيه نابليون الاول بعد نفيه الى جزيرة القديسة هيلانة فى انتظار اتمام الاصلاحات التي بوشر فيها فى لونغورد ، وقدمته الى الحكومة الفرنسية ؛ والبيت المذكور هو المعروف باسم « لوبريار » .

* ظهر فى الاتحاد السوفياتي «تاريخ المنصوري» للمؤرخ العربي محمد بن علي الهماوي . ويشمل هذا الكتاب تاريخ الشعوب والبلاد الاسلامية منذ اقدم العصور حتى العام الثلاثين من القرن الثالث عشر . وكان مؤلف هذا الكتاب سكرتيرا لامراء سوريين اقتبس من محفوظاتهم معلومات قيمة عن الحروب الصليبية .

* يتوفر الاتحاد السوفياتي على 400 مكتبة تحتوي على مليار مجموعة من الكتب . ويوجد فى موسكو الف مكتبة جامعية كما يوجد فى مكتبة لينين وهي اكبر مكتبات موسكو كتب ومجلات مطبوعة فى 160 لغة .

* « ضوء جديد على مایاكوفسكي » هو عنوان لكتاب جديد ظهر حديثا فى موسكو . وذكر البروفسور إتيامبل استاذ الادب بجامعة السربون ان هذا الكتاب هو الآن موضع نقاش بين طلبة جامعة موسكو وهو يحتوي على وثائق لم تنشر حتى الآن تتصل بحياة مایاكوفسكي .

* يبلغ عدد النسخ التي طبعت لحد الآن من ترجمة قصة « الدكتور تشيفاكو » فى العالم كله 15 مليون نسخة .

* صدر لنابوكوف مؤلف « لوليتا » التي احدثت ضجة فى الادب ، قصة جديدة بعنوان « الحجرة المظلمة » .

* افتتحت المكتبة الشعبية فى مدينة براغ سلسلة من برامج ادبية تتناول فنون الشرق وآدابه وتنظم هذه البرامج فى ايام الثلاثاء حيث تقدم مؤلفات شعرية ونثرية ، وتنظم حفلات للموسيقى وللرقص التوقيعي يشترك فيها الفنانون المتاوزن . وتدخل هذه المظاهر من النشاط فى اطار برنامج واسع لتبادل ثقافات الشرق والغرب تنظمه تشيكوسلوفاكيا منذ بضعة شهور .

* ترجم الاستاذ انيمار شيمل الاستاذ بجامعة ماربيرغ كتاب « جناح جبرائيل » لمحمد اقبال الى اللغة الالمانية . وقد سبق أن ترجم كتاب « جاويدنامة » لنفس المؤلف الى الالمانية والتركية .

* اجتمعت فى دار اليونسكو فى باريس من 20 الى 23 ابريل الماضي لجنة خاصة لدراسة الوسائل التي تكفل الحماية الدولية لاعمال الفن التطبيقي . وينتظم هذا الاجتماع برعاية اللجنة الحكومية المشتركة لحقوق المؤلف ولجنة اتحاد برن الدائمة للملكية الصناعية الادبية والفنية . والقصد من هذا الاجتماع حل يوفق بين حق المؤلف من ناحية والملكية الصناعية من ناحية اخرى ، ذلك ان انتاج الفنون التطبيقية يرتبط بالناحيتين معا ، بحيث يصبح من اللازم وضع تشريع دولي يحمي الملكية العقلية فى الانتاج التطبيقي

الذي يتميز بطابع فني ، كالخزف والاقمشة المزينة برسوم زخرفية ، وتصميمات الازياء . وتتألف هذه اللجنة الخاصة من ممثلي دول المانيا الاتحادية والارجنتين وبلجيكا وبلغاريا وشيلي والدانمارك واسبانيا والولايات المتحدة وفنلندة وفرنسا واليابان وايطاليا وهولندا وجمهورية الدومينيكان والمملكة المتحدة والكرسي البابوي والسويد وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا .

※ نظمت اليونسكو اخيرا محاضرة عن « المدارس ذات الطابع الدولي » تحدث فيها الاستاذ ايفورد افيز مدرس التاريخ في مدرسة جون برايت في سكتلندة ومدير « المدارس المرتبطة باليونسكو » في بريطانيا وقد استعرض في المحاضرة الاغراض التي تهدف اليها هذه « المدارس المرتبطة » مما تدعو اليه من انماء للتفاهم الدولي عن طريق تعليم منهجي خاص يقرب الى طلبة المدارس حياة الشعوب الاجنبية وثقافتهم وعاداتهم . ويطبق هذا النظام في حوالي اربعين دولة دولة ويشترك فيه اكثر من 400 مدرس . وقال الاستاذ دافيز في محاضرته « لو استطاع المدرس ان يكرس عشرة دروس في السنة لهذا النوع من التعليم ، لادركنا اطيب النتائج البنائية في سبيل دعم التفاهم الدولي بين الناشئة . فالتعليم الخاص بالشعوب الاجنبية والقدر الذي يساهم به كل شعب في تقدم الانسانية ، نستطيع ان نجد مصادره في العلوم المختلفة من جغرافية وتاريخ وعلوم رياضية وطبيعية ... ولن يكلفنا كبير جهد ان نحرر تدريسنا من التعصب والفكر العقيم ، ففي هذا التحرر محبة للبشر جميعا نبثها في روح الجيل الجديد .

※ صدر حديثا في باريس كتاب باسم « كنز الشعر العالمي » يجمع ترجمة مختارة من شعر مختلف اللغات ، ويوجد فيه اشعار لامرىء القيس ، وطرفة ، ولبيد ، والخنساء وسواهم .

※ احرز الشاعر الفرنسي باسكال بونيتي على الجائزة الكبرى للشعر الفرنسي .

※ اندريه مالرو الكاتب والقصاص الفرنسي المعروف ، ووزير الدولة ، اعاد تنظيم المسارح الفرنسية فقرر فصل قاعتي الكوميدي فرانسيز وقاعة ريشيليو وقاعة لكسمبورغ . كما قرر ضم مسرحي الاوبرا الى الاوبرا كوميك .

※ نشرت دار النشر « فليمار » بباريس الطبعة الاولى الكاملة لمذكرات « ميشلي » وتعد هذه النشرة حادثا ادبيا كبيرا .

※ صدر مؤخرا بباريس كتاب من تاليف الفيلسوف مرلوبنتي بعنوان « مشاهير الفلاسفة » ، يتضمن جملة بحوث قيمة عن اعظم ممثلي الفكر الانساني على انه يؤسف لعدم توفر حظ الفلسفة الشرقية واعطائها ما ينبغي لها من حق .

※ صدر كتاب جديد في ثلاثة اجزاء للكاتب الاقتصادي الشهير فرانسوا بر حول « التعايش السلمي » .

※ فاز الزعيم الزنجي الكاهن مارتن لوثر كنغ بجائزة ايمن فيلووون لاحسن كتاب الف خلال هذا العام عن العلاقات بين الاجناس البشرية . وكان كنغ زعيم حركة مقاطعة وسائل النقل التي تفرق بين الاجناس في مدينة مونتيغومري في ولاية الباما . وقد نشر كتابه تحت عنوان « خطوة نحو الحرية » وتتالف الجائزة من وسام و1000 دوار . وكان الدكتور كنغ قد عاد مؤخرا من الهند حيث درس حركة العصيان .

※ احتفلت الاوساط الادبية الفرنسية بالذكرى العاشرة الثانية لوفاة الشاعر والاديب المفكر ميلوز الذي توفي فجاة عام 1939 .

※ ظهر اخيرا المجلد الثالث من « تاريخ الآداب » في باريس مشتملا على العلوم كلها منذ فجر التاريخ حتى ايامنا هذه .

※ كان الموسيقي الفرنسي لويس اوبر قد كتب بين عام 1911 وعام 1924 اوبرا بعنوان « الغاب الازرق » وضع حوارها الاديب شينيبير واستمد موضوعها من كتاب حكايات « امي البطة » وبقيت هذه التحفة الفنية الغنائية مجهولة حتى الاشهر الاخيرة ، اذ اخرجتها اوبرا مدينة «ليل» على مسرحها . فاذا بها من عيون الموسيقى العالمية . وتمتاز القطعة بقدرتها على بعث الاسطورة في جو ساحر لا يقل نضارة وعمقا عما كتبه في هذا الباب امثال « رافيل » و « دوسيبي » .

❊ دخل فرنسا من الكتب اكثر من دخلها من الافلام . ففي العام الماضي باعت فرنسا كتبا في الخارج بمبلغ 8450 مليون فرنك .

❊ من 29 مايو الى اول يونيو اجتمع الادباء في قرية رويامون قرب باريس لدراسة « المسرح الآسيوي الافريقي » .

❊ اذيع في باريس مؤخرا ان الكاتب الفرنسي الوجودي بول سارتر يكتب مسرحية جديدة اختار لها اسم « حول الحب » وستمثل في شهر شتمبر القادم .

❊ تسلم الرسام الاسباني المعروف خوان ميرو جائزة من يد الرئيس ايزنهاور في البيت الابيض قدرها 10 000 دولار تقديرا للوحته المسماة « الليل والنهار » التي رسمها لقصر اليونيسكو بباريس .

❊ في خميلة الورود الواقعة بحديقة « ريتيرو » بمدريد جرت مسابقة دولية لاحسن الورود . وقد فازت وردة انجليزية بالجائزة .

❊ افتتح بقصر كورسيني بايطاليا المؤتمر الدولي للدراسات الاستشراقية الاثيوبية الذي يشترك فيه اعلام الاساتذة المستشرقين بامهات الجامعات والمعاهد والمنشآت الثقافية الاوربية والاميركية . ويرمي هذا المؤتمر الى تنمية الدراسات عن الحبشة وتوسيع نطاق البحث العلمي في مختلف الروابط الاجتماعية والتاريخية والثقافية بين اثيوبيا وسائر البلدان الشرقية . وتولت شعبة العلوم الاخلاقية والتاريخية واللغوية بالمجمع الايطالي تنظيم هذا المؤتمر الذي افتتح بحضور سفير اثيوبيا لدى الجمهورية الايطالية ، واعضاء المجمع المستشرقين وشخصيات ثقافية ايطالية واجنبية .

❊ اقامت جامعة كمبردج معرضا في لندن لكنوزها الاثرية ، وتقدر قيمة هذه المعروضات بحوالي مليوني جنيه استرلينية .

❊ صدر في انجلترا كتاب جديد لجون كلون بعنوان « بريطانيا والعرب » .

❊ صدر في لندن كتاب « رسائل الشعر » محتويا على جوانب عديدة من حياة ثمانية شعراء كبار عرفتهم اللغة الانجليزية وهم : بوب ، جراي ، كيتس ، ورد زورث ، كولريدج ، شيلي ، بيرون ، فيتز جيرالد .

❊ تعرض الآن على مسرح « امباسدور » بلندن مسرحية « المصيدة » للكاتبة المعروفة اجاثا كريستي . وقد ظلت هذه المسرحية تعرض سبع سنوات متصلة على هذا المسرح .

❊ يقوم المستشرق الانجليزي الاستاذ بجامعة هارفر الاميركية بترجمة « رحلة بن بطوطة » هذا الرحالة المغربي الذي قام برحلات عديدة في القرن الرابع عشر الميلادي .

❊ قررت بريطانيا بناء تليسكوب للارصاد الجوية والدراسات الفلكية . وسيستفيد منه علماء الفلك الاجانب الذين يؤمون بريطانيا لمثل هذه الاغراض الدراسية .

❊ عقدت اليونسكو مؤتمرا في نويكنهام بلندن

❊ نشر المفكر الانجليزي الدوس هوكسلي المعروف بدفاعه عن الانسانية كتابا بعنوان « الى افضل العوالم » وفيه درس وضع الانسان المعاصر على ضوء الحوادث التي تعاقبت على العالم في السنوات الاخيرة . ومن النتائج التي يصل اليها قوله ان الانسان المعاصر صار يفضل الرفاه على الحرية .

❊ بيعت في الايا مالاخيرة لوحة بيكاسو المعروفة باسم « الهولاندية الحسناء » اثناء بيع عمومي بالمزاد العلني في قاعة سوث باي بلندن بخمسة وخمسين الف جنيه استرليني . فضربت بذلك جميع الارقام المعروفة لحد الآن في بيع اللوحات الزيتية . وقد اشترى هذه اللوحة متحف كوينس لاند باستراليا .

❊ صدر في انجلترا لجون اوسبورون من جمعية « الشبان المحافظين » في انجلترا مسرحية تحدث فيها عن دور الصحافة في العصر الحديث بعنوان « دنيا بول سيلكي » .

❊ انتهى ايدن من كتابة مذكراته السياسية وسينشرها قريبا .

※ عين الروائي الاميركي فولكنر في وظيفة مستشار فني في الادب الحديث بمكتبة والرومان بجامعة فرجينيا .

※ اصدر الكاتب الاميركي ويلتون وين كتابا بعنوان « ناصر مصر – او البحث عن الكرامة » ناقش فيه القومية العربية والدور الذي يلعبه الرئيس عبد الناصر في حياة العرب .

※ بعث الرئيس ايزنهاور رسالة الى لجنة الاحتفال بذكرى وفاة شاعر الباكستان محمد اقبال اثنى عليه فيها لما تضمنت اشعاره من تاكيد لمساعي الانسان في سبيل الحرية ، ولاعتقاده بان التفاهم الحق يجب ان ياتي من القلب ومن العقل ايضا . وقد قرئت رسالة ايزنهاور هذه خلال الاحتفال بذكرى اقبال في المركز الاسلامي في واشنطون .

※ اعلنت اخيرا دار الطباعة الاميركية للمكفوفين انها تعتزم نشر دائرة معارف خاصة بالمكفوفين ، وستكون اول دائرة من نوعها وسيطبع منها مائتان وخمسون مجموعة تشتمل كل واحدة منها على مائة وستة وخمسين مجلدا ، وقد ساهمت لتحقيق هذا المشروع مدينتا نيويورك وشيكاغو .

※ باللغة البرتغالية صدرت بالبرازيل « مقدمة ابن خلدون » قام بترجمتها الى هذه اللغة يوسف الخوري .

※ ان آخر تقديرات العلماء لعمر الكون هو 137.000 الف مليون عام ، وقد استعان العلماء في هذا التقدير بالتلسكوب الجبار الذي يبلغ قطر عدسته 200 بوصة في مرصد جبل بالومار .

※ « خمسة آلاف سنة من الثقافة الهندية » عنوان لمعرض فني في مدينة « اسن » في المانيا يضم تسعمائة من آيات الفن في متاحف الهند . وقد نظم هذا المعرض برعاية رئيس جمهورية المانيا الاتحادية ورئيس جمهورية الهند . كما نظمت مدينة « اسن » معرضا آخر لفناني الهند المعاصرة .

※ في مهرجان الربيع لهذا العام في شارلوا ببلجيكا اقيم معرض جذاب للدمى اليابانية بازيائها التقليدية الى جانب صور فوتوغرافية بالالوان ، وبعض اعمال فن الحفر . وشاهد الزائرون ايضا فيلمين عن الحياة الدينية والشعبية في اليابان .

※ عقد مجلس اليونسكو التنفيذي دورته الرابعة والخمسين في باريس من 1 الى 13 يونيو برئاسة السير ابن باون توماس . وهذا المجلس هو الهيئة المسؤولة عن سياسة برنامج منظمة اليونسكو وتنفيذه بين دورات المؤتمر العام ، ويتالف المجلس من 34 عضوا يمثلون حكوماتهم . وللعالم العربي فيه عضوان هما نائب رئيس المجلس الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد من الجمهورية العربية المتحدة ، ومدير الجامعة المغربية الاستاذ محمد الفاسي . وكان جدول اعمال هذه الدورة عدة مسائل هامة منها وثيقة من مدير اليونسكو العام تتعلق بمشروع برنامج اليونسكو وميزانيتها لعامي 61 – 1962 . ولهذه الوثيقة اهميتها الخاصة فهي تتناول اسس اول برنامج سيقدمه المدير الجديد فيتوريتو فيرونيز الى مؤتمر اليونسكو العام المقبل . وتستعرض هذه الوثيقة مختلف مظاهر نشاط هذه المنظمة الدولية ، ونواحي التنسيق بين برامجها وبرامج هيئة الامم المتحدة ، والمنظمات المتخصصة المتفرعة عنها ، واتجاهات جديدة مقبلة في التعاون بين اليونسكو وحكومات الدول الاعضاء . وهناك تعديلات اساسية محتملة تتطلب بعض زيادات في الميزانية ، وخاصة فيما يتعلق بمشروع اليونسكو لتشجيع تبادل القيم الثقافية في الشرق والغرب ، والمشروعات الخاصة بالتوسع في التعليم في آسيا وافريقيا والدول العربية . ودرس المجلس ايضا مسائل اخرى اهمها اشتراك المنظمة في برنامج الامم المتحدة للمساعدة الفنية خلال 1959 والاستعداد لعقد مؤتمر من ممثلي الحكومات يتولى دراسة الاجراءات اللازمة التي تكفل استخدام الدول الاعضاء جميعا للبواخر الدولية الخاصة ببحوث المحيطات ، ووضع برنامج دولي لبحوث العلوم البحرية وتدريب الاخصائيين في هذا الشان ، واخيرا درس المؤتمر تقريرا من المدير العام يتناول : (1) اقتراحات خاصة باشتراك اليونسكو في وضع قرارات اللجنة الاقتصادية لشؤون افريقيا . (2) اقتراحات خاصة بتعاون اليونسكو ومنظمة الطاقة الذرية في وضع مشروعات تهم الطرفين معا . (3) تقرير عن اشتراك اليونسكو في نشاط الصندوق الخاص للامم المتحدة .

※ اقام الاتحاد السوفياتي مهرجانا كبيرا احتفالا بذكرى ثلاثة من اعلام الادب العالمي جاوز اسمهم حدود الشرق والغرب وهم الرودكي شاعر الباكستان ، وسعدي الشيرازي شاعر ايران ، وفضولي البغدادي شاعر العراق .

※ احتفلت سان فرانسيسكو بمرور مائة عام على ميلاد الكاتب البريطاني فتزجارد الذي ترجم رباعيات الخيام .

※ توفي اخيرا الكاتب الاميركي جيمس اغي بنوبة قلبية عن 45 سنة .

※ بمناسبة المعرض السنوي للشعر الذي اقيم اخيرا في باريس ، فقد اختيرت ليبدي بالمير التي تبلغ 20 سنة كملهمة للشعراء .

※ فاز الموسيقار المصري حليم الضبع باكبر جائزة للتاليف الموسيقي في اميركا وهي جائزة جوجنهايم .

※ نعت الاوساط الفنية بالقاهرة زعيم المسرح العربي جورج ابيض وهو اول عربي تلقى الفنون المسرحية في معاهدها باوربا ، واول من اخرج على المسرح العربي روائع المسرحيات العالمية ، ولقن جيلا من الشباب العرب فنون المسرح فاصبحوا نجوما في اوطانهم . وقد توفي عن 75 سنة قضى منها 40 في خدمة المسرح العربي وتركيزه .

※ استانفت مجلة « اللواء » الخطية بمكناس صدورها . فقد صدر العدد الثالث منها حافلا بالمقالات والدراسات الادبية والتاريخية بالاضافة الى اشتات ادبية ، فنرجو لها حياة طويلة . ولرئيس تحريرها السيد عبد الرحمن الزياني مزيدا من النشاط .

※ حل ضيفا مكرما بالمغرب وفد عراقي من جملة اعضائه الاستاذ عزيز شريف ، رئيس حزب الشعب ، والدكتور عبد الله البستاني ، والسيدة زكية شاكر والآنسة سافرة جميل من الحركة النسوية والاستاذة كاظم الدجيلي ، وابراهيم احمد ، وحميد رشدي ، وعبد الحليم الغطاء ، وابراهيم الايوبي ، وعبو الواحد الانصاري قاضي مدينة بغداد .

※ في صبيحة يوم الجمعة 12 يونيو الماضي وقع تدشين القاعات الجديدة للآثار القديمة في مدينة طنجة تحت اشراف وزير التهذيب الوطني ، وشخصيات رسمية ، والسلك القنصلي بهذه المدينة .

※ صدر قرار من بلدية الدار البيضاء يقضي بتبديل الاسماء الاجنبية في شوارع الدار البيضاء باسماء عربية .

※ بدعوة من الاميرة للا عائشة زارت المغرب اخيرا بعثة غنائية من الاقليم السوري واحيت عدة حفلات راقصة وغنائية في اهم المدن المغربية نجحت فيها نجاحا باهرا ، وكانت محل حفاوة وتقدير واعجاب من رجال الحكومة والشعب المغربي .

معذرة ...

وصلتنا بعض البحوث والمقالات والقصائد متاخرة ، فلم نتمكن من ادراجها في هذا العدد .

ونحن اذ نعتذر للسادة اصحابها عن ذلك ، نؤكد لهم انها محل عناية ، واننا سنعمل على نشرها في الاعداد المقبلة ، مقدرين مجهوداتهم ، وشاكرين لهم ثقتهم بهذه المجلة ، ومساهمتهم في رفع مستواها .

دعوة الحق

فهرس العدد العاشر ـ السنة الثانية

ديوان دعوة الحق :

دعوة الحق

في سنتها الثالثة

بهذا العدد تنهي مجلة « دعوة الحق » سنتها الثانية ، وستحتجب عن الصدور مدة شهرين ، قبل ان تبدا سنتها الثالثة بصدور العدد الاول منها فى فاتح شهر اكتوبر المقبل .

والمجلة بهذه المناسبة ترجو من السادة المشتركين ان يبادروا بتسديد واجبات اشتراكاتهم عن السنة الثالثة التى تبدا فى فاتح اكتوبر 1959 وتنتهي فى فاتح يوليوز 1960 ، وتعيد الى الذاكرة ان الاشتراك فى المجلة لا يقبل الا عن سنة كاملة ، وان السنة عشرة اعداد .

قيمة الاشتراك العادي : 1000 فرنك .

وستفتح المجلة فى سنتها الثالثة سجلا خاصا للمشتركين الشرفيين الذين يهمهم الى جانب الاشتراك فى المجلة ان يشجعوها ويساعدوها على تادية مهمتها الروحية والفكرية . والحد الاعلى لقيمة الاشتراك الشرفي غير محدد ، اما الحد الادنى فلا يقل عن : 2.000 فرنك .

وتسهيلا على حضرات السادة الذين يرغبون فى الاشتراك العادي او الشرفي ، فانهم سيجدون بداخل هذا العدد قسيمة مطبوعة ومستقلة ، ليس عليهم الا ان يملأوها ويبعثوا بها – مشكورين – لادارة المجلة صحبة حوالة بواجب الاشتراك . وذلك بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » قسم التوزيع – وزارة عموم الاوقاف – الرباط .

كما ان فى استطاعة من يرغب فى الاشتراك العادي او الشرفي ان يدفع واجب اشتراكه فى حساب :

«دعوة الحق» الحوالة البريدية رقم : 55 – 485 . الرباط.

DAOUAT AL HAK Compte Chèque postal 485.55 à Rabat.

صناعة الخزف من الصناعات التقليدية المنتشرة فى المغرب .
تمثل الصورة عاملا مغربيا فى صناعة الخزف اثناء العمل ، يبدو فى هيئته الاستغراق ، وفى عينيه التذوق ، وفي اصابعه المهارة والحساسية والمقدرة الفنية .
تصوير : **عمر غنام**